ما تيسر وتحصل
من دروس القرآن
في حزب المفصل

ألقاها

معالي الشيخ الدكتور
صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود
في الرياض

اعتنى به وأشرف على طبعه
د/ سلمان بن جابر عثمان الجليلم السويلم
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزء الثاني

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

ما تيسر وتحصل من دروس القرآن

في حزب المفصل

(٢)

دار الكتب والوثائق القومية
الشئون الفنية
إدارة الإيداع القانوني

عنوان المصنف: ما تيسر وتحصل من دروس القرآن في حزب المفصل
تحقيق: د. سلمان بن جابر عثمان المجلهم السويلم
رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢٣١١٠
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٥٢٣٢-٥٠-٢

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ

مكتبة دار الحجاز
للنشر والتوزيع

الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣
الإسكندرية - ١٧٥ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة - ٦ش المدرسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢
جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - فاكس: ٠٠٢/٠٢٢٦٦٣٣٦٧٨
البريد الإلكتروني: dar_alhijaz@hotmail.com

ما تيسر وتحصل من دروس القرآن

في حزب المفصل

ألقاها

معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

في جامع الأمير متعب بن عبد العزيز آل سعود

في الرياض

اعتنى به وأشرف على طبعه

د/ سلمان بن جابر عثمان المجلهم السويلم

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الجزء الثاني

مكتبة دار الحجاز

للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الستون

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ
أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ
ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ
ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ
وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ
أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ
خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا
فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟
بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١- ١١].

افتتح الله ﷻ هذه السورة العظيمة بالثناء عليه وتمجيده، وهو أحق بذلك، فقال ﷻ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، معنى ﴿تَبَارَكَ﴾: تعاظم ﷻ، وهو الذي تنال البركة بذكره، وهو الذي ينزل البركة، ويمنحها لمن يشاء.

وهذه الكلمة ﴿تَبَارَكَ﴾ لا تطلق إلا على الله ﷻ، فلا يجوز أن يقال: يا فلان تبارك علينا؛ كما يقول الجهلة.

أما أن تقول: أنت «مبارك»، فهذا لا بأس به، فمعنى «مبارك»: أن الله ﷻ جعل فيك بركة، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، قال ﷻ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، فهو الذي يمنح البركة ﷻ، ويجعلها فيما يشاء، أما الإنسان، فإنه لا يتبارك بنفسه، وإنما الله ﷻ هو الذي يعطيه البركة، ويجعله مباركًا.

ولفظة ﴿تَبَارَكَ﴾ تكررت في القرآن مثل: قوله ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾ [الفرقان: ١٠]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان: ٦١]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

وهنا قال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ في هذه الآية الكريمة أثنى الله ﷻ على نفسه بصفتين عظميتين:

الصفة الأولى: أنه ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: في تدبيره وقبضته وتصريفه فهو مالك الملك كله، ولا أحد يشاركه في ذلك، ولكن الله ﷻ يُمَلِّكُ من شاء من عباده تمليكًا مؤقتًا، وأما الملك المطلق والملك الباقي، فهو لله ﷻ، فهو مالك الملك.

الصفة الثانية: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء إذا أراده الله ﷻ، فهو قدير عليه، لا يستعصي عليه، فهذا وصفٌ له بعظمة القدرة وشمولها، وأنه لا يعجزه شيء ﷻ.

وهذه متكررة في القرآن: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قال ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

وأما قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] قيد الله ﷻ القدرة بالمشيئة، فهذا في جمع الناس يوم القيامة، جمع أهل السموات والأرض، فهو قادر على ذلك إذا شاءه ﷻ.

الصفة الثالثة: أنه وصف نفسه، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قدم الموت على الحياة، وهو العدم؛ لأن الإنسان معدوم، ثم أوجده الله ﷻ، وكل الأشياء ميتة، ثم يحييها الله ﷻ بعد موتها.

وهذا فيه دليل على أن الموت مخلوق خلقه الله ﷻ من جملة مخلوقاته، ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، التي هي الوجود، والحركة، والنمو بعد العدم، والله ﷻ يحي الأرض بعد موتها، ويحي النطف في الأرحام، ويخلق منها الأجنة، ثم يوجد فيها الحياة والحركة.

فالحياة عمومًا على قسمين:

القسم الأول: حياة نمو؛ كما يكون في النبات، وكما يكون في الجنين قبل نفخ الروح فيه، فإن حياته حياة نمو، وليست حياة حركة.

القسم الثاني: حياة الحركة، وهي ما إذا نفخ الروح فيه، ومنحه الحركة.

فالله ﷻ هو الذي خلق الموت، وهو الذي خلق الحياة، فهذا يدل على قدرته ﷻ، وقد ذكر ذلك بعد قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ومن قدرته ﷻ أنه قدر على خلق الموت والحياة.

والموت والحياة ليستا عبثًا، فالله لم يخلق الخلق سدى ولا عبثًا، وإنما خلقهم لحكمة عظيمة، ولهذا قال ﷻ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: ليختبركم، ويمتحنكم، فالمطلوب من الإنسان أن يعمل في طاعة الله وعبادة الله ﷻ، ما خلقه عبثًا ليأكل ويشرب، ويسرح ويمرح في هذه الدنيا، وإنما خلقه ليعمل، ويعبد ربه، وهذا لمصلحته هو ليقدم لآخرته عملًا صالحًا؛ ليحيا به الحياة الدائمة بعد الموت.

وقال: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل ﷻ: (أيكم أكثر عملًا)؛ لأن العبرة ليست بكثرة العمل، وإنما العبرة بحسن العمل.

ومتى يكون العمل حسنًا؟ يكون العمل حسنًا إذا توافر فيه شرطان:

الشرط الأول: الإخلاص لله ﷻ؛ فلا يكون فيه شرك، ولا رياء، ولا سمعة.

الشرط الثاني: المتابعة لرسول الله ﷺ؛ فلا يكون فيه بدعة، ولامحدثات، ولهذا لما سئل الفضيل بن عياض رحمه الله: ما معنى قوله ﷻ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ قال: **«أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؛ فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ خَالِصًا ولَمْ يَكُنْ صَوَابًا، لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا، لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ»**[(١)].

فإن العمل إذا كان خالصًا، ولم يكون صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا، ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، قال ﷻ في سورة

(١) انظر: حلية الأولياء (٨/ ٩٥)، وجامع العلوم والحكم (١/ ٧٢)، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام (١١/ ٦٠٠)، ومدارج السالكين (٢/ ٨٩).

الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

ثم قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: القوي الغالب، الذي لا يغلبه شيء، فهو العزيز بمعنى: القوي الغالب الذي لا يعجزه شيء ﷻ.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾، فهو مع كونه عزيزًا، فهو ﷻ غفور لمن تاب، فهو عزيز على من عصاه وتكبر وأُعِجب بقوته، فالله أقوى منه، وأعز منه، لكن مع عزته وقوته، فإنه ﷻ غفور لمن تاب إليه، وأناب إليه، فإن الله يغفر له، ويتوب عليه.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ أي: أوجدها من العدم.

﴿طِبَاقًا﴾، بعضها فوق بعض، وبينها مسافات عظيمة؛ كما جاء في الحديث عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قَالَ: **«كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْبَطْحَاءِ فَمَرَّتْ سَحَابَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَتَدْرُونَ مَا هَذَا؟ قَالَ: قُلْنَا السَّحَابُ، قَالَ: وَالْمُزْنُ قُلْنَا، وَالْمُزْنُ قَالَ: وَالْعَنَانُ، قَالَ: فَسَكَتْنَا فَقَالَ ﷺ: هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قَالَ: قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ ﷺ: بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ»**(١).

أعلاها السماء السابعة، وفوق السماء السابعة بحر، وفوق البحر الكرسي، وسع السموات والأرض، وفوق الكرسي عرش الرحمن، فهو

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣).

أعلى المخلوقات وأعظمها، والله مستوٍ على عرشه فوق مخلوقاته ﷻ.

﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾: ما يكون في هذه السموات خلل ولا نقص، بل هي متكاملة قوية.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾: انظر إليها، تأمل فيها، ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ من تصدع؟ هل ترى فيها من خلل؟.

وهذا يدل على عظمة الله ﷻ الذي أحسن كل شيء خلقه، قال ﷻ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: كرر البصر مرة ثانية؛ لأنه من الممكن أنك في المرة الأولى ما أجهدت نفسك، ولا استكملت النظر، كرر، وكرر عدد مرات، وتأكد، فهي معروضة أمامك.

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: يرجع إليك البصر، ﴿خَاسِئًا﴾ أي: عاجزًا عن إدراك أي خلل فيها، مهما كان معك من المكبرات البصرية، فلو أنك أتيت بكل ما في الدنيا من المراصد والمكبرات للنظر، ومن مجاهر، لن تدرك في السماء خللًا أو تصدعًا؟! وهذا تحد مستمر لجميع الخلق لم يستدرك عليه أحد.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: وهو ضعيف كليل، لم يقدر على إدراك خلل في هذه السموات، فإذا كان كذلك، وجب عليك أن تعظم الله ﷻ حق تعظيمه، وأن تعبده حق عبادته ﷻ.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾، السماء الدنيا هي الطبقة الدنيا الموالية للأرض، والتي هي سقف الأرض، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا

مَّحۡفُوظٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [البقرة: ٢٢] من عادة الناس أنهم يزينون السقوف بالمصابيح والنقوش، الله ﷻ زين السماء الدنيا بمصابيح، أي: بنجوم مضيئة.

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾، كثيرة لا تحصى.

﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾، هذا من فوائدها كونها ترجم بها الشياطين التي تحاول استراق السمع، فذكر ﷻ في هذه النجوم ثلاث منافع:

الأولى: أنها زينة للسماء.

الثانية: أنها رجوم للشياطين؛ وذلك أن الشياطين تحاول استراق السمع من الملائكة، فيركب بعضهم بعضًا حتى يصلوا إلى عنان السماء؛ ليسمعوا كلام الملائكة، ويخبروا به الكهان من الإنس بما يسمعون من الملائكة، فتضربهم الشهب، وتحرقهم، فلا يتمكنون من استراق السمع.

الثالثة: أنها علامات للمسافرين يسيرون عليها، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وأما من يعتقد في النجوم أنها تدبر الكون، وأنها تحدث الأشياء في الأرض، فهذا اعتقاد المنجمين الكفرة الكذبة، فالنجوم ليس لها تدبير، وإنما هي مُدَّبرة، والتدبير بيد الله ﷻ وحده لا شريك له.

ثم قال ﷻ متوعدًا من لم يستفد من هذه الآيات الكونية العظيمة، ولم يعتبر بها، ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾، الذين لم يستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله، واستحقاقه للعبادة، لهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَۖ﴾؛ لأنهم كفروا

بربهم ﷻ بعدما عاينوا آياته ومخلوقاته، ولم ينتفعوا بها، وأشركوا معه غيره في العبادة.

ثم بين حالهم في النار فقال: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ إذا أُلقي الكفار الذين كفروا بربهم، وطُرِحوا في جهنم ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾ أي: صوتًا مريعًا مفزعًا من الغضب عليهم، ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: تغلي بهم، وتقلبهم مثلما يغلي القدر بما وضع فيه؛ تعذيبًا لهم.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾، تكاد النار إذا أُلقِي فيها الكفار ﴿تَمَيَّزُ﴾ تتقطع من الغيظ عليهم؛ غضبًا عليهم؛ لأنها تغضب لغضب الله ﷻ.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ أي: خزنة جهنم، يوبخونهم، ويقولون لهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ ينذركم من هذه النار؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾، وهم الرسل، ﴿فَكَذَّبۡنَا﴾ الرسل، ﴿وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾: أنتم تدعون أن معكم كتبًا منزلة من الله، وهذا ليس صحيحًا، بل هو أساطير الأولين.

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ يقولون للرسل: أنتم ضالون، هذا ما قابلوا به الرسل في الدنيا، كذبوهم، وضللوهم، وقالوا: ما نزل الله من شيء.

هذا موقفهم من دعوة الرسل في الدنيا، اعترفوا بهذا حين لا ينفعهم هذا الاعتراف، وإنما هذا من باب إقامة الحجة عليهم، وقطع معذرتهم، وأن الله لم يظلمهم ﷻ، وإنما هي أعمالهم أوردتهم في نار جهنم.

ثم عادوا على أنفسهم باللوم، ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ أي: لو كنا في الدنيا نسمع سماع قبول.

من يسمع القرآن، ويسمع المواعظ، ولكنه لا يعقلها، ولا يفهمها، ولا يتدبرها، بل لا يريد أن يفهمها، ويقولون هذه مواعظ وقصص، وأنتم ليس عندكم إلا الجنة والنار، ولا عندكم إلا الوعظ، وما عندكم إلا التضييق على الناس، وما أشبه ذلك من مقالاتهم.

﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: اعترفوا أن الذي جعلهم من أصحاب السعير هو أنهم ما كانوا يسمعون للرسل والنذر، ولا يعقلون ويتدبرون.

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾، فاعترفوا على أنفسهم في وقت لا ينفعهم الاعتراف.

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: بُعْدًا لأصحاب النار.

هذا، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس الحادي والستون

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ (١٢) وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ
ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ (١٤) هُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ (١٥) ءَأَمِنتُم
مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ
عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ
(١٨) أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ
بَصِيرٌ (١٩) أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ
(٢٠) أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا
عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (٢٢) قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ
ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ (٢٣) قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ
(٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ (٢٥) قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ
مُّبِينٞ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ
(٢٧) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ
(٢٨) قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (٢٩) قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ
أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ [الملك: ١٢- ٣٠].

لما ذكر الله ﷻ في الآيات السابقة عذاب الكفار وما يلقونه في النار -والعياذ بالله- من شدة تغيظها عليهم، وتقلبها بهم، وغليانها بهم، ذكر ﷻ ما للمؤمنين في مقابل ذلك، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم﴾، وهم المؤمنون، أي: يخافون الله ﷻ، ويعبدونه حق عبادته، فالخشية نوعٌ من أعظم أنواع العبادة.

﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ قيل: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: في حال غيبتهم عن الناس، فهم مطيعون لله ﷻ، ويخشونه سواء كانوا ظاهرين للأبصار، أو كانوا غائبين منفردين، فهم يراقبون الله ﷻ، ولا يراقبون الناس، تستوي في ذلك سرائرهم وعلانيتهم، وهذا دليل على قوة إيمانهم، وصدق يقينهم؛ لأنهم يخافون الله ﷻ دائمًا وأبدًا، سواء كانوا ظاهرين للناس، أو كانوا مستترين عنهم.

هذا بخلاف الذي يتظاهر بالخشية والتقوى عند ظهوره للناس، فإذا توارى عنهم، فإنه يُطلق لنفسه الحرية في الشر، ولا يراقب الله ﷻ، وإنما يراقب الناس، قال الله ﷻ: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

وقيل: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: إنهم يخافون الله، ويعبدونه، وإن لم يروه في الدنيا، وإنما اعتمدوا على الأدلة والبراهين الدالة على وحدانيته فهم قد آمنوا بالله، ولم يروه ﷻ، وعبدوه ولم يروه، وإنما صدقوا الرسل، صدقوا الأدلة والبراهين الدالة على الله ﷻ.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾: مغفرة من ذنوبهم؛ لأنه قلَّ من يسلم من الذنوب فمستقل ومستكثر، وتحصل الذنوب من المؤمنين، وتحصل من الذين يخشون ربهم، والله ﷻ يغفرها لهم.

﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾: على إيمانهم وأعمالهم الصالحة، فالله يغفر ذنوبهم، ويأجرهم على أعمالهم الصالحة، هذا ما وعد الله ﷻ به المؤمنين.

ثم قال الله ﷻ مخاطبًا الكفار: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾، فكما أنه ﷻ يعلم ما خفي وما ظهر، فكذلك هو يسمع ﷻ ما ظهر من الأصوات، وما خفي منها، حتى أنه ليعلم ما في النفس، وما في الصدر، ولا يخفى عليه شيء ﷻ.

وقيل في سبب نزول الآية: أنهم كانوا يسبون رسول الله ﷺ، وينالون منه في مجالسهم، ويقولون: أسروا قولكم، ولا تجهروا؛ كيلا يسمعكم الناس.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: عليم بما في الصدور، فكيف بالذي يتلفظ به؟!!!

فهو ﷻ يعلم ما في صدرك وما في نفسك، وإن لم تتكلم، فهذا يوجب الخوف والخشية والمراقبة.

ثم ذكر ﷻ أدلة برهانية قرآنية وعقلية يرد بها على الكفار، والمشركين.

فقال ﷻ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾، فالله ﷻ يعلم خلقه، وما في صدروهم، وما في قلوبهم؛ لأنه هو ﷻ الذي خلقهم.

ثم قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، فهو يعلم السر وأخفى، واللطيف هو الشيء الخفي الذي لا يرى، فالله ﷻ لطيف بمعنى أنه لا يخفى عليه شيء مهما كان في هذا الكون، سواء كان ظاهرًا أو خفيًا، سواء كان واضحًا أو غير واضح للناس، فإنه بلطفه ﷻ يدرك هذه الأشياء.

ومن معاني ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: الرؤوف بعباده، الذي يلطف بهم ويرحمهم.

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: صيغة مبالغة من الخبرة الخبير، فهو الخبير بكل شيء، وهو العليم بكل شيء، وهو البصير بكل شيء، وهو السميع لكل شيء، وهو القدير على كل شيء، فلا يخفى عليه شيء من خلقه: دقيقه وجليله، ظاهره وباطنه، بل إن هناك أشياء لا نراها، ولا نعلمها، والله ﷻ يراها ويعلمها، ولا تخفى عليه في البر ولا في البحر.

ثم ذكر برهانًا فقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾، أي: جعل الأرض التي تمشون عليها، وتنامون عليها، وتسكنون على ظهرها، وتدفنون في باطنها إذا متم، فإن الله ﷻ جعلها لكم ﴿ذَلُولًا﴾ أي: مذللة لمصالحكم، قارة، ساكنة لا تتحرك، ولا تضطرب، ولا تميد.

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ قيل: المراد: سهولها، وقيل: المراد: في جبالها، فالمنكب هو الجبل والمرتفعات.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ الذي أوجده لكم، ووزعه في هذه الأرض، وقسمه على هذه الأرض، فأينما ذهبت، فالرزق تجده أمامك، فالله ﷻ هو الذي وزع هذه الأرزاق، وقدر هذه الأقوات في الأرض، فليس هناك منطقة ليس فيها رزق.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾، لأنكم لا تستطيعون المشي على الأرض بدون أكل وشرب؛ لأنك تجد الماء، وتجد الطعام والشراب أينما توجهت في هذه الأرض، وهذا من لطف الله ﷻ بعباده؛ حيث أنه لم يحصر الرزق في جهة معينة من الأرض.

ثم قال ﷻ: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، أي: البعث بعد الموت، فأينما دُفِنت في الأرض، فإنك تُنشر من مدفنك، وتُحشر يوم القيامة.

ثم إنه ﷻ هدد الكفار بالعقوبة، فقال ﷻ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله ﷻ، وهذه الآية والتي بعدها من أدلة علو الله ﷻ على خلقه، وأنه في السماء ﷻ، أي: في العلو، أو فوق السماء.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾، لما ذكر ﷻ الأرض وما فيها من التمكين والمنافع خوف العباد، أن يخسف بهم هذه الأرض التي جعلها الله ﷻ ذلولًا، مطوعة لهم أن يخسفها بهم قارة ساكنة، كما خسفها بقارون وقوم لوط وغيرهم.

والخسف عقوبة شديدة في الدنيا، وتكثر الخسوف إذا كثر الكفر، وكثر الإلحاد، خصوصًا في آخر الزمان؛ عقوبة من الله ﷻ، وها هي الخسوف الآن تقع يمينًا وشمالًا فيهلك بها أمم.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب وتتحرك، بعد أن كانت ساكنة قارة، وهو القادر على ذلك، فالذي أسكنها، قادر على أن يحركها ويزلزلها تحت أقدامكم، قال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ

يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنعام: ٦٥].

ثم قال: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾ أي: ريحًا تحمل الحصباء، فيحصبكم بها؛ كما حصل لقوم عاد من الريح العقيم، وكما حصل للأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ في غزوة الأحزاب، فأرسل الله ﷻ عليهم ريحًا تحمل الحصباء وحصبتهم، وكما حصل لأصحاب الفيل، قال ﷻ: ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴿٤﴾﴾ [الفيل: ٣ - ٤].

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾: فستعلمون حينذاك صدق نذيري لكم.

ثم ذكَّر كفار قريش وكفار العرب، الذين عاندوا رسول الله محمدًا ﷺ، وكذبوه، وحاربوه أن يحلَّ بهم ما أحلَّ بالأمم السابقة، التي كذبت رسلها، ماذا حصل لهم من الهلاك والدمار، قال ﷻ: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]. ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النمل: ٥٢].

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ من الأمم السابقة، فقد كذبوا رسلهم، ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم، وأخذي لهم بالعذاب فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم.

ثم قال ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ﴾: هذا من البراهين القرآنية العقلية، فالطير التي تطير في الهواء، ولا تسقط؛ لأن أمدها بصلاحية الطيران في أجسامها وريشها وأجنحتها.

﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾، أجنحتهن في الجو، ولا يسقطن.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ ﷻ بقدرته وتدبيره، ليست هي التي تمسك نفسها، ولكن الله ﷻ هو الذي يمسكها بقدرته.

فهذا الطائر الصغير فيه من بديع الصنعة والإحكام ما مكنه من الطيران منها الكبير، ومنها الصغير كالذباب، والبعوض، والناس يصنعون هذه الطائرات بمحركات هائلة، وفيها الأصوات المزعجة، وقد تسقط، ويهلك فيها من يهلك، وهذه الطيور خلقتها دقيقة ومنتظمة ومنظمة، هذا من العجائب على قدرة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [النحل: ٧٩].

والإنسان مع حذقه ومع فكره لا يستطيع أن يطير، أما الذباب والبعوضة، فإنها تستطيع أن تطير بكل سهولة، هذا من عجائب خلق الله ﷻ.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الله ﷻ، يبصر هذه الطيور وحركاتها وسكناتها في الجو، لا تخفى عليه ﷻ، ولا تغيب عن بصره ﷻ، فلا تظن أنها مجرد مخلوقات خُلِقت عبثًا، ولا تعتبر بها، ولا تستدل بها على قدرة الله ﷻ، وعلى أنه الإله المستحق للعبادة، وأما هذه المعبودات من دونه فهي مخلوقة، لا تخلق، ولا ترزق، ولاتدبر شيئًا، فهذا برهان عقلي على وجوب عبادة الله وحده لا شريك له.

ثم قال الله ﷻ مخاطبًا المشركين: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ أي: من هو الذي يدافع عنكم لو أرادكم الله ﷻ بعذاب أو عقوبة؟!

لا يدفع عنكم؟! قوتكم وجنودكم وإمكانياتكم، من الممكن أن هذه

القوات وهذه الجنود أن تدافعوا بها المخلوقين مثلكم، لكن الله ﷻ لا يُدَافع، ولا يُرَد أمره، إذا أراد شيئًا.

فإذا أراد الله ﷻ بكم أمرًا، فلا أحد يرده، أو إذا أراد الله ﷻ أن يسلط عليكم جنودًا من جنوده، أو خلقًا من خلقه، فلا تستطيعون صدهم ولا ردهم فدل هذا على ضعفكم وحاجتكم إلى الله ﷻ، فالإنسان لا يغتر بقوته، ولا بجنوده، ولا بماله، مهما أُوتِي من القوة والجنود والمال، فإنه ضعيف، لا تدفع عنه قوته ولا جنوده من الله شيئًا.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ ﴿إِنِ﴾: نافية بمعنى (ما)، أي: ما الكافرون إلا في غرور غرهم به الشيطان، وغرتهم قوتهم، وغرتهم الحياة الدنيا، فهم في غرور.

ثم قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾: من الذي يرزقكم؟ من الذي الرزق بيده؟ بيد الله ﷻ، وإذا جاءك شيء من المخلوق، فإنه من الله ﷻ، ولكن بواسطة هذا المخلوق، فالله ﷻ هو الذي سخره لك، وأرسله لك، فالرزق ليس من المخلوق، وإنما من الله ﷻ.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، أي: إن أمسك الله رزقه عنكم، من الذي يرزقكم غيره؟

فالمخلوقون مهما ساعدوا، ومهما بذلوا من المساعدات، فإنها لا تغني شيئًا، فالرزق من الله ﷻ وحده، والمساعدات الدولية لا تكفيكم، ولا تدوم.

﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي: تمادوا في كفرهم وطغيانهم، ولم يعتبروا بهذا الدليل

وهذا البرهان القاطع المقنع.

﴿وَنُفُورٍ﴾ عن الحق، فلا يقبلونه، وإنما يقبلون الباطل.

ثم قال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾، هذا مثلٌ ضربه الله ﷻ للمؤمن والكافر، المؤمن الذي انتفع بهذه الآيات، واستدل بها على عظمة الخالق، واستحقاقه للعبادة، وعبده حق العبادة، والكافر الذي لم يلتفت إلى هذه الآيات وهذه البراهين، فهو مثل المكب على وجهه، أي: المنحني على وجهه، فلا يبصر ما أمامه، ولا ما عن يمينه، ولا ما عن شماله، ومن الممكن أن يسقط في الحفر، ويقع في النار وهو لا يرى ما أمامه؛ لأنه منحنٍ ورأسه إلى أسفل.

هل هذا ﴿أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: يمشي مستقيمًا، معتدل القامة، يرى ما أمامه، وما عن يمينه، وما عن شماله، فيبصر الطريق، ويتجنب المخاطر والحفر والمهالك، فهو يمشي على طريق واضح، وعلى الوحي المنزل، والرسول المرسل.

أيهما أهدى: هل المكب على وجهه أو السوي المستقيم القامة المعتدل؟ الذي يمشي باعتدال، وهو ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ أي: على طريق مستقيم معتدل، وليس فيه التواءات، وهو صراط الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ثم قال الله ﷻ مخاطبًا البشرية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾: أوجدكم من العدم، هل أحدٌ خلقكم غير الله ﷻ؟

﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، لا أحد، ولا يستطيع أحدٌ أن يدعي أنه

يخلق أبدًا، مع عناد المشركين والكفار والملاحدة ما أحد ادعى أنه خلق شيئًا من هذا الكون، لا جبلًا، لا بحرًا، لا أرضًا.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، وهذه الأعضاء الثلاثة هي أشرف ما في الجسم، السمع الذي تسمعون به الأصوات، تسمعون به القرآن والأدلة، والبصر الذي تبصرون به هذه المخلوقات، وهذه الكائنات، وهذه الآيات، تبصرون به طريقكم، تبصرون به صناعتكم.

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾، وهي القلوب التي تفكرون بها، وتعتبرون بها.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: إن شكركم لله ﷻ قليل، لا يوافي نعم الله ﷻ عليكم، قال ﷻ: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، لا تحصوها، فكيف تقومون بشكرها؟!! هذا في الذي يشكر الله وهم قليل من الخلق.

ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: نشركم فيها، وما جعلكم مجتمعين في ناحية واحدة من الأرض، تتضايقون، وتتعطل مصالحكم، وتتنافسون، ولا يحصل لكم منافع، بل إنه ﷻ ﴿ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: وزعكم على الأرض الواسعة، وأسكنكم في الشرق والغرب، والشمال والجنوب، وما جعلكم في بلد واحد، أو قطعة واحدة من الأرض، فيحصل لكم الضرر، والزحام.

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: يوم القيامة من جميع أقطار الأرض، الله ﷻ نشركم فيها وفرقكم، لكنه يجمعكم يوم الجمع للجزاء والحساب، أينما كنتم من هذه الأرض في صعيد واحد.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾: ومع هذا كله، ومع هذه

البراهين يقولون: متى هذا الوعد؟! يتحدون الرسول ﷺ، يسألونه متى، والرسول ﷺ لا يعلم ذلك؛ لأنه لا يعلم هذا إلا الله ﷻ، وليس من مصلحتنا أن نعلم متى يكون هذا، لكن من مصلحتنا أن نعلم أنه سيكون بلا شك، فنستعد له، فبدلًا من أن يستعدوا، وأن يتوبوا، وأن يستغفروا لهذا الوعد، صاروا يسألون متى يقع؟.

انظر للتحدي والكبرياء - والعياذ بالله-، يقولون: إذا لم تخبرنا متى تقوم الساعة، فأنت كذاب.

قال الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾: هو الذي يعلم متى تقع، فلا مصلحة لكم في ذلك، وإنما مصلحتكم الاستعداد والتوبة والرجوع إلى الله ﷻ قبل أن يفوت الأوان؛ لأنه إذا وقع، وعاينتموه، لا يمكنكم الاستعداد، فليس من مصلحتكم أن يُبيِّن لكم متى يكون، وإنما من مصلحتكم أن يُبيِّن لكم أنه سيكون؛ لتستعدوا له.

ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾: والنذير لا يلزمه أن يُبيِّن متى يقع العذاب أو الوعيد، فليس مطالبًا بهذا، وهذا ليس من مهمته؛ لأن هذا من علم الغيب، الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾، أي: لما رأى الكفار ما كانوا يتحدون الرسول ﷺ، ويقولون: متى موعده؟! لما رأوه قريبًا منهم.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: اسودت؛ لتفريطها فيالاستعداد له ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تطالبون، وتسألون متى يقع؟ ومتى يحصل؟ هذا هو الآن قد حصل، لكن الآن لا يمنكم فعل شيء، لا يُقبل

توبة، ولا يُغفر لكم ذنب، فات الأوان، ولا تؤجلون ساعة.

ثم قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾: أيها الكفار.

﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ﴾: كما تدعون علينا بالهلاك، وتتربصون بنا ريب المنون، وتترقبون بنا العقوبة، ماذا ينفعكم لو أن الله ﷻ أهلكني ومن معي؟ لن ينفعكم هذا شيئًا، وإنما الذي ينفعكم أن تعملوا لأنفسكم.

﴿أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٨ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾: هذا هو ما يقوله المؤمنون، يقولون: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾: يتوكلون على الله ﷻ، يفوضون أمورهم إلى الله ﷻ، ويعملون الأعمال الصالحة مع التوكل، يبذلون الأسباب مع التوكل، ولا يعتمدون على أعمالهم، بل يقولون: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ أيها الكفار إذا وقع الوعد الحق ﴿مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ نحن أم أنتم؟ لأنهم كما ذكر الله ﷻ عنهم في أول السورة يقولون لرسل الله ﷻ: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، فإذا جاء الوعد، ستعلمون من هو الذي كان في ضلل مبين: نحن، أم أنتم.

ثم قال ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾: الماء الذي تشربون، وتسقون به الأشجار والنباتات، وتنتفعون به منافع عظيمة، يسره الله ﷻ لكم من هذه الأرض، وسهله لكم، لو أن الله غوَّره في الأرض وذهب به، أو أبعد تناوله عنكم، فماذا يكون حالكم؟!

فالله خزن هذا الماء في الأرض، وأمكنكم من استنباطه واستخراجه، وشربه، وسقي الأشجار والدواب به، مكنكم من ذلك، لكنه ﷻ قادر على

أن يغوره ويبعده عنكم في أغوار الأرض، فلن تستطيعوا له طلبًا.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾: هل تستطيعون أنتم وجميع الخلق وجميع المعدات أن تأتي.

﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: ينبع من العيون والآبار، من الذي يقدر على هذا إلا الله، فلماذا تكفرون به، وتعبدون غيره ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، هذا تحدٍ لهم أنه إذا غار الماء ما نفعتهم هذه المعبودات وهذه القبور وهذه الأضرحة، وهذه المعدات الهائلة كلها مخلوقات ضعيفة، ولا يأتي به إلا الله.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس الثاني والستون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ
﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾
مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ [القلم: ١- ١٦].

قال سبحانه وتعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾.

﴿نٓ﴾: اختلف المفسرون في المراد بها، فقيل: إنها من الحروف المقطعة في أوائل السور؛ مثل: ﴿صٓ﴾، ﴿قٓ﴾، فهي كسائر الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقيل: المراد: ﴿نٓ﴾، الدواة التي يكتب منها، وقيل: المراد بـ﴿نٓ﴾ الحوت الذي في البحر.

ولا شك أن القول الأول هو الأرجح.

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ : هذا قسمٌ من الله ﷻ، الواو هي واو القسم، فأقسم الله بالقلم، وبما يكتبه القلم؛ لما في ذلك من العجائب والعبر.

والمراد: عموم الأقلام التي يُكتب بها، ومنها القلم الذي كتب الله ﷻ به المقادير في اللوح المحفوظ، ومنها الأقلام التي في أيدي الملائكة، تكتب بها أعمال بني آدم، ومنها الأقلام التي في أيدي الناس، والتي يكتبون بها علومهم، فهو عامٌ لكل قلم، أقسم الله ﷻ به لما فيه من العبر؛ كما قال ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٣ - ٥].

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ أي: ما يكتبونه في الصحائف والألواح والوثائق والكتب ثم تبقى هذه الكتابة وتحتوي على العلوم والأخبار، فهذا من عجائب خلق الله ﷻ، فأقسم الله ﷻ بالقلم الذي هو الأداة، وبالأثر الذي هو سائر المسطورات بهذا القلم؛ لأن هذا من آياته ﷻ.

والمقسم عليه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾، وهو نفيٌ لقول الكفار من وصفهم لرسول الله ﷺ لما جاءهم بالرسالة، والنهي عما هم عليه من الشرك والأديان الباطلة، فوصفوه بالجنون، وهو المس من الجن والشياطين، الذي يخالط الإنسان، فيغير عقله، ويهذي بما لا يعقل، فهم وصفوا الرسول ﷺ الذي هو أكمل الخلق، وأعقل الخلق، وصفوه بالجنون لأنه ﷺ جاءهم بما يخالف ما هم عليه من الدين الباطل، يدعوهم ﷺ إلى الله ﷻ ليردهم إلى الرشد، وإلى الصواب، وإلى الحق، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦].

هكذا وصفوه ﷺ، فالله سبحانه وتعالى نفي عنه ذلك، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٍ﴾، أي: ما أنت بمجنون بسبب نعمة ربك عليك، وفضله عليك، بل إنه ﷺ أعقل الناس، وأحسن الناس خلقًا، وأن ما جاء به ﷺ وحيٌ من الله سبحانه وتعالى، نزل به عليه جبريل الأمين عليه السلام، لا كما يقولون.

و«ما» نافية هي من أخوات ليس، ترفع الاسم وتنصب الخبر، ﴿أَنتَ﴾ اسمها، ﴿بِمَجۡنُونٍ﴾ خبرها، والباء للتأكيد.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٍ ٣﴾: هذا في الآخرة، لما ذكر حالته في الدنيا، وهي حالة الكمال والعقل والخلق، والثبات والعلم، ذكر ما له في الآخرة عند الله سبحانه وتعالى، أن له ﷺ أجرًا على ما قام به، وعلى ما صبر، وعلى ما بلغ، له الأجر العظيم في ذلك، وعلى ما جاهد في سبيل الله، على ما ناله من الأذى.

﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٍ﴾ أي: غير منقطع، بل هو أجرٌ متصل دائم، لا ينقطع، وقيل: ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٍ﴾ أي: غير محسوب، فله ﷺ أجرٌ عند الله سبحانه وتعالى بغير حساب.

فهذا فيه تطمين للنبي ﷺ، وتثبيت له، وتسلية له ﷺ؛ لأنه في موقف حرج مع المشركين، فهو بشرٌ واحد يصارع البشرية كلها، ثم إنه سبحانه وتعالى رد على المشركين بوصفهم الرسول ﷺ.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾: هذا من أوصافه ﷺ، أنه يتصف بالخلق العظيم الذي يتحمل به أذى الناس، ويقابلهم بالإحسان، ويحسن إلى من أساء إليه، ويعفو عمن أخطأ في حقه، ولا ينتقم لنفسه ﷺ أبدًا.

هذا ردٌ على المشركين.

﴿خُلُقٍ﴾ : قيل : والمراد بهذا الخلق : القرآن، ولقد سُئِلَتْ عَائِشَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ خُلُق رَسُول اللَّه ﷺ قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآن**»(١).

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وهذا من أخلاقه ﷺ مع أصحابه، فهو يلين ﷺ لأصحابه، ويرفق بهم، ويحلم، ويعاملهم بالإحسان، ولا يشكون منه ﷺ تصرفًا سيئًا أبدًا.

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى متوعدًا المشركين الذين وصفوا الرسول ﷺ بأوصاف الذم والتكذيب والإساءة بقوله : ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي : ستعلم ويعلم هؤلاء من المجنون منكم : أنت أم هم، سيتبيَّن هذا عما قريب في الدنيا ففي الآخرة، في الدنيا بما حصل للمشركين من النكبات والهزيمة والقتل، وحصل للرسول ﷺ من الانتصار والرفعة والتأييد، وبما يحصل للكفار وللمشركين في الآخرة من العذاب والنار والخزي والعار.

وقيل : ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ الذي أصيب بالفتنة والانصراف عن الحق، وسوء الخلق والكذب. سيتبيَّن هذا، فلا تعجل عليهم ؛ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن قوم ثمود لما وصفوا نبيهم صالحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه كذاب أشر، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ۝﴾ [القمر: ٢٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٤١/ ١٤٨)، كما أخرجه مسلم (٧٤٦) بلفظ : «**قَالَ قَتَادَةُ: وَكَانَ أُصِيبَ يَوْمَ أُحُدٍ - فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْبِئِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: «أَلَسْتَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَتْ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»**.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فالله ﷻ أعلم بك وبهم، حتى وإن قالوا، وإن كذبوا، فالله ﷻ يعلم، لايخفى عليه شيء، فلا يغيرون من علم الله شيئًا.

وإذا كان الأمر كذلك، وأن الله أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو ﷻ أعلم بالمهتدين، فإنك ستبصر ويبصرون ما يحصل لك ولهم، ثم قال ﷻ: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾: فالمكذبون يحاولون مع الرسول ﷺ أن يتنازل عما يدعو إليه، وأن يصالحهم، وأن يترك سب ألهتهم؛ حتى يرضوا عنه، ويتعايشوا معه، وهذا شيء مستمر من الكفار من عهد الرسول ﷺ.

وهذا هو الذي يحاول الكفار فعله الآن مع المسلمين، أن يتنازل المسلمون عن دينهم، ويتركوا معارضة الكفار، وأن كلًا حرٌ في دينه.

ولهذا قال ﷻ: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾: المداهنة هي: التنازل عن شيء من الدين؛ إرضاء لهم.

وفي الآية الأخرى قال ﷻ: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥]، وفي هذه الآية قال: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾، وفي الآية الثالثة قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

فالمسلم يجب ألا يساوم على دينه أبدًا، نعم يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويقوم بما يستطيع من الدعوة إلى الله ﷻ، لكنه لايتنازل

عن شيء من دينه لأجل إرضاء الكفار، أو لأجل جلب مودتهم - كما يقولون-.

والآن يقولون: يجب إصلاح الخطاب الديني، غيروه، لا تقولوا: الكفار، لا تقولوا: المشركون، بل قولوا عنهم: الآخر، قولوا: غير المسلم، لا تقولوا هذه الألفاظ التي جاء بها القرآن الكريم.

والخطاب الديني من هو خطابه؟ أليس هو خطاب الله ﷻ، وهل نحن نغيره؟.

أما المدارة، وهي دفع الشر لشيء من الدنيا من غير تنازل عن شيء من الدين، فلا بأس بها.

وهذا هو الفرق بين المداهنة والمدارة، المدارة تجوز عند الحاجة، بأن تبذل لهم شيئًا من المال.

يقولون: غيروا مناهجكم الدراسية الآن، لا تضعوا فيها ألفاظًا مثل: الكفر، والشرك، هذه الألفاظ تنفر الناس، اتركوها، قولوا: مسلم وغير مسلم، قولوا: المسلم والآخر، لا تأتي لفظة كفر، ولا لفظة شرك، ولا لفظة نفاق، لا يُذكر اسم الجهاد في سبيل الله.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قيل: إن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، من بني مخزوم، وكان هو وأبو جهل عدوين لدودين لرسول الله ﷺ، فهما رؤساء في قومهما.

فقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أي: كثير الحلف؛ لأن كثرة الحلف تدل على الكذب، فيستره بكثرة الحلف، ثم أيضا إن كثرة الحلف تدل على الاستهانة بالله سبحانه وتعالى؛ لأنه لو كان يعظم الله عز وجل، لما أكثر من الحلف به، فلا يجوز الحلف إلا عند الحاجة، ويكون صادقًا.

﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ الهمز هو: الغيبة، والهماز: الذي يحتقر الناس، ويتنقصهم في مغيبهم، ويهمزهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١]، والهمز قد يكون بالقول، وقد يكون بالفعل مثل: تحريك الشفاه، وتحريك اليد، عندما يرى بعض المسلمين، فإنه يهمزه من خلفه بالتنقص.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾، والنميمة هي نقل الحديث بين الناس على وجه الإفساد، والوشاية بين الناس، ولاسيما الذين يمشون بين طلبة العلم، ويحرضون بعضهم على بعض، وهذا أشد أنواع النميمة، فالنميمة لا تجوز لا بين العوام، ولا بين طلبة العلم والعلماء، بل هي أشد في حق طلبة العلم والعلماء.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾، فلا ينفق في سبيل الخير شيئًا.

﴿مُعْتَدٍ﴾: يعتدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فبدل من أن يحسن يعتدي على الناس، ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم، هذه هي صفاته، نسأل الله العافية.

﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣﴾: ﴿عُتُلٍّ﴾ هو الغليظ الجافي، ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مع تلك الأوصاف هو ﴿زَنِيمٍ﴾، والزنيم في الأصل هو الذي لا يُعرف له نسب، وهو ولد الزنا.

قيل: إن الوليد بن المغيرة بهذا الوصف، لا يُعرف له أب، وقيل: إنه معروف النسب، لكن هو ﴿زَنِيمٍ﴾ منقطع من الخير.

ثم قال ﷻ: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾، أي: لما أعطاه الله ﷻ المال والبنين، تكبر عن طاعة الله، وتكبر على آيات الله ﷻ مقابل الشكر.

وهذا وصف لكل طاغية وكل جبار يعارض الإسلام والمسلمين إلى أن تقوم الساعة، ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ أي: إذا تلي عليه القرآن يقول عنه: هذه أساطير الأولين، فوصف القرآن بأنه أساطير، أي: الخزعبلات، وأن الرسول ﷺ أخذها من الكتب، أو من الذين يروونها من الناس، تلقاها، وقال: إن هذا كلام الله.

قال الله: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ أي: يسود وجهه، وتظهر عليه علامة السوء في الدنيا والآخرة، فهذه عاقبة من كذب بآيات الله ﷻ، واستكبر عنها.

وهذه الآيات آيات عظيمة تحكي لنا ما حصل لرسول الله ﷺ مع الكفار حين نزول القرآن، وما أمد الله ﷻ به الرسول ﷺ من التثبيت والتأييد والتمكين والوعد بالنصر، وما تؤول حال الرسول ﷺ وحالهم في الدنيا والآخرة.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

الدرس الثالث والستون

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ
عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ
حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾
وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ
أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ
﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ
﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾
إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾
سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [القلم: ١٧ - ٤١].

في هذه الآيات من قوله ﷻ: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

فيها مثل ضربه الله ﷻ لكفار قريش، الذين كانوا في نعمة وفي أمن حول هذا البيت، وفي رغد من العيش، ولهم العز بين العرب، إلا أنهم كفروا هذه

النعمة لما جاءهم رسول الله محمد ﷺ يدعوهم إلى الله، وإلى ما فيه سعادتهم، ونجاتهم ونجاحهم في الدنيا والآخرة، كفروا هذه النعمة، فمثلهم كمثل أصحاب الجنة الذين ذكر الله ﷻ قصتهم في هذه الآيات.

والله ﷻ قال في أهل مكة: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ يعني: أهل مكة.

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١١٢ - ١١٣]، فمثلهم كمثل أصحاب هذه الجنة التي ذكرها الله، حيث قال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ أي: اختبرنا أهل مكة كما اختبرنا أهل هذه الجنة، التي ذكر الله من قصتها ما ذكر، وهي أنه كان في أرض اليمن رجل له حديقة تثمر، وكان صاحبها مسلمًا مؤمنًا، وكان يعطي المساكين قسمًا من هذه الثمرة، فبارك الله ﷻ له فيها، وجعلها تدر خيرًا على صاحبها، وعلى مساكين البلد، فلما مات هذا الرجل، وورثه أبناؤه أساؤوا استعمالها، وخَطَّؤُوا أباهم: لماذا يعطي المساكين؟ فالبستان لنا، ونريد ثمرته لنا، ولا نريد أحدًا أن يأخذ منها شيئًا، وعزموا على هذه النية السيئة.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟﴾ أي: حين أقسموا وحلفوا على هذه الخطة السيئة.

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، أي: يجذونها في وقت الصباح الباكر، حتى لا يعلم بهم الفقراء، فلا يحضرون كما كانوا في السابق في وقت أبيهم عند الْجِذَاذ، فهم قد حلفوا على أنهم يصرمون هذه الجنة، قبل أن يستيقظ الناس؛ حتى لا يأتيهم أحد.

وكان أبوهم يصرمها في النهار، ويفتح الأبواب للفقراء، ويحصل على خير كثير منها، والفقراء يحصلون على خير، وأما هؤلاء، فقد بيتوا نية سيئة، فجعلوا موعد الجَذَاذ مبكرًا خلاف عادة أبيهم، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: لم يقولوا: إن شاء الله في يمينهم؛ لأنهم يزعمون أنهم متمكنون منها، ولا أحد ينازعهم فيها.

قال الله ﷻ: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾: طاف على الجنة طائفٌ، أي: نزل عليها غضب من الله، وجند من جند الله ﷻ، فأحرقها بالليل.

﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾، أي: أصحاب الجنة، وما فكروا أنه سيحصل عليها شيء، وأنهم متمكنون منها.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل المظلم، محترقة سوداء، بدل أن كانت بهيجة مثمرة يانعة.

﴿فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾: نادى بعضهم بعضًا؛ ليذهبوا إليها في البكور، وأمر الله ﷻ قد سبقهم في الليل.

﴿أَنِ ٱغْدُواْ﴾: اذهبوا في أول النهار.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي: عازمين على جذها قبل أن يستيقظ الفقراء.

﴿فَٱنطَلَقُواْ﴾: ذهبوا إليها في الموعد الذي حددوه.

﴿وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾: يتسارون فيما بينهم سرًا.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾: يسر بعضهم إلى بعض بهذا؛ لئلا يسمعهم الناس.

﴿عَلَىٰ حَرۡدٍ﴾ أي: على عزم وقصد، وقيل: ﴿عَلَىٰ حَرۡدٍ﴾ أي: على حقد وغضب على الفقراء.

﴿قَٰدِرِينَ﴾ أي: مقدرين مخططين لفعلهم، أو يزعمون أنهم قادرون على ما هموا به - في زعمهم -، فلما وصلوا إليها، ونظروا إلى منظرها الشنيع، وأنها محترقة.

﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: تائهون، ما هذه بحديقتنا.

ثم تأكدوا أنها هي، فقالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أي: هذه حديقتنا، ولكننا حرمنا منها، عرفوا أنهم غير تائهين، وأنهم مصابون بالجائحة في هذه الحديقة.

عند ذلك أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، يلوم بعضهم بعضا على ما هموا به، وما خططوا له، وأدركوا خطأهم، وأدركوا أن الله ﷻ قد أحاط بهم، فنزعها من بين أيديهم أوفر ما كانت ثمرًا، وأطيب ما كانت تمرًا.

﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾: ألم أقل لكم: لماذا لاتقولون: إن شاء الله؟؛ لئلا تحنثوا في يمينكم؛ لأن من حلف، فقال في يمينه: إن شاء الله. لم يحنث؛ لما جاء في الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَحْنَثْ، وَكَانَ دَرَكًا لَهُ فِي حَاجَتِهِ**»(١)، فهو قد لامهم على ذلك، وذكرهم أنه قد قال لهم: قولوا: إن شاء الله.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾: ندموا وسبحوا، لكن فات الأوان.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٤٢)، ومسلم (١٦٥٤)، واللفظ له.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ : للفقراء والمساكين.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ : كما هي العادة أن الناس إذا فاتهم الغرض الذي يريدونه، أو أصابتهم مصيبة، لا يبقى عندهم إلا التلاوم: كيف، وهذه زيادة ندم، وزيادة تحسر.

﴿إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ : على الفقراء؛ حيث منعناهم حقهم.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ﴾ أي: لعل ربنا ﷻ.

﴿أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ﴾ : ما انقطع أملهم بالله ﷻ، بل رجوه أن يبدلهم خيرًا منها، وهكذا المسلم إذا نزلت به مصيبة، فلا يجزع، ولاييأس من رحمة الله ﷻ.

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: راجون لعطائه وفضله، فهم ما انقطع أملهم بالله ﷻ، ورجاؤهم بالله.

قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾، أي: هذا العذاب الآجل أصاب أصحاب الجنة.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: هناك عذابًا أشد منه لمن لم يتب إلى الله ﷻ.

ثم لما بيَّن الله ﷻ حال المشركين من أهل مكة، وأن مثلهم كمثل أصحاب الجنة المذكورة، ثم بيَّن الله ﷻ ما للمتقين في الدار الآخرة الذين آمنوا بالرسول ﷺ واتبعوه، وصدقوه بما أخبر به، وهم أصحابه الكرام.

فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ : جنات، ليست جنة واحدة

هذا البستان الصغير بل لهم جنات لا يعلمها إلا الله ﷻ، وأيضا هي جنات مستمرة ومستديمة لا تنقطع، ولا يصيبها ما يصيب جنات الدنيا من الكوارث والإصابات التي تذهب شجرها وثمرها، لكن هذا يحتاج إلى إيمان، ويحتاج إلى صبر، ويحتاج إلى جهاد.

ولما قال المشركون أنه إذا كان هناك بعثٌ، فإننا سنجد خيرًا من هذه الدنيا؛ فإن لنا عند الله ﷻ مكانة، والذي أعطانا هذا في الدنيا لاشك أنه سيعطينا في الآخرة، خيرًا منه، قال ﷻ: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾: أفنجعلهم في الآخرة كالمجرمين، أبدًا لا يليق هذا بحكمة الله ﷻ، وليس للمجرمين إلا الخيبة والخسارة في الدار الآخرة، وإن أعطوا في الدنيا ما يستدرجون به، فإنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾: لأنفسكم بأنكم ستجدون في الآخرة -إن كان هناك بعث كما يقولون- سيجدون خيرًا مما في الدنيا.

ما الدليل الذي تعتمدون عليه في قولكم هذا، وفي حكمكم هذا، فالحكم لابد أن يبنى على برهان، ولابد أن يبنى على حجة.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾: هل أنزلنا عليكم كتابًا نضمن لكم فيه أنكم ستجدون في الآخرة ما تقولون؟!

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾، هل بين أيديكم كتاب يضمن لكم ما في الآخرة على حسب ما زعمتم.

وهل لكم عندنا عهد في أننا نعطيكم ما ذكرتم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾: ليس لهم عند الله ﷻ عهد

بأن الله تعهد لهم بذلك، وليس لهم كتاب.

ثم قال: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ اسأل هؤلاء الكفار أيهم بذلك زعيم، من الذي تكفل لكم بهذا الشيء؟! ما تكفل لهم أحد.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾: هل لهم أعوان يعينونهم على تحصيل ما قالوا في الآخرة؟!

إذًا انقطعت حجتهم من جميع الجهات:

* ليس لهم كتاب من الله يعتمدون عليه.

* وليس لهم عهد عند الله يعتمدون عليه.

* ولم يتكفل أحدٌ بما قالوا.

* وليس لهم أعوان وأنصار يعينونهم على أخذ ما يريدون كما يكون في الدنيا.

وقيل: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ أي: أصنام. هل تعطيهم شيئًا؟!

الأصنام حجارة جماد، عاجزة، لا تعطيهم شيئًا، لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾: الذين سيعينونهم، ويضمنون لهم ما يقولون في الدار الآخرة، فهذه الآيات الكريمات فيها عبر، وفيها عظات، وفيها تطميع للمؤمنين، وطمأنة لهم، وفيها تئييس للكافرين، وقطع لشبهاتهم وحججهم، وأنه لا ينفع عند الله ﷻ إلا الصدق والحق، والعمل الصالح، أما الإدعاء، فإنه يذهب سدى، لا ينفع عند الله.

وفي هذه الآيات التأكيد على حق المساكين من الزكاة والصدقات، وأن صاحب البستان لا يغلقه عن المساكين عند الصّرام، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ﴾ أي: تصدقوا منه على المساكين يوم حصاده وتحصيله، اسمحوا للمساكين أن يلتقطوا ما تساقط، ولذلك قالوا: إنه يشرع لكل من حصل على نعمة من مبلغ أو جائزة أو راتب أو استحقاق -إذا قبضه- أن يعطي منه من يحضره من الفقراء، ويشكر الله سبحانه وتعالى، فهذا عامٌ في كل من حصل على نعمة، أو خير، أو راتب، أو جائزة، أو على ثمرة، أو ميراث، أن يتصدق منه عند حصوله له، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء: ٨]، فهذا من الإحسان، والخير والشكر لله سبحانه وتعالى.

هذا، وبالله التوفيق، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.

الدرس الرابع والستون

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ
وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ
حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ
﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ
مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾
وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٤٢- ٥٢].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾: ﴿يَوْمَ﴾: هذا وقت وظرف لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾ [القلم: ٣٤][1].

فيكون للمتقين عند ربهم جنات النعيم؟ في هذا اليوم، يوم القيامة، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وهو يوم القيامة؛ لأنه لشدة هوله، وما يحدث فيه من

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٣٨)، وزاد المسير (٨/ ٣٤٠)، والقرطبي (١٨/ ٢٤٨)، وابن كثير (٤/ ٤٠٨).

الفزع، وما يكون فيه من الكربات والشدائد يشتد فيه الهول.

وتقول العرب: كشفت الحرب عن ساقها، إذا اشتدت وحمي وطيسها، وكذلك لأن من عادة الإنسان إذا وقع في أمر خطير يريد التخلص منه، فإنه يشمر عن ساقه، فليست هذه الآية من آيات الصفات كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن الله لم يضف الساق إليه.

وإنما اليوم الذي يكشف الله ﷻ فيه عن ساقه هو ما جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وغيره، أن الله ﷻ يكشف عن ساقه ﷻ، فعند ذلك يخر المؤمنون الذين كانوا يعبدونه في الدنيا، ويسجدون له؛ تعظيمًا لربهم ﷻ.

ويريد المنافقون الذين كانوا يظهرون الإيمان في الدنيا خداعًا ومكرًا، ويصلون تظاهرًا لا إيمانًا، يريدون أن يسجدوا مع المؤمنين، فتتصلب ظهورهم كصياصي البقر، فلا يستطيعون السجود؛ عقوبة لهم، وخزي لهم في هذا الموقف، قال ﷻ: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، وكذلك الكفار الذين كانوا في الدنيا إذا قيل لهم: اركعوا. لا يركعون، أيضا تتصلب ظهورهم، وإنما يسجد لله ﷻ المؤمنون الصادقون في إيمانهم، المحافظون على الصلوات في الدنيا، والمحافظون على صلاة الجماعة -أيضا-، فالذي يتخلف عن صلاة الجماعة، ولا يصليها في المسجد، تصيبه -أيضا- هذه العقوبة يوم القيامة؛ لأنه يدعى إلى الصلاة في المسجد، فلا يجيب.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: تكون أبصارهم ذليلة من الخوف والفزع.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم ذلة في هذا الموقف، بخلاف المؤمنين،

فإنهم يفرحون بهذا اليوم، ويكونون أقوياء عزيزين.

﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾: فلا يصلون أصلًا، أو أنهم يصلون، ولكن لا يصلون مع الجماعة، ويتخلفون عن صلاة الجماعة، وهذا من صفات المنافقين، وذلك لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ﴾ أي: يسمعون النداء: حي على الصلاة، حي على الفلاح، فلا يجيبون الداعي.

﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾: ليس فيهم آفة تمنعهم من السجود، فابتلاهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا اليوم بالخزي والعار، وحرمهم من السجود إذا كشف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن ساقه.

فهذا شامل للمنافق، وشامل لتارك صلاة في الجماعة من غير عذر، وشامل للكافر الذي أبى أن يصلي، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَذَرْنِي﴾: هذا خطابٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ إلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: لا يهمك أمرهم وعنادهم وكفرهم؛ لأنك قد بلغتهم الرسالة، اترك شأنهم لي، وكِلهم إلي، فأنا أتولى جزاءهم، فما على الرسول إلا البلاغ.

﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: بهذا القرآن الذي تتلوه عليهم، ويسمعونه، ولا يؤمنون به، ولا يتأثرون به.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: يغمرهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنعم؛ حتى يزيد طغيانهم وكفرهم، ويظنون أنهم حصلوا على هذا بسبب معارضتهم لرسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه لن يصيبهم ضرر، بل قد جاءهم نعم ورخاء، فيغترون بذلك، ويعجبون بحالهم، ثم يأخذهم الله عَزَّ وَجَلَّ على غرة، فهذا هو الاستدراج، والعياذ بالله.

ولو أنه ﷻ عاجلهم بالعقوبة، لكان ذلك أخف عليهم، فهذا فيه الخوف من بسط النعم، إذا كان الناس على مخالفات ومعصية أن يكون هذا استدراجًا، فإذا بُسِطت النعم على الناس وهم في حال سيئة وكفر ومعاص ومخالفات، فهذا استدراج لهم.

﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يعلمون أن الله يستدرجهم، بل يظنون أنه ﷻ يكرمهم، ويغترون بما هم عليه.

أما المؤمن، فإنه إذا عصى الله ﷻ، يُعجل الله له العقوبة؛ من أجل أن يمحصه، ومن أجل أن يتوب إلى الله ﷻ، وأما الكافر، فإن الله يملي له ويستدرجه؛ حتى يزيد في الكفر والطغيان، فإذا أمن، وفرح بما أُعطي، أخذه الله ﷻ بغتة.

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾: أُمْلِي لهم: أي: أُؤخرهم، ولا أعالجهم بالعقوبة؛ ليزدادوا من الكفر والطغيان؛ حتى يشتد عذابهم وعقوبتهم، قال ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فالإملاء هو التأخير وعدم المعالجة بالعقوبة؛ ليشتد كفر الكافر بتأخيره، ويكثر كفره بطول عمره وإمهاله.

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾، فالله ﷻ يكيد بمعنى: أنه يوصل العقوبة إلى من يستحقها على وجه لا يشعر به، هذا هو الكيد من الله ﷻ، وهو كيد محمود؛ لأنه بحق.

وأما الكيد من المخلوق، فإنه جورٌ، وهو إيصال الأذى لمن لا يستحقه، فهو ظلم، وأما الكيد من الله، فهو عدلٌ منه ﷻ، فهذا فرق ما بين الكيد من

الله ﷻ، والكيد من المخلوق.

قال ﷻ: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: طمعًا دنيويًا على تعليمك إياهم، وتبليغك إياهم، حتى يقولوا إنه يريد أخذ أموالنا، ويريد الطمع لنفسه هل تسألهم أجرًا على تبليغ الرسالة، والدعوة إلى الله ﷻ، والإنذار، وتعليم الناس الخير، هل الذي صدهم عنك أنك تطلب منهم أموالهم؟

﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾: ﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ أي: من الغرامات المالية تحملهم إياها في مقابل أنك تعلمهم، كلا، فالنبي ﷺ وكل الرسل لا يسألون أجرًا على تبليغهم رسالة ربهم، وإنما يريدون الخير للبشرية، ولا يريدون من ذلك نفعًا عاجلًا حتى يُتهموا، لا يريدون إلا نفع البشرية وإخراجها من الظلمات إلى النور.

ولذلك كان النبي ﷺ لما فُتِحت عليه الفتوحات، وصارت تأتيه الغنائم والفيء كان ﷺ يصرفها في الجهاد، وفي سبيل الله ﷻ، وعلى الفقراء والمساكين، ولا يختص منها بشيء لنفسه، بل كان ﷺ يعيش عيشة الفقراء، وربما يصيبه الجوع ﷺ، وربما يربط على بطنه الحجر من الجوع ﷺ، مع أنه لو أراد لملك الدنيا كلها، فالرسل ما جاؤوا لأجل الدنيا، وليست هذه مهمتهم، والدنيا ما تساوي عندهم شيئًا أبدًا، وإذا جاءهم شيء منها، أنفقوه في سبيل الله ﷻ، هذا هو سبيل الرسل عليهم السلام، وسبيل خاتمهم محمد ﷺ، فليسوا متهمين بأنهم يريدون الطمع، أو يريدون الرئاسة في الأرض، إنما يريدون هداية البشر إلى الخير.

قال ﷻ: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾: فهم يعرفون أن لهم العاقبة الحسنة، وأنهم

على الحق، وأنت على الباطل ليس عندهم، فالعلم عند الله ﷻ، كيف يحكمون لأنفسهم بالرفعة والمكانة والصواب، ويحكمون على الرسول ﷺ بأنه كذاب، وأنه ساحر، وأنه شاعر، وأنه.....، وأنه...!!!

هذه الأمور منتفية عنهم، فليس لهم عذر عند الله ﷻ، ولم يبق إلا العناد والتكبر على طاعة الله ﷻ.

ثم إن الله ﷻ وجه نبيه ﷺ أن يصبر على ما يلاقيه منهم؛ لأن الفرج قريب، والعاقبة له، قال ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

وقال ﷻ: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠].

وهذا قبل أن يُؤمر بالجهاد، وهو أن كان ﷺ في مكة فهو مأمورًا بتبليغ الرسالة فقط، والدعوة إلى الله ﷻ، ولم يُؤمر بالجهاد إلا بعد الهجرة.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾: وهو نبي الله يونس عليه السلام، وهو يونس بن متى عليه السلام، فإنه لما دعا قومه، وآذوه، ولم يستجيبوا له، ولم تنزل عليهم عقوبة غضب، ولم يصبر، ففر، وركب في السفينة، ولما ركب، ثقلت بهم، وكادوا أن يغرقوا، فقالوا: معنا مذنب، ولا ندري من هو؟ فقرعوا قرعة، فخرجت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام، فألقوه في البحر لتخف السفينة.

ولما ألقوه التقمه الحوت؛ ابتلاء وامتحانًا من الله ﷻ، ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] أي: مذنب، ولما التقمه الحوت أصابه الغم في بطن الحوت، فلجأ إلى الله ﷻ، واعترف بذنبه، قال ﷻ: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ

أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فتوسل إلى الله ﷻ بالتوحيد، واعترف بذنبه، قال ﷻ: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ قال الله: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ - ٨٨].

وفي الآية الأخرى، ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣] أي: من المصلين في وقت الرخاء.

﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الصافات: ١٤٤]، ولكن الله ﷻ أنجاه بسبب أنه سبقت له الطاعة لله ﷻ، فكان من المصلين، فأنجاه الله ﷻ؛ كما قال رسول الله ﷺ: **«تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»**[1].

والظلمات هي: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، والأمواج من فوقه، والله ﷻ سمع صوته من فوق سبع سموات، فاستجاب له، فقذفه الحوت في العراء أي: في الأرض الواسعة، مهترئ الجلد، فيه آلام وجروح مريض، فأنبت الله ﷻ عليه شجرة من اليقطين؛ لتحميه من الذباب وتظله؛ حتى يتكامل جلده، وتصفو بشرته؛ رحمة من الله ﷻ.

فالله لطف به ورحمه حتى تعافى، ثم تاب الله عليه مما حصل منه،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٣٠٧)، وهناد في الزهد (١/ ٣٠٤)، وعبد بن حميد في مسنده (ص٢١٤)، والطبراني في الكبير (١١٢٤٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٧).

واجتباه واختاره نبيًا، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الله ﷻ، فأسلموا، قال ﷻ: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧ - ١٤٨]، هذه قصة نبي الله يونس عليه السلام.

فالله ﷻ نهى نبيه ﷺ أن يقطع الصبر، فتحصل له العقوبة كما حصلت لأخيه يونس عليه السلام.

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ أي: اختاره ربه ﷻ، وأعاد له الكرامة والتوبة.

﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: وعادت له مكانته عند الله ﷻ.

ثم قال الله ﷻ حاكيًا حال المشركين مع رسول الله ﷺ حين يسمعون القرآن، ويرمونه بأبصارهم نظرة الغضب والحقد، ويتكلمون بألسنتهم: إنه لمجنون، قال ﷻ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾: ليسقطونك بأبصارهم؛ من شدة غضبهم عليك، ويصيبونك بأعينهم.

ولا تظنوا أن هذا انتهى مع الكفار الأولين، بل هذا مستمر مع الكفار إلى يوم القيامة، فإنهم ينظرون إلى القرآن هذه النظرة المخزية، ويحتقرون القرآن، يحتقرون الرسول ﷺ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج: ٧٢]. هذا هو موقفهم دائمًا وأبدًا مع القرآن، ومع رسول الله ﷺ.

وليس عنكم ببعيد ما حصل في الماضي من السخرية برسول الله ﷺ ورسمه بصورة بشعة، وأنه مخرب، وأنه قاتل للناس... الخ، هذا هو موقفهم

من الرسول ﷺ ومن القرآن دائمًا وأبدًا.

وما ذكره في أول السورة، ذكره في ختامها، أنهم ذكروا الرسول ﷺ بهذا الوصف؛ من أجل أن يهونوا من شأنه ﷺ، ويصدوا عنه، وينفروا عنه، ولكن هل يضرون الرسول ﷺ؟ هل يضرون القرآن؟! أبدًا، إنما يضرون أنفسهم، ويحرمون أنفسهم، وقد يضرون من اغتر بهم وصدقهم، وافتتن بهم، لكن المؤمنين الصادقين لا يضرهم هذا، بل يزيدهم هذا إيمانًا بالرسول ﷺ وتصديقًا له، وإذا قرأ المسلم القرآن، ورأى مواقف الكفار والمشركين من هذه الدعوة في مهدها الأول، اطمئن إلى أن هذا الكيد لا يؤثر في الحق شيئًا، وإنما يرجع وباله عليهم، فلله الحمد والمنَّة.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس الخامس والستون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤
فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا
عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ
۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟
رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ
تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ۝١٢ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا
دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦ وَٱلْمَلَكُ
عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ
خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١- ١٨].

قال ﷻ: ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَاقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾، ﴿ٱلْحَاقَّةُ ۝١﴾: الحاقة هي القيامة، سميت بهذا؛ لأنها يتحقق بها الوعد والوعيد الذي أنزله الله ﷻ في الكتب، وجاءت به الرسل، فإنه يتحقق في هذا اليوم، ويقع كما أخبر الله ﷻ به.

وقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾، تفخيم لشأنها، وما يحصل فيها مما لا يقع في الخيال أو التقدير البشري، فيقع فيها أشياء لاتتصورها العقول، ولا تدركها الأفهام، فهي أمرٌ هائلٌ جدًا.

وهذا التكرار لأجل تفخيم شأن القيامة، والتحذير منها، والأمر بالاستعداد لها؛ لأنها ليست بالأمر الهين، قال ﷻ: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ [الروم: ٦].

فهذا مثل قوله ﷻ في موضع آخر: ﴿ٱلۡقَارِعَةُ ١ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١-٣]، فالقارعة هي يوم القيامة، وسميت القارعة؛ لأنها تقرع الأسماع بأهوالها.

ثم بيَّن ﷻ ما حصل للمكذبين بالحاقة، فقال ﷻ: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾، والقارعة هي الحاقة، اسمٌ آخر من أسمائها.

وثمود هي: القبيلة المعروفة التي كانت تسكن في وادي القرى في مدائن صالح ﷺ، وهي أمة عظيمة قوية، لكنهم كانوا على الشرك والكفر بالله، وقد أعطاهم الله ﷻ قوة ومهارة في نحت الجبال، وجعلها بيوتًا مما لا تزال آثاره باقية إلى الآن في ديارهم شاهدة عليهم.

قال ﷻ: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾ [الفجر: ٩] أي: قطعوه.

يقول لهم نبي الله صالح عليه السلام: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤]، وهي بلادٌ خصبة زراعية فيها الثمار والنخيل، فأعطاهم الله ﷻ قوة وثروة وغنى، ولكنهم

بطروا نعمة الله ﷻ عليهم، فأرسل الله ﷻ إليهم رسوله ونبيه صالحًا ﵇، ودعاهم إلى الله ﷻ، وذكرهم بالله ﷻ، وذكرهم بالنعمة التي بين أيديهم، ولكن لم ينفع ذلك فيهم، فكذبوه: و﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣-١٥٤] أي: بآية ومعجزة تدل على صدقك. ﴿قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] ناقة أخرجها الله ﷻ لهم، وجعل فيها اللبن الذي يكفي القبيلة، وكان لهم بئر يشربون منه، وكانت الناقة تشرب ماء هذا البئر في يومها، وتسقيهم اللبن، ولم تؤثر فيهم هذه الآية، ولم يخافوا من التهديد، فانبعث شقيٌّ منهم؛ كما قال ﷻ: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢]، فعقر الناقة بأمرهم ورضاهم، فنسب الله ذلك إليهم، ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف: ٧٧]: يتهددونه. عند ذلك أخذهم الله ﷻ بالصيحة، وهي الصاعقة الشديدة التي قطعت قلوبهم في صدروهم، فماتوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحدٌ إلا صالح ﵇ ومن آمن به، قال الله ﷻ: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩]، وبقيت بيوتهم فيها عبرة، قال ﷻ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٥٢].

قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾﴾: ثمود عرفناها، وعاد قبلها، وهي القبيلة التي تسكن في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب بالأحقاف، وقد أعطاها الله ﷻ من قوة الأجساد ما أطغاها، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ

هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥]، وقال لهم هود: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه سبحانه وتعالى، فاشكروها.

ولكنهم عتوا؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وهذه القوة التي اعترفوا بها من أين جاءت لهم؟! من الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى الذي خلقهم وهو أشد منهم قوة، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فأرسل الله سبحانه وتعالى عليهم ريحًا أهلكتهم عن آخرهم، ولم تغن عنهم قوتهم، ولم يثبتوا أمامها، وكانت هذه الريح تنزع الناس بأن ترفعهم إلى السماء، ثم تنكسهم على رؤوسهم، فيقعون على الأرض، فتندك أعناقهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، شبههم الله عز وجل بالنخل لطول أجسامهم وقوتها، فأهلكهم الله بالريح العقيم التي ليس فيها حياة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾: وهي الصاعقة.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾﴾ ﴿صَرْصَرٍ﴾ أي: شديدة البرودة، أو لها صوت مزعج، فهي شديدة البرودة، ولها صوت مزعج.

﴿عَاتِيَةٍ﴾: قوية، لا يثبت أمامها شيء، فالله سبحانه وتعالى أرسلها عليهم، فماتوا عن آخرهم، لم تبق إلا مساكنهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

ثم قال الله سبحانه وتعالى في سياق بيان من كذبوا بالحاقة والقارعة: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾: الفرعون هو الملك الجبار من ملوك مصر، ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ من الأمم ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالفعلة القبيحة، وهي الكفر بالله.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾: المؤتفكات هي قرى قوم لوط عليه السلام، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٣ - ٥٤]، خسف الله سبحانه وتعالى بها، وأتبعها بالحجارة.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾: عصوا رسول ربهم، وهو لوط عليه السلام لما نهاهم عن الشرك، وعن اللواط، وإتيان الذكور، لما نهاهم عن ذلك، كذبوه.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ﴾ أي: أهلكهم الله سبحانه وتعالى، ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: قوية، فهي زائدة على غيرها من الأخذات، شديدة؛ وذلك أن الله سبحانه وتعالى اقتلع ديارهم من أصولها، ورفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، ثم أتبعهم بحجارة من سجيل من النار، يسلي الله رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم.

وبيَّن الله سبحانه وتعالى لنا ما حصل للأمم السابقة الذين كذبوا بالبعث والنشور، كذبوا الرسل، ماذا حلَّ بهم؟ يحذرنا الله سبحانه وتعالى أن نحذو حذوهم، ويتهدد كفار قريش وغيرهم الذين كذبوا نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم، يهددهم بأنه سبحانه وتعالى فعل بالأمم السابقة ما ذكره من العقوبات، فهو قادرٌ على أن يأخذكم ويعاقبكم.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾: فنوح عليه السلام أول الرسل، لما بعثه الله سبحانه وتعالى إلى قومه، لما وقعوا في الشرك، وعبدوا الأولياء والصالحين من دون الله عز وجل، بعدما نصبوا صورهم، ثم عبدوها من دون الله سبحانه وتعالى، فبعث الله إليهم نبيه ورسوله نوحًا عليه السلام، فدعاهم إلى الله، وأمرهم بترك عبادة غير الله سبحانه وتعالى،

فعصوْا الرسول، وتجبروا عليه، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٣ - ٢٤].

وقد استمر نبي الله نوح عليه السلام في دعوتهم، وما ترك مجالًا من مجالات التلطف بهم ودعوتهم إلا وسلكه عليه السلام، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين سنة يدعوهم إلى الله تعالى، فلما أخبره الله تعالى أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وما معه آمن إلا قليل، عند ذلك دعا عليهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧].

وأمره الله تعالى بصناعة السفينة من الخشب والألواح، وعلمه الله عز وجل صناعتها، فصنعها عليه السلام بأمر الله تعالى.

فلما جاء وعد الله عز وجل بهلاكهم، أمر تعالى السماء، فأمطرت، وأمر الأرض، فنبعت، فالأرض من تحتهم تفور، والسماء من فوقهم تهطل بالمطر، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١ - ١٢]، حتى علا الماء فوق الجبال.

عند ذلك أمر الله تعالى رسوله نوحًا عليه السلام أن يركب السفينة، وأن يحمل معه من كلٍ زوجين اثنين؛ لأجل بقاء النسل، فركب السفينة، وحمل من أمره الله عز وجل بحملهم، ﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤١ - ٤٢]، فهلكوا عن آخرهم، ولم ينج إلا نوح عليه السلام ومن معه في السفينة.

ثم لما هلكوا، أمر الله تعالى الأرض، فبلعت ماءها، وأمر السماء،

فتوقفت عن المطر، فذهب الماء، واستوت السفينة، أي: رست على الجودي، وهو جبل في أرض العراق يقال له: الجودي.

ونزل نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ومن معه بسلامة الله عَزَّ وَجَلَّ آمنين، وهلك قوم نوح عن آخرهم، لم يبق منهم أحد، حتى ابن نوح لما انحاز مع الكفار، وأبى أن يركب مع أبيه، أهلكه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى معهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]

قوله: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: في أصلاب آبائكم الذين ركبوا مع نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

و﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ هي: السفينة التي تجري في الماء، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾: جعل الله عَزَّ وَجَلَّ السفينة تذكرة وعبرة، وصارت صناعة السفن مهنة مستمرة بعد نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾: لتذكروا بما حصل لقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو شاء الله عَزَّ وَجَلَّ لأغرق هذه المراكب وهذه السفن، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بقدرته ورحمته ولطفه بالعباد يحملها على الماء؛ لمصالح العباد، ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤٢] فهذه السفن، وهذه المراكب والبواخر هذه مثال لسفينة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٤٢].

تسمعها، وتعتبر بها كل أذن تعي ما تسمع، وتعتبر بذلك، وقد سمعتم قصة سفينة نبي الله نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وما خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للناس مما يشبهها، فهذه عبرة وعظة لمن يعي المواعظ وينتبه لها.

ثم ذكر القيامة وأهوالها، فقال ﷻ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝١٣﴾، هي: نفخة البعث، و ﴿ٱلصُّورِ﴾: وهو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، الموكل به، وهذا القرن فيه أرواح بني آدم، فإذا نفخ فيه، طارت كل روح إلى جسمها، فبعث الله ﷻ الخلق وأحياهم.

قال ﷻ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾: اختلط بعضها ببعض، ثم تصير الأرض مبسوطة ليس عليها جبال، قال ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، تُبسط الأرض، وتُمد لأجل المحشر.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾: إذا حصل هذا، وقعت الواقعة، أي: قامت القيامة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝١٦﴾: فالسماء كلها تتشقق على قوتها وصلابتها، فتصير ضعيفة لا تتماسك، كالفضة المذابة؛ لشدة ضعفها.

﴿وَٱلْمَلَكُ﴾: أي: الملائكة، اسم جنس، ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ أي: أرجاء السماء وأطرافها الباقية منها، صفوفًا ينتظرون أمر الله ﷻ يصدر إليهم لينزلوا إلى الأرض.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أي: فوق الناس، أو فوق الملائكة، أو فوق الحملة، والعرش هو السرير الذي استوى الله عليه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، في سبعة مواضع من كتابه، فالعرش هو سقف المخلوقات، وهو الذي استوى الله ﷻ عليه استواء يليق بجلاله.

يحمله ثمانية من الملائكة، كل ملكٌ لا يعلم عظم خلقته إلا الله ﷻ،

وهم حملة العرش، فالعرش له حملة من الملائكة، وهم أربعة، فإذا جاء قيام الساعة، صاروا ثمانية، أي: زادهم الله ﷻ، وصاروا ثمانية.

فهذه كلها أهوال مستقبلة، لابد من الإيمان بها والاستعداد لها بالعمل الصالح، والتوبة إلى الله ﷻ، وترك الذنوب والمعاصي والسيئات، وقد ذكر الله ﷻ في هذه السورة نماذج من الذين كذبوا بها، وما أحلَّ بهم من العقوبات والنكبات؛ ليحذر عباده من ذلك.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس السادس والستون

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ
﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا
بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ
﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى
سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ
﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا
حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾
وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ
كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا
مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ
ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة: ١٩- ٥٢].

بعد ما ذكر الله سبحانه وتعالى ما حلَّ بالمكذبين لرسل الله من الأمم السابقة من العقوبة العاجلة في الدنيا، فإنه عز وجل ذكر في هذه الآيات ما يحلُّ بهم من

العذاب في الدار الآخرة، فبعد قيام الساعة، وما يصاحبها من الأهوال، فإنه ﷻ ذكر في هذه الآيات ما يلقاه الناس: المؤمنون والكفار بعد قيام الساعة، فالمؤمنون يلقون الكرامة، والجنات، والمشركون والمنافقون يلقون الهوان والعذاب.

قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَأَمَّا﴾: تفصيل، ﴿مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ أي: الكتاب الذي كتبته عليه الحفظة، وسجلت فيه أعماله في الدنيا، فإنه يُعطى هذا الكتاب يوم القيامة، إن كان من أهل الإيمان والعمل الصالح، فإنه يؤتى كتابه بيده اليمنى؛ تكريمًا له، وإن كان من الكفرة والمشركين، فإنه يُعطى كتابه بيده اليسرى؛ إهانة له؛ كما قال ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥].

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ أي: أُعطي كتاب أعماله، ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾: بيده اليمنى؛ تكريمًا له، فإنه يفرح ويُسر، ويقول للناس جميعًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾: ﴿هَآؤُمُ﴾ أي: هلم، أو تعالوا، أو هاكم، ﴿ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾؛ لأن فيه الخير والفرح والسرور.

ثم بيّن السبب في ذلك، وقال: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾، ﴿ظَنَنتُ﴾

أي: تيقنت؛ لأن الظن يأتي بمعنى اليقين أحيانًا؛ كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٦] أي: يتيقنون أنهم ملاقو ربهم.

﴿أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، فحاسبت نفسي في الدنيا، واستعددت لهذا اليوم، فهذا الذي حصل لي إنما هو بسبب أني كنت في الدنيا متيقنًا من البعث والنشور والجزاء والحساب، فأصلحت أعمالي، فتبت من الذنوب والمعاصي، فهذه هي العاقبة الحميدة.

قال الله ﷻ مبينًا عاقبته، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ أي: مرضية، يرضى بها، ويفرح بها، يسر.

مرتفعة في قصورها وبيوتها وأشجارها، وهم درجات، فأهل الجنة درجات بعضها فوق بعض، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**»(١).

فالجنة درجات حسب أعمال أهلها، بعضها فوق بعض، ولا أحد يشعر بالنقص، كلٌّ مسرور بما هو فيه، ولا يطلب مزيدًا؛ لأنه في عيشة راضية، كل راض بما هو فيه، ولا ينظر إلى الآخرين، ولا يكون هناك مشاحنات، أو شيء من الحزازات، أو من الهم، أو من الغم، بل كلٌّ راض بما هو فيه.

بخلاف النار -والعياذ بالله-، فإنها دركات، كل دركٍ تحت الآخر، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠، ٧٤٢٣).

﴿قُطُوفُهَا﴾ أي: ثمارها، جمع قِطْف، وهو ما يقطف من الثمار، ﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة منهم، لا يحتاجون أن يصعدوا، بل إذا أراد شيئًا، تدلى عليه القِطْف، فأخذه، وهو جالس على أريكته.

ثم يقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ كلوا من هذه الثمار، ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾ من هذه الأنهار، ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي: ليس فيه منغص، ولا مكدر، ولا تُخاف غائلته، وإنما هو لذة وصحة وعافية وقوة، ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾: هذا جزاؤكم ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ أي: بما قدمتم لآخرتكم، ﴿فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أيام الدنيا الماضية؛ لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء، فمن لم يعمل في الدنيا، لم يحصل على خير في الآخرة.

فالباء باء السببية، أي: بسبب ما ﴿أَسْلَفْتُمْ﴾ أي: قدمتم لأنفسكم في الدار الدنيا من صلاة، وصيام، وجهاد، وصدقة، وغير ذلك.

ثم ذكر الله ﷻ الصنف الثاني وهم الأشقياء قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ﴾ أي: كتاب أعماله، ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ أي: بيده اليسرى، فيتحسر -والعياذ بالله-، ولا يريد أن أحدًا يطلع عليه؛ لأنه عورة وحسرة وندامة، ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى﴾: يتمنى، ﴿لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾: لم أُعطَ كتابي.

قال ﷻ: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ أي: ويا ليتني لم أدر ما حسابي.

ثم يتمنى أيضًا ويقول: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: يا ليتني لم أُبعث، يا ليت موتتي كانت قاضية قاطعة لحياتي إلى الأبد، كل هذه تمنيات، والتمني إنما يكون للمستحيل، بخلاف الترجي، فإنه يكون للممكن، ثم إنه يتحسر أيضًا؛ لأنه كان في الدنيا له أموال وحشم وخدم وجاه، وممالك

وقصور وأبهة، فيتساءل أين ذهبت؟

فيقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾﴾ الذي جمعته في الدنيا، وانشغلت به عن العمل الصالح.

يقول: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: انقطعت حجتي، فليس له حجة عند الله ﷻ، فاعترف أن هذا عمله، ولم يُظلم بشيء، ولم يكذب عليه الحفظة.

عند ذلك يقول الرب ﷻ لملائكته الزبانية: ﴿خُذُوهُ﴾؛ لأنه لم يبق له عذر، ﴿فَغُلُّوهُ﴾: ردوا يديه إلى عنقه، واربطوه بالغل.

﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾ أي: إصلوه بالنار؛ ليذوق حرارتها، من الصلي، وهو الحرارة.

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾: سلسلة من الحديد ذات الحلق الكبيرة، ﴿ذَرْعُهَا﴾ أي: طولها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ والله ﷻ أعلم بمقدار بالذراع.

﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ أي: أنفذوها فيه، وانظموها فيه، يدخلونها من دبره، وتخرج من فمه، أو من أنفه، ويجمعون الكفرة في السلاسل مقرنين، والعياذ بالله.

ثم بيَّن الله ﷻ السبب في هذا، قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾: الإيمان الذي ينفعه، وينجيه، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح، فلا يؤمن بألوهيته، ولا يؤمن بأسمائه وصفاته، ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، فيبخل بالزكاة، فهو مسيء في حق الله ﷻ، ومسيء في حق الناس، يمنع الزكاة، ولا يتصدق، ولا يحث الناس على الصدقة، فهو مسيء فيما بينه وبين الله ﷻ، فلا يؤمن بالله العظيم، ومسيء فيما بينه وبين الناس،

فلا يتصدق على المحتاجين، ولا يحث الأغنياء على ذلك، فلا خير فيه، لامع نفسه، ولا مع الناس -والعياذ بالله-.

قال ﷻ: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: في يوم القيامة. ﴿هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ أي: ليس له في الآخرة صديق وقريب ينقذه من عذاب الله ﷻ، ويساعده؛ كما يحدث في الدنيا من التناصر والتعاون والحمية بين الأقارب والقبائل.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾﴾: والغِسلين قيل: هو الغُسَالة التي تكون من أجسام أهل النار، وهي الصديد، وقيل: إنه شجر من شجر النار، وقيل: إنه شجرة الزقوم، فالحاصل أنه طعام خبيثٌ.

ولهذا قال ﷻ: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾: وهم الكفرة، وهناك فرق بين الخاطئ والمخطئ، فالمخطئ هذا لا قصد له، ولذلك لا يؤاخذ على الخطأ، أما الخاطئ، فهو الذي يتعمد المخالفة، فهذا خاطئ، ولا يقال: مخطئ.

ثم بيَّن الله ﷻ حقيقة هذا الكلام، وأنه حقٌّ وصدقٌ، ليس هو من نسج الخيال، وإنما هو كلام حق، وكل ما ذُكِر في القرآن من هذه السورة وغيرها فهو كلام حق، ولا مجال لتكذيبه والتشكيك فيه؛ لأنه كلام الله، وقوله الحق.

ثم قال: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾: هذا قسمٌ منه ﷻ على صدق ما يقول، وهو الصادق ﷻ، ولو لم يحلف، ولكن هذا الحلف يدل على الاهتمام وزيادة اليقين.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: من الكائنات والآيات التي ترونها بأعينكم من

السماء والأرض، والشمس والقمر، والبر والبحر، والنبات، كل هذه من آيات الله ﷻ تعاينونها، وتشاهدونها.

﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾: من آيات الله ﷻ، التي هي من علم الغيب، لا يعلمها إلا الله ﷻ.

المقسم عليه هو صدقية القرآن؛ لأنه من كلام الله ﷻ، وليس من كلام النبي، وليس بكلام كاهن، ولا كلام شاعر، وليس بكلام محمد ﷺ، وليس بكلام جبريل ﷺ، وإنما هو كلام الرب ﷻ ابتداء، وكلام جبريل، وكلام محمد بلاغًا، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾: وهو رسول الله محمد ﷺ، أُسند إليه القول من باب البلاغ، فهو ﷺ مبلغ عن الله ﷻ، مبلغ كلام الله ﷻ، والكلام إنما يكون لمن قاله مُبْتَدِئًا، لا من قاله مؤديًا مبلغًا، ولذلك تارة نسبه إلى محمد ﷺ، وتارة نسبه إلى جبريل ﷺ.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾؛ لأن بعضهم يقول: إن القرآن من كلام الكهنة الذين تتنزل عليهم الشياطين، فهو من وحي الشياطين الذي تلقيه إلى الكهان، قال ﷻ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ أي: عن الوحي، فنفى الله ﷻ عن كلامه أنه من كلام الكهان الذين تتنزل عليهم الشياطين.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾: تذكرون، وتنظرون في القرآن، وتقارنون بينه وبين الشعر وبين كلام الكهان، ستجدون الفرق الواضح، ولذلك لما سمع الوليد ابن المغيرة القرآن من الرسول ﷺ، ذهب إلى قومه، وقال لهم: عرفت

الكهانة، وعرفت السحر، وعرفت الشعر، ما هو بالكهانة، ولا هو بالسحر ولا هو بالشعر، كل هذا أنا أعرفه، قال لهم هذا. فالقرآن لا يقارن بالشعر ولا بالكهانة.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾: هذه هي حقيقة أنه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾، بخلاف الكهانة، فإنها تنزيل الشياطين، تنزل الشياطين على الكهان.

ثم ذكر البرهان على ذلك أن القرآن ليس من كلام الرسول فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: لو قال الرسول علينا ما لم نقل، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾ أي: أهلكناه بسرعة، وهذا عبارة عن شدة العقوبة، ثم أهلكناه هلاكًا عاجلًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾: الوتين عرقٌ به نياط القلب، إذا انقطع، مات الإنسان، فلو كان محمد ﷺ - وحاشاه - كاذبًا على الله سبحانه وتعالى، لبادره الله سبحانه وتعالى بالإهلاك، ولم يمهله، ولأهلكه هلكة فيها عبرة للمعتبرين، كما أهلك المتنبئين لكذبة كمسيلمة، وغيره، ذهبوا، وذهب كلامهم، وانقطع ذكرهم.

أما القرآن، فهو باق إلى أن تقوم الساعة، والرسول ﷺ استمر يبلغ الرسالة منذ أن بعثه الله ﷻ إلى أن توفاه الله، والله يشاهده ويراه، ويقره، ويحفظه من أعدائه، وينصره.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي: لو أردنا أخذه وعقوبته، ما يستطيع أحدٌ منكم أن يفلته منا، سواء من أقاربه، أو من حوله، أو من أقوى الناس، ما أحد يستطيع أن يُفلت من أردنا عقوبته أبدًا.

ثم أثنى الله ﷻ على القرآن، وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾: يذكر أهل القلوب والعقول، يذكرهم بالحق، يذكرهم بالبعث والنشور، يذكرهم بالحق، ويرد الباطل.

ثم قال ﷻ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ أي: نعلم أن من الناس من يكذب بهذا القرآن رغم ما يقوم عليه من الشواهد التي تدل على أنه الحق، وأنه كلام الله ﷻ، هناك من الناس من يكذب به، ويقول: هذه أساطير الأولين، ويقول: هذه أخبار من نسج الخيال.

حتى إن بعض الأدباء الملاحدة من العرب أنكروا الأمم السابقة، قالوا: إن القرآن تحدث عن أمم سابقة، عن عاد وثمود، وليس من هذا حقيقة، إنما هذا خيال؛ كما قاله طه حسين في كتابه الشعر الجاهلي، لكن الله ﷻ جند عليه أهل العلم وأهل الحق، وردوا عليه، وقصموا ظهره، وأبطلوا قوله، وأفشلوه أمام الناس، والحمد لله.

ثم قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن، ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: إذا رأوا يوم القيامة حقيقة ما أخبر به القرآن، فإنهم يتحسرون، ويقولون: يا ليتنا صدقنا هذا القرآن، وعملنا به، فيتحسرون حين لا ينفعهم التحسر، ويقولون: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، ﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

ثم قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن.

﴿لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: ليس فيه شك أبدًا، فالعلم ثلاثة أقسام: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

* **القسم الأول**: علم اليقين: وهو الذي يُبنى على الأخبار الصادقة، مثل: علم الغيب تؤمن به، كأنك تشاهده اعتمادًا على الخبر الصحيح.

* **القسم الثاني**: عين اليقين، وهو الذي تشاهده.

* **القسم الثالث**: حق اليقين: إذا ذقته، ولمسته، حينئذ، وكل هذا في القرآن، فيه علم اليقين، وفيه عين اليقين، وفيه حق اليقين.

ثم قال ﷻ خاتمًا هذه السورة العظيمة: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي: نزه ربك ﷻ عما يقوله الكفار والمشركون وأهل الضلال، ما يقولونه في الله ﷻ، وما يقولونه عن رسول الله ﷺ، وما يقولونه عن القرآن.

وقيل: «سبح» يعني: صلِّ، والمعنيان صحيحان، فالتسبيح يراد به: التنزيه، ويراد به: الصلاة.

﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾: الذي لا أعظم منه ﷻ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس السابع والستون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ٣
تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا
٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ
كَٱلۡعِهۡنِ ٩ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ١٠ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ
بِبَنِيهِ ١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ١٣ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ
١٤ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾

[المعارج: ١- ١٨].

لما بعث الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ، ودعا الناس إلى توحيد الله ﷻ وعبادته وترك عبادة غير الله، وأمرهم ونهاهم عما كانوا يعملونه في الجاهلية، تحدوه ﷺ، وكذبوه، وأنكروا عليه ما جاءهم به، حتى إن واحدًا منهم أو جماعة دعوا على أنفسهم بالعذاب إن كان محمدًا ﷺ صادقًا، ودعوا على أنفسهم بالهلاك إن كان محمدًا ﷺ صادقًا، وأن ما جاءهم به من عند الله ﷻ، هذا من باب التحدي.

وقال قائل منهم لما سمع القرآن: اللهم إن كان هذا الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، فدعوا على أنفسهم بهذا الدعاء، فأنزل الله ﷻ هذه السورة سورة المعارج.

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۝١﴾: ﴿سَأَلَ﴾ بمعنى: دعا على نفسه وعلى قومه أن ينزل الله ﷻ بهم العذاب الذي توعدهم به رسول الله ﷺ إن لم يؤمنوا، واستعجلوا عذاب الله ﷻ من باب التكذيب.

وكأنهم يعجزون الله ﷻ، ويستبعدون عذابه، وأنه لا يقع؛ ليغروا غيرهم من المشركين والكفرة، ويستمروا على ما هم عليه.

وعذاب الله ﴿وَاقِعٞ﴾: لا محالة، لكن متى يقع؟ الله ﷻ أعلم بذلك، إما في الدنيا؛ كما حصل لهم يوم بدر، فهذا القائل قُتِل يوم بدر صبرًا -والعياذ بالله-، وإما في الآخرة، والآخرة قريبة؛ لأن كل ما هو آت فهو قريب، فهم وإن استعجلوه، ولم يقع بهم عاجلًا، فهو ينتظرهم.

والله لا يغير سنته ﷻ، ولا يخلف وعده، وهو حليم لا يعجل ﷻ، فهو لا يغير ما قدره وقضاه وما أجل له أجلًا من أجل تحدي الكفار؛ لأنه لا يغير سنته ﷻ، ولا يخلف وعده.

ثم قال ﷻ: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: هذا العذاب للكافرين الذين لم يؤمنوا برسول الله ﷺ.

﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ﴾ أي: إذا وقع، فليس له دافع يدفع وقوعه، أو يرفعه بعد وقوعه، بل هو بأمر الله ﷻ الذي لا يرد، ولا يدفعه جنود، ولا حصون، ولا أسلحة، ولا مخترعات، ولا دبابات، ولا طائرات، ولا دفاعات الجو

دفاعات الدنيا ما تدفع هذا العذاب.

ولو كان هذا العذاب من أحدٍ غير الله ﷻ، لكان من الممكن مدافعته، وتمكن النجاة منه، لكن هذا العذاب من الله ﷻ الغالب القهار.

وهذا فيه تصديق لرسول الله ﷺ، ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [هود: ٨].

فهو ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾، أي: صاحب المعارج، أو مالك المعارج والمعارج جمع معراج، وهو المصعد، والعروج هو الصعود، وهو الله ﷻ رفيع الدرجات، وهو في العلو الأعلى، فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، تصعد إليه الأشياء من الأرض.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ تصعد، وتنزل بالأوامر والمقادير.

﴿وَٱلرُّوحُ﴾: قيل: المراد بها: أرواح بني آدم عند قبضها يُصعد بها إلى الله ﷻ، وتستفتح لها أبواب السماء، فإن كانت أرواحًا طيبة، وأرواحًا مؤمنة، فُتِح لها، وتجاوزت إلى السماء السابعة، ورأت من كرامة الله ﷻ، ومن الروح والريحان والنعيم ما تسر به، ثم تُعاد إلى الأرض، وإن كانت أرواحًا خبيثة، وهي: أرواح الكفار، فإنها لا تفتح لها أبواب السماء، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، بل تُلقى، تُطرح طرحًا إلى الأرض -والعياذ بالله-؛ تعذيبًا لها؛ كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل الذي فيه صفة قبض الأرواح عند الموت، وما يحصل لها(١).

(١) حديث البراء بن عازب رضي الله عنه أخرجه أبو داود (٤٧٥٣).

فالمراد بـ ﴿وَٱلرُّوحُ﴾: اسم جنس، أي: جميع أرواح بني آدم، مؤمنين وكافرين.

وقيل: المراد بالروح: جبريل عليه السلام، أفرده الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكره مع الملائكة من باب الإكرام له، والتعظيم له، والتنويه بشأنه عليه السلام سماه الله روحًا في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣]، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢]، وهو جبريل عليه السلام.

وقيل: المراد بـ ﴿وَٱلرُّوحُ﴾: خلق من خلق الله لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ولا مانع أن تكون جميع هذه الأقوال داخلة في تفسير الآية.

﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله سبحانه وتعالى، فهذا فيه إثبات العلو لله عز وجل، فهو من أدلة علو الله سبحانه وتعالى على خلقه.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ أي: هذا اليوم مقداره خمسون ألف سنة، وفيه قولان:

القول الأول: المراد به المسافة التي بين العرش وتخوم الأرض، أسفل الأرض، تخترقه الملائكة بسرعة صعودًا ونزولًا، هذا من عجائب قدرة الله سبحانه وتعالى.

والقول الثاني: أن المراد بخمسين ألف سنة يوم القيامة؛ لأن الخلائق يقفون في المحشر خمسين ألف سنة على أقدامهم قبل الحساب، هذا بالنسبة للكفار، أما المؤمن، فإنه يسير عليه، قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٩ - ١٠]، نسأل الله العافية.

وعلى كل حال هذا يومٌ طويل، وفيه أقوال مأثورة عن السلف؛ كما ذكر ابن جرير، وابن كثير وغيرهما.

لكن هناك إشكال وهو أن الله في آية أخرى، ذكر أن مقداره ألف سنة، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥]، كيف تجمع بين الآيتين الكريمتين؟

فيه أقوال أهل العلم:

القول الأول: هذا اختلاف السير، فالسير يختلف، فمنه سير سريع، ومنه سير بطيء، فالسير السريع يكون مقداره ألف سنة، والسير البطيء يكون مقداره خمسين ألف سنة.

القول الثاني: أن المراد بذلك ما بين أعلى الأرض والسماء الدنيا مقداره ألف سنة، وأما ما بين العرش وبين التخوم، أسفل الأرض، فمقداره خمسين ألف سنة، فيكون اختلاف المسافة باختلاف المراد فيما بين السماء والأرض، كما في الحديث بينهما الصحيح أن بينهما خمسمائة عام.

القول الثالث: هو التوقف في هذا، الله أعلم به.

قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾ أي: لا تكترث بما يقولون، ولا تحزن لما يقولون من التكذيب والتحقير لشأنك، لا يهمك هذا، اصبر عليهم وعلى شرهم، وعلى ما يواجهونك به من الأذى والتكذيب والسخرية اصبر على هذا، ولا تجزع، أو تسخط، أو تتضايق من آذاهم.

﴿صَبْرًا جَمِيلًا﴾: الصبر الجميل هو الصبر الذي ليس معه شكوى إلى الخلق

وإنما الشكوى فيه إلى الله ﷻ؛ كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، وفي الآية الأخرى، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

والهجر الجميل هو الذي لا أذية معه؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠].

وقوله ﷻ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾: هذا يوم أن كان رسول الله ﷺ في مكة طيلة ثلاث عشرة سنة، فهو ﷺ يكابد من أذاهم ويصبر، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة، ووجد الأنصار، ووجد الدار، ووجد العزة والمنعة أمره الله ﷻ بجهاد الكفار.

قال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾: يرون هذا الذي تذكره لهم من العذاب بعيدًا ومستحيلًا ومتعذرًا، وأنه لن يقع، يرونه بعيد الوقوع ومستحيلًا.

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾: والله قريب الوقوع، أو ﴿وَنَرَىٰهُ﴾: يراد به المؤمنون، يرونه قريبًا؛ لأنهم يصدقون به، وأنه قريب الوقوع، فكل ما آت فهو قريب.

فهذا السبب الذي سبب لهم هذا التحدي، وهذا الاستهزاء هو أنهم يرون ما يقوله الرسول ﷺ مستحيل الوقوع، وأنه كذاب.

ثم بيّن الله ﷻ متى يكون هذا، فقال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾: حان وقت الانتقال إلى الآخرة سُيرت الجبال، فصارت هباء منبثًا، سُيرت الجبال الصلبة القوية، فصارت تمر مر السحاب، كأنها دخان، تذوب من شدة الهول، وتكون المهل وهو الفضة المذابة.

والجبال تكون كالعهن هو الصوف المنفوش، تتطاير فتصير هباء، وتصير كالصوف المنفوش.

ففي هذا اليوم ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝١٠ يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: لا يسأل القريب قريبه، مع أنه يراه.

ثم قال ﷻ: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾، وهو الكافر، كذلك العاصي الذي عليه ذنوب يستحق عليها العذاب.

﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾ أي: يدفع فدية بدله، ولايُعذب، ولو بأقرب الناس، ففي الآخرة، ليس هناك فدية.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ وهي: زوجته، يود أن يقدمها للعذاب ويسلم.

قال ﷻ: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣﴾ أي قبيلته التي يأوي إليها في الدنيا، ويدخل فيها، وتمنعه، وتناصره، وتؤيده، لا تنفعه يوم القيامة، ولو كانوا من أشرف قبيلة.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾: عمم الله ﷻ أن الفدية لا تنفع مهما بلغت بعدما خصص، ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤﴾، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٣٦﴾ [المائدة: ٣٦].

فالفدية لا تقبل يوم القيامة مهما كانت، ولا الوساطة، لا يدفع أحد عن أحد، كلٌ مشغولٌ بنفسه، وبجريمته وبعمله.

فكثير من الناس، ونحن منهم -ولا حول ولا قوة إلا بالله- نقرأ هذه

الآيات، وكأنها تعني غيرنا، ونحن لا نفكر فيها، مع أننا سنقدم على هذا اليوم، وعلى هذا الموقف، فما هو المخلص منه؟ المخلص ميسر وهو بطاعة الله ﷻ، واتباع رسوله ﷺ، والأعمال الصالحة.

ثم قال ﷻ: ﴿كَلَّآ﴾، المراد بها هنا: النفي -والله أعلم-، أي: أن هذه المحاولات منتفية يوم القيامة.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي: النار-والعياذ بالله-، ليس هناك مخلص منها، قال ﷻ ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]، ليس هناك إلا النار، كل المحاولات بارت وفشلت، إذًا ما بقي إلا النار -والعياذ بالله- للكافر والمشرك.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾: تنزع جلدة الرأس، وقيل: المراد الأعضاء تتقطع، ثم تعود كما كانت، نسأل الله العافية.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾، ﴿تَدْعُواْ﴾ أي: تنادي، وتعرف أهلها؛ لتأخذهم، ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾: من أدبر في الدنيا عن طاعة الله ﷻ، وأدبر عن اتباع الرسول ﷺ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: ليس له رغبة، ولا رجوع إليها.

﴿وَجَمَعَ﴾ أي: جمع المال.

﴿فَأَوْعَىٰ﴾ ولم ينفق منه في طاعة الله.

أما الذي يجمع المال من الحلال، وينفق في سبيل الله ﷻ، ويخرج الزكاة، ويتصدق، ويعتبر أن هذا المال نعمة من الله ﷻ، ويتقرب به إلى الله ﷻ منه، فهذا هو الذي يكون ماله خيرًا له في الدنيا والآخرة، أما هذا

الذي جمع المال، وأغلق عليه الأبواب والأكياس، وأغلق عليه الصناديق، ولم يخرج منه شيئًا، فما الذي استفاده منه؟.

هذا، وبالله التوفيق، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس الثامن والستون

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا
﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾
لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾
إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ
مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ
﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المعارج: ١٩-٣٥].

لما ذكر الله ﷻ الذين تدعوهم لظى يوم القيامة، وهي النار، بيَّن في هذه الآيات صفات الإنسان الذميمة المكروهة؛ ليتجنبها المسلم، وحتى يسلم من هذه النار.

فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾: المراد جنس الإنسان، وليس كل إنسان، ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ ﴾: والهلع هو الضعف، والجزع، واليأس عندما تصيبه مصيبة.

ثم فسر الله ﷻ الهلوع فقال ﷻ: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي: المرض، أو الجوع، أو الفاقة، أو أي مصيبة، فإنه لا يصبر، بل يجزع، ويتسخط، وييأس من رحمة الله ﷻ، والواجب عند المصائب الصبر، قال ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٦].

فالواجب عليه أن يصبر على المصائب، وينتظر الفرج، ويعلم أن هذا بقضاء الله ﷻ وقدره، وليعلم -أيضًا- أن ما أصابه إنما بسبب ذنوبه، فعليه أن يتوب، ويرجع إلى الله ﷻ، وبالتالي تكون المصيبة خيرًا له، ومربية له، لكن على العكس من ذلك من يجزع ويسخط، ولا يصبر على المصائب.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: إذا مسه الرزق والنعمة والعافية والصحة، فإنه لا يشكر الله ﷻ، بل يمنع ما آتاه الله ﷻ من فضله، ويبخل به، ولا يخرج الحقوق الواجبة فيه من زكاة ونفقة، ولا يتصدق صدقة التطوع، بل إنه يمنع الحقوق الواجبة في ماله، والحقوق المستحبة، ويظن أن هذا يوفر ماله ويحميه، مع أنه عرض ماله للتلف، فلو أنه تزكى وتصدق، لكان ذلك سببًا لحفظ ماله، وكان ذلك سببًا لنماء ماله وزيادته، فالمال لا ينقص من الصدقة؛ كما قال رسول الله ﷺ، وإنما يزيد، فالصدقة تطهر المال، وتزكيه، وتنميه، ويخلف الله ﷻ على صاحبه خيرًا مما أنفق، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، فالإنسان على العكس إذا مسه الخير، فإنه يبخل به، ويمنع الحقوق الواجبة والمستحبة فيه.

فمن صفات الإنسان: الجزع عند المصيبة، وعدم الشكر عند النعم، أما المؤمن، فإنه على العكس، إن أصابته ضراء صبر، وإن أصابته سراء شكر.

ثم ذكر الله ﷻ ما يطهر الإنسان عن هذه الصفات الذميمة، وهي الصلاة وما يتبعها من خصال الخير، قال ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾: فإن المصلين يتبرؤون، من هذه الصفات؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، قال ﷻ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣].

فيستعين الإنسان على المصائب والنكبات بشيئين: الصبر وعدم الجزع، وبالصلاة، فإن الصلاة فيها فرج؛ لأن المصلي يخاطب ربه ويدعوه، ويقف بين يديه ﷻ، فالصلاة تمده بالقوة، وتمده بالطمأنينة وزيادة الإيمان، سواء أكانت صلاة فريضة، وهذه بالدرجة الأولى، أو كانت صلاة نافلة، فإن فيها هذا السر العظيم، ولذلك شرعها الله ﷻ لعباده.

ثم ذكر الله ﷻ وصفاتهم، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾: يحافظون عليها، ولا يضيعونها، أو يضيعون بعضها، وإنما يداومون عليها في أوقاتها، ويداومون عليها مع الجماعة في المساجد، ويداومون عليها في جميع الأحوال، سواء في حال الصحة، وفي حال المرض، وفي حال الإقامة، وفي حال السفر، وفي حال الأمن، وفي حال الخوف، يحافظون على الصلاة، ويداومون عليها؛ لأنها هي غذاء أرواحهم وقلوبهم، وهي

مفتاح الفرج، ومجلبة الرزق والخير.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾﴾ وهو: الزكاة؛ لأن الزكاة قرينة الصلاة، والصلاة عبادة بدنية، الزكاة عبادة مالية، فهم كما يؤدون حق الله ﷻ، فإنهم يؤدون حق المخلوقين في أموالهم.

﴿مَّعْلُومٌ﴾ أي: معلوم المقدار حسبما ورد به الشرع: العشر، ونصف العشر في الحبوب، والثمار، وربع العشر في النقدين.

﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾: السائل الذي يتعرض للناس، ويطلب منهم، فله حق والمحروم الذي لايسأل الناس هو فقير ومحتاج، ولا يُفطن إليه ليُتصدق عليه، فهذا ينبغي الحرص على إمداده بالزكاة والصدقة؛ فهو أحق من غيره؛ ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ**» **قَالُوا، فَمَا الْمِسْكِينُ؟ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ**: «**الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ، فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ، وَلَا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا**»(١). هذا هو المحروم.

ثم قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾: ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ أي: يؤمنون بيوم الدين، والدين هو الجزاء والحساب، وهو يوم القيامة، فيؤمنون بأنه كائن لا محالة، فيستعدون له.

قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون، لا يأمنون من العذاب، ولا يزكون أنفسهم، بل يخافون من عذاب ربهم ﷻ، فيتجنبون ما يسبب لهم العذاب من الأعمال والأقوال والنيات والمقاصد السيئة، فهم

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٦، ١٤٧٩، ٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩) واللفظ له.

مع أعمالهم الجليلة يخافون من عذاب الله ﷻ، ولا يقولون: نحن تصدقنا، وصلينا، ويتكلون على ذلك.

فالمسلم يخاف، ولو عمل الأعمال الصالحة، فإنه يخاف ألا تقبل، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، فهم مع طاعتهم وأعمالهم الصالحة والجليلة، يخافون من عذاب الله ﷻ، وأن ترد عليهم أعمالهم.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾: غير مأمون الوقوع، فهو متوقع، فالذي يأمن من عذاب الله، ويأمن من مكر الله ﷻ، ويتمادى في غيه، هذا خاسر، ويعتمد على التمني فقط، وعلى الرحمة فقط، ولا يخاف من العذاب والعقاب، هذا خاسر، قال ﷻ: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

كما أنه لا يجوز للإنسان أن ييأس، ويخاف خوفًا شديدًا، وييأس ويقنط من رحمة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فيكون الإنسان بين الخوف والرجاء، لا يغلب جانب الخوف، فيقنط من رحمة الله ﷻ، وهذه هي طريقة الخوارج، ولا يغلب جانب الرجاء، فيأمن من عذاب الله ﷻ، وهذه طريقة المرجئة، بل عليه أن يكون بين الخوف والرجاء.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾﴾: فروجهم حافظون من الزنا، من التعري، والتفسخ والانحلال؛ لأن ذلك وسية إلى الزنا، فيحفظون فروجهم من الفواحش، من الزنا، ومن اللواط، من إتيان النساء

في أدبارهن، يحافظون على ذلك، فالفروج أمانة، وأكثر ما يُدخِل الناس النار الفم والفرج، الفم وما ينطق به، وما يتكلم به، والفرج فيه خطورة، فعلى الإنسان أن يحفظه من الفاحشة، ومن وسائل الفاحشة، وأسبابها، فيتجنب النظر إلى ما حرم الله ﷻ، ويتجنب الاختلاط مع النساء، ويتجنب كل ما يؤدي إلى الفواحش، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، أي: اتركوا الوسائل المؤدية إلى الزنا، وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية... [النور: ٣١].

فالمرأة كذلك تحافظ على فرجها من التعري، ومن السفور، والتهتك، لا تسافر وحدها بدون محرم، ولا تخلو مع رجل ليس محرمًا لها، ولا تختلط بالرجال، لا تضاحك الرجال، وتمازح الرجال، فيطمع الذي في قلبه مرض، عليها تجنب الأسباب التي تؤدي إلى الزنا، فبعض الناس يستعظم الزنا، ولكنه لا يتجنب الأسباب التي توقعه فيه، وتجره إليه، فلابد من هذه الأمور؛ لأنها من المحافظة على الفروج.

ثم استثنى سبحانه الاستمتاع المباح، فقال ﷻ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: الله ﷻ جعل هذه الغريزة في الإنسان، في الرجال والنساء لحكمة عظيمة وهي بقاء النسل، فالغريزة موجودة، لكن توضع في مصرفها الشرعي؛ حتى تثمر، ويحصل بها غض البصر، ويحصل الإنجاب والذرية الصالحة، ويحصل الإعفاف للزوجين بخلاف السفاح -والعياذ بالله-، فإنه بلاء خطير، وشر وبيل يوجب غضب الله ﷻ، ويوجب الأمراض الفتاكة، ويضيع النسل، وتضيع الكرامة الإنسانية.

أو ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾: يتسرى بمملوكته، فقد أباح الله ﷻ له ذلك.

فالذين ينادون بالوسائل التي تفضي إلى الزنا - من السفور، ومن الاختلاط، ومن....، ومن.... إلى آخره- إنهم ينادون إلى الرذيلة، ويجرون الناس إلى الرذيلة، وعدم حفظ الفروج، فينبغي التفطن لهذا، فالفرج أمانة، فحافظ عليها، ولا تقع في مستنقعات الغرب.

ثم قال ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الزوجة أو ملك اليمين، ذهب ليسافح مع النساء بدون زواج شرعي، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ أي: المتجاوزون من الحلال إلى الحرام.

﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾: حصر العدوان فيهم؛ لشدة جريمتهم، لأنهم تركوا ما أحلَّ الله ﷻ، وذهبوا إلى ما حرم الله.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾﴾: الأمانات جمع أمانة، وهي ما أُوتمن عليه الإنسان، وأُستحفظ عليه الإنسان، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧].

فالأمانة كل ما أُوتمن عليه الإنسان، فالفرائض أمانة بينك وبين الله ﷻ تقوم بها، وتحافظ عليها، ولا تضيع فرائض الله ﷻ.

المحارم التي حرمها الله أمانة تجتنبها، وتبتعد عنها، فالأمانة تكون بين العبد وبين ربه ﷻ، وهي أعظم الأمانات، قال ﷻ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، فالأمانة يراد منها في هذه الآية أمانة التكاليف الشرعية، هذه

هي الأمانة بين العبد وبين ربه.

والوضوء أمانة؛ كما قال رسول الله ﷺ، والصيام أمانة، الصلاة أمانة، جميع الواجبات الشرعية، وتجنب المحرمات أمانة، والله ﷻ رقيب عليك وحسيب عليك، حتى ولو لم يدرِ الناس عنك، ولم يعلموا، فالله ﷻ رقيب عليك، مطلع عليك، حفيظ عليك ﷻ، فراعِ الأمانة التي بينك وبين الله ﷻ ﴿رَٰعُونَ﴾ أي: يحفظونها ويؤدونها إلى من ائتمنهم عليها، قال رسول الله ﷺ: «**أَدِّ الأَمَانَةَ لِمَنْ ائْتَمَنَكَ، ولا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ**».

كذلك الأمانات التي بينك وبين الناس، يودعون عندك أموالًا، تحافظ عليها، وتؤديها لهم، ولا تعتدِ عليها، ولا تضيعها، كذلك الأسرار التي تؤتمن عليها لا تفشها، ولا تخبر بها، فهذه أمانة، فعليك أن تحافظ على الأسرار التي في إفشائها ضرر على الناس، وكذلك الوظائف أمانة تقوم بأعمالها، فالموظف مؤتمن، يقوم بوظيفته، ويؤدي العمل الذي عليه، ولا يضيع عمله، ولا يتساهل فيه.

فالأمانات شاملة فيما بين الله ﷻ، والعباد، وفيما بين الخلق، فيجب عليك أن تؤدي الأمانة، وليس هنالك أحد لم يتحمل الأمانة، كلٌ على حسب حاله، فعلى المسلم أن يراعي أماناته، ويقوم بها، وإلا فإنه سيسأل عنها يوم القيامة.

والعهود والمواثيق التي بين الناس، بين المسلمين بعضهم مع بعض، سواء العهد مع ولي الأمر، أو العهد مع سائر الناس، وكذلك العهود التي بين المسلمين وبين الكفار، قال ﷻ: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

فتراعي العهد الذي بينك وبين الله ﷻ، والعهد الذي بينك وبين ولي الأمر، والعهد الذي بينك وبين الناس - مؤمنهم وكافرهم -؛ فالعهد مسئولية.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾: الشهادة هي الإخبار عن الشيء المتيقن، وتكون عند القاضي، تكون على العقود، فيجب على الشاهد أن يكون قائمًا بالشهادة، لا يشهد إلا بحق، ولا يكتم الشهادة إذا احتيج إليها، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، لا يحرف الشهادة، ويكذب فيها على حسب هواه، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، يشهد لله ﷻ؛ إبراء لذمته قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾: لا تُحابِ أحدًا بشهادتك، فتشهد للقريب أو الصديق، وأنت كاذب؛ من أجل أن تنفعه بزعمك وتساعده، وأنت في الحقيقة تخذله وتضره، بل قل الحق ولو كان مرًا على القريب أو البعيد، بل وعلى نفسك، قال ﷻ: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ﴾، ولا تحملك القرابة على أن تحيد في الشهادة، بل تؤديها على الواجب المطلوب، سواء كانت لهم أم عليهم، حتى الكافر إن شهدت عليه، فلا تكذب في شهادتك، فالشهادة مسؤولية، وليست كلمة تقال على حسب رغبات الإنسان، وشهادة الزور من أكبر الكبائر -والعياذ بالله- ، وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لَنْ تَزُولَ قَدَمُ شَاهِدِ الزُّورِ حَتَّى يُوجِبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ**»(١).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٣٧٣).

وبعض الناس يتساهلون في أمر الشهادة، ويعتبرونها نوعًا من النصرة لصديقه أو قريبه أو قريبته.

ثم الصفات، فقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾﴾: ختم الله ﷻ الآيات بما بدأها به.

فالصلاة أول الأمر وآخر الأمر، يحافظون على وقتها، يحافظون على جماعتها، يحافظون على أركانها وواجباتها وشروطها، يحافظون عليها، يأتون بها محفوظة من كل نقص، أو كل مبطل، لا تصلِّ لمجرد الصلاة فقط، تركع وتسجد وتقوم، ليس هذا هو المطلوب فقط، المطلوب أن تكون صلاتك صحيحة، صلاتك قائمة، صلاتك على الوجه المشروع، وليس في أي وقت تصلي؛ لأن بعض الناس يسهر الليل، وينام النهار، فإذا استيقظ المغرب يصلي الصلوات الفائتة، هذا لا تقبل منه صلاته، يجب أن تحافظ عليها في أوقاتها مع الجماعة، تحافظ على أركانها، وعلى شروطها وواجباتها وأعمالها؛ كما أمر الله ﷻ بذلك، فليس المقصود الصلاة الصورية، وإنما المقصود الصلاة الصحيحة المبرِئة للذمة، تصلي كما أمرك الله ﷻ، لا كما تأمرك نفسك.

قال ﷻ في بيان جزاء هؤلاء: ﴿أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

فهم في جنات مكرمون نسأل الله الكريم من فضله، وإحسانه، وصلى الله، على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

فقد يكون الإنسان في قصر مشيد، وفي أبهة، لكنه منغص بالأمراض، منغص بالأوجاع.

الدرس التاسع والستون

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ۝٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ۝٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ۝٣٩ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٤١ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [المعارج: ٣٦- ٤٤].

هذه الآيات الكريمات ختام سورة المعارج، قال الله سبحانه وتعالى فيها مستنكرًا على الكفار عدم إيمانهم برسول الله محمد ﷺ، وعدم إيمانهم بالقرآن العظيم، مع أن الرسول ﷺ حريص على هدايتهم ونجاتهم من النار، فهو ﷺ جاءهم بخيرهم، وجاءهم بنجاتهم، ومع هذا لم يقبلوا، فاستنكر الله سبحانه وتعالى عليهم ذلك، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: استفهام إنكار، أي شيء منعهم من اتباعك وطاعتك، أي شيء منعهم من ذلك إلا الكبر والعناد.

﴿قِبَلَكَ﴾ أي: حولك، ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ أي: هاربين من سماع ما جئت به؛ كما قال تعالى في الآيات الأخر في سورة المدثر: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٤٩ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥٠ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥١﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥٢].

وقيل: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: يستمعون القرآن، ولكن لا يتدبرونه، ولا يعلمون ما فيه؛ لأنهم لا يريدون ذلك، فهم يسمعون لمجرد السماع فقط، وربما يكون قصدهم من السماع هو الاستهزاء برسول الله ﷺ، وبالقرآن.

قال سبحانه وتعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: عن يمين، وعن شمال رسول الله ﷺ، ﴿عِزِينَ﴾: جمع عِزَة، وهي الفرقة، والقطعة من الناس، فهم من شدة الفرار تقطعوا، كلٌ اتجه إلى جهة، لا لشيء إلا لأجل معصية الرسول ﷺ، والتكبر عن اتباعه، مع أن طاعته واتباعه خيرٌ لهم.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨﴾ أي: مع هذا الإعراض، ومع هذا الإنكار يطمعون في دخول الجنة، فيدَّعون لأنفسهم أنهم يدخلون الجنة مع هذا العمل القبيح، وطمعوا في ذلك من غير اتباع لرسول الله ﷺ، فدل هذا على أن كل من طمع في دخول الجنة من غير اتباع رسول الله ﷺ، فإنه لا يدخلها؛ كما عليه غلاة الصوفية الذين يزعمون أنهم ليسوا بحاجة إلى الرسول ﷺ، وأنهم يدخلون الجنة بدون اتباع الرسول ﷺ، ويقولون أن الرسول ﷺ إنما هو للعوام من الناس، فهذا شبيه بحالة الكفار الذين يطمعون في دخول الجنة من غير اتباع رسول الله ﷺ.

ثم نفي الله سبحانه وتعالى هذا الطمع وأبطله، فقال تعالى: ﴿كَلَّآ﴾: لا يدخلون الجنة، وهم على هذه الحالة، فدل ذلك على أن من مات على الكفر،

فلا طمع له في دخول الجنة.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: خلقهم الله ﷻ من الماء المهين، فكيف يستكبرون عن طاعة الرسول، وهذا أصلهم؟!!!

وقيل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾: ردٌّ على من أنكر البعث، والمشركون والكفار ينكرون البعث، ولم ينظروا إلى بداية الخلق، فالله ﷻ خلقهم، فالذي قدر على خلقهم من ماء مهين قادر على أن يعيدهم ويبعثهم من باب أولى، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]، ففي مقتضى النظر أن الذي يقدر على البداية يقدر على الإعادة من باب أولى، مع أن الله ﷻ لا يعجزه شيء ﷻ.

بل إن الذي خلق السموات والأرض على قوتهما وصلابتهما ألا يقدر على أن يخلق هذا الإنسان ويعيده؟!!

والمقسم عليه ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ أي: لا نعجز عن إعادتهم، قادرون على كل شيء، لم يقل ﷻ: «إنا لقادرون على إعادتهم».

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾: قيل: المراد نهلكهم، ونأتي بقوم آخرين أحسن منهم؛ كما قال ﷻ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لسنا عاجزين عن ذلك، أو أنهم لا يسبقوننا ويفوتوننا، بل نحن محيطون بهم، قادرون عليهم؛ لأنهم في قبضتنا.

ثم قال سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾: أنت - أيها الرسول - بلغتهم الرسالة، وأقمت عليهم الحجة، ولا تملك هدايتهم، فالهداية بيد الله سبحانه وتعالى، وما على الرسول إلا البلاغ، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [الشورى: ٤٨].

وهذا وقت أن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة، فهو مقتصر على البلاغ، ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، ووجد المسلمون والأنصار والقوة أُمِر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجهاد، بعد الدعوة أُمِر بالجهاد في سبيل الله.

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾: الذي وعدهم الله سبحانه وتعالى على ألسن رسله، وهو يوم القيامة والبعث والنشور، فإنهم لم يُخلقوا عبثًا، ولم يُخلقوا سدى، أبدًا، ولم يخلقوا للهو، واللعب.

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور، ثم يسيرون إلى المحشر، ولا أحد يتخلف أو يختفي، ولا أحد يمكث في القبور، بل يخرجون قهرًا عليهم.

﴿سِرَاعًا﴾ أي: يمشون سراعًا، يتجهون إلى المحشر، لا يتخلف منهم أحد.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ قيل: المراد بـ ﴿نَصَبٌ﴾: هو الصنم؛ لأن المشركين كانوا يتسارعون إلى الأصنام، أيهم يصل إليها أولًا، فيتمسحون بها، ويتبركون بها، فهم يسرعون إلى المحشر كما يسرعون إلى الأصنام.

﴿يُوفِضُونَ﴾ أي: يمشون مسرعين، وقيل: المراد بالنصب: العلم، الذي

يكون للجند يسيرون خلفه، فكأنهم يسيرون خلف علم يلتفون حوله، ولا يتخلف أحد.

قال ﷻ: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾: هذه هي حالهم عند المسير، أي: ذليلة، لا ينظرون إلى فوق؛ من الذلة والخوف.

أي: تغشاهم الذلة والخزي والعار -والعياذ بالله- من هول ما يلقون، ومن شناعة ما عملوه في الدنيا.

قال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾: هذا اليوم الذي وصفناه، ووصفنا حالهم فيهم هو اليوم الذي كانوا يوعدونه، وكذبوا به لما أخبرتهم عنه الرسل، ولكن كذبوا به، واستبعدوه استبعادًا عجيبًا، فهم ادعوا أن الله ﷻ يعجز أن يعيدهم، وجحدوا هذا، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٩٨]، استنكار منهم، فهم عجزوا الله ﷻ، كذبوا رسله، وجحدوا البعث والنشور، حتى أتاهم هذا اليوم، وهم على غير استعداد له، وجاءهم ما لم يكونوا يحتسبون، قال ﷻ: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فهذه هي حالهم، والعياذ بالله.

كل هذا بسبب أنهم تكبروا عن الحق، وعصوا رسول الله ﷺ، واستبعدوا البعث والنشور، والجزاء والحساب، استبعدوا هذا، فماذا تكون حالهم حينئذ؟ نسأل الله العافية.

حصل هذا اليوم، ووقع كما أخبرت به الرسل، فبطل بذلك إنكارهم واستبعادهم له، وبهذا انتهت هذه السورة العظيمة، وما فيها من الآيات العظيمة من تقرير الرسالة، وتقرير البعث والنشور، وتقرير الجزاء والحساب

فهي سورة عظيمة، وفيها بيان حالة الإنسان، وصفات الإنسان إذا لم يهتد، وفي هذه السورة من عجائب آيات الله ﷻ الشيء الكثير لمن يتأمل ويتدبر، ويتعظ بآيات الله ﷻ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الدرس السبعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١﴾ قَالَ
يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ
وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي
دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ﴿٥﴾ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ
جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ
جِهَارٗا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ﴿٩﴾ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا
﴿١٠﴾ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ
وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ﴿١٣﴾ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ
خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ
أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ
بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ١- ٢٠].

الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى في كتابه الكريم يقص علينا دعوة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكيف تبدأ، وكيف يصبرون على مجاهدة المدعوين، ومراوغة الناس، ولا ييأسون، وأنهم يرغبون المدعوين، ويرهبونهم، هذه هي أساليب الدعوة،

ونأخذها من دعوة الرسل ﷺ، لا نأخذها من مصطلحات الناس، أو مصطلحات الجماعات، وإنما نأخذ أساليب الدعوة من منهج الرسل ﷺ، وهذا أول الرسل نبي الله نوح عليه السلام، وقد تكررت قصته في القرآن فقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في مواضع، منها هذه السورة بكاملها.

فهو أول رسول بعثه الله عز وجل إلى أهل الأرض لما ظهر الشرك في قوم نوح عليه السلام، وذلك أن الناس كانوا من عهد آدم عليه السلام إلى عهد نوح عليه السلام كانوا على التوحيد، كانوا على دين أبيهم آدم عليه السلام، عشرة قرون؛ كما قال ابن عباس رضي الله عنهما(١)، وهم على التوحيد، يعبدون الله، ولا يشركون به شيئًا.

فلما كان في وقت نوح عليه السلام تغير الحال، وحدث الشرك، وذلك بسبب الغلو في الصالحين، فإن الذي أوقع قوم نوح عليه السلام في الشرك هو الغلو في الصالحين، وذلك أنه كان فيهم رجالٌ صالحون، يعبدون الله سبحانه وتعالى، كانوا يحبونهم ويجلونهم، فلما ماتوا جميعًا، حزن عليهم قومهم، لما فقدوهم، وفقدوا أعمالهم وعلمهم، وحزنوا عليهم حزنًا شديدًا.

فجاءهم الشيطان، واستغل هذه المناسبة، ورأى حرصهم على الذين ماتوا، ومن حزنهم عليهم، فاستغل هذه الفرصة، وأشار عليهم، ومكر بهم، فقال: صوروا صورهم، وانصبوها على مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها؛ من أجل أن تتذكروا أحوالهم، وتنشطوا على العبادة، جاءهم بطريق

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٦٩)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٢٨)، وفي الكبير (٨/ ١١٨) والمستدرك على الصحيحين (٢/ ٤٨٠، ٢/ ٥٩٦، ٢/ ٥٩٩)، وفيه: «كَانَ بَيْنَ آدَمَ، وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ فَكَانُوا أُمَّةً وَاحِدَةً».

النصح من باب المكر بهم؛ لأجل أن يقبلوا منه.

فأخذوا بهذه المشورة، وصوروا صور هؤلاء الصالحين، ونصبوها على مجالسهم؛ للتذكر أو للذكريات كما تسمى الآن، فلم تُعبد في أول الأمر، وإنما جُعِلت للتذكر؛ لأنهم كان ما زال فيهم علماء ينكرون الشرك، وينكرون الغلو، فلم يتمكن الشيطان من الخطوة الثانية، ولكنه بذر البذرة، وخطا الخطوة الأولى التي ظاهرها الإصلاح، والخير، فلم تُعبد في أول الأمر.

ثم لما طال الزمان، ومات بقية العلماء من قوم نوح عليه السلام، ولم يبق عالم جاءهم الشيطان، ووجد جيلًا جاهلًا، فبدأ بالخطوة التالية الخبيثة، وهي الغاية له، وهي التي يريدها، فقال لهذا الجيل الجاهل: إن آباءكم كانوا يعبدون هذه الصور، ويعظمون أصحابها، ويُسقون بها المطر، فوقع ذلك في نفوسهم لجهلهم، فصدقوه وعبدوها من دون الله عز وجل، فوقع الشرك من ذاك الوقت، وذلك بسبب الشيطان، ومكره ببني آدم، واستغلاله تعظيم الصالحين، واستغلاله الصور.

حينئذ بعث الله سبحانه وتعالى نبيه نوحًا عليه السلام يدعوهم إلى الله عز وجل، وينكر عليهم الشرك، فحصل ما حصل من مراوغاتهم ومكابرتهم، واستمر نوح عليه السلام في دعوتهم، وطال الزمان، فعاش فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، لم يفتر في دعوته عليه السلام، يدعوهم لعلهم يرجعون.

فلما أخبره الله سبحانه وتعالى أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن، وكان الذين آمنوا معه نفرًا قليلًا، عند ذلك دعا عليهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى

ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٧]، فاستجاب الله سبحانه وتعالى لدعوته عليه السلام، وأغرقهم عن آخرهم، ولم ينج إلا نوح عليه السلام ومن آمن معه.

والشاهد من ذلك هو خطر الغلو في الصالحين، والعناية بآثار الصالحين وبيوتهم، وصور الصالحين، وأن هذا يؤدي إلى الشرك بالله عز وجل؛ كما حصل لقوم نوح عليه السلام؛ ولهذا كان علماء الأمة يحذرون من الغلو في الصالحين، من الغلو في أشخاصهم، والغلو في قبورهم، والتبرك بآثارهم، وما أشبه ذلك من وسائل الشرك، فلا يتساهل بهذه الأمور.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢١ - ٢٣]، هذه أسماء الصالحين الذين صوروا صورهم، عبدوها من دون الله سبحانه وتعالى، وهذا كما حصل من قريش والعرب لما دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد، وقال لهم صلى الله عليه وسلم: «**قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، تُفْلِحُوا**»(١)، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾: مثلما قال قوم نوح عليه السلام، ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ وهي: الأصنام، والأشجار، والأحجار وسائر المعبودات من دون الله سبحانه وتعالى.

هذه مقالة الكفار، والمشركين، سيرتهم واحدة من الأولين والآخرين،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥/ ٤٠٤)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٨٢)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٥١٨) والطبراني في الكبير (٥/ ٦١، ٨/ ٣١٤، ٢٠/ ٣٤٢).

فهموا من «لا إله إلا الله» أنها تنفي الشرك، وتبطل عبادة ما سوى الله ﷻ، فهموا هذا منها؛ لأنهم عرب يعرفون معنى اللغة، وأن معنى لا إله إلا الله أنهم يتركون عبادة آلهتهم، وهم لا يريدون هذا، واليوم عباد القبور يقولون: «لا إله إلا الله» آلاف المرات، ومع هذا يشركون بالله ﷻ، ولا يفهمون أن «لا إله إلا الله» تُبطل ما هم عليه، فهم يقولونها بألسنتهم، ويخالفونها بأفعالهم، فصار كفار قريش أفهم منهم بمعنى «لا إله إلا الله» وأنها ليست لفظًا يقال فقط، وإنما لها مدلول، ولها معنى، ولها مقتضى، ليست مجرد لفظ يقال باللسان، ويستمر قائلها على عبادة غير الله ﷻ من دعوة الأولياء والصالحين والموتى أصحاب الأضرحة؛ ولهذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: **(فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعَنى (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)**[1].

قال ﷻ في مطلع هذ السورة: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾: ﴿أَرۡسَلۡنَا نُوحًا﴾ أي: بعثناه عليه السلام، ﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾: لما حدث فيهم هذا الشرك.

بعثه الله ﷻ لينذر قومه من العذاب الأليم، إذا استمروا على ما هم عليه من الشرك بالله ﷻ، فإن الله ﷻ لا يعذب أحدًا قبل إقامة الحجة عليه، بإرسال الرسل، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قال لهم: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾: هذا أول ما بدأ به نوح عليه السلام، وهو الدعوة إلى التوحيد، والآن هناك ممن ينتسبون للدعوة من يقول: لا تذكروا التوحيد، فإن هذا يؤدي إلى نفور الناس، بل ادعوهم إلى

(١) انظر: كشف الشبهات (ص٩).

الصدق، وإلى الصلاة، وإلى فضائل الأعمال، رغبوهم، وأما عقائد الناس، فلا تتدخلوا فيها؛ لئلا تفرقوا بين الناس. هكذا يقولون، هذه مخالفة لدعوة الرسل؛ فهذا أول الرسل نبي الله نوح ﷺ أول ما بدأ الدعوة بالتوحيد، قال ﷻ: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: لا تعبدوا غيره.

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: اتقوا عذابه وغضبه ﷻ إن استمررتم على ما أنتم عليه، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ لأنه رسول إليهم، والرسول يطاع، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

الثمرة من طاعة الرسول ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾، إن عبدتم الله، واتقيتموه، وأطعتموني فيما أمرتكم به، ونهيتكم عنه، يغفر لكم الله ﷻ من ذنوبكم، فلو تابوا، تاب الله عليهم، وغفر لهم، قال ﷻ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، والتوبة تَجُب ما قبلها، والإسلام يَجُب ما قبله، وهذا من فضل الله ﷻ أنه جعل مخرجًا من الكفر والعذاب، وذلك بالتوبة إلى الله ﷻ، وأنه لم يغلق الباب دون الكفار والمشركين، بل فتح ﷻ باب التوبة، فإذا تابوا تاب الله عليهم.

وهذه ثمرة التوحيد، وترك الشرك، وطاعة الرسول ﷺ أن الله يغفر بذلك جميع الذنوب.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، هذه فائدة ثانية ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ هذه هي الفائدة الأولى من طاعة الرسول ﷺ واتباعه.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾، ولا يعاجلكم بالعذاب، بل أما إن استمررتم على ما أنتم عليه، فإن الله تعالى يعاجلكم بالعقوبة، ويدمركم.

قال بعض العلماء: إن في هذا دليلًا على أن الطاعة يمدد الله تعالى بها العمر، ويبارك فيه بسببها، وأن المعصية يقصم الله ﷻ بها العمر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ﴾ أي: إذا نزل بكم العذاب، وعاينتم العذاب، فلن يقبل الله منكم توبة، وأما إن تبتم قبل ذلك، تاب الله تعالى عليكم، وفي هذا دليل على أنه لا تقبل التوبة عند نزول العذاب، والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، فالجهل بالله تعالى، والجهل بسنته تعالى يوقع الإنسان في الهلاك.

هذه هي الخطوة الأولى من نوح عليه السلام مع قومه، باشر الدعوة معهم، ودعاهم إلى التوحيد والاستغفار، فالتوحيد والاستغفار هما خير ما يمحو الله تعالى بهما الذنوب، قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، فالتوحيد والاستغفار يدفع الله تعالى بهما العذاب والعقوبة.

الخطوة الثانية: لما رأى نوح عليه السلام إعراضهم وامتناعهم من قبول دعوته شكا إلى ربه تعالى، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ أي: إنه لم يفتر عليه السلام في دعوة قومه في الليل والنهار، فهو مستمر في الدعوة، وليس يدعوهم ثم يتركهم معللًا بأنه لا فائدة من دعوتهم، بل استمر عليه السلام، وصبر على الدعوة إلى الله تعالى، وهذا من وسائل الدعوة: فالاستمرار عليها، وعدم اليأس، وعدم الانقطاع سبب لتأثيرها في المدعوين.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ : فلم يستجيبوا، أنا أدعوهم لكي يقربوا من الله ﷻ، ولكنهم يفرون من الله ﷻ.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ : كلما دعاهم ﵇ لأجل أن يتوبوا، فيغفر الله لهم، فهو ﵇ يدعوهم من أجل مصلحتهم، ما يريد منهم طمعًا دنيويًا، أو رئاسة، إنما يريد الخير لهم، والنصيحة لهم.

﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ : يسدون آذانهم عن سماع صوت نوح ﵇، وهذا غاية التمرد والنفور -والعياذ بالله-، فالذي لايسمع إلى الحق، ولا يستمع إلى الباطل، لابد أنه يستمع، فإما أنه يستمع إلى الحق، ويستفيد، أو أنه يستمع إلى الباطل.

﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: يلتفون بثيابهم، ويتغشون بثيابهم؛ لئلايُبصروا نبي الله نوحًا ﵇، كراهة النظر إلى وجه مَن ينصحهم في دين الله ﷻ، فهم قد حجبوا أبصارهم وأسماعهم، أبصارهم عن رؤيته؛ بغضًا له، وحجبوا أسماعهم عن سماع صوته.

﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: أستمروا على ما هم عليه، ولم يتحولوا عنه.

﴿وَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ : استكبروا عن اتباع نوح ﵇ وقبول دعوته، فما أقبح أن الإنسان يستكبر عن دعوة الرسل، يستكبر عن الخير، فالاستكبار من أخلاق إبليس -لعنة الله عليه- قال ﷻ: ﴿أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، استكبر عن الحق، والواجب على العبد أن يخضع للحق، وأن يذل للحق؛ لأنه في مصلحته.

وقال ﷻ -أيضًا-: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ : دعوتهم علانية بين الناس

بعد أن كان يدعوهم سرًا، فكان نوح عليه السلام يأتيهم، ويدعوهم علانية بين الناس؛ مبالغة في إبلاغ الدعوة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ﴾ أي: رفعت صوتي، ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ﴾، فجمع عليه السلام بين الجهر بالدعوة تارة، وبين الإسرار بها ما ترك شيئًا من وسائل الدعوة إلا سلكه عليه السلام.

قال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾: لم يقنطهم من رحمة الله سبحانه وتعالى، بل رغبهم في الاستغفار، وهو طلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى على ما هم عليه من الاستكبار والشرك والتمرد.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾: كثير المغفرة سبحانه وتعالى، فاطمعوا في مغفرته، ولا تيأسوا من رحمته عز وجل؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٤].

ثم قال: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾: إذا تبتم إليه سبحانه وتعالى، غفر لكم، وأنزل عليكم المطر، وحصل لكم منافع عظيمة، أولها أن الله عز وجل يغفر لكم ذنوبكم، ويمحوها عنكم، الثانية أنه يدر عليكم الأرزاق في الدنيا؛ لأن الكفر والشرك والمعاصي والذنوب سببٌ لقطع الرزق.

قال: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ﴾ أي: إن استغفرتم الله سبحانه وتعالى، فإنه عز وجل يزيدكم من الأموال، بدلًا من الفقر والفاقة والحاجة.

﴿وَبَنِينَ﴾: ذرية صالحة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٤٦].

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾، وهي البساتين التي فيها أنواع الثمار على أثر سقوط الأمطار يحصل الخصب، ويحصل الخير.

﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾: تجري من السيول؛ لأن أنهار الأرض من السيول، وكل هذه المنافع والخيرات من آثار قبول دعوة الرسل والتوبة إلى الله والاستغفار.

ثم قال: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ أي: شيء حملكم على المكابرة، وعدم الخوف من الله ﷻ، فلا ترجون، أي: لا تخافون، ﴿لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ أي: إجلالًا، وهو الكبير المتعال الجليل ﷻ، كيف تشركون به، وتعصون رسوله ﵇، وهذا تنقص لله، فهذا دليل على أن الشرك فيه تنقص لله ﷿.

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾: خلق أباكم آدم التراب، ثم خلقكم من الماء من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم يكون أجسامكم بالعظام والأعصاب والعروق في بطون أمهاتكم، قال ﷻ: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

كيف تعصونه، وهو الذي أنعم عليكم بالخلق والإيجاد، وقواكم في أبدانكم بالحواس وبالأعضاء، والصحة والعافية؟!!!

كيف تتكبرون على ربكم ﷻ، وتنصرفون إلى أصنام لا تنفع ولا تضر؟! فهي جمادات، أو أموات في القبور، أو أحجار أو أشجار مخلوقة، كيف تنصرفون عن عبادة الله ربكم الذي خلقكم، والذين من قبلكم إلى غيره مما لا يملك لكم ضرًا ولا نفعًا.

وقيل: خلقكم أطوارًا بعد الولادة من طفل إلى سن التمييز، إلى البلوغ، إلى الكهولة، إلى الشيخوخة، فهذه أطوار[1]، فالإنسان يمر بأطوار في بطن أمه، وفي أطوار بعد ولادته، فهو إلى أن يموت في أطوار يتنقل فيها، أليس هذا من العجائب؟ من الذي ينقله بين هذه الأطوار إلا الله ﷻ؟ هل الأصنام فعلت هذا؟!! هل الأشجار؟ هل الأحجار؟ هل الأموات فعلوا هذا؟!!! أين العقول؟!! نسأل الله العافية، قال ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ثم ذكرهم الله ﷻ بخلق السموات والأرض وما فيهما من الآيات الكونية، وأنها أعظم من خلقهم، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾: هذا خطاب لكل من يعقل، أي: ألم تبصروا وتفكروا.

﴿كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾: بعضها فوق بعض، واسعة رحبة، قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات: ٤٧-٤٨].

﴿طِبَاقٗا﴾: بعضها فوق بعض، ولا يعلم سعتها ومن فيها إلا الله ﷻ.

﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾: ينور السماء الدنيا مما يلي الأرض.

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾: تضيء الكون، وتجلي الليل، فيصبح الناس في إبصار واضح؛ من أجل مصالحهم، فالقمر يضيء بالليل، والشمس سراج في النهار؛ من أجل معاشكم ومصالحكم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٩٥)، وزاد المسير (٨/ ٣٧١)، والقرطبي (١٨/ ٣٠٣)، وابن كثير (٤/ ٤٢٦).

فهو الذي نور لكم الليل، وأسرج لكم النهار، هل أحدٌ ينكر هذا؟ هل هناك من يدعي أنه هو الذي عمل هذا؟ هل هناك من أحد يدعي أنه هو الذي خلق الشمس والقمر؟ أو هناك من يدعي أن الأشجار والأصنام والحجار هي التي خلقت هذا؟!! ما أحد يدعي هذا أبدًا.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾﴾: أنبتكم من الأرض حين خلق آباءكم آدم عليه السلام، خلقه الله سبحانه وتعالى من تربة الأرض، ثم يعيدكم فيها بعد الموت في القبور.

﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾: للبعث، تقومون من قبوركم للبعث، تخرجون منها، قال تعالى: ﴿۞ مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

كيف تكفرون بربٍ هذه هي أفعاله، وهذه قدرته، وهذه نعمه عليكم، وتشركون به ما لا يسمع، ولا يبصر، ولا يخلق، ولا يرزق، ولا يملك ضرًا ولا نفعًا؟! هذا من انتكاس الفطرة والعقول.

فهذه أدلة التوحيد واضحة جلية، لكن الشرك ليس عليه دليل واحد، إنما هي شبهات، قال سبحانه وتعالى للمشركين: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]. ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٤]، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

فليس عند المشركين- الأولين ولا الآخرين براهين وأدلة على شركهم، وإنما هي شبهات أو تقليد أعمى لمن قبلهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ

تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٦]، أو حكايات، وأحلام كاذبة، هذا كل ما عندهم.

قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾﴾: لما ذكر الله ﷻ السموات الطباق، ذكر الأرض، وأنها بساط ممدود، يعيش عليها الخلق، ليست وعرة، وإنما هي مبسوطة يعيشون عليها.

و﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا﴾: طرقًا، ﴿فِجَاجٗا﴾: بين الجبال تسيرون بينها في أسفاركم وسيركم، ولم تكن كلها جبالًا وعرة، لا تستطيعون صعودها، ولا السير عليها، فقد جعل الله ﷻ بين الجبال الفجاج، وأنتم ترون هذه الفجاج، هذه رحمة من الله ﷻ؛ لأجل أن الناس يسيرون، وتتصل مصالحهم وأسفارهم، وتتواصل البلدان، فهذه من رحمة الله ﷻ.

هذه هي بعض براهين التوحيد، فأين براهين الشرك والكفر؟ لا براهين للشرك أبدًا، وإنما هي شبهات وتقليد أعمى -نسأل الله العافية-.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الحادي والسبعون

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا
كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾
وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ
يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾
إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ
وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾

[نوح: ٢١ - ٢٨].

لما حاول نوح مع قومه قبول دعوته بكل طريق ولم يقبلوا منه، شكا إلى الله ﷻ موقفهم منه ومن دعوته، وتآمرهم عليه، وإصرارهم على شركهم، وتمسكهم بأصنامهم، فلم تؤثر فيهم دعوة نوح عليه السلام، مع ما قام به من المحاولات والصبر وطول المدة، لم يُجدِ فيهم ذلك، بعد ذلك شكا إلى الله ﷻ موقفهم منه ومن دعوته عليه السلام.

نادى ربه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾، أي: لم يستجيبوا لدعوتي ونصيحتي وإشفاقي عليهم.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ : واتبعوا كبراءهم والملأ منهم، أهل المال والأولاد وأهل الثروة، اتبعوهم، وأعرضوا عني.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ﴾ ، اتبعوا من أطغاه ماله، وولده، واستغنى بهما عن قبول الحق مع أن ذلك خسارة عليهم، وعلى من اتبعهم.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ : مكر هؤلاء الأغنياء.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾ أي: عظيمًا كبيرًا، و«كُبَّار» صيغة مبالغة، أي: مكروا مكرًا كبيرًا.

مكروا بأتباعهم، وغرروا بهم، وأوردوهم الهلاك؛ حيث إنهم منعوهم من اتباع الحق، واتباع الرسول عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي: الأصنام التي تعبدونها، ثم عينوا أسماء هذه الآلهة، فقالوا: ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ، هذه هي أسماء أصنامهم، حثوا قومهم على التمسك بها، وألا يطيعوا رسول الله عليه السلام بتركها، لعبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، فهذا يدل على أن الرسل يدعون إلى ترك عبادة الأصنام، وإلى ترك الشرك، ويأمرون بالتوحيد، هذه هي سنتهم من أولهم إلى آخرهم، الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وهو أول ما يبدؤون به دعوتهم؛ لأنه هو الأساس الذي يبنى عليه ما بعده، أما إذا أقيم بناءً على غير أساس، فإنه ينهار، ولا ينفع، فلابد أولًا من أن تؤسس بإصلاح العقيدة، فإذا صح الأساس ابن عليه بقية أمور الدين، ولهذا فإن الرسل أول ما يبدؤون بالأمر بالتوحيد، وينهون عن الشرك، فإذا استجاب

لهم الناس، نزلت الشرائع والأوامر والنواهي؛ لأنه ليس هناك فائدة، بدون التوحيد.

عند ذلك دعا عليهم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ فاستجاب الله، فأغرقهم بالطوفان، وماتوا عن آخرهم، ولم ينج إلا نوح، ومن ركب معه في السفينة.

فلما أغرقهم الله جَلَّ جَلَالُهُ، اندفنت أصنامهم في الأرض، واختفت إلى أن جاء عهد المشركين في جزيرة العرب، الذين تركوا دين إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ وابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجاءهم الشيطان، وأخبرهم بهذه الأصنام التي تحت الأرض، ودلهم على أماكنهم، فاستخرجوها، ووزعوها فيما بينهم، فصار لكل قبيلة صنم، وتغير دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا على يد الخبيث الذي جاءه الشيطان، فأخبره بمواطن هذه الأصنام وهو عمرو بن لحي الخزاعي، فوزع الأصنام على القبائل، فعادت الوثنية وتغير دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، إلى أن جاء رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأحيا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به ملة الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقضى على هذه الأصنام، وكسرها، ودمرها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا فيه خطر، البحث عن الآثار؛ لأن هذا يؤول إلى شر، فالتنقيب عن الآثار وعن أماكنها، لا يدل على خير، وإنما يدل على شر، ورجوع إلى الجاهلية، فينبغي أن تطمس، وأن تترك، وأن يتلف ما وجد منها، هذا هو الواجب؛ لأنها آثار الشرك، وآثار الجاهلية.

ثم إنه بعد رسول الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما انقضى وقت القرون المفضلة، دب الشيطان مرة أخرى إلى هذه الأمة المحمدية، ثم للمرة الثالثة، فأغراهم

بعبادة القبور والأولياء والصالحين والتوسل بهم، وجعلهم شفعاء عند الله ﷻ، فالشيطان لا يترك عمله مع بني آدم، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ لأنه تعهد بذلك فقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ أي: من الناس، وهكذا حال دعاة الضلال فإنهم خطر على البشرية في كل زمان ومكان، فهم هلاك الأمة إذا مُكِّنوا، وتُرِك المجال لهم، فيجب الحذر منهم ومن مكرهم وكيدهم.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾: هذا دعاء من نوح عليه السلام، دعا عليهم في أن الله ﷻ يزيدهم ضلالًا إلى ضلالهم؛ لإنهم لما لم يقبلوا الحق، فالله ﷻ ابتلاهم بالضلال، وهكذا دائمًا وأبدًا من لا يقبل الحق يُبتلى بالباطل؛ عقوبة له.

ثم بيَّن الله ﷻ ما حلَّ بهم في الدنيا، قال ﷻ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾، وذلك أن الله ﷻ أوحى إلى نبيه نوح عليه السلام أنه ﷻ سيُهلك قومه، وأمره الله ﷻ بأن يصنع السفينة، فصنع نوح عليه السلام بأمر الله ﷻ ووحيه وتأييده له، حتى أتقنها.

وكان نبي الله نوح عليه السلام يصنع الفلك، وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه، سخروا منه، ومن هذه السفينة ومن نوح عليه السلام: ماذا يصنع بهذه السفينة؟!

فلما أتقنها عليه السلام وأحكمها بأمر الله، أمره الله ﷻ بأن يركب فيها هو ومن معه من المؤمنين، وأن يحمل فيها معه من كلٍّ زوجين اثنين: من الدواب، من الطيور، ومن الآدميين، من كلٍّ زوجين اثنين؛ لأجل بقاء النسل، ثم أمر الله ﷻ الأرض، فنبعت، وأمر الله السماء، فأمطرت، والتقى الماء -ماء

السماء، وماء الأرض-، وكان الطوفان الذي علا على رؤوس الجبال.

وقد أنجى الله ﷻ نوحًا ﵇ ومن معه في السفينة، وأغرق ﷻ كل أهل الأرض، ولم يبق منهم أحد إلا من كان مع نوح ﵇، حتى ابن نوح ﵇ الذي من صلبه، لما كفر، وصار مع الكفار، وأبى أن يركب مع أبيه السفينة، وقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

وقوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾، وأصله: «من ما» صلة للتأكيد، «خطيئاتهم» أي: بسبب خطيئاتهم وكفرهم.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ أي: بسبب كفرهم وخطاياهم وذنوبهم، ﴿أُغْرِقُوا۟﴾: أغرقهم الله ﷻ بالطوفان الذي نبع من الأرض، حتى إن التنور الذي هو موقد النار صار يفور بالماء، فالأرض كلها نبعت، والسماء انهمرت، وعلا الماء رؤوس الجبال.

وبعد الغرق: ﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ لما عصوا نوحًا ﵇، وهذا مآل كل كافر ومشرك إلى أن تقوم الساعة.

قال الله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ أي: لم ينفعهم أحد، ولم يدافع عنهم أحد، وآلهتهم - وَد، وسُوَاع، ويَغُوث، ويَعَوق، ونَسْر- ما نفعتهم، ولا أنقذتهم، ولا نصرتهم من عذاب الله ﷻ.

ثم دعا نوح ﵇ للمؤمنين، فقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾، وكان والداه مؤمنين.

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ﴾، قيل: المراد «من دخل مسجدي»، وقيل: المراد «من دخل منزلي».

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: عمومًا إلى أن تقوم الساعة، فهو دعا على الكفار إلى أن تقوم الساعة بالهلاك، ودعا للمؤمنين إلى أن تقوم الساعة بالمغفرة؛ لأن الكافر والمشرك، لا يجوز الاستغفار له، قال ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ [التوبة: ١١٣ - ١١٤].

فيبدأ المسلم بالدعاء لنفسه، ثم لوالديه، ثم المؤمنين والمؤمنات، وهذا مشروع إلى أن تقوم الساعة، ثم أعاد نوح عليه السلام الدعاء على الكفار، فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارَۢا﴾ أي: هلاكًا، فالتبار هو الهلاك، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٣٩] أي: مدمر.

وفي هذه السورة العظيمة من العبر والمواعظ والتسلية للمؤمنين والتثبيت للمؤمنين ما تستقر به نفوسهم، وتطمئن به قلوبهم، وفيها من المواعظ الشيء الكثير، فهي سورة عظيمة، ومنها قصة عظيمة لهذا النبي الكريم الذي هو أول الرسل عليه السلام؛ لنترسم خطاه، ونسير على منهجه في الدعوة إلى الله ﷻ.

ونسأل الله ﷻ أن ينفعنا وإياكم والمسلمين بالعلم النافع والعمل الصالح وأن يرزقنا الاعتبار والاتعاظ، وأن يكفينا شر الأعداء، ودعاة الضلال ودعاة السوء، وما أكثرهم في هذا الزمان! نسأله أن يسلمنا من شرهم ومن كيدهم، وأن يرد كيدهم في نحورهم، وأن ينصر الإسلام والمسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الثاني والسبعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى
ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣
وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا
ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا
۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا
نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١ - ١٠].

في هذه السورة العظيمة ذكر الله ﷻ ما كان من الجن عند بعثة رسول الله ﷺ، وما حصل لهم من الاستغراب لما شاهدوه في السماء، وأنهم صاروا يبحثون عن الأسباب التي سببت ما رأوه في السماء من الشهب، وكثرة ما يرمى به الشهب، وكان ما بين المسيح عليه السلام وبعثة محمد ﷺ ما يزيد عن أربعمائة سنة تسمى بالفترة، وقد انقطعت آثار الرسالات، وانطمست، وضعف أثرها في الأرض بسبب طول المدة ما بين الرسولين عيسى ومحمد.

وكانت الشياطين في هذه الفترة متسلطة على الناس، وكانت تسترق السمع الذي تسمعه من الملائكة في السماء، وتلقيه إلى الكهان من بني آدم، والكهان كانوا مراجع للناس، كل قبيلة كان لها كاهن يخبرها بأخبار الغيب التي يدعيها مما تلقيه عليه الشياطين من استراق السمع، فكان في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه، ويرجعون إليه في مشكلاتهم، وكان هذا الأمر متفشيًا في الجاهلية، فلما أن أراد الله ﷻ رحمة بالبشرية، بعث محمدًا ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل عليه القرآن، وقبل نزول الوحي جاءت مقدمات الوحي فشاهد الناس في السماء شيئًا لم يشاهدوه من قبل، وهو كثرة رمي الشهب، وكان رميها في الجاهلية قليلًا، وكانت الشياطين تسترق السمع من السماء، وتلقيه على الكهان، ولما أن أراد الله ﷻ بعثة رسوله محمد ﷺ، حُرِست السماء، فلم تستطع الشياطين التوصل إلى ما كانوا يتوصلون إليه من قبل، فتحيروا في هذا الأمر، ما هي أسبابه؟

وأرسل الشيطان رسله إلى الأرض؛ لينظروا ما الخبر، ويأتوه به، فنشرهم في الأرض ليأتوه بالخبر.

فجاءت الجن إلى مكة، فوجدوا رسول الله ﷺ يصلي من الليل، ويقرأ القرآن، فاستمعوا له، فأعجبهم القرآن وتلذذوا به، فذهبوا إلى هؤلاء الجن آمنوا برسول الله ﷺ، ورجعوا عن الكفر، واهتدوا بالقرآن؛ لأن الرسول ﷺ مبعوث إلى الإنس والجن كافة، والقرآن يخاطب الإنس والجن، فلما سمعوه تأثروا به، وأعجبهم، وتلذذوا به، فأمر الله رسوله بقوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

و﴿ٱلْجِنِّ﴾: عالم خفي يرونكم من حيث لا ترونهم، ولذلك سُمُّوا بالجن من الاجتنان وهو الاستتار؛ لأنهم مستترون عن الإنس لا يرونهم.

وبعد أن استمعوا إلى القرآن تعجبوا، ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ أي: ليس من المألوف في الكلام الذي كانوا يسمعونه، فهو كلام عجب في أسلوبه، في أخباره، في هدايته، في تأثيره على القلوب، في تلذذ الأسماع به، فهو عجب من كل وجه.

﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: هذه صفة ثانية للقرآن أنه ﴿يَهْدِىٓ﴾ أي: يدل، ﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: والرشد ضد الغي، وهو الهداية إلى الصراط المستقيم، الطريق الصحيح، فالقرآن يهدي إلى الرشد؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الإسراء: ٩- ١٠]، هذه صفة القرآن.

فالجن لما استمعوه، عرفوا مدلوله، وفي الآية الأخرى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩].

فهذه واقعة أخرى، عندما خرج ﷺ إلى الطائف يدعوهم إلى الله ﷻ، اشتد أذى قريش له في هذا الوقت، فخرج إلى الطائف؛ لعله يجد أحدًا يناصره، ويأوي إليه، فرد عليه ﷺ أهل الطائف ردًا قبيحًا، بل ورجمه ﷺ سفهاؤهم بالحجارة، فرجع ﷺ من الطائف يقصد مكة، وبينما هو في وادي نخلة، وهو ما بين مكة والطائف، وقف ﷺ يصلي الفجر، فقرأ القرآن،

فاستمع إليه الجن الذين جاؤوا إليه من نصيبين في العراق، واستمعوا للقرآن فأعجبهم، وآمنوا به، وذهبوا إلى قومهم، و﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: آمنا بالقرآن، وبما يأمر به، وينهى عنه، ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾: فتبرؤوا من الشرك الذي كان عليه قومهم.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾، ﴿تَعَٰلَىٰ﴾ أي: عظم شأنه وارتفع، ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: عظمته، وجلاله سبحانه وتعالى.

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً﴾ أي: زوجة، ﴿وَلَا وَلَدًا﴾؛ كما يصفه المشركون أنه سبحانه وتعالى اتخذ ولدًا، فالنصارى يقولون: اتخذ عيسى عليه السلام ولدًا، واليهود يقولون: اتخذ عُزَيْرًا ولدًا، والعرب يقولون: اتخذ الملائكة بناتًا له، فهم لم ينزهوا الله سبحانه وتعالى عن الولد؛ لأن الولد شريك للوالد، وشبيهٌ به، الله سبحانه وتعالى لا شريك له، ولا شبيه له، وأيضًا فإن الوالد يحتاج إلى الولد، والله عز وجل غنيٌ عن خلقه سبحانه وتعالى، فليس بحاجة إلى الولد، ولا إلى المعين، ولا إلى الظهير.

فنزهوا الله سبحانه وتعالى عما يصفه به أهل الجاهلية من أهل الكتاب وغيرهم.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾: السفيه هو خفيف العقل، ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾، أي: باطلًا من اتخاذه الولد والشركاء.

والسفيه هنا قيل: إنه الشيطان، وقيل: إنه عام في كل من ادعى لله الشريك والولد، فإنه سفيه، العاقل لا يقول هذا؛ لأنه يعلم أن الله سبحانه وتعالى غنيٌ عن الولد، والشركاء منزه.

قالوا: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾: فأحسنوا الظن بالإنس والجن، فصدقوهم فيما يقولونه عن الله ﷻ، واعتقدوا له الشريك والصاحب والولد، واستبعدوا أن الإنس والجن يتواطؤون على الباطل، ولكن، والعقيدة لا يُعتمد فيها على الظن، لابد فيها من اليقين؛ قال ﷻ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔاۚ﴾ [يونس: ٣٦].

قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾: كان الجن في الجاهلية مسيطرين على الإنس، والإنس يخافون منهم، ويستجيرون بهم، ويستعيذون بهم، فإذا نزلوا في البر، فإنهم يقولون: «نعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه».

﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: زاد الجن الإنس ﴿رَهَقًا﴾ أي: خوفًا، فصار الإنسي يخاف من الجن، ويرهب منه غاية الرهب؛ لأنهم لما خافوهم في الأول، وقع الرعب في قلوبهم، فلم تزدهم الاستعاذة بهم إلا خوفًا ورهقًا.

وقيل: المعنى: زاد الإنسُ الجنَ ﴿رَهَقًا﴾ أي: عظمة وتكبرًا، كل من الفريقين زاد الآخر، هؤلاء زادوا الجن إعجابًا وتسلطًا وتكبرًا، والجن زادوا الإنس خوفًا ورهبًا[(١)]؛ كما في الآية الأخرى، ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٠٩)، وزاد المسير (٨/ ٣٧٩)، والقرطبي (١٩/ ١٠)، وابن كثير (٤/ ٤٢٩).

والاستعاذة لا تكون إلا بالله ﷻ وحده، ولهذا كان النبي ﷺ إذا نزل منزلًا يقول: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**»[١].

وعلم أصحابه ﷺ أن يقولوا ذلك، بدلًا مما كانوا في الجاهلية يقولونه، فالله سبحانه وتعالى شرع للمسلمين أن يعوذوا به، وبكلماته القرآنية، وكلماته القدرية.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أي: أنهم تواطؤوا على الكفر بالبعث، ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾، يقولون: كيف إذا صار الميت ترابًا ورميمًا وعظامًا يعود إلى الحياة من جديد؟!!! هذا محال عندهم، ونسوا أن الله جل جلاله خلقهم من العدم، وأوجدهم من العدم، فالذي أوجدهم أول مرة قادر على أن يعيدهم مرة ثانية، وهو سبحانه وتعالى قادر على كل شيء.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ أي: طلبنا خبرها؛ كما جرت عادتنا في الجاهلية يصلون إلى السماء الدنيا، ويقعدون منها مقاعد للسمع، يستمعون كلام الملائكة، فيأتون به إلى الكهان، فلما بُعِث رسول الله محمد ﷺ حُرِست السماء بالشهب، وبالرصد، وهم الملائكة، فلم يتمكنوا مما كانوا يتمكنون منه في الجاهلية.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ أي: في الجاهلية، ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ أي: من السماء، ﴿مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ أي: للاستراق السمع، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ﴾ أي: وقت بعثة رسول الله ﷺ، ﴿يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾: يجد له شهابًا، ويجد له رصدًا، الشهاب هو النار أو الشظية التي تنطلق من الكوكب، والرصد هم الملائكة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨).

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾، يقولون: هذا الأمر ليس عبثًا، هذا له نتيجة، وهي إما أن الله ﷻ أراد إهلاك أهل الأرض؛ كما أهلك الأمم السابقة، وإما أن الله أراد بهم رشدًا -أي: خيرًا- فلا تذهب هذه الظاهرة عبثًا.

وانظروا إلى أدبهم مع الله؛ حيث قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾: ﴿أُرِيدَ﴾، ما قالوا: «أراده الله»، وإن كان الله ﷻ أراده، ولكن من باب حسن الأدب مع الله ﷻ، والله لا يأتي منه إلا الخير، وإنما الشر بالنسبة للمخلوقين، وأما الله ﷻ، فكل ما يأتي منه ﷻ فهو خير، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»[(١)]، فلا يوصف ما يأتي من الله ﷻ بأنه شر، بل إن كان عقوبة، فإنه عدلٌ، والعدل خير، ليس ظلمًا، فكل ما يأتي من الله خير؛ لأنه إما فضلٌ، وإما عدل، إما فضلٌ من الله ﷻ، وهو الخير، وإما عدلٌ، وهو العقوبة.

الحاصل: أن هذه بداية إرسال الرسول ﷺ، ومقدماتها، وأن القرآن محروس ومحفوظ وقت نزوله، وفي وقت بقائه في الأرض، إلى أن يرفعه إلى الله ﷻ في آخر الزمان، وهو محفوظ، ولا يتطرق إليه نقصٌ أو زيادة، ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢].

ودلت هذه الآيات على أن بعثة رسول الله ﷺ عامة للجن والإنس، وأنه مبعوث للثقلين: الإنس والجن، فلا يسع إنسي أهل الأرض جميعًا إلا إتباع

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

هذا الرسول ﷺ، وأنه ببعثته ﷺ نُسِخت الشرائع السابقة، واستقرت الشريعة الإسلامية إلى أن تقوم الساعة.

وكذلك في هذه الآية بطلان الشرك، وبطلان الكهانة، وبطلان عمل الكهان، وفيها رحمة الله ﷻ بأهل الأرض؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وفيه أن الظن لا يغني في العقيدة من الحق شيئًا؛ لأنها تُبنى على الأدلة، ولا تُبنى على التقليد الأعمى، ولا تُبنى على الظنون، وإنما تُبنى على الأدلة الصريحة من الكتاب والسنة.

الدرس الثالث والسبعون

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١١- ١٨].

هذه الآيات من جملة ما أخبرت به الجن لما سمعوا القرآن، وإنك لتعجب إذا كان الجن يتأثرون بالقرآن، ويخشعون له، فكيف بالإنس وأكثرهم يعرضون عن القرآن، مع أنه بلغتهم، ويخاطبهم أصلًا، ومع هذا فإن كثيرًا من الإنس يعرضون عن القرآن، ولا يستفيدون منه، ولا ينتفعون به، إلا من رحم الله.

فمن جملة ما أخبر الجن به أنهم قالوا: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أي: الجن المستقيمون على طاعة الله ﷻ، ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ أي: دون الصالحين

من عندهم قصور في الصلاح؛ كما عند الإنس كذلك، منهم صالحون مستقيمون، ومنهم عصاة وفسقة، فكذلك الجن.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: فرقًا مختلفة، وأحزابًا، وشيعًا، كل حزب له طريقة ومنهج يختلف عن الأخرى؛ مثلما الإنس كذلك مختلفون، لهم طرائق ومناهج مختلفة.

فقد كانت العرب قديمًا في الجاهلية كذلك، كانوا متفرقين في عباداتهم، منهم من يعبد ما استحسنه، أو وجد عليه آباءه، فمنهم من يعبد الشياطين، ومنهم من يعبد الشجر والحجر، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، إلى أن بعث الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ، وجاء بالحق، فآمن به من آمن من الإنس والجن، واهتدوا بدعوته، واستفادوا من علمه.

وكانوا في الجاهلية متفرقين في توجهاتهم؛ لأن الذي لا يكون على الحق، فإنه يتفرق، ويتشعب عليه الأمر، فمن ترك الهدى، وقع في الضلال والاختلاف والتفرق؛ لأنه مثل الذي يمشي على غير جادة؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فالذي يعصم من هذا التفرق وهذا الاختلاف وهذا التناحر، ما يعصم من ذلك إلا بالتمسك بالكتاب والسنة، هذا هو حبل الله ﷻ، فمن تمسك به، واعتصم به، نجا، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وأما من لم يكن له هدى من الله ﷻ، فإنه يقع في التيه والتفرق

والاختلافات الذي لا ينتهي، قال ﷻ: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، كل يظن أنه على الحق، وأن غيره على الباطل، بل ويفرح بما هو عليه؛ زيادة في الفتنة، وإلا لو كان ما يطمئن إلى ما هو عليه، لكان من الإمكان أن يبحث عن الحق، لكن المشكلة هي أنه إذا كان مقتنعًا بما هو عليه من الباطل، فإن هذا صعبٌ أن يبحث عن الحق، وإذا تبيَّن له الحق، لا يقبله؛ لأنه يزعم أنه على الحق.

فهذه الآية فيها نهي عن التفرق والاختلاف، وبيان أنه لايعصم من هذا إلا الكتاب والسنة، قال ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩].

وقد جاء النبي ﷺ والناس متفرقون، مختلفون، فجمع الله ﷻ به أهل الإيمان، فصاروا جماعة واحدة، وإخوة متحابين، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ فَتَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»(١).

فإذا تركنا الكتاب والسنة، وأخذنا بأقوال الناس وآراء الناس، فإننا نضيع وفي هذا ردٌّ على من ينادون بالأخذ بالخلافات والأقوال من غير دليل، ويقولون: أن هذا فيه توسعة على الناس.

فالتوسعة هي فيما أنزل الله ﷻ من الكتاب والسنة، وما عداهما، فهو ضيق وحرج، وإن ظن أصحابه أنه توسعة، وأنه حق؛ لأنه تيه وضلال،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣).

ولا يؤدي إلى أية نتيجة، ولا ينتهي إلى غاية؛ لأنه ليس طريقًا صحيحًا، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فسبيل الله ﷻ واحد، أما غيره، فـ«سُّبُل» كثيرة، كل له هواه، وكل ما وجد عليه آباءه أو فلان، وهذا فيه هلاك وضلال، لا ينتهي بأهله إلى خير، ونحن لم نؤمر باتباع الأقوال والخلافات، أُمِرنا باتباع الحق، فنأخذ ما هو صحيح وما هو حق مما يدل عليه الكتاب والسنة من أقوال أهل العلم، هذا هو الطريق الصحيح، طريق النجاة، أما الأخذ بالاختلافات والأقوال، ويقال: إن هذا فيه توسعة، ويروون حديثًا: (**اختلاف أمتي رحمة**)[1]، والخلاف ليس رحمة، وإنما الخلاف عذاب، والفرقة عذاب، وهذا الحديث لم يثبت عن رسول الله ﷺ؛ لأنه ﷺ حث على الاجتماع، وعلى الائتلاف على الحق، ونهى الله عن الاختلاف والتفرق، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، قال ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، فمن رحم ربك لم يختلفوا.

(**وَلَنْ يُصْلِحَ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا**)؛ كما قال الإمام مالك رحمه الله، فالذي جمع المختلفين، وجعلهم جماعة واحدة -وهو القرآن العظيم- في أول الأمر، هو الذي يجمع الناس في آخر الأمر، (**وَلَنْ يُصْلِحَ آخِرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، إِلَّا مَا أَصْلَحَ أَوَّلَهَا**)، فالله ﷻ إنما جمع الناس على الدين

---

(١) هذا الحديث لا يعرف له سند، وقد أورده البيهقي في (الرسالة الأشعرية ص٩٠) دون سند، كما ذكر السخاوي شيئًا مما يتعلق به في (المقاصد الحسنة)، كما أورده نصر المقدسي في (الحجة)، والحليمي، والقاضي حسين، وإمام الحرمين، وغيرهم دون سند.

والحق بعد الفرقة والاختلاف والشتات، جمعهم ﷻ بهذا الدين، ووحد بينهم بهذا الدين؛ ولهذا ذكَّرهم الله ﷻ بهذه النعمة، وحثهم على التمسك بها، قال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالذي ينشد الخير للأمة، ويريد لها الصلاح والإصلاح، فإنه يدعوها إلى التمسك بالكتاب والسنة، بينما الذي يريد لها الهلاك والضياع، فإنه يدعوها إلى التفرق والاختلاف، ويقول: إنما هذه حريات، وهذه توسعة، وهذه... وهذه... هذا كله ضلال.

والجن اعترفوا أنهم قبل أن يسمعوا القرآن أنه كان منهم الصالحون، ومنهم من كان دون ذلك، وكانوا طرائق قِدَدًا متفرقين، فهذا القرآن يجمع المختلفين، ويوحدهم على الحق.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ أي: أيقنا؛ لأن الظن يطلق، ويراد به اليقين أحيانًا، فالظن هنا معناه اليقين، قال ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: أيقنوا بلقاء الله ﷻ والبعث والنشور.

﴿أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ﴾؛ لأننا ضعفاء، وأن الله ﷻ إذا طلبنا، فهو قادر علينا، مهما كان عندنا من السلاح، ومن المال، ومن العتاد والقوة والثروة، فإن هذا لا يغنينا من الله شيئًا، إذا أراد الله ﷻ هلاكنا، فلن تنفعنا هذه الأمور، نعم القوة طيبة مع الإيمان، ومع الدين، قال ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم

مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أما إذا كانت القوة بدون دين، فإنها تكون في نحور أهلها.

ثم قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، الهدى وهو القرآن، ؛ لأن القرآن هو الهدى لما سمعناه ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾: صدقنا أنه الحق، وأنه سبيل الرشاد، ، أنه الذي ينقذنا من هذه المهالك.

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: من يؤمن بربه ﷻ ربًا ومعبودًا ويتمسك بشرعه، ويطيعه، ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾ أي: نقصًا من حسناته، بل يضاعف الله ﷻ للمؤمن أعماله، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فالله ﷻ لا يظلم أحدًا شيئًا من حسناته، بل إنه ﷻ ينميها، ويحفظها، ويضاعفها أضعافًا كثيرة.

﴿وَلَا رَهَقًا﴾: بأن يُعَذب بعمل غيره، ويوضع عليه شيء لم يعمله، يُرْهَقُ بذلك؟ فكل يجازى بعمله، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

يقول الجن: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ أي: أن بعضًا منا مسلمون، وهم الذين آمنوا بالله ﷻ، وانقادوا له، ﴿وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾، وهم الكافرون الجائرون عن طريق الحق، فالقاسط هو الجائر.

قال ﷻ: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ أي: أرادوا رشدًا من الله، والله عند حسن ظنهم به، والرشد ضد الغي.

﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أي: وقودًا، توقد بهم، وتُسَعر بهم نار جهنم.

قال ﷻ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾: هنا انتهى كلام الجن الذي ذكره الله ﷻ عنهم، وجاء كلامٌ جديد.

فقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾: «أن» مخففة من الثقيلة، والأصل «وأنهم لو استقاموا»، وهذا معطوف على قوله: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ في أول السورة، أي: ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، أيضا أنهم لو ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: الإسلام والصلاح ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ أي: مطرًا مباركًا ينبت لهم النباتات، ويوفر لهم المياه والخيرات، ومعنى ﴿غَدَقٗا﴾ أي: مباركًا بسبب الطاعة والاستقامة على الطريق، وإنما تحبس الأمطار بسبب أعمال بني آدم: إما لحبس الزكاة، أو غير ذلك.

ثم قال ﷻ: ﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾: فالنعمة فتنة وامتحان وابتلاء من الله ﷻ، فإن استمروا على الطاعة، وشكروا الله ﷻ، زادهم الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧﴾ [إبراهيم: ٧].

وأما إذا كفروا النعمة، فإن الله ﷻ يعاقبهم بزوال هذه النعمة، ويعذبهم.

والمعنى الثاني للآية: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: طريقة الكفر، أي لو استمر الكفار على كفرهم، فإن الله ﷻ يستدرجهم، وينعم عليهم، ثم يأخذهم ﷻ على غرة، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤]، آيسون، قانطون من رحمة الله ﷻ، فالله ﷻ يستدرج بالنعم، فينعم على الكفار.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ أي: يعرض عن القرآن، ولم يلتفت إليه، فالحديث كله عن القرآن.

﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾، ﴿يَسْلُكْهُ﴾ أي: يدخله الله ﷻ في عذاب، ﴿صَعَدًا﴾: شاقًا، لا مخلص له منه.

وقيل: ﴿صَعَدًا﴾ أنه يكلف أنه يصعد جبلًا في جهنم، فإذا بلغ أعلاه، جذب إلى أسفله، وهوى على رأسه، ثم يكلف الصعود مرة أخرى، فهذا دأبه أبداً؛ كما قال ﷻ: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾ [المدثر: ١٧].

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾، هذا أيضًا معطوف على أول السورة في قوله ﷻ: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾، أي: وأوحي إلي ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾: المساجد هي مواضع الصلاة، المساجد المبنية، تبني للعبادة لا للمباهاة والرياء والسمعة، بل تبنى تقربًا إلى الله ﷻ، وأيضًا لا يمارس فيها الشرك في العبادة والبدع والمحدثات، بل ينبغي أن تصان عن ذلك.

وخص ﷻ الدعاء لأنه أعظم أنواع العبادة، وإلا فكل أنواع العبادة لا يجوز أن يشرك مع الله ﷻ فيها، فلا يذبح لغير الله، ولا ينذر لغير الله، ولا يتصدق لغير الله، ولا يجاهد لغير الله، فلا يُشْرَك مع الله أحدٌ في عبادته.

لا من الملائكة، ولا من الرسل، ولا من الأولياء والصالحين، لا يشرك مع الله أحد كائنًا من كان؛ لأن العبادة حق لله.

وهذا فيه وجوب تطهير المساجد من الشرك، والبدع والمحدثات، قال ﷻ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ

يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧]، قال ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٧-١٨].

فلا يمارس الشرك في مساجد الله وفي بيوت الله ﷻ، ولا تبنى المساجد على القبور، أو على الأضرحة، وقد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك، عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»(١).

إنما هذا من عمل اليهود والنصارى، ونحن نهينا عن التشبه بهم، ونحن نطهر المساجد من عبادة غير الله ﷻ، أو التعبد لله بما لم يشرعه من البدع والمحدثات، كما تنزه المساجد عن القاذورات والنجاسة والروائح الكريهة.

هذا، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٣٥، ١٣٣٠، ١٣٩٠، ٤٤٤١، ٤٤٤٣، ٥٨١٥)، ومسلم (٥٢٩، ٥٣١).

الدرس الرابع والسبعون

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ
أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ
مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا
﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا
يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ
رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾

[الجن: ١٩- ٢٨].

﴿وَأَنَّهُۥ﴾: معطوف على أول السورة من قوله: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، أي: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ﴾ ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾.

ومعنى ﴿قَامَ﴾ أي: قام يصلي، وذلك في بطن نخلة عائدًا من الطائف إلى مكة، لما قام ﷺ يصلي، ويقرأ القرآن، سمعته الجن، اجتمعوا، وتزاحموا عليه.

﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ أي: تزاحموا عليه ﷺ، حتى ركب بعضهم بعضًا، وذلك من شدة الحرص على استماع ما يقوله ﷺ.

«اللِّبَد» هو الشيء الذي يكون على الإنسان ليتقي به البرد والحر.

وقيل: إن المراد بذلك هو كفار قريش في مكة لما قام رسول الله ﷺ في مكة، يدعو إلى الله ﷻ، ويقرأ القرآن، ويصلي، كاد المشركون يكونون عليه لِبَدًا؛ استنكارًا لما يقوم به، وهددوه، وتوعدوه أن لا يخرج عما هم عليه من الشرك وعبادة الأوثان.

قال الله ﷻ لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ أي: لا أدعو غيره، خلاف المشركين والوثنين الذين يعبدون غير الله، ويدعون غير الله ﷻ.

﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾: في دعائه وعبادته.

وكلمة ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النفي تعم كل أحد من دون الله ﷻ، لا الملائكة، ولا الرسل، ولا الأولياء والصالحين، ولا الجن، ولا الإنس فلا يدعى مع الله أحدٌ كائنًا من كان؛ وذلك لأن العبادة حقٌ لله ﷻ وحده لا شريك له، وهذا ما جاءت به الرسل ﷺ، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾: هذا من البلاغ، وهذا فيه ردٌ على الذين يغلون، ويعتقدون في أن الرسول ﷺ ينفع ويضر، ويملك ما يطلب منه من أمور الدنيا والآخرة، هذا هو الشرك بالله ﷻ.

فإذا كان رسول الله ﷺ لا يملك لأحدٍ ضرًا ولا رشدًا، فكيف يكون

الأمر بغيره؟!! فالضر والنفع، والمنع والعطاء كله بيد الله ﷻ، والذي يقول:

يا أَكرَمَ الخَلْقِ ما لِي من أَلُوذُ بِهِ   سِواكَ عِندَ حُلولِ الحادِثِ العَمَمِ(١)

نسي الله ﷻ، في وقت الشدة والكرب.

حتى إن المشركين إذا وقعوا في الشدة، أخلصوا الدعاء لله ﷻ، قال ﷻ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]، وهذا عكس ما عليه المشركون في حال الشدة «ما لي من ألوذ به سواك»، وقارن بين هذا وبين قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾، بل إنه في آية أخرى، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]، كيف يغفلون عن القرآن، ويشركون بالله ﷻ، ويغلون في رسول الله ﷺ، حتى يقول هذا الشاعر:

فإنَّ مِنْ جُودِكَ الدنيا وضَرَّتَها   وَمِنْ عُلُومِكَ عِلمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ(٢)

إذاً ما بقي لله ﷻ شيء، فإذا صارت الدنيا والآخرة للرسول ﷺ، فماذا بقي لله ﷻ، وإذا كان ما في اللوح المحفوظ، وما كتبه القلم الذي خلقه الله ﷻ وقال له: «اكتب»(٣) بعض علم محمد ﷺ، ليس كله، إذًا: ما بقي

---

(١) هذا بيت من بردة البوصيري، انظر: البردة، ضمن مجموع مهمات المتون (ص٩٠).

(٢) هذا بيت من بردة البوصيري، انظر: البردة، ضمن مجموع مهمات المتون (ص٩٠)، ومجموعة التوحيد (ص٣١٦).

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٤٧٠٠)، وفيه: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الأَبَدِ».

لله ﷻ شيء، فصار الرسول هو الرب، هل هناك غلوٌ أكثر من هذا؟!!! نسأل الله العافية.

فإذا كان رسول الله ﷺ لا يملك لنفسه، ولا لأقرب الناس إليه شيئًا من دون الله ﷻ، فكيف بغيرهم؟!! فأين الذين يغلون في رسول الله ﷺ، يستغيثون به، ويستنجدون به، ويفعلون الأفاعيل من الشركيات، وينسون الله ﷻ، وهم يقرؤون هذه الآيات، فالله ﷻ أعماهم عن تدبرها، وصاروا يتدبرون بأبيات البردة ويعملون بها، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾: إذا أراد الله ﷻ أخذه وتعذيبه، فلن يمنعه أحدٌ من الله ﷻ، لا أحد يمنع من أراده الله بالعقوبة، فلا أحد يمنع عقوبة الله عمن أراد إنزالها به، ولا أحد ينقذه من عذاب الله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأ ألجأ إليه، وأعتصم به، البر والبحر والأرض والسماء لن تجيرك من عذاب الله ﷻ، وليس لك ملاذ، فالله ﷻ إذا طلبك، أدركك ﷻ، فلماذا ينصرفون عن الله ﷻ، ويتعلقون بالمخلوقين؟!!!

قال ﷻ: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ أي: لا ينقذني من عذاب الله ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾: إبلاغ رسالته ﷻ التي حملني إياها، فإنني إذا قمت بإبلاغها، فإن ذلك يمنع عني عذاب الله.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: بالشرك؛ لأن الرسول ﷺ يدعو إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام، فمن عصاه، وبقي على الشرك وعبادة غير الله، فإن مصيره

إلى جهنم حتمًا، وهي مأواه دائمًا وأبدًا.

المراد هنا: معصية الشرك، وأما المعاصي التي هي دون الشرك، فهذه تحت مشيئة الله ﷻ؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾: حينذاك، إذا جاءهم ما يوعدون من الهلاك ومن العذاب، فإنه لا منجاة لهم من ذلك، ولا تنفعهم التوبة؛ لأنه عند نزول العذاب لا تنفع التوبة.

ثم قال: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ﴾ كل الآيات صُدِّرت بقوله تعالى: ﴿قُلْ﴾، لأنها أوامر من الله ﷻ لرسوله ﷺ.

﴿إِنْ أَدْرِىٓ﴾ أي: ما أدري، ﴿إِنْ﴾ بمعنى: «ما»، أي: ما أدري، ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾، لما هددهم بالعذاب، قالوا متى هذا؟! يتحدون رسول الله ﷺ: متى تقوم الساعة؟! متى يأتينا العذاب؟! والرسول ﷺ لا يعلم ذلك؛ لأن مهمته البلاغ، وأما أنه ﷺ يحدد الوقت الذي يحصل فيه العذاب أو قيام الساعة، فإن هذا من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، وليس من واجب الرسول ﷺ أن يحدد لهم الوقت، بل إن واجب الرسول ﷺ أن يبلغهم، ويحذرهم من العذاب، وأما وقته، فإن هذا إلى الله ﷻ.

فالغيب لله ﷻ، ومن ذلك وقت حلول العذاب، وقيام الساعة، هذا لا يعلمه إلا الله ﷻ، وليس من صالح البشر أن يُخبروا بوقت قيام الساعة، إنما الذي من صالحهم أن يُنْذَروا من العذاب، ويُؤمروا بالطاعة، هذا الذي من صالحهم، وهذا الذي جاء به رسول الله ﷺ بشيرًا ونذيرًا، وأما علم

الغيب، فإنه عند الله ﷻ، ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥]، فمن ادعى علم الغيب، فإنه كافرٌ كمن ادعى علم الغيب من الكهان والطواغيت والسحرة، فإنه كافرٌ؛ لأنه جعل نفسه شريكًا لله ﷻ فيما هو من خصائص الله ﷻ.

﴿أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي: يؤخره إلى أمد، لا أدري هل يحلُّ بكم اليوم، أو أن الله ﷻ يؤخره إلى أمد، أي: إلى وقت آخر، هذا راجع إلى الله ﷻ، وليس ذلك من مهمتي.

ثم قال ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: هذا دليلٌ على أن ذلك الذي يسأل عن من علم الغيب، ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾، أي: لا يُطلع، ولا يكشف، فمن ادعى علم الغيب، فإنه كذاب وكافر وطاغوت.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾، هذا من المعجزات التي لا تحصل إلا للرسل فإن الله ﷻ يطلعهم على شيء من الغيب؛ من أجل بيان صدقهم وتبليغهم، فالرسل قد يطلعهم الله ﷻ على شيء من الغيب لمصلحة البشر، ويخبرون عن ذلك، فرسول الله ﷺ أخبر عن الأمم السابقة، عن قوم نوح وعاد وثمود، عن الأمم الماضية، مع أنه لم يحضرها، فهذا من علم الغيب في الماضي، والله ﷻ أطلعه عليها، وقصها عليه، كأنه يشاهدها، كذلك المستقبل، الله ﷻ أخبر رسوله ﷺ عن أشياء تحصل في المستقبل؛ لأجل إنذار الناس، ولأجل الدلالة على صدق رسالته ﷺ، فهي معجزة من معجزاته ﷺ.

وهذا فيه تكذيب لكل من ادعى علم الغيب من الكهان وغيرهم ومن

المشعوذين والدجالين، الذين يخبرون عن المغيبات والمستقبل.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ أي: أن الله ﷻ يجعل معه حفظة من الملائكة، تحفظ الوحي الذي ينزل على رسول الله ﷺ أن تسترقه الشياطين، أو أن يزاد فيه أو ينقص، فالوحي تحرسه الملائكة، ولا تتدخل فيه الشياطين، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، معزولون عن الوحي، جعل الله حرسًا من بين يدي الرسول ﷺ ومن خلفه، يلازمونه حينما ينزل عليه الوحي، حينما يأتيه جبريل عليه السلام.

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ أي: رسول الله ﷺ، الله ﷻ أخبره عن أخبار الرسل من قبله، مع أن هذا من علم الغيب؛ ليعلم الرسول ﷺ أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم، ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: الله أحاط بما لديهم، بما لدى الرسل، وعلمه ﷻ، وحفظه.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾: يعلم عدد ذرات الرمال، وقطرات البحار، وأوراق الأشجار، لا يخفى عن علمه ﷻ شيء، ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، لا يخفى عليه شيء ﷻ، ومن ذلك أفعال المشركين وسخريتهم برسوله ﷺ، واستهزاؤهم، فالله ﷻ يعلم هذا، ويحصيه عليهم، فليسوا مهملين، ولا أحد مهمل يفعل ما يشاء، يكفر ويفسق، ويسخر من عباد الله، ويسخر من شرع الله ﷻ ومن أحكام الله، وينتقص ويكتب وينشر في الصحف،

ويظن أن ما فعله انتهى، ذهب، لا. فالله ﷻ أحاط بذلك، وأحصاه، فلا يفلت من الله ﷻ.

والحمد لله رب العالمين.

الدرس الخامس والسبعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ۝١١ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١-١٤].

في هذه السورة العظيمة عبرٌ وعظاتٌ، فقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾: أصلها المتزمّل، وأدغمت الزاي في التاء، فصارت المزمل.

والتزمّل معناه: التغطي بالشيء؛ كعادة الناس أنهم إذا ناموا، فإنهم يتغطون بالأغطية، فالمزمل هو المتغطي بالغطاء وقت النوم.

وفي قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾: خطاب للرسول ﷺ؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١].

فخوطب بالمزمل والمدثر في هذين الموضعين، أما في بقية المواضع،

فإن الله ﷻ يخاطبه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، قال ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٦٧].

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾: قُم للصلاة والتهجد، ثم بيَّن الله ﷻ أنه ليس المراد أنه يقوم الليل كله، بل يقوم نصفه، أو ينقص منه قليلًا، أو يزيد عليه.

وهذا كان واجبًا على النبي ﷺ؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾، فخيره الله ﷻ، ووسع له في ذلك في أن يقوم ثلثي الليل، أو نصفه، أو ثلث الليل؛ كما في آخر السورة، ولم يحتم عليه مقدارًا معينًا.

ثم قال ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أي: في التلاوة أثناء صلاة الليل.

﴿تَرۡتِيلًا﴾ أي: تمهل في قراءته، ولا تستعجل، ولا تهذه هذًّا بدون تدبر، بل اقرأه قراءة متمهلة مفسرة؛ بالوقوف على رؤوس الآيات، ولا يهذه هذًّا؛ لأن هذا من أسباب التدبر، أما لو أسرع، وهَذَّهُ هذًّا، فإنه لن يتدبره، فالتلاوة تكون متوسطة بين الهذِّ وبين التمطيط، والتمديد الزائد والممل المكلف، فيكون بين هذا وذاك، هذه هي القراءة المشروعة؛ لأن ترتيل القرآن وسيلة إلى تدبره، والتأمل في معانيه، ووسيلة إلى الخشوع في تلاوته، فهذا من آداب تلاوة القرآن.

فالقرآن مرتل في نزوله، قال ﷻ: ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلًا﴾ [فصلت: ٣٢] يعني: نزلناه متتابعًا، ولم ينزل جملة واحدة، بل نزل مفرقًا على الرسول ﷺ، حتى تكامل في آخر حياته ﷺ. فهو مرتل في نزوله، ولم ينزل جملة واحدة، ومرتل في تلاوته، قال ﷻ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ يعني: القرآ، أي: ننزله عليك، ونوحيه إليك.

﴿قَوْلًا﴾، فالقرآن قول؛ لأنه كلام الله ﷻ، فهو قول الله وكلامه وتنزيله ﷻ.

﴿ثَقِيلًا﴾ في معناه، وثقيلًا في العمل به، وثقيلًا في قدره ومنزلته.

وأما في ألفاظه، فالقرآن الكريم ميسر، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧]، فهو ميسر في تلاوته وحفظه، أما من ناحية العمل بأوامره ونواهيه، فهو ثقيلٌ على النفوس، وكذلك في معانيه؛ لأن معانيه غزيرة، ولا أحد يحيط بمعاني القرآن وعلومه، وإنما كلٌ يأخذ منه بما آتاه الله ﷻ.

ثم بيّن الله ﷻ للرسول ﷺ كيف يقابل هذا القول الثقيل، يقابله بقيام الليل؛ لأن قيام الليل أسهل من قيام النهار.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦﴾، فيستعين على تلاوة القرآن وتدبره بأن يقرأه في صلاة الليل.

و﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾، هي القيام بعد نوم، فينام أول الليل، ويريح نفسه، ثم يقوم، وهكذا كان يفعل ﷺ، فإنه كان يبادر بالنوم بعد صلاة العشاء، ويكره الحديث بعدها، من أجل قيام الليل.

﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي: توافقًا بين اللسان والقلب، فيكون القلب حاضرًا في صلاة الليل أكثر من حضوره في صلاة النهار؛ لأن في الليل تهدأ الأصوات، وتنقطع فيه الحركات، وليس فيه ما يشغل الإنسان عن تدبر القرآن، وهذا

بخلاف النهار، فإنه تكثر فيه الشواغل والأصوات، فينشغل الإنسان، ويقل تدبره للقرآن.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ۝٧﴾، ﴿سَبۡحٗا﴾ أي: تحركًا في أعمالك وأشغالك، فتجعلها في النهار؛ لأن الإنسان بحاجة إلى طلب الرزق، وبحاجة إلى الذهاب والإياب، بحاجة إلى التكسب، فيجعل هذا في النهار، وهو وقت طويل يتسع للحركة وطلب الرزق والأعمال، التي تساعده على طاعة الله ﷻ.

فيخصص الليل للتهجد، ويخصص النهار للأعمال التي يحتاج إليها، وبذلك تنتظم عليه أموره، وتسهل عليه الأمور.

ومع هذا فلا تغفل عن ذكر الله ﷻ في النهار، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾، ولا تغفل عن ذكره الله ﷻ، فتجعل لك نصيبًا من صلاة النافلة في النهار، وتجعل لك نصيبًا من التسبيح والتهليل والتكبير والأذكار، وتجعل لك نصيبًا من تلاوة القرآن، فلا تخلي النهار من الذكر والعبادة، وتعتقد أن النهار لعمل الدنيا فقط، وأن الليل لعمل الآخرة، فكلاهما وقت للأعمال المفيدة.

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾: اذكره بأسمائه وصفاته ﷻ، وأكثر من ذلك.

﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ التبتل بمعنى: الانقطاع إليه، وتفوض أمورك إليه ﷻ وتعلق قلبك به، وتشتغل بطاعته، حتى وأنت في أعمال الدنيا، فاشتغل بذكر الله ﷻ.

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾: المشرق والمغرب جاء هنا مفردًا، وجاء في آية

أخرى، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن: ١٧].

وجاء في آية ثالثة: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠﴾ [المعارج: ٤٠].

فقوله ﷻ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ﴾، أي: النجوم والكواكب، فهي تشرق منه الشمس والنجوم والقمر، ﴿وَٱلْمَغْرِبِ﴾ تغرب منه، فهو شامل، وإن كان لفظه مفردًا، فهو شامل للمشارق والمغارب.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه ﷻ؛ لأنه هو الرب الخالق، وما عداه، فهو مخلوق مدَّبر، فالمعبود حقًا هو الله ﷻ، وما عبد سواه، فإنه عبادته باطلة؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ۝٦٢﴾ [الحج: ٦٢].

فوض إليه أمورك والتوكل من أعظم أنواع العبادات، قال ﷻ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

لا تتوكل على غيره؛ لأن التوكل عبادة، ولا تكون العبادة إلا لله ﷻ، فمن توكل على غيره، فقد أشرك، وأما أنك توكل من يقوم لك ببعض الأعمال مثل البيع والشراء، فهذا يسمى توكيلًا، وأما التوكل، فهو لا يكون إلا على الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

فتوكل عليه في أمورك التي لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: اصبر، فلا تلتفت إلى ما يقوله المشركون فيك، ويذمونك به من قولهم: إنه مجنون، إنه ساحر، إنه

كاهن... إلى غير ذلك من أقوال الذم، فلا تقابلهم بالمثل، ولكن اصبر على ما يقولون، وهذا كان قبل أن يفرض الجهاد؛ لأن السورة مكية.

وفي هذا تعليم للنبي ﷺ ولغيره من أتباعه، فالذي يتراجع إذا ذمه الناس، أو قالوا فيه، أو آذوه، يتراجع عن فعل الخير والدعوة، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن هذا إنما يجاري الناس، ولا يصبر ويستمر فيما أمره سبحانه وتعالى به، فالمؤمن يحتاج إلى صبر دائمًا، يحتاج إلى صبر على المصائب، يحتاج إلى صبر على أذى الناس، يحتاج إلى صبر على تعب العبادة والجهاد، فالذي ليس له صبر، لا يستمر، بل ينقطع في أول الطرق، فالصبر هو الذي يحمل المسلم على الاستمرار في فعل الخير، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**فَالصَّبْرُ وَالْيَقِينُ بِهِمَا تُنَالُ الْإِمَامَةُ فِي الدِّينِ**»(١)، أخذًا من هذه الآية.

فكلٌّ يحتاج إلى الصبر، حتى الكفار يتواصون فيما بينهم بأن يصبروا على آلهتهم، وهم على باطل، يقولون: ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦].

فالمؤمن من باب أولى يصبر على الحق، وما يناله، فهو في سبيل الله سبحانه وتعالى ومحسوب في حسناته، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]؛ لأن الذي يوصي بالحق، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، يدعو إلى الله سبحانه وتعالى، فإنه بالتأكيد سيؤذى، فيحتاج إلى صبر، قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨).

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧].

﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾: الهجر الجميل هو الذي لا أذية معه، فلاتؤذهم اصبر عليهم، ولا تؤذهم.

والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه، والصبر الجميل هو الذي لا شكاية معه إلى المخلوق.

ثم بيَّن الله ﷻ ما ينتظرهم بعد أن تهجرهم.

فقال ﷻ: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: أنا أتولى جزاءهم، ولا أهملهم، وأكفيك شرهم.

﴿أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾، وهم: الذين بطروا نعمة الله ﷻ، ولم يشكروها، وتكبروا بهذه النعمة على الخلق وعلى الرسل، اغتروا باستدراج الله ﷻ لهم وإمهالهم، لهم حساب عند الله ﷻ، لن يفلتوا منه.

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ فلا ما يحسبون أنهم سيتركون دائمًا وأبدًا، إنما يتركون مدة قليلة، ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٢٤].

وهذا الترك إنما هو استدراج لهم، قال ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨]، فلو عاجلهم الله ﷻ، لكان أسهل عليهم، فكونه ﷻ أمهلهم، فإن هذا أشد عليهم -والعياذ بالله- الله حكيم عليم، ما يدريك.

ثم بيَّن الله ﷻ ما ينتظرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ﴾ أي: عندنا لهم.

﴿أَنكَالٗا﴾: جمع نِكْل، وهو القيد من الحديد.

﴿وَجَحِيمٗا﴾ أي: نارًا تتلظى.

﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾: مقابل أنهم كانوا في الدنيا في نعمة، ستنقلب هذه النعمة إلى طعام ذا غصة ينشب في الحلق، مر المذاق.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ أي: عذاب مؤلم موجع لايعلمه إلا الله، هذا جزاء ولهم على ما حصل منهم في الدنيا من تكذيبهم الرسول ﷺ، والسخرية من المؤمنين، والتهكم بأحكام الدين، كل هذا لا يذهب سدى، بل عقوبته قريبة، فلا يغتر هؤلاء ويفرحون بما هم فيه من أذية الرسول ﷺ، وأذية المسلمين، والتطاول على كتاب الله ﷻ، وعلى سنة رسوله ﷺ، وعلى أمور الدين، فلهم موعد لا يخلف، ولا يتأخر إذا جاء، ولا يفلت منه أحد.

ويكون هذا؟ ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾، وهو يوم القيامة، حينما ترجف الأرض، تتحرك، وتضطرب وتزلزل الأرض، وتتهدم المدن والقرى، بل الجبال تنهار في الزلازل في بعض البلاد، فالأرض كلها ترجف.

﴿وَٱلۡجِبَالُ﴾: الصم الصلاب التي كانت رواسي للأرض، وأوتادًا للأرض تثبتها، فإنها تزول، وتطير، وتصير هباء.

و﴿كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ أي: ينهال، بدل أن كانت متماسكة، ثم تطير في الهواء، قال ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٨٨]، قال ﷻ: ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ١٠﴾ [الطور: ١٠]، قال ﷻ: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ

يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧].

تكون الأرض متساوية، ليس فيها شيء خفي؛ يختفي فيه الإنسان، لا. يُرى ما عليها، قريب أو بعيد.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس السادس والسبعون

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ
ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾
ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ
وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن
سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟
لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾

[المزمل: ١٥ - ٢٠].

لما وجه الله ﷻ الخطاب إلى النبي ﷺ في أول السورة، وأمره بالدعوة إلى الله، وأمره بقيام الليل؟ لأن الذي يدعو إلى الله ﷻ، فإنه لا بد أن يعمل بما يقول، وبما يدعو الناس إليه، ولأجل أن يستعين بعبادة الله وطاعته على أداء مهمته.

ثم وجه الخطاب إلى أمة هذا الرسول، وهم جميع الخلق: من عرب وعجم، ومن كتابيين وأميين، وإنس وجن، فكل الأمة مأمورة باتباع هذا الرسول ﷺ؛ وذلك لأن رسالته عامة للثقلين: الإنس والجن، فخاطب الله ﷻ الأمة، فقال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾، يعني: محمدًا ﷺ، الذي ناداه في أول السورة بالمزمل، فالرسول ﷺ يشهد على هذه الأمة بأعمالها يوم القيامة؛ لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فهو ﷺ يشهد عليهم إذا جحدوا، وقالوا: ما جاءنا بشير ولا نذير فيشهد عليهم هذا الرسول أن الله ﷻ أرسله إليهم، وأنه بلغهم، فليس لهم عذر؛ كما قال ﷻ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

على هذه الأمة، وكل رسول يشهد على أمته أنه قد بلغها، وهذا الرسول يشهد على أمته أنه قد بلغها، فقد بلغتهم الدعوة، وقامت الحجة عليهم بالرسول ﷺ والقرآن.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾، فأرسل الله ﷻ إليه موسى عليه السلام بن عمران، كليم الله ﷻ، ولم يتركه على جبروته وكفره؛ لئلا يقول يوم القيامة: أنا ما بلغني شيء.

﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾: عصى فرعون موسى عليه السلام؛ كما ذكر الله ﷻ في القرآن من إنكار فرعون لرسالة موسى عليه السلام، واتهامه إياه بالسحر، وغير ذلك.

فاحذروا أنتم أن تعصوا رسولكم كما عصى فرعون رسول ربه.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ﴾ بالعقوبة.

﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: شديدًا، وذلك بإغراقه وقومه في البحر عن آخرهم.

لماذا ذكر الله ﷻ موسى عليه السلام في هذه الآية، مع أن هناك رسل غير موسى عليه السلام؛ لأن رسالة محمد ﷺ تشبه رسالة موسى عليه السلام، وما قيل لموسى عليه السلام قيل مثله لمحمد ﷺ، فموسى عليه السلام هو أول أنبياء بني إسرائيل، ووقته قريب من وقت محمد -عليهما الصلاة والسلام-.

ولهذا قال ﷻ: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ﴾: كيف تتقون -يا أمة محمد ﷺ- إن كفرتم برسولكم؟ من عذاب يوم القيامة شديد الهول.

فهوله ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾: يجعل الصغار تشيب رؤوسهم من شدة هذا الهول.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ ومن شدة هوله: تتفطر فيه السماء ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ فلابد من وقوع هذا اليوم الذي لا مفر منه، ولا يفلت منه أحد.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾، هذه الآيات، أو في القرآن، وموعظة وتنبيه للناس.

يذكر الله ﷻ بها عباده؛ ليستعدوا لما أمامهم، وليتبعوا رسولهم ﷺ، الذي لا نجاه لهم من هذا اليوم إلا باتباعه ﷺ.

﴿فَمَن شَآءَ﴾ منكم النجاة لنفسه، فليستعد لهذا اليوم.

وفي هذا ردٌّ على الجبرية الذين يقولون بأن العبد لا اختيار له، وأنه مجبر

على أعماله كالريشة في الهواء، ولا اختيار للعباد، فالعباد لهم مشيئة، واختيار ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فالله ﷻ أثبت للعباد المشيئة، ولكنه ربطها بمشيئته ﷻ، فليست مشيئتهم واختياراتهم منفردة عن مشيئة الله؛ كما تقوله المعتزلة، فالمعتزلة تقول: إن الإنسان يخلق فعل نفسه، دون أن يُقدِّر الله ﷻ عليه ذلك، وإنما هو يفعل هذا مستقلًا.

والمرجئة سلبوا مشيئة العبد، وجعلوه مجبرًا، والقدرية نفوا مشيئة الله ﷻ، وجعلوا العبد يخلق فعل نفسه، فغلوا في إثبات المشيئة للعبد، وجعلوه مستقلًا، لا يرتبط بالقضاء والقدر فكل من الطائفتين ضالٌ منحرفٌ في هذا الأمر.

ثم إنه ﷻ عاد إلى ما ذكر في أول السورة، من قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقد امتثل الرسول ﷺ لأمر ربه ﷻ، فكان ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه من طول القيام ممتثلًا لأمر ربه ﷻ، وقام معه أصحابه يقتدون به ﷺ، حتى تعبت أقدامهم من قيام الليل.

فخفف الله عنه، وعنهم في آخر السورة، فنسخ ما كان في أولها نسخ تخفيف، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ أي: أن الله ﷻ جعل الليل له مقادير، والنهار له مقادير، ويختلف ذلك باختلاف فصول السنة، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة يطول النهار ويقصر الليل.

فالرسول ﷺ وأصحابه شق عليهم تقدير النصف والثلثين، والثلث؛ لأن الليل يختلف باختلاف فصول السنة، فالله ﷻ خفف ذلك عنهم، فقال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، فوسع لهم، وأمرهم ﷻ أن يقوموا ما تيسر من الليل بدون تقدير، فمنهم من يكثر، ومنهم من يقل، ومنهم من يتوسط، فالله خفف عنهم.

وقال: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾: مما يحصل منكم من الإخلال في ثلثي الليل ونصفه وثلثه.

وقال: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ أي: صلوا ما تيسر لكم من صلاة الليل، والصلاة تسمى قرآنًا؛ كما قال ﷻ: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ أي: صلاة الفجر، ولكن لا ينبغي للمسلم أن يترك قيام الليل نهائيًا، ولكن ينبغي عليه أن يجعل له نصيبًا من قيام الليل يداوم عليه، ولو قلَّ، ولا يترك قيام الليل؛ ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ **سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ نَامَ حَتَّى أَصْبَحَ فَقَالَ: «ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِه»**، **عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ** رضي الله عنهما، **قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **«يَا عَبْدَ اللهِ، لَا تَكُنْ بِمِثْلِ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»**(١).

فالمسلم يجعل له نصيبًا من قيام الليل، وإن قلَّ، ويداوم عليه، ويختمه بالوتر.

فقد علم الله سبحانه أحوال الناس، وقال ﷻ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٢)، ومسلم (١١٥٩).

وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ : هذه أعذار تعرض للمسلمين، ولا يستطيعون معها قيام ثلثي الليل، ونصف الليل وثلث الليل.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: الفريضة فهذه لا أحد يتركها لا في مرض، ولا في سفر، ولا في جهاد، فالصلوات الخمس لا تسقط عن المسلم، مادام فكره معه، بل يصلي على حسب حاله، يصلي المريض قائمًا، فإن لم يستطيع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب، فإن لم يستطع فمستلقيًا، ورجلاه إلى القبلة.

﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ : زكاة المال، وهي فريضة، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة في الذكر دائمًا، فهي ليست تبرعًا من الإنسان، وإنما هي فريضة عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ - ٢٥].

ثم قال: ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي: تصدقوا صدقة التطوع من أموالكم على المحتاجين، وفي وجوه الخير.

اقرضوا الله من أموالكم قرضًا حسنًا، لا منَّة فيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فأنت حينما تقرض المخلوق أو تتصدق عليه، فإنما تقرض الله سبحانه وتعالى؛ لأنك تجده ذلك عند الله، ويخلفه الله سبحانه وتعالى عليك، فهذا مما يطمئن المتصدق أنه يقرض الله، وأنه لايضيع قرضه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يقترض من

حاجة منه إلى عباده، وإنما يقترض منهم لمصلحتهم، وإلا فإن الله غنيٌّ عنهم، ولما سمع بعض اليهود هذا في القرآن، قالوا: إن الله فقير، ونحن أغنياء، وهم يعلمون أن هذا الكلام باطل، لكنهم يريدون أن يسخروا من القرآن، ويسخروا من محمدﷺ، قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ١٨١﴾ [آل عمران: ١٨١]: وعيد من الله ﷻ.

فالله يقترض، والمخلوق يقترض أيضا للحاجة، والقرض بين الخلق هو بأن يدفع المقرض القرض لمن يقضي به حاجته، ثم يرد بدله، وفي هذا ثوابٌ عظيم، كونك تقرض المحتاجين، تسد حاجاتهم، ويردون عليك قرضك، هذا فيه فضلٌ عظيم، فمالك يرجع إليك، ويرجع الثواب من الله ﷻ لك.

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾: عامٌ، أي: من كل الخير، سواء أكان خيرًا ماليًا أو غير ذلك من وجوه الخير، أي خير تعمله من مال وغيره، فإنه لا يضيع عند الله ﷻ.

تجده ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾: أعظم أجرًا من الله ﷻ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، قال ﷻ: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فعلى المسلم أن يحسن النية، وألا يحرم نفسه، وألا يبخل على نفسه.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اطلبوا منه المغفرة عن التقصير؛ لأن

الإنسان مهما عمل من الأعمال، يكون عنده تقصير، فالتقصير ملازم له، فيجبره بالاستغفار، والاستغفار هو طلب المغفرة للذنوب والخطايا والسيئات، ومن لزم الاستغفار، جعل الله له من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا؛ كما في الحديث[١].

فليكثر الإنسان من الاستغفار، ولا يستعظم أعماله وما يؤديه من طاعات، بل يعتبره قليلًا من حق الله ﷻ عليه، ويجبر هذا بالاستغفار؛ لأن حق الله عظيم، ومهما فعلت لن توفي حق الله ﷻ، ولكن الله ﷻ يغفر النقص والخلل لمن أحسن النية، وأحسن العمل.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

---

(١) الذي أخرجه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ».

الدرس السابع والسبعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾
وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾
وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا
﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ
نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا
قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ
﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ١- ٣٠].

الرسول ﷺ نشأ في مكة، وُلِد وترعرع في مكة، وكان ﷺ أبوه قد توفى وهو في بطن أمه، فلما وُلِد كفله جده عبد المطلب، ثم إنه لما حضرت الوفاة عبد المطلب، عهد به ﷺ إلى عمه أبي طالب، فكفله بعد جده وأحسن كفالته، نشأ ﷺ متجنبًا لدين المشركين، متعبدًا على ملة الخليل إبراهيم عليه السلام وكان قومه يعبدون الأصنام؛ لأنهم قد طرأ عليهم الشرك من عهد عمرو بن

لحي الخزاعي، الذي كان ملكًا على الحجاز، فغير دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونشر الوثنية في الحجاز، وجلب الأصنام إلى أرض الحجار، وبذلك انتشرت الوثنية في أرض الحجاز.

وكان نبينا ﷺ متجنبًا وكارهًا لدين المشركين، فقد نشأ ﷺ على الطهر والعفاف والأخلاق الطيبة، نشَّأَهُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على ذلك، فكان ﷺ يكره عبادة الأصنام، فحُبِّبَ إليه الخلاء؛ ليبعد عن الأصنام، وأهلها، وعن دين المشركين، فكان ﷺ يذهب إلى غار حراء، وهو غار في رأس الجبل الذي يسمى الآن جبل النور، وهو جبل حراء، وهو رأسه غار، مستقبل الكعبة المشرفة، فجعل ﷺ يذهب إلى هذا الغار، ويخلو فيه لعبادة ربه عَزَّ وَجَلَّ، وليبعد عن المشركين ودينهم، فكان ﷺ يمكث في هذا الغار الليالي ذوات العدد، ثم يرجع، ويتزود مرة ثانية، ويذهب إلى هذا الغار؛ ليخلو لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ويبعد عن دين المشركين.

وبينما هو ﷺ في الغار على عادته، إذا هو بالملك -جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ- جاء إليه «اقْرَأْ»، قال ﷺ: «ما أنا بقارئ» أي: لا أُحسن القراءة، فهو ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، فغَطَّهُ غطَّةً شديدة، حتى بلغ منه الجهد، فقال له: «اقْرَأْ»، قال ﷺ: «ما أنا بقارئ»، فغطَّهُ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ المرة الثالثة، وقال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ - ٥]، فحفظها رسول الله ﷺ حينما تلقاها من جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجاء إلى زوجه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرهوبًا، يرتجف من الرعب، من رؤية الملك عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومفاجأة الوحي له، فقال لها ﷺ: «زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي»:

أي: غطوني، فزَمِّلوه، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١ - ٢]، السورة التي مضت(١).

ثم فتر الوحي بعد ذلك، ثم عاد إليه الوحي مرة ثانية، وجاءه جبريل عليه السلام وهو ﷺ متدثرٌ بفراشه، فقال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى آخر السورة(٢).

فنجد حينئذ أن المراحل التي مرت به أربع: الرؤيا، ثم الوحي الذي صار به نبيًا، نبأه الله ﷻ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾، ثم أُرسله بالمدثر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ لذلك يقول العلماء: إنه نُبِّئَ بـ«اقْرأْ»، وأُرسل بـ«المدثر».

فالله ﷻ علمه قبل الدعوة، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١-٥]، فمرت به مراحل:

أولًا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾، فدل هذا على أن الذي يدعو إلى الله لابد أن يتعلم.

ثم أُمِر ﷺ بقيام الليل؛ لأن الذي يدعو إلى الله ﷻ، لابد أن يعمل بما علمه الله ﷻ، ثم يدعو إليه بعد ذلك، ثم إنه في المرحلة الأخيرة قال تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾.

قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ الأصل: المتدثر، فَأُدغمت التاء في الدال،

---

(١) كما في أحاديث بدء الوحي التي أخرجها البخاري (٣، ٤٩٥٣، ٤٩٥٥، ٤٩٥٦، ٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤).

فصارت ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾، وبعض القراء يقرأها على أصلها: «يا أيها المتدثر»، أي: المتغطي والمتلفّف بلحافك[١].

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾: قُمْ من رقادك ومن منامك، فأنذر الناس، وحذرهم من الشرك.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: «رَبَّكَ» منصوب على أنه مفعول للفعل «كَبِّرْ»، فالأصل هو «كَبِّرْ رَبَّكَ»، لكنه قُدِّم المعمول، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عَظِّمْهُ، ونزِّهْهُ عن النقائص والعيوب، عن الشرك، وعن كل وصف ذميم، عظم ربك، وهذا فيه الإخلاص.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قيل: المراد بالثياب: الثياب المعروفة، اللباس، طَهِّرْهَا عن النجاسة، وهذا فيه دليل على أن الصلاة يشترط لها الطهارة من الحدث، ويُشترط لها الطهارة في البدن، الطهارة في البقعة.

وقيل: المراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ أي: نزه أعمالك من الشرك وأخلصها لله عز وجل[٢]، ولا مانع أن يراد كلا المعنيين، فيكون المطلوب تطهير الثياب الحسية من النجاسة، وتطهير الأعمال من الشرك ومن البدع والمعاصي، فالطهارة مطلوبة: الطهارة الحسية، وهي تطهير الثياب، والطهارة المعنوية، وهي تطهير الأعمال من الشرك؛ لأن الشرك نجاسة معنوية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨]، نجاسة معنوية.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٤٢)، وزاد المسير (٨/ ٣٩٩)، والقرطبي (١٩/ ٥٩)، وابن كثير (٤/ ٤٤١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٤٤)، وزاد المسير (٨/ ٤٠٠)، والقرطبي (١٩/ ٦٢)، وابن كثير (٤/ ٤٤٢).

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ : الرجز: الأصنام، وهجرها: تركها.

فالداعي إلى الله ﷻ لابد أن يبدأ بهذا، فيبتعد عن الشرك، وينهى عنه، فيبدأ بإصلاح العقيدة أولًا، ثم يتدرج بعد ذلك، وأما الذين يقولون: إننا ندعو إلى الله ﷻ، ولا نتعرض إلى عقائد الناس، كلٌّ على عقيدته، ونجتمع على ما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه، فإن هذا كلامٌ باطل وليس من الدعوة في شيء؛ لأنه لابد من إصلاح العقيدة أولًا، نجتمع عليها، ثم ننطلق منها إلى بقية الأعمال، فالعقيدة هي الأصل الذي نبني عليه.

قال ﷻ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ قيل معناه: لا تعط العطاء تريد أن يرد عليك أكثر منه، وقيل: المراد ﴿وَلَا تَمْنُن﴾: لا تعجب بأعمالك وتستكثرها، بل تعتبر ما تقدمه يسيرًا من حق الله ﷻ، ولا مانع من أن يراد المعنيان.

قال ﷻ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾؛ لأن الذي يقوم بالدعوة إلى الله ﷻ، وينذر، فإنه يتعرض إلى أذى من المعارضين المخالفين، فيحتاج إلى صبر وتحمل على ما تلقى في سبيل ذلك من المعارضين والمخالفين، فيكون صبرك لوجه الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

هذه هي وصايا رب العالمين لرسوله ﷺ حينما أرسله إلى الناس، وهذا هو الأساس الذي انطلق منه رسول الله ﷺ، وهو ما رسمه له ربه.

ثم ذكر بعد ذلك يوم القيامة، فقال ﷻ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ﴾: إن هؤلاء المعارضين والمشركين لهم موعد عند الله ﷻ، يحاسبهم فيه على أعمالهم فهم ليسوا بمهملين، ولا متروكين، فدع أمرهم إلى الله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾: النقر هو الصوت[1]، والناقور هو القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام عند قيام الساعة نفختين:

النفخة الأولى: نفخة الصعق، فيهلك كل من كان موجودًا إلا من استثناه الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

النفخة الثانية: نفخة البعث، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

قال ﷻ: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾: هذا اليوم صعبٌ على الكافرين، الذين كفروا برسول الله ﷺ، وكفروا بالرسل، وقوله ﷻ: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يشمل جميع الكافرين من أول الخلق إلى آخرهم كلهم يلاقون عُسرًا في هذا اليوم.

والعسر ضد السهولة واليسر، وأما على المؤمنين، فإنه يكون هذا اليوم سهلًا.

ثم ذكر وعيد المعارضين لهذه الدعوة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾، وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة المخزومي، وأبو جهل من صناديد قريش.

قال ﷻ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١﴾: خلقته، وأخرجته من بطن أمه، ليس معه شيء من الأموال ومن الأولاد، ثم إن الله ﷻ رزقه المال والولد، ولكنه لم يشكر الله ﷻ.

---

(١) انظر: مادة (نقر) في العين (٥/ ١٤٤)، وتهذيب اللغة (٩/ ٩١)، ومقاييس اللغة (٥/ ٤٦٨)، ولسان العرب (٥/ ٢٢٧).

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾ : كان له أموال في مكة، وكان ثريًا، وفي الطائف كان يملك البساتين، وكان يسمى زهرة مكة؛ لعظم شأنه عندهم وثروته؛ مما غره بالله، ﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢﴾ أي: كثيرًا ممتدًا.

قال ﷻ: ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣﴾ : يبلغون ثلاثة عشر أو تسعة، كلهم حضور عنده، لا يسافرون، لتقر بهم عينه، ويسر بهم، ويخدمونه، وهذا من نعم الله ﷻ عليه، مال وبنون.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾، ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ﴾ أي: أزيده من المال ومن الأولاد، ولكنه لم يشكر نعمة الله ﷻ.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥﴾، فيقول: إنه إذا كانت هذه حالي في الدنيا، فلئن بُعِثت، فسيكون حالي أفضل وأحسن في الآخرة، وهكذا حالة الإنسان إذا طغى، فإنه يكفر بالآخرة، ويقول: لو فُرِض أن الآخرة حقيقة، وأنني سأبعث، فإني أكون أحسن حالًا مما في الدنيا.

قال ﷻ: ﴿كَلَّآ﴾ : هذا نفيٌ، أن الله ﷻ لن يزيده إلا ذلًا وحقارة، وصغارًا، عكس ما كان يؤمله ويتمناه، قالوا: فما زال بعد ذلك يتناقص هذا.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾، ولو أنه أطاع الله ﷻ، واتبع رسوله ﷺ، لزاده الله ﷻ من الخير، ولكانت الآخرة خيرًا له من الدنيا، لكنه عاند، مع هذا يتمنى على الله الأماني، وأن تكون الآخرة له.

لأنه ﴿لِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: القرآن كان ﴿عَنِيدًا﴾ : معارضًا لها، كافرًا.

ثم بيَّن الله ﷻ ما ينتظره في الآخرة، قال ﷻ: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾ : أُحمِّله عذابًا شديدًا، ﴿صَعُودًا﴾ قيل: إنه يُكلف بالصعود في جبل من نار،

يصعد، ثم يهوي، ثم يصعد، ثم يهوي، فهذا ديدنه -والعياذ بالله-، وقيل قوله ﷻ: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧﴾ أي: عذابًا شاقًا صعبًا يقاسيه في النار.

قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، لما سمع الوليد بن المغيرة القرآن، أعجبه القرآن بحلاوته وأسلوبه ومعانيه وعذوبة ألفاظه، فأثنى عليه، وقال: «قَدْ سَمِعْتُ مِنْ مُحَمَّدٍ آنِفًا كَلَامًا مَا هُوَ مِنْ كَلَامِ الْإِنْسِ وَلَا مِنْ كَلَامِ الْجِنِّ، وَإِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً، وَإِنَّ أَعْلَاهُ لَمُثْمِرٌ، وَإِنَّ أَسْفَلَهُ لَمُغْدِقٌ، وَإِنَّهُ يَعْلُو وَمَا يُعْلَى»[1].

وقال: «إنه ليس بالسحر، ولا بالكهانة»، ثم إنه انتكس لما قال له قومه: صَبَأْتَ، أي: تركت دينك؟! عند ذلك انتكس، وصار يذم القرآن بعد أن كان يمدحه.

فذلك قال الله عنه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨﴾: فكر في القرآن، ماذا يقول فيه؟ وتحير، ماذا يقول فيه، مع أنه رجلٌ عنده خبرة بالكلام، وخبرة بالشعر، وخبرة بالسحر؟ فإذا عرض القرآن على هذه الأمور، وجد أنه مخالف لها، فكر، وقدّر ماذا يقول للناس إذا سألوه عن القرآن؟ لأنه كان مرجعًا لقريش، يأخذون برأيه وبقوله.

قال الله: ﴿فَقُتِلَ﴾ أي: لُعِنَ، ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾: تعجبٌ من شأنه.

قال: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي: نظر في شأن القرآن، وتأمل فيه، ماذا يقول.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ بوجهه، واكفهر بوجهه، ﴿وَبَسَرَ﴾، قطب ما بين عينيه.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٠).

﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣﴾ : أدبر عن تأمل القرآن، وذهب إلى أهله، واستكبر عن اتباع القرآن، وعن قول الحق فيه، وهو يعلم بأن القرآن ليس بسحر، ليس بشعر، ليس بكهانة، ليس بأساطير الأولين، ليس من كلام البشر.

﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤﴾، ﴿إِنۡ هَٰذَآ﴾ أي: القرآن، ﴿إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ عن بعض الأولين، وبينما في البداية يقول: لا يمكن هذا، جربت السحر، ثم قال: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ أي أن محمدًا ﷺ قاله من عنده، وليس من كلام الله ﷻ، فالرسول ﷺ افتراه.

والجهمية يقولون بأن القرآن مخلوق، وليس بكلام الله ﷻ، والمعتزلة من اعتقد معتقدهم، فإنه يوافق قول الوليد بن المغيرة، الجهمية يقولون: إن القرآن خلقه الله في اللوح، أو خلقه في جبريل، أو خلقه في محمد، فالقرآن مخلوق، تعالى الله عما يقولون.

قال الله: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦﴾: «أصليه» أي: أدخله في النار، تصطلي به.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ٢٧﴾: تفخيم لشأن النار، تهويل لها.

﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾: لا تبقي اللحم، ولا تذر العظام، بل إنها تحرقها، ثم تعود كما كانت، أبد الآباد يعذبون في جهنم، والعياذ بالله.

وقيل: ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ هو نفس معنى ﴿لَا تُبۡقِي﴾، فيكون ذلك من باب التأكيد.

﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾: البشر المراد به: الجلد، أنها لَوحتْه بالحرارة الشديدة، وتنضجه - والعياذ بالله - قال ﷻ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦].

هذه أوصاف النار التي سيصلاها هذا الكافر المعارض المعاند، وكذلك أشباهه من المعارضين المعاندين والمعارضين لهذا الرسول ﷺ، ولهذا القرآن، وكل من جاء بعدهم إلى يوم القيامة.

قال ﷻ: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾ أي: يقوم على خزانتها تسعة عشر من الملائكة الكرام، ولا يعلم عظمهم وقوتهم وخلقتهم إلا الله ﷻ، فلا يفلت أهل النار منها وعليها هؤلاء الملائكة الأقوياء الشداد، قال ﷻ: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ثم ذكر ﷻ أن هؤلاء التسعة عشر ملائكة، ليسوا من البشر؛ لأن أبا جهل لما سمع قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾، قال: أنا أكفيكم كذا وكذا، يقول: أنا أكفيكم أكثرهم، ونخرج من النار؛ استهزاءً، لما ذكر الله ﷻ.

قال أحد الكفار: أنا أكفيكم إياهم بمنكبي، وأنتم تسيرون خلفي، وندخل الجنة، ولا يهمنا.

ومن هنا يجب على المسلم أن يسلم للنصوص الشرعية، ولا يعترض عليها؛ لأنها كما قال ﷻ: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٢]، ويؤمن أنها صدق، وكونه لا يحيط بها لا يخوله أن يتكلم فيها أو يستشكل.

قال ﷻ: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ [يونس: ٣٩].

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثامن والسبعون

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣١-٣٧].

قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: أن الملائكة ليسوا من جنس البشر الذين تعرفونهم، فهم ملائكة لا يعلم خلقتهم وقوتهم إلا الله ﷻ.

فليسوا داخلين تحت تقديركم، فالواحد من الملائكة لا يقابله البشر كلهم في قوته وغلظه، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾: فلا يعجزون أن ينفذوا ما

أمرهم الله ﷻ به.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ بكونهم تسعة عشر فقط.

﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ : لكي يقولوا ما قالوا، ويسخروا، ويتهكموا ما تهكموا، فهم فتنة لهم بحيث يستقلون عدتهم.

فذكر الله ﷻ الحكم العظيمة في كون أصحاب النار -أي: خزنتها- تسعة عشر، وهذه الحكم:

أولًا: ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ : ليتكلموا، ويخوضوا فيما خاضوا من التهكم والسخرية، وادعاء أنهم سيتغلبون عليهم، وأنهم سيخرجون من النار؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب، فهم قَاسُوا الغائب على الحاضر، وقالوا: التسعة عشر لا يمنعونا من الخروج وسنتغلب عليهم.

ثانيًا: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ : وهم اليهود والنصارى؛ لأن في التوراة والإنجيل أن أصحاب النار تسعة عشر، فبذلك وافق ما في القرآن الكريم ما في الكتابين السابقين، وبالتالي علم اليهود والنصارى أن القرآن من عند الله ﷻ؛ لأن محمدًا ﷺ لا يمكن أن يطلع على ما ذكره الله ﷻ في التوراة والإنجيل؛ لأن الرسول ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، فإذا جاء ﷺ بما يوافق ما في الكتابين، دل هذا على أنه رسول من الله يوحى إليه، فهذا من معجزاته ﷺ الدالة على رسالته.

ثالثًا: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ : الذين آمنوا من هذه الأمة يزداد إيمانهم إذا علموا أن ما في القرآن يوافق ما في التوراة والإنجيل، يزيد ذلك في إيمانهم، فهم مؤمنون، ولكن يزدادوا إيمانًا، فدل هذا على أن الإيمان يزيد وينقص

كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ردًا على المرجئة الذين يقولون: إن الإيمان شيء واحد، لا يزيد ولا ينقص.

رابعًا: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ من هذا القرآن، ولا يتأثروا بما يقوله المشركون والكفار أن هذا القرآن من عند محمد ﷺ، وأنه افتراه، أو أنه اكتتبه من صحائف الأولين، ومن أساطير الأولين..... إلى أخره.

والمؤمنون يستيقنون، أي: يزيد إيمانهم، ويتمكن الإيمان من قلوبهم، وهكذا القرآن، كلما قرأه الإنسان، زاد الإيمان في قلبه، وتثبت اليقين في قلبه.

خامسًا: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أن هذا القرآن من عند الله سبحانه وتعالى، ولا يقبلوا قول المكذبين.

سادسًا: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وهم المنافقون، ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الذين لا يؤمنون أصلًا، بل ويكفرون ظاهرًا وباطنًا بالقرآن.

يقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾: يتعجبون من أن الله سبحانه وتعالى ذكر أن على النار عليها تسعة عشر فقط؛ لأنهم لا يعرفون حكمة الله سبحانه وتعالى، ولا يعلمون المستقبل، وما يكون فيه، وأن أمور الغيب غير أمور الشهادة.

كما في سورة البقرة، من قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الضلال الذي وقع فيه المشركون لما نزلت هذه الآية.

﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ : يضل الله ﷻ من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته، فالضلال والهداية بمشيئة الله ﷻ وقدره، وفي هذا ردٌّ على المعتزلة الذين ينفون القدر، ويقولون: إن الإنسان يخلق فعل نفسه، ويكفر بفعله، دون أن يكون لله ﷻ أراد منه ذلك وقدره، ويقولون: ما قدر الله هذه الأشياء، فيعجزون الله ﷻ، ويجحدون قدرته على كل شيء.

وقد بيَّن الله ﷻ في القرآن سبب الإضلال، قال ﷻ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ أي: ما يعلم قوة الملائكة، ولا عدد المخلوقات إلا هو ﷻ.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ﴾ : ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: النار.

﴿إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾ : تذكير للبشر؛ ليؤمنوا، ويتقوا هذه النار.

﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ٣٢﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا، وكما زعموا في الملائكة، ثم أقسم الله ﷻ على ذلك بالقمر، وهو آية من آياته، فالله ﷻ يقسم بما شاء من خلقه، ولا يقسم بشيء إلا فيه سر عظيم، وفيه أمرٌ يقتضي أن يقسم الله ﷻ به، فهو ﷻ لا يقسم إلا بشيء وفيه عبرة، وفيه سرٌّ عظيم من أسراره ﷻ، ومن ذلك القمر، فهذا القمر الذي يضيء الكون كله، والشمس أعظم منه، فالشمس سراج، والقمر ضياء، قال ﷻ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ [فصلت: ٣٧]، فأقسم الله ﷻ بالقمر الذي يضيء الكون إذا ظهر، ويسير عليه المسافرون، وله منافع في الثمار والنباتات ما يعلمها إلا الله ﷻ، وهو في السماء الدنيا، فهو أقرب شيء إلى الأرض.

ثم أقسم الله ﷻ بالليل إذ أدبر، والنهار إذا أسفر، وهذه من آيات الله ﷻ فأقسم بثلاثة أشياء: بالقمر، وبالليل حين إدباره وانتهائه، والنهار حين إقباله وإسفاره؛ لأن هذه الثلاثة من أعظم آياته.

فهو ﷻ يقسم بما شاء من خلقه، وأما المخلوق، فلا يقسم إلا بالله، ولقد جاء في حديث ابن عمر **أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، وَإِلاَّ فَلْيَصْمُتْ»**(١).

وفي الحديث **عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ قَالَ: سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ رَجُلًا يَحْلِفُ بِالْكَعْبَةِ، فَقَالَ: لاَ تَحْلِفْ بِالْكَعْبَةِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»**(٢).

﴿إِنَّهَا﴾ أي: النار التي هي موضع الحديث.

﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ و﴿ٱلْكِبَرُ﴾ جمع كبيرة، أي: إحدى العظائم، فالنار ليست هي أكبر شيء، أو أعظم شيء، ولكنها واحدة من العظائم من مخلوقات الله ﷻ.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ٣٦﴾، ﴿نَذِيرًا﴾ منصوب على الحال، حالة كونها فيها نذارة للبشر، فالنار فيها نذير للبشر لمن يخاف الله ﷻ، فإنه إن وقف على ذكرها في كتاب الله، وما وصفها الله به، فإنها تنذره من معصية الله ﷻ، ومن

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٨، ٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٥٣٥)، وأحمد في مسنده (١٠/ ٢٤٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣٠).

الكفر والمعاصي، فهي تنذر، والنذر كثيرة، ومنها النار.

و﴿لِلْبَشَرِ﴾: المراد بهم الناس، فالنار ليست نذيرًا للعرب فقط، بل هي نذير للعرب والعجم، والجن والإنس.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾: أيها الناس ﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾، فهذا فيه دليل على أن العبد له مشيئة واختيار، وهذا فيه ردٌّ على الجبرية الذين يقولون بأن العبد ليس له مشيئة أو اختيار، بل هو مجبور على أعماله، فهم على النقيض من المعتزلة، فالمعتزلة يغلون في إثبات مشيئة البشر، والجبرية يغلون في إثبات مشيئة الله ﷻ، وينفون مشيئة البشر، والمعتزلة على العكس يغلون في إثبات المشيئة للبشر، وينفون مشيئة الله ﷻ، فهم على طرفي نقيض.

﴿أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: أن يتقدم بالأعمال الصالحة، أو يتأخر بالكفر والمعاصي؛ لأن الأعمال الصالحة تقدمه إلى الجنة وإلى الله ﷻ، وأما أعمال الكفر والمعاصي، فإنها تؤخره عن الجنة، وتبعده عن الله ﷻ.

وهذا فيه دليل واضح على أن الإنسان له مشيئة، وأن يتقدم أو يتأخر بمشيئته، فيعمل الصالحات بمشيئته، ويعمل السيئات بمشيئته، وليس مجبرًا عليها كما تقوله الجبرية، لكن الله ﷻ إذا علم من عبده الإقبال على الخير، وفقه، وإذا علم من عبده الإدبار عن الخير، خذله ﷻ، وتركه مع نفسه، ومع عدوه عقوبة له.

ثم قال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾: من تقدم أو تأخر كل سيلقى عمله يوم القيامة.

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس التاسع والسبعون

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٣٨- ٥٦].

قال ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾: كل إنسان غنيًا كان أم فقيرًا، أو ملكًا أو صعلوكًا، أو أبيض، أو أسود، أو ذكرًا أو أنثى، ﴿بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: محبوسة، محبوسة بما كسبت من أعمال الشر، وأعمال الكفر، تناقش يوم القيامة، وتحاسب، ولا تطلق إلا إلى النار.

وهذه في الذين كفروا برسول الله ﷺ، فإنهم في يوم القيامة يواجهون بأعمالهم، ويشقون بها، تكون عذابًا عليهم يوم القيامة، فكل نفس بما

كسبت في الدنيا من الكفر والشرك والذنوب والمعاصي، فإنها تواجه ذلك يوم القيامة، وتُحبس عليه.

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩﴾: أصحاب اليمين هم الذين يُعطون كتابهم بأيمانهم، وقيل: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ هم المؤمنون عمومًا، فإنهم لا يمتهنون، ولا يحبسون، بل يكونون طليقين، يدخلون الجنة؛ لأنهم تخلصوا في هذه الدنيا مما يمتهنون به يوم القيامة، فهم قد تخلصوا من الشرك والكفر، ومن الذنوب والمعاصي، وتابوا إلى الله ﷻ.

فهم ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ مصيرهم الجنات؛ لأن الجنات كثيرة متنوعة، وهي درجات، قال ﷻ: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ [آل عمران: ١٦٣]، لهم منازل في الجنة مختلفة بعضهم فوق بعض، وكلهم قرير العين بما هو فيه، لا يرى أن أحدًا أحسن منه في الجنة، وإن كانوا في درجات، وكلٌّ قرير العين بما عنده.

قال ﷻ: ﴿يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١﴾، فأهل الجنة يتساءلون يسأل بعضهم بعضًا عن مصير خصومهم من الكفار والمشركين: أين ذهبوا؟ عن المجرمين الذين كفروا برسول الله ﷺ، وتكبروا، وعاندوا: أين ذهبوا؟ ثم إنهم علموا أنهم في النار -والعياذ بالله-، فأطلوا عليهم يسألونهم: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾، يقول أهل الجنة لأهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢﴾ أي: ما السبب الذي أدخلكم النار؟.

فأجابهم أهل النار، وبيّنوا لهم السبب، ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣﴾، هذا هو السبب الأول؛ لأنهم لا يصلون في الدنيا، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ

ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ [المرسلات: ٤٨]، أو يصلون ولكنهم ضيعوا الصلاة مع الجماعو، وفي وقتها، فهذا يدل على أهمية الصلاة، ومكانتها عند الله ﷻ أن من تركها يدخل النار، سواء أتركها جاحدًا لوجوبها، أو تركها متكاسلًا، فهو في النار بنص تلك الآيات الكريمة؛ لأنها لم تفرق بين من جحد وجوبها وبين من تكاسل عنها مع إقراره بوجوبها، فهذا من أدلة الذين يقولون بكفر تارك الصلاة، ولو لم يجحد وجوبها، وهذا واضح من الآية، ما قالوا: إننا لم نعترف بالصلاة، بل قالوا: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ علقوا بمجرد ترك الصلاة.

والسبب الثاني: ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: منعوا الزكاة، فهم أساؤوا في حق الخالق، وأساؤوا في حق المخلوق، فهم قد منعوا حق الله ﷻ، وهو الصلاة، ومنعوا أيضا حق المخلوق، وهو الزكاة.

والسبب الثالث: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾: نشكك في دعوة الرسول ﷺ، فلم يسلموا، ويصدقوا رسول الله ﷺ، ويؤمنوا به، بل صاروا في جدال، وفي شك، وفي اعتراضات على الرسول ﷺ، وهذا مذكورٌ عنهم في القرآن من اعتراضاتهم على رسول الله ﷺ، وجحودهم للبعث والنشور، وغير ذلك، فهمُّهم الخوض والجدال، فهذا مصير كل من سلك هذا المسلك، ضيع عمره في الجدال والتشكيك، وترك الاستسلام للرسول ﷺ والانقياد له بالطاعة، والثقة به، بدلًا من ذلك صاروا يخوضون، ويجادلون ويسألون أسئلة تعنت واعتراضات، هذا من أسباب دخولهم النار، وكان الواجب على المسلم أن يُسَلم لله ﷻ ولرسوله ﷺ، وولا يجادل، ولا يتردد ولا يشكك، وإنما يسلم لكتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، ويعلم أنها حق

وأنها صدق، قال ﷻ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، والرسول ﷺ قال عنه الله ﷻ: ﴿يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣-٤]، فالواجب على العبد أن يُسلم، وينقاد إلى الكتاب والسنة، ولا يجادل في ذلك.

السبب الرابع: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾: فنحن ما حسبنا لهذا اليوم -يوم القيامة- حسابًا، وما آمنا أنه سيكون هناك بعث، ومحاسبة، وجزاء، وجنة، ونار، هذا كله ما حسبنا له حسابًا.

ويوم الدين هو يوم الحساب، فهم ينكرون البعث، ويقولون: إنه محال، وكيف أن الإنسان إذا مات يعود جسمه، ويعود إلى الحياة مرة ثانية؟!!! هم ينسون أن الله ﷻ على كل شيء قدير، وأن الله ﷻ هو الذي أوجدهم من عدم، فالذي أوجدهم من العدم لقادر على أن يعيدهم من باب أولى، هم لا يؤمنون بالبعث والحساب، ولم يستعدوا له، ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الإسراء: ٤٩]، من باب الاستنكار.

قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]، فهو قد نسي خلقه الأول، فلو أنه تذكر خلقه الأول، لما أنكر البعث، فالذي أوجده من العدم قادر على أن يعيده من باب أولى، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]، فالذي قدر على البداءة قادر على الإعادة من باب أولى في نظر العقول، وإلا فإن الله ﷻ لا يعجزه شيء، لكن في نظر

العقول أن الذي بدأ قادرٌ على الإعادة من باب أولى.

ومن أنكر البعث، فقد كفر، قال ﷻ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن: ٧].

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ أي: الموت، ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، واستمروا على هذا، ولم يتوبوا، حتى ماتوا، وأتاهم اليقين على هذه الجرائم المكفرة، كل واحدة منها مكفرة لوحدها، ترك الصلاة مكفر، تعطيل الزكاة مكفر، الخوض والتشكيك فيما جاء به رسول الله ﷺ وعدم تصديقه مكفر، إنكار البعث مكفر.

والكافر لا شفاعة فيه يوم القيامة، فالشفاعة حق، لكنها تكون لأهل الإيمان خاصة، والملائكة يشفعون، والرسل يشفعون، والصالحون يشفعون، لكن لمن؟ لأهل الإيمان بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون المشفوع فيه من أهل الإيمان، فلا تجوز الشفاعة لكافر.

الشرط الثاني: أن تكون بعد إذن الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، أي: ارتضى الله ﷻ قوله، وعمله، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فيأذن الله ﷻ؛ ولهذا فرسول الله ﷺ -وهو سيد الشفعاء- إذا تقدم إليه الخلائق يوم القيامة أن يشفع لهم عند الله ﷻ في فصل القضاء بينهم، وإراحتهم من موقف المحشر فإنه ﷺ لا يبدأ بالشفاعة أولًا، بل يأتي رسول الله ﷺ ويخر بين يدي ربه، ساجدًا لله ﷻ، ويحمده، ويثني عليه، ويدعوه، ثم يقال له: «**اِرْفَعْ رَأْسك**،

وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»[١]، فحينئذ يشفع ﷺ بعد ما يأذن الله ﷻ له بذلك.

فالشفاعة قسمان: شفاعة منفية، وهي الشفاعة في الكافر، والشفاعة بغير إذن الله، وشفاعة مثبتة، وهي الشفاعة في المسلم بعد إذنه ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أي: الكفار، ﴿عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، ما لهم ما الذي يمنعهم عن سماع القرآن، وعن سماع المواعظ، وعن قبول الدعوة إلى الله ﷻ، وأي شيء يمنعهم عن قبول التذكرة والتذكير؟ ليس هناك مانع؛ لأنه لو كان هناك مانع، لكانوا معذورين، لكنها بلغتهم الدعوة، وفهموها، ولم يكن عندهم مانع يمنعهم من قبولها، فليس لهم عذر، ما منعهم إلا الكبر والعناد والحسد وما أشبه ذلك.

ويدخل في هذا من يتكبر عن سماع الموعظة، وينفر من مجالس الذكر، وينفر من طلب العلم، فإنه يدخل في هذه الآية؛ لأنه يكون مُعرضًا، قال ﷻ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، وإن لم يكن يكفر، فله نصيب من هذه الآية، فكل من غفل عن التذكرة، فله نصيب من هذا، بحسب موقفه من الدعوة، ومن التذكير.

ثم شبههم الله ﷻ بالحُمُر، وهي: جمع حمار، فالحُمُر التي تفر من الصائد، هؤلاء إذا رأوا الواعظ والمذكر، هربوا استكبارًا وأنفة من قبول الذكر وسماعه ومن هؤلاء من يقول: اتركوا الوعظ والتذكير؛ لأن ذلك يثقل عليهم ويريدون الاستمرار على ما هم عليه من الغفلة فهم يشبهون الذين

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٦، ٦٥٦٥، ٧٤٤٠، ٧٥١٠، ٧٥١٦)، ومسلم (١٩٣).

قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ كتبًا مفتوحة من الله، هل بعد هذا التعنت -والعياذ بالله- تعنت؟! ما بعد هذا التعنت والاستكبار تعنت.

قال ﷻ: ﴿كَلَّا﴾: هذا نفي، أن الله ﷻ لن ينزل على كل واحد منهم كتابًا، بل يكفي الكتاب المنزل على رسول الله محمد ﷺ.

ثم بين السبب فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: فالذي منعهم ليس من أجل عدم نزول كتاب لكل واحد منهم، بل الذي منعهم هو أنهم لا يخافون الآخرة.

ثم قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ «إنه» أي: القرآن العظيم، وما جاء به الرسول ﷺ، ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ أي: تذكرة كافية لمن يريد الهداية، أما من يريد التعنت، فهذا لا حيلة فيه؛ لأنه لم يترك الحق عن جهالة، وإنما تركه عن عناد، فالمعاند ليس فيه حيلة، أبدًا.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾: من شاء، وترك الكبر والعناد والتعجرف، ذكر القرآن ورجع إليه؛ لينقذ نفسه من الهلاك، ويعرف الحق، ويسلك طريق النجاة، وهذا بمشيئة الله ثم مشيئة الإنسان، فدل ذلك على أن الإنسان له مشيئة، وله اختيار، وليس مجبرًا؛ كما تقول به الجبرية.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: هذا فيه ردٌّ على القدرية الذين يقولون بأن العبد له مشيئة مستقلة، وليس لله إرادة في إيمان العبد وكفره، وإنما العبد هو الذي يخلق فعل نفسه، وله مشيئة مستقلة، وإرادة مستقلة،

فهذا ضلال -والعياذ بالله-.

فمشيئة العبد مربوطة بمشيئة الله ﷻ، وليست مستقلة؛ كما تقوله القدرية.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾: الله ﷻ أهلٌ لأن يتقي، هو وأن يتقى غضبه وعقابه، وبطشه نقمته.

﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾: فالله ﷻ، غفور رحيم، هو أهلٌ للتقوى: أن يتقى عذابه، وغضبه وبطشه وعقوبته، وهو أيضا أهلٌ للمغفرة لمن تاب إلى الله، واستغفر الله ﷻ، فهذا فيه ترغيب في التوبة والاستغفار، مهما كان من الإنسان من الكفر والشرك وأنواع التحدي والتكبر، فإنه إذا تاب إلى الله ﷻ، واستغفر الله، تاب الله عليه، هذا من فضله ﷻ.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، أصحابه اجمعين.

الدرس الثمانون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ
﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ
﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ
﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ
الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ
عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١- ١٩].

قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾: «لا» مزيدة للتأكيد؛ مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾﴾ [البلد: ١]، فهي تزاد من أجل تأكيد الخبر، وهناك حروف تأتي للتأكيد مثل قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، فكلمة «من» للتأكيد، والأصل «ما إله إلا الله»، وهذا شيء مألوف في القرآن، هذا وجه.

والوجه الثاني: أن «لا» ليست مزيدة، وإنما هي نافية لشيء قبلها،

وهو تكذيب الكفار والمشركين بالبعث؛ كما سبق مما حكاه الله ﷻ من إنكارهم البعث والنشور، والله تعالى يقول: ليس الأمر كما زعمتم، فـ«لا» هذه نافية لما زعموه.

﴿أُقۡسِمُ﴾ أي: أحلف، فالقسم هو الحلف، والله ﷻ يحلف لتأكيد ما يخبر به، مع أنه ﷻ أصدق القائلين، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢] فهو ﷻ أصدق القائلين، ومع هذا يحلف على ما يقول، ويخبر، وهو ﷻ لا يقسم إلا بشيء له أهمية، وله شأن؛ لينبه عليه، ولكون يوم القيامة له أهمية وله شأن أقسم به، وهو ﷻ يقسم بما شاء من خلقه، وأما المخلوق، فلا يقسم إلا بالله، عن سعد بن عبيدة قال: سمع ابن عمر رضي الله عنهما رجلا يحلف بالكعبة، فقال: لا تحلف بالكعبة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»[1].

وعن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر رضي الله عنه وهو يسير في ركب وهو يحلف بأبيه، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ فَإِذَا حَلَفَ أَحَدُكُمْ فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»[2]. المخلوق حرام عليه أن يحلف بغير الله ﷻ.

﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، ويوم القيامة هو يوم البعث والنشور؛ لقيام الناس من قبورهم لرب العالمين، وهو يوم مهول تشيب من هوله الولدان، قال ﷻ: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣٥)، وأحمد في مسنده (١٠/ ٢٤٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨، ٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ٢]، فيوم القيامة فيه أهوال عظيمة، فالله جَلَّالَهُ أقسم به لعظمته وما يحدث فيه.

ثم قال تَعَالَىٰ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، واللوامة هي التي تلوم صاحبها، فنفس المؤمن تلوم صاحبها على المخالفات، وتحثه على التوبة.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والنفوس ثلاثة أنواع؛ كما جاء في القرآن: النفس الأمارة بالسوء، قال تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وهذه نفس الكافر، دائمًا تأمره بالسوء، والكفر، والمعاصي، واتباع الشهوات، وفعل المحرمات، وترك الواجبات، فهي أمارة بالسوء.

والثانية: اللوامة، وهي نفس المؤمن كما بيَّنا.

والثالثة: هي النفس المطمئنة، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر: ٢٧]، وهي النفس التي لا يصدر منها سوء، ولا معصية، فهذه مطمئنة بالإيمان، واليقين، وهذه أعلى أنواع النفوس»[(١)].

فهذه النفس عجيبة، ولذلك أقسم الله تَعَالَىٰ بها؛ لينبه على شأنها، والمقسم عليه هو حصول البعث والنشور؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر الذي يجحد البعث والنشور.

﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، فالميت إذا مات، وطال عليه العهد يصير ترابًا، وتفنى عظامه، وتكون رميمًا، ولذلك يقول الكافر: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]، فالله تَعَالَىٰ قادر على أن يجمع هذه العظام المتفرقة، واللحوم

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٧٥).

المتمزقة، والشعور المتناثرة، قادر ﷻ على أن يعيدها، فالذي خلقها أول مرة قادر على إعادتها من باب أولى، قال ﷻ: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: ٤]، فالميت وإن تحلل، وصار ترابًا، فإن الله ﷻ يعيده كما كان، ويجمع عظامه النخرة، الرميم يعيدها كما كانت، ونص على العظام؛ لأنها هي هيكل البدن، ثم يكسوها الله ﷻ باللحم.

﴿بَلَىٰ﴾: نجمعها، ﴿قَٰدِرِينَ﴾: منصوب على الحال، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ أي: أصابعه، وهنا قولان للمفسرين:

القول الأول: أن الله ﷻ قادر على أن يجعلها كخف البعير متشابكة، ولا يفرقها كما كانت في الدنيا؛ عقوبة له، فإن هذه الأصابع المختلفة المتفرقة من عجائب قدرة الله ﷻ؛ وذلك من أجل أن يسهل على الإنسان الأخذ والإعطاء، والقبض والبسط، وغير ذلك، فالله ﷻ قادر على أن يسلب هذه النعمة، ويجعلها كخف البعير.

والقول الثاني: لأن البنان هو أعجب ما في الإنسان، وما فيه من الخلقة الدقيقة، والعروق الدقيقة، والمفاصل، فهي أعجب ما في الإنسان، فإذا فنيت الأصابع في القبر، وتلاشت، فإن الله ﷻ قادر على أن يعيدها كما كانت مع دقة خلقتها، وخفاء معالمها، فلا يعجزه شيء ﷻ، فإذا كان ﷻ قادرًا على إعادة البنان، فهو قادر على غيره من أعضاء الجسم وهيكل الجسم من باب أولى؛ لأنه ﷻ لا يعجزه شيء.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: الكافر، ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾: ليفجر أي: أن يكفر، وأن

يستمر على المعاصي طوال حياته، ولا يتوب إلى الله ﷻ، ما تجدي فيه الآيات والعبر، فعنده أمل طويل، واستبعاد للبعث والنشور، فيتمادى في عمله السيئ، ولا يتوب إلى الله ﷻ.

لأنه لا يؤمن ببعث ولا نشور، ويظن أنها الحياة الدنيا فقط، فهذه نتيجة لعدم الإيمان بالبعث أن الإنسان يتمادى في غيه وضلاله؛ لأنه لا يؤمن بحساب ولا بجزاء، ويظن أنه مهمل.

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٦﴾ أي: يقول متى وقت قيام الساعة؟ من باب التحدي والإنكار، وذلك من باب التحدي والاستبعاد لها، منكرًا لها.

قال ﷻ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾ أي: يوم القيام إذا بَرِق البصر، أي: شخص من شدة الهول، وصار لا يرتد إليهم طرفهم، شاخصة أبصارهم.

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ أي: ذهب نوره، وكورت الشمس، وذهب ضوؤها، هذا هو وقت قيام الساعة، ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾: وكانا لا يجتمعان في الدنيا، فإذا اجتمعا، فقد توقف سيرهما؛ لأنه انتهى أجلهما، وهذا ما تخوف رسول الله ﷺ حينما كسفت الشمس، فخشي ﷺ أن هذا وقت قيام الساعة؛ لأن وقت الساعة تكسف الشمس والقمر، ويذهب ضوؤهما، ويعقبه قيام الساعة وهذا ما تخوفه رسول الله ﷺ، ولذلك خرج فزعًا يجر ردائه لما كسفت الشمس، يخشى أن تكون الساعة[1]؛ لأنه لا يعلم قيام الساعة إلا الله ﷻ،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٠٤٤، ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٥٨، ١٠٦٤، ١٠٦٥، ١٢١٢، ٣٢٠٣)، ومسلم (٩٠١)، وفيه: «كَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَصَلَّى بِالنَّاسِ، فَأَطَالَ القِرَاءَةَ، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ =

ومن علاماتها كسوف الشمس، وخسوف القمر.

وأما هؤلاء الذين يقولون: ليس هناك عبرة في الخسوف والكسوف، وهو شيء طبيعي، وهذا شيء عادي يعرف بالحساب، وهم لا يدرون أن ما وراء الخسوف والكسوف شيء لا يعلمون متى يحصل، وهو قيام الساعة، وذلك لجهلهم بذلك، فكونه يدرك بالحساب لا يمنع أن يكون عند حدوثه قيام الساعة، وهذا ما تخوف منه رسول الله ﷺ.

حينذاك إذا حصلت هذه الدواهي والأهوال يقول الإنسان الذي يكذب بالبعث والنشور، يقول الإنسان الكافر: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾: من هذه الأهوال، وما يعقبها من الجزاء والحساب؟.

قال سبحانه وتعالى: ﴿كَلَّا﴾: هذا نفي، أي: ليس هناك مفر، ﴿لَا وَزَرَ﴾: والوزر هو الجبل الذي يتحصن به الخائف، أو القصر المنيع الذي يتحصن به الخائف في الدنيا.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾﴾ أي: ليس لهم محيد عن الله جل جلاله، فكلهم يلاقي الله يوم القيامة: المؤمن والكافر، ولا يختفون، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ما لهم مهرب عن الله سبحانه وتعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ

= رَفَعَ رَأْسَهُ، فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ وَهِيَ دُونَ قِرَاءَتِهِ الأُولَى، ثُمَّ رَكَعَ، فَأَطَالَ الرُّكُوعَ دُونَ رُكُوعِهِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ، فَصَنَعَ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لاَ يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ يُرِيهِمَا عِبَادَهُ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ، فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلاَةِ».

مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي: يُخبر الإنسان، ﴿يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدم لآخرته، وما آخر في الدنيا.

وقيل: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من الطاعة، ﴿وَأَخَّرَ﴾ من المعاصي، أو ما قدم في أول عمره، وما أخره في آخر عمره، لا يُترك شيء من أعماله.

ثم قال ﷻ: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾: مع كون الإنسان ينبأ بما قدم وآخر في الكتاب الذي سُجِّل عليه، ودُفِع إليه، أيضا تشهد عليه أعضاؤه وجلده، فتكون حجة عليه، فمع أنه يعطى هذا الكتاب الذي لايغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، وسجلته عليه الملائكة الحفظة، أيضا نفسه تشهد عليه، جسمه يشهد عليه.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ أي: إنه لو أراد أن يعتذر يوم القيامة، ليس وقت اعتذار، ولا ينفع الاعتذار، فلو اعتذر، شهدت عليه أعضاؤه وجلده، فلا ينفعه الاعتذار.

ثم إن الله ﷻ وجه رسوله ﷺ ماذا يعمل عند نزول الوحي عليه؛ لأن الرسول ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي، يشتد به الأمر، ويستعجل في قراءة القرآن الذي يلقيه عليه جبريل عليه السلام، يخشى أن ينساه ﷺ، فيحرك لسانه وشفتيه قبل أن ينهي جبريل عليه السلام القراءة عليه، فالله ﷻ تعهد له بأن يحفظ عليه هذا القرآن، ولا يحتاج أنه ﷺ يكلف نفسه لحفظه.

فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن وقت نزوله عليك.

﴿لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ [طه: ١١٤]، بل استمع إلى جبريل عليه السلام حتى ينهي ما جاء به براحة وطمأنينة.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧﴾: لا تخف أن يضيع منه شيء؛ ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ﴾: جمعه في صدرك، ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ أي: كذلك نيسر عليك قراءته بدون تعجل.

﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ أي: إذا قرأه جبريل عليه السلام عليك، ﴿فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾: اتبع قراءة جبريل عليه السلام، هذا إرشاد من الله ﷻ لرسوله ﷺ عند نزول الوحي، كيف يستقبل الوحي، فتعهد الله ﷻ له بجمعه في صدره، وتعهد الله له بأن يسهل عليه قراءته، وأمره بأن يصغي إلى جبريل عليه السلام حتى ينهي ما نزل به إليه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ١٩﴾ أي: تفسيره وبيان أحكامه، سنبيِّنه لك بالوحي الثاني، وهو السنة النبوية.

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

الدرس الحادي والثمانون

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾
وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾
وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ
﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ
فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾

[القيامة: ٢٠- ٤٠].

هذه الآيات في آخر سورة القيامة فيها عبر ومواعظ وتذكير لمن وفقه الله ﷻ، وأصغى إليها، قال ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾: فالعاجلة هي الدنيا، والآخرة هي يوم البعث والنشور، والإنسان يتنقل بين ثلاث دور، الدار الأولى هي العاجلة ودار البرزخ وهو القبر، والدار الثالثة وهي دار القرار، وهي الدار الآخرة في الجنة أو النار، ليس هناك دارٌ بعدها، ولا انتقال منها؛ ولهذا سماها الله ﷻ دار القرار.

قال ﷻ: ﴿كَلَّا﴾: هذه كلمة زجر وتهديد، ﴿بَلْ تُحِبُّونَ﴾: أيها الناس ﴿الْعَاجِلَةَ﴾: وهي الدار الدنيا، وما فيها من المتاع والأموال والأولاد، وتشتغلون بها لتحصيلها، وكأنه ليس أمامكم دارٌ أخرى.

﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾، أي: تتركون العمل للآخرة، مع أن الدنيا خُلِقت من أجل العمل للآخرة، فالعمل إنما يكون في الدنيا، وأما الجزاء يكون في الدار الآخرة، فكثيرٌ من الناس معرضون عن هذا، ينشغلون بالدنيا، ولا يلتفتون للآخرة، فمنهم من لا يؤمن بالآخرة، ويكذب بها، ومنهم من يؤمن بها، لكنه يتشاغل عنها، ويلهو عنها، وينساها.

ولهذا قال: ﴿وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾: ولا تتذكرونها، ولا تستعدون لها، ولا تعملون لها، وهذا توبيخٌ من الله ﷻ لمن كانت هذه صفته؛ لأنه إذا اشتغل بالدنيا، ونسي الآخرة، ضيع الدارين، ضيع الدنيا والآخرة، قال ﷻ: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

أما إذا عمل للآخرة، فإنه يكون قد حفظ الدارين: حفظ الدار الدنيا بما خُلِقت له، وهو العمل الصالح، والدار الآخرة يفوز فيها بالجزاء، فهذا يكون قد حفظ دنياه وآخرته، وهذا توفيقٌ من الله ﷻ، ومن تنبه لذلك، أعانه الله، ويسر له، قال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٩]، لا يضيع عند الله ﷻ.

ثم بيَّن الله ﷻ أن الناس في الآخرة ينقسمون الناس إلى قسمين: السعداء والأشقياء.

فقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾: «﴿نَّاضِرَةٌ﴾» من النضرة، وهي البهاء والحسن.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: بالظاء المشالة، أي: معاينة لله بالأبصار، وهذا أعلى النعيم أن تنظروا إلى الله ﷻ، الذي آمنوا به في الدنيا لم يروه، وإنما آمنوا به لما قام عندهم من البراهين والأدلة عليه ﷻ من أخبار الرسل، فآمنوا به، وهم لم يروه، ولكنهم رأوا آياته، براهينه، فآمنوا به، فالله ﷻ يجزيهم يوم القيامة أنه ﷻ يتجلى لهم، فيرونه عيانًا بأبصارهم، وهذا أعظم نعيم يجدونه في الآخرة، وهو النظر إلى وجه الله الكريم.

وقد تواترت الأدلة من الكتاب والسنة النبوية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة عيانًا بأبصارهم لا يتُضامُّونَ برؤيته، بل كلٌّ يراه على حده، بدون أن يتزاحموا لرؤيته ﷻ، وفي الحديث الصحيح **عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «قَالَ النَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ ﷺ: هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟ فَقَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ ﷺ: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ...»**(١). الحديث.

فهي رؤية حقيقية للأبصار، دلت عليها الأدلة المتواترة من القرآن مثل هذه الآية، كما قال ﷻ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم؛ كما في صحيح مسلم في تفسير هذه الآية، قال ﷻ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٦، ٦٥٧٣، ٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦][(١)]، والأحاديث في هذا كثيرة في الصحاح في أن المؤمنين يرون ربهم ﷻ يوم القيامة عيانًا بأبصارهم.

ومما يدل على أن المؤمنين يرون ربهم في القرآن قوله ﷻ عن الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ١٥]، فدل ذلك على أن الكفار لا يرون الله ﷻ؛ لأنهم كفروا به في الدنيا، ولم يؤمنوا به، فحُرِموا من رؤيته يوم القيامة، فدل هذا بمفهومه على أن المؤمنين لا يُحجبون عن الله، بل يرونه ﷻ.

﴿وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ ٢٤﴾ أي: كاسفة مسودة وهي وجوه الكفار، ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ ٢٥﴾ أي: مصيبة وقاصمة للظهر والفَقَار من العذاب الذي يلقونه.

ولما ذكر ﷻ القيامة الكبرى، وما فيها من الأهوال، ذكر الموت، وهو القيامة الصغرى، فالإنسان إذا مات، قامت قيامته؛ لأنه انتقل من الدنيا إلى الآخرة.

فقال: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ٣٠﴾.

﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي: الروح عند الاحتضار، ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمع ترقوة، وهي

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٨١) عَنْ صُهَيْبٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تبارَكَ وَتعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ».

العظام المحيطة بالعنق من الجانبين، وفي الآية الأخرى، قال ﷻ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٨٣]، أي: بلغت الروح الحلقوم، ثم يقبضها ملك الموت عند ذلك، فملائكة الموت تسوقها من العروق ومن الجسم ومن الأعضاء، حتى تجتمع في الحلقوم، فيقبضها ملك الموت، قال ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾: قال الحاضرون عند هذا الميت: من الذي يرقي هذا الميت بأن يقرأ عليه الرقية؛ لعله يُشفى، فهم يطلبون له الشفاء بالرُّقْيَة؛ لأنهم كانوا يعالجون المريض بالرُّقْيَة.

وقيل: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ أي: من الذي يرقى بروحه إلى السماء من الملائكة؛ لأن الروح إذا قُبِضت يُصعد بها إلى السماء، فروح المؤمن تصعد بها ملائكة الرحمة، وينتهى بها إلى الله ﷻ، ثم يأمر بردها إلى الأرض، وروح الكافر يُصعد بها مع ملائكة العذاب، فإذا وصلوا إلى السماء الدنيا أُغلقت أبوابها، فلا تدخل السموات؛ قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فتُطرح إلى الأرض طرحًا بشدة.

ثم قال: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي: عند الاحتضار، بمعنى اجتمعت على المحتضر الشدائد في تلك اللحظة: شدة الألم، ونزع الروح، وشدة مفارقته للأهل والأموال، فهي شدائد تجتمع عليه زيادة على ما هو فيه من الاحتضار.

وقيل: التفت ساقا الميت عند الاحتضار، والتف بعضها على بعض، فلا يستطيع المشي أو الجلوس، إذا تعطلت رجلاه، وانطوى بعضها على

بعض، ولُفَّت في الكفن، بدل أن كانت تنقل صاحبها، فإنها تعطلت ولُفت بالكفن.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ أي: المصير بعد الموت حين يلقى ربه ﷻ، فكل بني آدم يلقون ربهم، المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، يلقون ربهم ﷻ، فإليه ﷻ يردون ويرجعون، لا مفر لهم عنه، ولا محيد لهم عنه، ولا مأوى عن الذهاب إلى الله ﷻ، فماذا تكون حال الكافر عند لقاء الله وهو لم يعمل صالحًا.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١﴾: ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ أي: لم يؤمن بالله ﷻ ورسوله ﷺ، بل كفر، ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ لله ﷻ، وهذا فيه تعظيم شأن الصلاة، وأنها تأتي بعد الإيمان بالله، والصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، فإذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وصدق وآمن، تأتي الصلاة أول شيء، فأول أعمال المسلم هي الصلاة.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ أي: بدلًا من أن يصدِّق، فإنه كَذَّب، وكفر بالله ﷻ، وبدلًا من أن يصلي تولى؛ لأن الصلاة إقبال على الله ﷻ، وتركها تولٍ وإعراضٌ عن الله، فهذا فيه تعظيم قدر هذه الصلاة، التي يتهاون فيها كثير من الناس، ويزهدون فيها، فيكون هذا مصيرهم عند الموت.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣﴾ متكبرًا في مشيته، وكأن ليس أمامه حساب وجنة أو نار.

فيقال له: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ۝٣٥﴾: هذه كلمة عذاب ووعيد كررها الله ﷻ للتأكيد.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: هذا الإنسان الذي لا صدق، ولاصلى، ثم ذهب إلى أهله يتمطى أيظن ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ لا يُؤمر، ولايُنهى، ولا يُبعث، ولا يُجازى؟!

ثم بين ﷻ قدرته على البعث، واستدل على ذلك بأنه: خلق الإنسان أولًا من نطفة، ثم من علقة، فإذا كان الله ﷻ أوجده من العدم، فهو قادرٌ على أن يعيده من باب أولى.

﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ أي: من هذا المني، وهذه العلقة، ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ أي: الشكلين، فالمراد بالزوجين هنا الشكلان، ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾: يخلق الله ﷻ من هذه النطفة الذكر، ويخلق منها الأنثى، مع أنها نطفة واحدة، لكن الله ﷻ بقدرته خلق منها الذكر والأنثى، فلا تكون كلها ذكورًا، ولا تكون كلها إناثًا.

وخلق الله ﷻ الذكر والأنثى لحكمة، وهي بقاء النسل، قال ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، كل المخلوقات تتكون من زوجين، حتى النباتات، حتى البهائم؛ من أجل بقاء النوع، وبقاء الجنس.

ثم قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾: الذي خلق من هذه النطفة، قادر فالذي خلقها أولًا قادر أن يعيدها؟!! هذا من جهة النظر العقلي، وإلا فإن الله لا يعجزه شيء ﷻ، لكن هذا من حيث النظر العقلي: أن الذي قدر على البداءة، قادرٌ على الإعادة من باب أولى، قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

فهذه الآية من أدلة البعث وبراهين البعث، الذي أنكره الكافر، أنكره المشرك، أقر به أهل الإيمان، فهذا من أدلة وبراهين البعث.

وصلى اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الثاني والثمانون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا (١) إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن
نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا
(٣) إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ
كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ
يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ
لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا (٩) إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا (١٠) فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ
شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا (١٢) مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾

[الإنسان: ١ - ١٤].

هذه سورة الإنسان التي كان النبي ﷺ يقرأ بها يوم الجمعة في صلاة الفجر مع سورة السجدة؛ لما فيهما من الوعظ والتذكير، وبيان بداية الإنسان ونهايته(١).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه (٨٩١، ١٠٦٨)، ومسلم (٨٨٠) =

قال ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾: «﴿هَلْ﴾» معناها: «قد»، أي: قد أتى، وليست للاستفهام، وإنما هي للتحقيق والتقرير، أي أنه قد أتى على الإنسان، أي: مضى ومرَّ وقت على الإنسان، والمراد بالإنسان هو آدم عليه السلام وذريته.

وقد ذكر الله ﷻ في هذه السورة أحوال هذه الإنسان، وهي أحوال ثلاث: قال ﷻ:

الحالة الأولى: وهي ما قبل خلقه، قال ﷻ: ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

الحالة الثانية: وهي ما بعد خلقه وابتلائه وامتحانه في هذه الحياة الدنيا.

الحالة الثالثة: هي حاله في الدار الآخرة بعد البعث والنشور.

فقوله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ أي: مضى عليه، ومرَّ عليه.

﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ أي: وقت من الزمان لا يعلمه إلا الله ﷻ، وذلك قبل خلق آدم عليه السلام، ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ أي: كان قبل خلقه لم يكن شيئًا، ولا وجود له، فليس الإنسان قديمًا، فكل المخلوقات ليست قديمة، ولكون كله حادث والأول هو الله ﷻ، الذي ليس قبله شيء، والمخلوقات محدثة بعد أن لم تكن، وذلك بقدرة الله ﷻ، ومنها هذا الإنسان فإنه ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

ثم إن الله جل جلاله خلق آدم عليه السلام أبا البشرية من تراب صار طينًا حَمأ مسنونًا،

= وفيه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُ فِي الجُمُعَةِ فِي صَلاَةِ الفَجْرِ الم تَنْزِيلُ السَّجْدَةَ، وَهَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ».

خلق منه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، من تراب، ثم من طين حَمَأ مسنون، وهذا من عجائب قدرة الله تَعَالَى كيف أنه خلق من التراب ومن الطين الحمأ المسنون هذا الإنسان، الذي فيه عجائب قدرة الله جَلَّ جَلَالُهُ من جسم وعقل وسمع وبصر وحواس، مع أنه كان معدومًا في الأول؛ كما قال الله تَعَالَى لنبيه زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، فهو موجود من العدم، ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾.

وذرية آدم من نطفة، قال تَعَالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾، ثم إنه تَعَالَى فخلق ذريته ونسله من نطفة، وهي المني، ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: مختلطة بين مَنِيِّ الرجل، ومَنِيِّ المرأة تنزل عند الجماع مَنِيِّ الرجل أبيض غليظ، ومَنِيِّ المرأة أصفر رقيق، فيجتمعان، فيخلق الله تَعَالَى من مجموعهما الإنسان ذكرًا كان أو أنثى، فقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: ابن آدم، ﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: مختلطة.

ثم قال تَعَالَى: ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: أن الحكمة من خلق هذا الإنسان وإيجاده أنه يبتلى ويمتحن بما يجري عليه في حياته من الخير والشر، ومن السرور والحزن، ومن الغنى والفقر، والأحوال المختلفة، الله تَعَالَى يبتليه ويختبره؛ ليتميز الإنسان الشاكر الصابر الذي يشكر عند النعم، ويصبر عند النقم من الإنسان الذي يكفر عند النعم، ويجزع عند النعم.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾: جعل الله تَعَالَى له مدارك يعرف بها الخير من الشر، ﴿سَمِيعًۢا﴾: يسمع، ﴿بَصِيرًا﴾ يبصر، عاقل يميز الأمور عنده قدرة على الحركة والاكتساب، فهو مزود بكل ما يحتاج إليه لمصالحه.

﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ﴾، ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ﴾ أي: أرشدناه، والمراد بالهداية هنا هي هداية الدلالة والإرشاد؛ كما قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾ أي: أرشدناهم وبيَّنا لهم، ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]؛ لأن الهداية على قسمين: هداية دلالة وإرشاد، وهي عامة لكل الخلق -المؤمن والكافر-، وهداية توفيق، وهذه خاصة بالمؤمن الذي يستجيب لأوامر الله ﷻ، فهذا يهديه الله بمعنى أنه يثبته على الحق، ويوفقه للخير إذا هو أقبل على الخير، ورغب في الخير، فكلٌّ ميسر لما خلق له، ما تركه الله ﷻ في عماية وحيرة، بل إن الله ﷻ بيَّن له طريق الخير، ورغبه فيه، وأمره به، وبيَّن له طريق الشر، وحذره منه، ونهاه عنه، ثم إن الإنسان له اختيار وله مشيئة، وليس مجبرًا على أفعاله.

ولهذا قال: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، فالمؤمن يشكر الله ﷻ، ويسلك طريق الخير الذي بيَّنه الله له، وأمره به، وأما الكافر والمشرك، فإنه يسلك طريق الشر الذي نهي عنه وحذر منه، فيرتكب ما نهاه الله عنه؛ اتباعًا لهواه وشهوته ورغبته.

ثم بيَّن الله ﷻ جزاء الفريقين -الشاكر والكفور-، فقال ﷻ في الكفور: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾، من سلك طريق الشر، فإن الله ﷻ أعد له عذابًا أليمًا، وهذه السلاسل لايعلمها إلا الله ﷻ.

﴿وَأَغْلَٰلًا﴾: في أيديهم، تُغل إلى أعناقهم، فيجمع عليه بين السلاسل والأغلال، قال ﷻ: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١]، نسأل الله العافية.

﴿وَسَعِيرًا﴾ أي: وأعتدنا لهم عذابًا يستعر في أجسامهم، ويتوقد في جثثهم، وهي النار -والعياذ بالله-، فالسعير من أسماء النار، السعير والجحيم من أسماء النار.

ثم ذكر الله ﷻ الصنف الثاني، وهم أهل الإيمان، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٍ﴾: الأبرار جمع بَر، وهو المطيع المتقي.

فالمؤمنون يوم القيامة على ثلاث طبقات: منهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، والظالم لنفسه هو العاصي الذي معصيته دون الشرك، فهو تحت المشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه، ومنهم المقتصد الذي يفعل الطاعات، ويترك المحرمات، فهو اقتصر على فعل الطاعات، فلم يترك منها شيئًا، وتجنب المحرمات، فلم يفعل منها شيئًا، وهؤلاء هم الأبرار، ثم السابقون المقربون، وهم الذين فعلوا الطاعات، وتركوا المحرمات، وفعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، ودرجاتهم يوم القيامة بحسب ذلك، قال ﷻ: ﴿هُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٦٣﴾ [آل عمران: ١٦٣].

ثم ذكر جزاء الأبرار فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٍ﴾: الكأس هو وعاء الشراب، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾: أي خلطها، وما تمزج به، ﴿كَافُورًا﴾: اولكافور نبت طيب الرائحة، بارد المذاق، فهم يشربون شرابًا مطيبًا بالكافور.

ومصدر هذا الشراب ﴿عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، ﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ أي: منها، ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، والمراد العبودية الخاصة، وهم أهل الإيمان، وإلا فإن كل

الخلق عباد الله -مؤمنهم وكافرهم- العبودية العامة، قال ﷻ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، هذه عبودية عامة، وأما العبودية الخاصة، فإنها للمؤمنين، فكلمة ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ يراد بها المدح.

وهذه العين ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾: على مطلوبهم ورغباتهم، فهم أينما أرادوها وجدوها، ولا يحتاجون إلى كلفة وحفر آبار وتعب ونفقات، فهي ميسرة، يفجرونها تفجيرًا حسب طلبهم، وليس فيها شح وانقطاع مثل ما في الدنيا، ولا تنفد على طول الوقت وكثرة لاستهلاك.

ثم ذكر ﷻ أعمالهم التي أهلتهم إلى هذه الكرامة، قال ﷻ: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

فذكر في هذه الآيات صفات الأبرار وهي:

الأولى: أنهم ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾: النذر هو أن يلزم الإنسان نفسه بطاعة لم تكن واجبة عليه بأصل الشرع، وهو نوع من أنواع العبادة، فلا يجوز النذر للولي، ولا للقبر، ولا للمخلوق؛ لأنه نوع من أنواع العبادة، فمن نذر لغير الله ﷻ، فهو مشرك الشرك الأكبر، فالذين ينذرون للقبور والأضرحة، وتجمع نذروهم في صناديق تسمى صناديق النذور، ويقتسمها الطواغيت والسدنة، هذه نذور شركية - والعياذ بالله -، وإنما النذر المشروع الوفاء به

هو نذر الطاعة، وقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ». «رواه البخاري».

فنذر الطاعة مثل: أن ينذر صلاة، أو صيامًا، أو عمرة، أو حجًا، أو صدقة، أو غير ذلك من أعمال الخير، فإذا نذر الإنسان نذر طاعة، وجب عليه الوفاء به؛ لأنه التزم به لربه سبحانه وتعالى، فيجب عليه الوفاء، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]، فهذا فيه أن الله سبحانه وتعالى يعلم النذر، ويعلم النفقة التي ينفقها الإنسان، فيجازي عليهما، فالوفاء بنذر الطاعة واجب، وأما نذر المعصية، فلا يجوز الوفاء به؛ كما قال رسول الله ﷺ: «وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلاَ يَعْصِهِ». فمن نذر للقبر، وللضريح، وللأموات، ويتقرب إليهم، فإنه لا يجوز له أن يفي بهذا النذر؛ لأنه نذر معصية، وكذلك من نذر ألا يصل رحمه، أو نذر ألا يتصدق، فإنه لا يفي بهذا النذر، يتركه، وهل تجب عليه كفارة يمين، أو لا تجب؟ هذا محل خلاف بين العلماء، إنما اجمعوا على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية، ويجب التوبة منه.

الثانية من صفاتهم: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا﴾: يخافون من يوم القيامة وما فيه من الأهوال، ولما خافوا منه، استعدوا له، فليس المراد مجرد الخوف منه فقط، لكنه خوف معه عمل واستعداد.

﴿مُسْتَطِيرًا﴾: شره منتشر، وليس شره في مكان خاص، أو في وقت خاص، وإنما هو منتشر.

والثالثة من صفات الأبرار: في قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ أي: يتصدقون بالطعام على المحتاجين، ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، أي هم يرغبون فيه، فهم يؤثرون على أنفسهم، أما أنك لا تطعم من الطعام إلا الذي لا تريده، أو أنه طعام فاسد، فهذا ليس تقربًا لله تبارك وتعالى، وإنما هو تخلص من هذا الطعام فقط، إنما المزية والمدح لمن يطعم الطعام وهو يحبه، إما لأنه جائع، وإما لحاجته إليه، لكنه يؤثر ثواب الله تبارك وتعالى، فيطعم الطعام على حبه، قال تبارك وتعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ هذه مصارف الأطعام وهي: المسكين وهو الذي يجد بعض الكفاية، والفقير وهو الذي لا يجد شيئًا واليتيم وهو من مات أبوه وهو دون البلاغ ولا مال له والأسير وهو أسير الحرب ولو كان كافرًا؛ لأنه لا يستطيع السعي للاكتساب وإغناء نفسه.

يأسرون المسلمين، وإنما يأسرون الكفار، فإذا أُسِر الكافر، فإنه يكون بحاجة إلى الإحسان، فيُحسن إليه، ويخلصون النية في إطعام هؤلاء ويقولون لهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾أي: رجاء ثوابه.

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً﴾: منكم على إحساننا إليكم على إحسانهم عليهم، أن يردوا عليهم إحسانهم، أيريدون المعاوضة؟ لا. لا يريدون عوضًا عما أنفقوا.

﴿وَلَا شُكُورًا﴾ أي: ولا نريد ثناءً منكم.

وإنما الحامل لنا على إطعامكم ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾: فما فعلنا هذا إلا خوفًا من ربِّنا تبارك وتعالى، ﴿يَوْمًا﴾ وهو يوم القيامة، ﴿عَبُوسًا﴾ أي: صعبًا ليس فيه

بشاشة، ولكنه صعب شديد عسير، ﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ أي: شديدًا مما يجري فيه من الأهوال.

ثم بين جزاءهم فقال: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ﴾؛ لأن من استعد لهذا اليوم بنية صالحة وإخلاص، وقاه الله سبحانه وتعالى شره، وسهله عليه، وهذا دليل على أن المسلم يستعد لهذا اليوم، ويخلص عمله لله جل جلاله.

﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾: النضرة هي اللون الحسن، والمنظر البهي في وجوههم ﴿وَسُرُورٗا﴾أي: في نفوسهم.

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ﴾: جزاهم الله سبحانه وتعالى بما صبروا في الدنيا على المشاق، وعلى المكاره، وعلى الشدائد، ولم يجزعوا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ في أول السورة، فهؤلاء أُبتلوا، فصبروا.

﴿جَنَّةٗ﴾: جنة عرضها السموات والأرض لايعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، ﴿وَحَرِيرٗا﴾: فلباسهم في الجنة من الحرير، وهو أطيب الملابس، وألين الملابس، وأنعمها، وأحسنها منظرًا.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ﴾: على السرر، والاتِّكاء يدل على الراحة، فالمتكئ مرتاح.

﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة، ﴿شَمۡسٗا﴾ أي: حرًّا، ﴿وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ أي: بردًا، فهم لا يقاسون من حرٍّ أو من برد، بل يكونون بين الحر والبرد.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ أي: ظلال الجنة، فهم في ظلال بارد طيب، فأينما كانوا، فهم مظللون، ما عندهم شمس، ولا عندهم برد، أينما ذهبوا وأينما جلسوا في الجنة، فكلها مظللة.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ : ﴿وَذُلِّلَتْ﴾ أي: قُرِّبت إليهم الثمرات فهي سهلة التناول.

نسأل الله من فضله وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

الدرس الثالث والثمانون

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ
سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ
لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ
وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ
وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾
نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن
شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ١٥- ٣١].

ما زال السياق في ذكر أحوال أهل الجنة، وما أعد الله سبحانه وتعالى لهم من الكرامة، وذلك أن الله سبحانه وتعالى ذكر في هذه السورة أصنافًا من كرامات أهل الجنة، وما أعد لهم فيها من أنواع النعيم، ومنها ما جاء في هذه الآيات:

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم﴾ أي: يطوف عليهم الخدم بالشراب، وما يريدونه.

﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ : آنية جمع إِنَاء، وهو ما يُشرب به، والأكواب جمع كوب، وهو ما يشرب به، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: من فضة كذلك.

﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾ : وليست من الزجاج، ولكنها في صفائها ولونها وجمالها في شكل القوارير من الزجاج، وفي مادتها هي من الفضة؛ لأن أواني الجنة من الذهب، أو من الفضة، وهي مخلوقة للبقاء والدوام، لا تتكسر كما في الدنيا.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: قدرها أهل الجنة على حسب حاجتهم، أو قدرها الخدم والغلمان الذين يطوفون بها على أهل الجنة، فهي لا تزيد عن حاجتهم ولا تنقص عن حاجتهم، قدروها بحسب الحاجة لا تزيد ولا تنقص.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا﴾، ﴿وَيُسْقَوْنَ﴾ : أهل الجنة يسقيهم الخدم، والكأس المراد بها الخمر، فالجنة فيها خمرٌ، لكنه خمرٌ طيب مسلوبة عنه صفات خمر الدنيا، فخمر الدنيا خبيثة، محرمة، وضارة، وأما خمر الآخرة، فهي طيبة ولذيذة وصحية، ليس فيها غول، أي: ولا تؤثر على العقول كما في خمر الدنيا.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ : الزنجبيل نبت طيب الرائحة، لذيذ المذاق، ولكن ما في الدنيا يختلف عما في الآخرة، فالأسماء والمعاني موجودة ومشتركة، فالدنيا فيها زنجبيل، وكذلك الآخرة فيها زنجبيل، والجنة فيها أعناب، والدنيا فيها أعناب، الدنيا فيها رمان، والجنة فيها رمان، والجنة فيها نخيل، وكذلك الدنيا فيها نخيل، ولكن ليس في الدنيا إلا نموذج مما في الآخرة، وهو يختلف اختلافًا كبيرًا.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ : السلسبيل هو الشيء السلسل، شرابها سلسلٌ طيب المذاق.

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: لا يموتون، ولا يهرمون، ولا يكبرون، بل يستمرون على شبابهم وجمالهم ونظافتهم.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ أي: إذا رأيت هؤلاء الغلمان، ﴿حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ : واللؤلؤ وهو الجواهر الطيبة النفيسة التي تستخرج من البحر، وهي من أجمل أنواع الحلي في صفائها ولونها وجمال منظرها.

﴿مَّنثُورًا﴾ من عقده منتشرًا.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ أي: إذا نظرت «﴿ثَمَّ﴾» أي: هناك، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ : إذا رأيت الجنة على وجه العموم، وأهلها وخدمها، رؤية عامة، ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا﴾ مناظرها ناعمة جميلة ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: ليس له حدود فأدنى أهل الجنة يُعطى أمثال الدنيا وما فيها.

ثم ذكر ﷻ لباسهم، فقال ﷻ: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ﴾ : السندس هو ما رَقَّ من الحرير، ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ : الإستبرق هو ما غلظ من الحرير، ولون ثيابهم من اللون الأخضر، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ : وهو أجود أنواع الأقمشة في الدنيا، ويُحرم على الرجل.

﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ : ﴿وَحُلُّوا﴾ أي: أُلبسوا في أيديهم، ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ : وليست من الحديد، أو غيره بل من فضة الجنة، قدرها إلى الله ﷻ.

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ : للأبدان، وللبطون، وللقلوب، فهذا الشراب يُطيب؛ كما أن مظاهرهم طيبة، فإن الله ﷻ أيضا يُطيب بواطنهم

بهذا الشراب، الذي يُطَهِّر قلوبهم، ويطهر صدورهم، ويطهر أجوافهم من العلل والأسقام والتغيرات، فأهل الجنة لا يبولون، ولا يتغوطون، وإنما يصيبهم الرشح، وهو شيء من العرق رائحته أطيب من المسك.

ويقال لهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما ذكر من هذه الأوصاف، ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ على أعمالكم، فالجنة لا تدرك بالتمني، وإنما تدرك بالعمل الصالح، وركوب المشاق في الدنيا من الأعمال الصالحة: بالجهاد في سبيل الله، بالصيام، بقيام الليل، بالإنفاق، فالجنة غالية؛ كما في الحديث قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»[(١)]، فهي لا تدرك بالأماني، أو أن الإنسان يحكم لنفسه بأن له الجنة؛ كما قال اليهود والنصارى: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ١٣٥]، قال ﷻ: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦] إنه يضمن لنفسه أنه سيكون من أهل الجنة.

فالإنسان لا يجزم لنفسه بالجنة، مهما بلغ من العمل، ومهما بلغ من الطاعة والتقوى، فإنه يخاف، ولا يجزم بأنه من أهل الجنة، وإنما التوفيق بيد الله ﷻ، والعمل ليس ثمنًا للجنة، وإنما هو سببٌ لدخول الجنة، وفي قوله ﷻ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، فالباء ليست باء الثَّمَنِيَّةِ والعوض، ولكنها باء السببية، أي: بسبب ما كنتم تعملون، وإلا فإن النبي ﷺ -كما في الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه- قال: «لَنْ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠).

يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ» قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا»(١).

فالمؤمن يرجو الله ﷻ من فضله وإحسانه، ولهذا جاء في الحديث:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، ﵄ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: «خَرَجَ مِنْ عِنْدِي خَلِيلِي جِبْرِيلُ آنِفًا فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنَّ لِلَّهِ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِهِ عَبَدَ اللَّهَ تَعَالَى خَمْسَ مِائَةِ سَنَةٍ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ فِي الْبَحْرِ عَرْضُهُ وَطُولُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا فِي ثَلَاثِينَ ذِرَاعًا وَالْبَحْرُ مُحِيطٌ بِهِ أَرْبَعَةَ آلَافِ فَرْسَخٍ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ وَأَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ عَيْنًا عَذْبَةً بِعَرْضِ الْأُصْبُعِ تَبِضُّ بِمَاءٍ عَذْبٍ فَتَسْتَنْقِعُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ وَشَجَرَةَ رُمَّانٍ تُخْرِجُ لَهُ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً فَتُغَذِّيهِ يَوْمَهُ، فَإِذَا أَمْسَى نَزَلَ فَأَصَابَ مِنَ الْوَضُوءِ وَأَخَذَ تِلْكَ الرُّمَّانَةَ فَأَكَلَهَا ثُمَّ قَامَ لِصَلَاتِهِ، فَسَأَلَ رَبَّهُ ﷿ عِنْدَ وَقْتِ الْأَجَلِ أَنْ يَقْبِضَهُ سَاجِدًا وَأَنْ لَا يَجْعَلَ لِلْأَرْضِ وَلَا لِشَيْءٍ يُفْسِدُهُ عَلَيْهِ سَبِيلًا حَتَّى بَعَثَهُ وَهُوَ سَاجِدٌ قَالَ: فَفَعَلَ فَنَحْنُ نَمُرُّ عَلَيْهِ إِذَا هَبَطْنَا وَإِذَا عَرَجْنَا فَنَجِدُ لَهُ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ ﷿ فَيَقُولُ لَهُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ الرَّبُّ: أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، فَيَقُولُ: رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷿ لِلْمَلَائِكَةِ: قَايِسُوا عَبْدِي بِنِعْمَتِي عَلَيْهِ وَبِعَمَلِهِ فَتُوجَدُ نِعْمَةُ الْبَصَرِ قَدْ أَحَاطَتْ بِعِبَادَةِ خَمْسِ مِائَةِ سَنَةٍ وَبَقِيَتْ نِعْمَةُ الْجَسَدِ فَضْلًا عَلَيْهِ فَيَقُولُ: أَدْخِلُوا عَبْدِي النَّارَ قَالَ: فَيُجَرُّ إِلَى

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣، ٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

النَّارِ فَيُنَادِي: رَبِّ بِرَحْمَتِكَ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: رُدُّوهُ فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَقُولُ: يَا عَبْدِي، مَنْ خَلَقَكَ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: كَانَ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِكَ أَوْ بِرَحْمَتِي؟ فَيَقُولُ: بَلْ بِرَحْمَتِكَ. فَيَقُولُ: مَنْ قَوَّاكَ لِعِبَادَةِ خَمْسِ مِائَةِ عَامٍ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْزَلَكَ فِي جَبَلٍ وَسَطَ اللُّجَّةِ وَأَخْرَجَ لَكَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنَ الْمَاءِ الْمَالِحِ وَأَخْرَجَ لَكَ كُلَّ لَيْلَةٍ رُمَّانَةً وَإِنَّمَا تَخْرُجُ مَرَّةً فِي السَّنَةِ، وَسَأَلْتَنِي أَنْ أَقْبِضَكَ سَاجِدًا فَفَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ؟ فَيَقُولُ: أَنْتَ يَا رَبِّ، فَقَالَ اللَّهُ ﷻ: فَذَلِكَ بِرَحْمَتِي وَبِرَحْمَتِي أُدْخِلُكَ الْجَنَّةَ، أَدْخِلُوا عَبْدِي الْجَنَّةَ فَنِعْمَ الْعَبْدُ كُنْتَ يَا عَبْدِي فَيُدْخِلُهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، قَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: إِنَّمَا الْأَشْيَاءُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى يَا مُحَمَّدُ»[(١)].

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾: عند الله سبحانه وتعالى، فالله غفور شكور، ومن شكره لكم أنه أدخلكم الجنة، هذا من شكره لكم على الطاعة، وعلى العمل الصالح، شكر الله.

ثم إن الله سبحانه وتعالى خاطب نبيه ﷺ في ختام السورة خطابًا خاصًا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾: نزلناه مفرقًا، فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقًا على حسب الوقائع والحوادث في مدة ثلاث وعشرين سنة، هي حياة رسول الله ﷺ في الرسالة، وكان القرآن ينزل عليه ﷺ في المناسبات وبالتدريج؛ لأن القرآن لو نزل جملة واحدة، ما استطاع الناس أن يعملوا به، فهذا من رحمة سبحانه وتعالى أنه أنزله مفرقًا.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٣٤١)، وتمام في الفوائد (٢/ ٢٥٩).

قال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: ٣٢]، يقولون: لماذا لم ينزل القرآن على الرسول ﷺ جملة واحدة؟ وهذا من تعنتاتهم، وقد بيَّن الله الحكمة في ذلك، فقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢] أي: نزَّلناه متتابعًا، وليس جملة واحدة؛ من أجل أن يسهل العمل به، ولأجل تثبيت فؤادك حينما ينزل عند كل حادثة ما يناسبها ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢]، أي: وفسرناه وبيناه تبيينًا.

﴿نَحۡنُ﴾: هذا من باب التعظيم، الواحد يقول: «نحن» من باب التعظيم، حتى إن المخلوق، الملوك يقولون: «نحن فلان بن فلان، نأمر بكذا».

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: استعن بالصبر على تحمل هذه الأمانة، وهذا القرآن والعمل به، والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، قال ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥]، فالذي يعين الرسول ﷺ هو الصبر وكذلك الصبر عليى أذي الكفار، وكذلك فالصبر عدة المتقين.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾: فإنك ستلاقي من الكفار والمنافقين من يريد صرفك عن هذا القرآن، ويحاول معك أن تترك هذا القرآن، أو تترك بعضه، فلا تطعه، والمراء ﴿ءَاثِمًا﴾ بأفعاله، ﴿كَفُورٗا﴾ بقلبه.

تعليم للرسول ﷺ وتعليم للأمة أنها لا ترضخ للكفار وللمنافقين في كل مكان، وفي كل زمان.

ومما يستعين به رسول الله ﷺ على تبليغ الرسالة: ذكر الله؛ ولهذا قال: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٢٥﴾ أي: لازم الذكر والدعاء والاستغفار في

الصباح والمساء، الأوراد الشرعية والأذكار والأدعية هذا يعينك على مشاق الحياة، ويعينك على العمل، فالذكر يحيي القلب، ويعينك، وينشطك على العبادة، ويكون ﴿بُكۡرَةٗ﴾ في أول النهار، ﴿وَأَصِيلٗا﴾ في آخر النهار.

هذه الأمور التي يواجه بها أذى الكفار:

الأمر الأول: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾.

والثانية: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾.

والثالثة: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾.

والرابع: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾: وهو تهجد الليل، فقيام الليل له تأثير عجيب في المسلم إذا اعتاده، وإذا داوم عليه، ولو كان قليلًا، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾، ما قال ﷻ: «والليل كله فاسجد»، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: خصص جزءًا من الليل، داوم عليه؛ يعينك على دنياك وآخرتك.

﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾: نزه الله ﷻ، سبح الله ونزهه عما لا يليق به.

ثم ذكر الله ﷻ حالة هؤلاء المعرضين والمعارضين من الكفار والمشركين والمنافقين، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾: المعارضين والمعرضين أن يجعلوك تتنازل عن القرآن، ما السبب؟ لأنهم ﴿يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾، وهذا القرآن يحذرهم منها، ومن الاغترار بها، والقرآن يريد منهم أن يعملوا للآخرة، وهم لا يؤمنون بالآخرة، ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ﴾ أي: يتركون وراءهم ﴿يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾، وهو يوم القيامة، فهم يحاولون مع رسول الله ﷺ أن يتنازل عن شيء من الدين، وعن الأوامر والنواهي، ويقولون: إن هذا تشدد، كما يقال الآن.

ولهذا قال مستدلًا على البعث: ﴿نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ﴾: في البداية، ﴿وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ﴾: قوّينا وأحكمْنا خلقهم، ﴿وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا﴾: بعثناهم بعد الموت على شكل آخر غير شكلهم في الدنيا، فالذي يقدر على البداية يقدر على الإعادة من باب أولى، هذا من الأدلة على البعث، أن الذي أنشاهم من الأول لهو قادرٌ على أن يعيدهم.

ثم قال ﷻ واصفًا هذه السورة بجملتها، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾: لما فيها من العظات والذكر، وما فيها من وصف أهل الجنة، ووصف أهل النار، وحالة رسول الله ﷺ في الدعوة للكفار، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾، فهي سورة يتذكر بها من له قلب، ويعتبر بها من له قلب رغبة في الآخرة بخلاف الذين يحبون العاجلة وينسون الآخرة.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾: في هذه الآية سرٌ عظيم، فأنت تقوم بالعمل؛ لأنه أعطاك القدرة، وأعطاك المشيئة، وأعطاك الاختيار، ولم يجبرك كما تقول الجبرية، بل أعطاك الاختيار، فأنت الذي تؤمن، وأنت الذي تكفر، وأنت الذي تطيع، وأنت الذي تعصي باختيارك، ولو أن أحدًا أجبرك، صرت مكرهًا، والمكره لا يؤاخذ، لكن أنت باختيارك، وبإرادتك، وبطوعك تقدم على العمل: إما خيرًا، وإما شرًا.

فإذا سألك أحدٌ: هل العبد مسير أم مخير؟ فتقول: العبد مسير مخير، فهو مسير في أفعال الله فيه تجري عليه، ولو لم يرد، أما من حيث أفعاله هو، فإنه مخير، فهو مسير ومخير، من حيث القضاء والقدر، فإن العبد مسير، فإنه لا ينفك عن قضاء الله وقدره، ومن حيث أفعاله هو، فإنه مخير، فهو الذي

يطيع وهو الذي يعصي، وهو الذي يُسلم، وهو الذي يكفر، فهو مخير من ناحية عمله، فإن قلت: إن الإنسان مخير فقط، فإنك مخطئ، وإن قلت: إن الإنسان مسير فقط، فإنك مخطئ، فلابد أن تقول: إن الإنسان مسير ومخير.

قوله تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: هذا فيه ردٌ على القدرية، فعندنا طرفان: الجبرية يقولون بأن العبد مجبر، ولا اختيار له، ورد على القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه ولم يقدر عليه الله شيئًا من أفعاله.

فقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ رد عليهم حيث جعله خاضعًا لمشيئة الله.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، لا يخفى عليه شيء، ﴿حَكِيمًا﴾: حكيمًا في أفعاله وأقداره، يضع الأمور في مواضعها فيمن يستحقها ويضع عذابه فيمن يستحقه.

ولهذا قال: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: أنه يهديه، وييسر له الخير، ويفتح له باب العمل الصالح.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ فرتب العذاب على الظلم والرحمة على العمل الصالح.

هذا وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الرابع والثمانون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤
فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا
ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ
ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ
۝١٦ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٩ أَلَمْ
نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ
۝٢٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٢٤ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦ وَجَعَلْنَا فِيهَا
رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝٢٧ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١-٢٨].

هذه سورة المرسلات التي كان رسول الله ﷺ أحيانًا يقرأ بها في صلاة المغرب، وهي سورة عظيمة(١).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه (٧٦٣، ٤٤٢٩) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنْ أُمِّ الفَضْلِ بِنْتِ الحَارِثِ، قَالَتْ: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ: «يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا، ثُمَّ مَا صَلَّى لَنَا بَعْدَهَا حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ».

قال ﷻ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾: الواو هي واو القسم، فهذا قسمٌ من الله ﷻ بالمرسلات وما بعدها.

والله ﷻ يقسم بما شاء من خلقه، ولا يقسم إلا بشيء له أهمية، وفيه عبرة لمن اعتبر، وأما المخلوق، فإنه لا يقسم إلا بالله ﷻ؛ كما جاء في الحديث الصحيح: **أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ وَهُوَ يَسِيرُ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»**(١).

وعن **ابْنُ عُمَرَ ﷺ أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَقُولُ وَالْكَعْبَةِ. فَقَالَ: لاَ تَحْلِفْ بِغَيْرِ اللَّهِ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ»**(٢).

فالحلف أو القسم بغير الله ﷻ بالنسبة للمخلوق شركٌ محرم شديد التحريم.

قال ﷻ: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾، ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾، ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾، ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾.

المرسلات قيل: إنها الملائكة، وقيل: هي الرياح، كذلك ما بعدها أوصافٌ للرياح؛ لأن الرياح فيها عبرة، فيها فوائد، فهي رحمة، وتكون أحيانًا عذابًا، يرسلها الله ﷻ بالرحمة، ويرسلها بالعذاب، فالعلماء على قولين: أنه يراد بها الملائكة، أو أن المراد بها الرياح، والله أعلم.

وعلى كل حال فإن هذه المذكورات سواء كانت الملائكة أو الرياح،

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٨، ٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٥٣٥)، وأحمد في مسنده (١٠/ ٢٤٩)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٣٠).

فهي آيات من آيات الله ﷻ.

وقوله: «﴿عُرۡفٗا﴾» أي: متتابعة، كَعُرْفِ الْفَرَس، وقيل: العُرْفِ ما هو ضد المنكر؛ كما قال ﷻ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا﴾، وهي الملائكة، يرسلها الله ﷻ بأوامره، أو الرياح يسخرها بما يشاء في هذا الكون: إما بالعذاب، وإما بالرحمة.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾: قيل: هي الملائكة تنشر ما أمرها الله بنشره، وقيل: هي السحاب، تنشر النبات، أي: تحييه بعد موته، وقيل: هي الرياح تنشر السحاب في السماء.

﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤﴾: وهي الرياح أو الملائكة، فـ«الْفَارِقَات» تفرق بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال.

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥﴾: وهي الملائكة، تلقي الذكر بأمر الله ﷻ، وتنزل بالوحي من الله ﷻ، وبالأوامر وبالنواهي.

﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ۝٦﴾ أي: هذا الذي تنزل به الملائكة إما حجة من الله على خلقه، أو نذير للمكذبين.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾: هذا جواب القسم، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: أن من البعث والحساب والجزاء والجنة والنار، وما يكون في يوم القيامة ﴿لَوَٰقِعٞ﴾: لا محالة، فهذه أقسامٌ من الله ﷻ على أن ما وعد به من البعث.... إلى آخره أنه واقعٌ لا محالة، ولا يمكن أن يتأخر عن وقته، فلا وجه للتشكك فيه، أو لتكذيبه، فمن كذب به، فهو مكذب بالحق، ومكذب بأمرٍ لابد أن يقع، ولابد أن يندم هذا المكذب على تكذيبه، ويفرح به المؤمنون،

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٤].

أقسم الله ﷻ؛ ليبطل كيد هؤلاء، ويكذبهم، وينذرهم ما داموا على قيد الحياة؛ ليتوبوا إلى الله ﷻ، ولا يتشككوا في يوم البعث، ويستعدوا له بالأعمال الصالحة، وترك الأعمال السيئة، يستعدون له، فلابد أن تلقاه، فبأي شيء تلقاه؟ هل تلقاه بعمل صالح، أم تلقاه بعمل سيء؟ فلابد أنك ملاقيه، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، فلابد أن تلقى الله ﷻ، فانظر بماذا تلقى الله ﷻ، تأمل يا أخي، تأمل مصيرك ما دمت في زمن الإمكان، فالمذنب يتوب، والمؤمن يزداد من الخير، عندك مهلة، قدرة، طاقات لا تعطلها، واغتنم فرصتك، اغتنم حياتك قبل موتك، تنبه لنفسك!

ومتى يكون هذا؟ يبينه بقوله: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ أي: ذهب ضوؤها، فإذا جاء الميعاد طُمِسَت؛ لأنه قد انتهى وقتها وأجلها، وفي آية أخرى قال ﷻ: ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، وفي آية ثالثة قال ﷻ: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، انتثرت من السماء، وتساقطت، فهذه أحداث هائلة.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾﴾: تتفتح بعد أن كانت ملتحمة وكانت قوية، فإنها تتفتح؛ لأنه انتهى أجلها، وتغير الكون، وحلّ يوم القيامة.

﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾﴾: ﴿الرُّسُلُ﴾، وهم الأنبياء، ﴿أُقِّتَتْ﴾ أي: جُعِل لها ميقات، يجمعهم الله ﷻ فيه، قال ﷻ: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ [المائدة: ١٠٩].

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾: هذه الرسل؟

وقوله: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ﴾: تفخيم لهذا اليوم.

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾: الحكم بين الخلائق، فيوم القيامة تفصل الخصومات والمنازعات والاختلافات كلها يفصل الله ﷻ فيها بحكمه العدل.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾: هذا سؤال تفخيم وتهويل.

ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: «يَوْمَئِذٍ» أي: إذا حلَّ هذا اليوم، فالويل للمكذبين الذين كذبوا به، وجحدوه، وأنكروه، ونسوه، تغافلوا عنه، ويلٌ لهم إذا حلَّ بهم هذا اليوم.

ثم ذكر الأدلة ﷻ على يوم الفصل، فقال: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي: الأمم السابقة من قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم إبراهيم، والمؤتفكات، وأصحاب مدين، أين هم؟ آثارهم باقية، وديارهم باقية، قال ﷻ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢]، قال ﷻ: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: ٥٨]، وهم أهلكهم الله ﷻ.

﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: من عمل مثل عملهم، وكذب الرسل من آخر الأمم.

يعتبر بهذا، هم كذبوا، وتمردوا، وعصوا، وعتوا، لكن هل تحصنوا من الله ﷻ؟

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أي: مثل ما فعلنا بالأولين نفعل بالمجرمين، فكل مجرم عمل عملهم فيلحق بهم، لابد أن فسيلحق بهم، ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ﴾ أي: ويل في هذا اليوم، ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾: والويل كلمة عذاب وتهديد، وقيل: واد في جهنم، لو سُيِّرت فيه جبال الدنيا، لذابت من شدة حره.

ثم ذكر ﷻ دليلًا آخر، فقال ﷻ: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾: هنا احتج الله ﷻ ببداءة الخلق على الإعادة، فالذي قدر على البداءة والإنشاء من العدم قادرٌ على أن يعيد هؤلاء إلى حياة أخرى، ومن الأدلة على ذلك: بدء الخلق، قال ﷻ: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [العنكبوت: ٢٠].

والماء المهين هو الضعيف وهو المَنِيّ، يخلق منه هذا الإنسان، أولًا نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم بعد ذلك يصوره ﷻ، ويجعل منه السمع والبصر والعروق والعظام واللحم، ويكونه خلقًا سويًا، في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة التي على الجنين في الرحم، يصل إليه خلق الله ﷻ، وتدبيره وهو في هذا المكان، ولا أحد يقدر أن يصل إليه إلا أمر الله.

فما دمنا أننا خلقناكم من ماء مهين، فنحن قادرون على إعادتكم وإخراجكم من القبور مرة ثانية، وهذا فيه ردٌّ على الذين يستبعدون البعث، ويقولون: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا﴾ [الإسراء: ٤٩]، ﴿أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧].

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ﴾ أي: جعلنا هذا الماء المهين، ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ﴾: وهو رحم المرأة، ولا يمكن أن يسقط منه أو ينزل، بل متمكن في هذا الرحم، محفوظ في هذا الرحم.

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾: وهو مدة الحمل: إما ستة أشهر أو تسعة أشهر، وهذا هو الغالب، وقد يزيد عن تسعة أشهر، ولكن الغالب هو تسعة أشهر، وقد ينزل من رحم أمه ويولد لستة أشهر، ويعيش، فأقل مدة للحمل هي ستة أشهر.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾: «قَدَرْنَا» مخفف من «قَدَّرْنَا» من القدر، ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾: نحن فقدرنا متقن، لا يتغير، ولا يتبدل، ولا يتأخر ما قدره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: هل المكذبون بالبعث يمكنهم أن يكذبوا بالبداءة التي ذكرها الله في هذه الآيات.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ المكذبين بهذا في الدنيا، وأما في الآخرة فلا أحد يكذب، وعند الموت، فكلٌّ يؤمن، ولكن التكذيب والتصديق والإيمان والكفر والنفاق هذا إنما يكون في الدنيا فقط.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾: هذا دليل ثالث، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾، ﴿كِفَاتًا﴾ تعيشون على ظهرها، وتدفنون في بطنها، ثم تخرجون منها يوم البعث، ولهذا قال تعالى: ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾ أي: تعيشون على ظهرها أحياءً، وتدفنون في بطنها أمواتًا.

وانظروا كيف أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خص الإنسان بالقبر، ولم يجعله مثل البهائم التي تموت وتلقى جيفها على وجه الأرض؛ لأن هذا الآدمي اعتنى به الله، فجعل له الأرض يعيش على ظهرها، ويحفظ في بطنها، ثم يبعث منها يوم القيامة لجزائه.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾، ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض، ﴿رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾، وهي الجبال، جعلها الله ﷻ لتثبيت الأرض؛ لئلا تضطرب بأهلها، فلا يمكن السير عليها والبنيان عليها، ولا العيش عليها لولا أن الله ﷻ ثبتها بالجبال الراسيات الشامخات المرتفعة.

﴿وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ أي: عذبًا، قال ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ أي: من السحاب، ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ أي: مالحًا لا يمكن شربه.

قال الشاعر:

فَيَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى الإِلَهُ ... أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الجَاحِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ ... وَفِي كُلِّ تَسْكِينَةٍ شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ[1]

كل شيء في هذا الكون آية على وحدانية الله ﷻ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ أي: كل من تمر عليه هذه الآيات وهذه العبر وهذه البراهين ولا يستفيد منها، أو يكابرها ويكذبها.

---

(١) الأبيات لأبي العتاهية، انظر: المستطرف في كل فن مستظرف (١/ ١١)، ومعاهد التنصيص عل شواهد التلخيص (٢/ ٢٨٦).

الدرس الخامس والثمانون

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا
يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ
وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ
﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩-٥٠].

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾: يقال يوم القيامة للمكذبين بيوم البعث، والمكذبين بالعذاب والنكال، يقال لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي: اذهبوا ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا، فقد واجهتموه مواجهة، ولا محيد لكم عنه.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ﴾، وهو ظل دخان النار ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾: لأنه يتقطع في الجو، ويكون شعبًا.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: فهو لا يظل من الشمس والحر، فهو ظل غير ظليل، لأن الظل على قسمين:

القسم الأول: ظل ظليل، قال ﷻ: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]، وهم أهل الجنة.

والقسم الثاني: ظل غير ظليل يقي من الحر، وهو ظل الدخان والنار يوم القيامة.

ثم قال ﷻ في وصف النار: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾، ﴿إِنَّهَا تَرْمِى﴾ أي: تقذف، ﴿بِشَرَرٍ﴾: جمع شرارة، ﴿كَالْقَصْرِ﴾ أي: كالقصور المبنية من ضخامته، وقيل: ﴿كَالْقَصْرِ﴾: كقطع الخشب الضخمة.

﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾، ﴿كَأَنَّهُ﴾ أي: هذا الشرر، ﴿جِمَلَتٌ صُفْرٌ﴾: «جِمَالَةٌ» قيل: جمع جمال، وهي الإبل، من ضخامته.

وقيل: الجمالة هي حبال السفن.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾: المكذبين بهذا الوعيد حينما يلقونه عيانًا بعد أن كانوا يُخبَرون عنه، ويُحَذَّرون منه؛ لتستعدوا له بما يقي منه.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾: ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ يوم البعث ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ أي: أن أهل النار لا يتكلمون، بينما ورد في آيات أخرى أنهم يتكلمون، وأنهم يجادلون، والجمع بين ذلك أن أحوال الآخرة مختلفة، ففي حالة يتكلمون، وفي حالة أخرى لا يتكلمون، بأن يختم الله ﷻ على أفواههم، قال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، فأحوال يوم القيامة مختلفة، منها حالة لا ينطقون فيها، ولا مجال

لكلامهم، بل هم صاغرون داخرون - والعياذ بالله - ليس لهم مجال يتكلمون.

قال ﷻ: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾: لا يؤذن لهم من قبل الله ﷻ، فيعتذرون عما سبق منهم من الكفر والجرائم؛ لأنه لا مجال للاعتذار حينئذ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾، بهذا اليوم وبهذه الآيات، ثم قال ﷻ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾: هذه الأهوال الموصوفة تكون في يوم الفصل الذي مرَّ في أول السورة ذكره في أول السورة.

﴿جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾: أول الأمم وآخر الأمم يجمعون في هذا اليوم في صعيد واحد، لا يتخلف منهم أحد، ولا يفر منهم أحد.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ أي: إن كان لديكم قوة تتخلصون بها من قوتنا وسيطرتنا في هذا اليوم، ﴿فَكِيدُونِ﴾، هاتوا ما عندكم من القوة ومن أنواع التخلص التي كانت معكم في الدنيا، يتحداهم الله بذلك.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: في هذا اليوم ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: تكررت هذه الآية في هذه السورة بعد كل نوع من أنواع الوعيد لمن كذب بكل نوع.

ولما ذكر الله ﷻ وعيد الكافرين، بيَّن ﷻ جزاء المتقين الذين اتقوا ربهم ﷻ، فعملوا بطاعته، وأدوا فرائضه، واجتنبوا محارمه، وقدموا لأنفسهم، واستعدوا لهذا اليوم، والمتقون هم الذين اتخذوا وقاية من عذاب الله، فعملوا لهذا اليوم، فهم في هذا اليوم- اليوم الذي فيه الحر، وفيه السموم، وفيه الجوع والعطش، وفيه...- فالمتقون لا يحسون بشيء من ذلك.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ﴾ : ظلال الجنة، فلا يشعرون بحر، ولا سعير، ولا دخان، ﴿وَعُيُونٍ﴾ : تجري بالأشربة وبالماء الطيب والعسل واللبن وبالرحيق المختوم وغير ذلك من الأشربة، بينما باقي الخلائق عطشى، جوعى.

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾﴾، ﴿وَفَوَٰكِهَ﴾ : من فواكه الجنة يأكلون منها، لما ذكر الله ﷻ شرابهم، وذكر طعامهم، وهذه الفواكه لا يعلمها إلا الله ﷻ، يجدون لها شهوة ولذة ليس فيهم مرض، وليس فيهم هم ولا خوف، فهم يتلذذون بهذه الفواكه.

ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ : وتكرم عليهم، وليس فيه منَّة، ولا ثمن، ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ : لا يعقبه مرض، ولا يعقبه ألم مثلما في الدنيا، في الدنيا إذا أكلت الطعام اللذيذ والطعام الطيب، ربما تصاب بسببها بمرض عضال على إثرها، أما أهل الجنة، فإنهم يأكلون ولا يتأثرون بشيء.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ في الدنيا من الأعمال الصالحة.

ثم قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الجزاء الطيب، ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : الذين أحسنوا العمل، وأطاعوا الله ﷻ.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

وهذا فيه الحث على الإحسان في هذه الدنيا، وأن الإنسان يكون محسنًا فيما بينه وبين الله ﷻ بطاعته وابتغاء مرضاته ﷻ، والخوف من عقابه، وفيما بينه وبين الناس، وفيما بينه وبين البهائم، فيُحسن إليها حتى من أحسن إلى الكلب، فقد غفر الله ﷻ؛ كما في الحديث، وعذب الله امرأة مؤمنة بسبب

هرة حبستها حتى ماتت.

ففي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «غُفِرَ لامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ، قَالَ كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بِذَلِكَ»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ، لَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَسْقِهَا، وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»(٢).

لإن الله سبحانه وتعالى كتب الإحسان على كل شيء، فينبغي على المسلم أن يتصف بالإحسان في هذه الدنيا؛ لينال جزاء المحسنين يوم القيامة؛ كما قال سبحانه وتعالى في سورة الذاريات لما ذكر أهل الجنة: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذاريات: ١٦].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾: الذين يكذبون بالجنة والنار والجزاء، والحساب، ويقولون: إنما هذه خرافات وتقاليد، وليس لها حقيقة.

ثم إن الله سبحانه وتعالى التفت في الخطاب إلى الكفار، فقال لهم: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾: كلوا أيها الكفار في الدنيا، وتمتعوا بكفركم، فإن هذا لا يغنيكم شيئًا، وستندمون عما قريب.

﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢١، ٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٣، ٢٦١٩).

﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

قال ﷻ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وهذا من باب التحذير لهم ألا يستمروا على طغيانهم وكفرهم وغفلتهم.

والسبب: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ من الإجرام، وهو الخروج عن حدود الله ﷻ وعن طاعته.

قال ﷻ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾: المكذبون بما ذُكِر في هذه السورة من أنواع الوعد والوعيد والتهديدات.

قال ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾: من صفات الكفار أنهم أبوا أن يصلوا، وهذا وعيد لكل من تهاون في الصلاة، إذا أمرهم أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أهل الحسبة بالصلاة، فإنهم يستهزئون بهم، ويستكبرون عن الصلاة، بل إن منهم من يقول: إن الدين ليس في الصلاة، وإنما الدين بالقلب، ويسخرون من الصلاة، ويقللون من شأن المساجد وصلاة الجماعة فيها، ويهونون على الناس أمر الصلاة، ويزهدونهم في الصلاة، ويحاولون بشتى الوسائل أن يمنعوا هذه الصلاة في كتاباتهم، وفي ألسنتهم، وفي تصرفاتهم، فأثقل شيء عليهم هي الصلاة، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالصلاة كبيرة على غير الخاشعين، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَثْقَلَ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»(١). فالصلاة ثقيلة عليهم، ولكن أثقلها هاتان الصلاتان.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١)، واللفظ له.

وليس خاصًا بالمنافقين الذين في وقت نزول القرآن، بل هو عامٌ في المنافقين إلى أن تقوم الساعة، فكل زمان يوجد فيه المنافقون، ما دام أنه يوجد قوة الإيمان، ويوجد الإسلام، فإنه يوجد النفاق، حكمة الله ﷻ.

وأول من تكبر هو إبليس، لما أمره الله ﷻ بالسجود لآدم أبى واستكبر، وكان من الكافرين، فهو قائد وإمام لكل من لم يصلِّ إلى أن تقوم الساعة، ففي هذا فيه أهمية الصلاة، وأن تركها هو أعظم أسباب دخول النار والعذاب، قال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾، فالصلاة تربي المسلم، تربيه على الطاعة، وعلى ترك المعصية، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ثم قال ﷻ في ختام هذه السورة العظيمة: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أنهم إذا لم يؤمنوا بما في هذه السورة وينتفعوا، فماذا يتعظون؟!!! لأن القرآن هو كلام الله ﷻ، وهو حديث الله والمتحدث به هو الله ﷻ، فأنت حينما تسمع موعظة، أو كلمة، أو تقرأ خطبة، فإنك تقول: هذا كلام فلان، لكن القرآن كلام الله ﷻ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإذا لم يؤمنوا بالقرآن، فبأي شيء يؤمنون؟

فهذه سورة عظيمة وفيها وعيدٌ وتهديدٌ، وفيها وعدٌ من الله ﷻ للمتقين، وفيها بيان مصير الخلائق يوم القيامة، كأنك تشاهدها، فما ذكره ﷻ فهو حقٌ يقين، لا يتخلف، ولا يتغير، ولا يتبدل أبدًا؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ في خطبه يقول: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ

مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا...»(١)، فخير الحديث كتاب الله ﷻ.

فهذا فيه التنويه بشأن القرآن، وتعظيم هذا القرآن، وأنه السبب في الإيمان وهداية القلوب، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ [الإسراء: ٩ - ١٠].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، فالقرآن أحسن الحديث، وهو أصدق القيل، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]».

وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧).

الدرس السادس والثمانون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ
كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨
وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ
سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ
حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ [النبأ: ١- ١٦].

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾: و«﴿عَمَّ﴾» أصلها «عن ما»، فأدغمت النون في الميم، وصارتا حرفًا مشددًا «عمَّ»، وحذفت الألف من «ما»، وصارت «عم»، ومعناها: عن أي شيء يتساءل الكفار فيما بينهم؟

والجواب قوله ﷻ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾، والنبأ العظيم هو: البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم لرب العالمين؛ للحساب، والجزاء.

لأنه لما سمع الكفار بهذا استنكروه غاية الاستنكار، وجعلوا يتساءلون فيما بينهم سؤال استغراب، وتندر؛ لأنه قد جاءهم شيءٌ لم يدخل في أذهانهم، وعقولهم؛ حيث يخبرهم هذا النبي ﷺ بأنهم سيبعثون بعد الموت

وينتقلون إلى دار أخرى غير دار الدنيا، فاستغربوا هذا، وأنهم إذا صاروا ترابًا، وعظامًا، وكانوا في الأرض، وتلاشوا فيها لا يعاد خلقهم مرة ثانية، ويقومون من قبورهم، كما خلقهم الله ﷻ أول مرة، فيقولون: هذا شيء غير ممكن، وغير معقول؛ لأنهم لا يعرفون قدرة الله ﷻ التي لا تعجزها شيء، ولم يتفكروا في أنفسهم، كيف أنهم خُلِقوا من غير شيء، فالذي خلقهم من غير شيء أول مرة قادر على أن يعيدهم، وهو أهون عليه، فالإعادة أهون من البداءة، لكنهم لم يفكروا في هذا؛ لأن عقولهم قاصرة، لا تؤمن بالغيب، ولا تعرف قدرة الله ﷻ، ومن شدة استنكارهم يتساءلون، ويتحدثون في مجالسهم: ما هذا الكلام الذي جاء به هذا الرجل؛ كما قالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾.

فهم يتساءلون ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾، الخبر العجيب الذي أخبرهم به رسول الله ﷺ، وأخبرت به الرسل السابقة أممهم، وهو: البعث، فالرسول ﷺ ما جاء بشيء مختلف، بل جاء بشيء جاءت به الرسل من قبله.

ثم قال: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾، فمنهم من يقول: هذا سحر، ومنهم من يقول: هذا كذب، ومنهم من يقول: أساطير الأولين، فاختلفت أقوالهم ولو كانوا على حق ما اختلفت أقوالهم؛ لأن أهل الحق لا يختلفون أبدًا، إنما يختلف أهل الباطل.

فيجب على الإنسان أن لا يجعل عقله هو المقياس؛ لأن هناك أشياء يدركها العقل، وأشياء لا يدركها العقل، فعليه أن يُسَلم لها.

ثم قال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾: «﴿كَلَّآ﴾ ﴿ٱلَّذِى﴾»: حرف ردع، وزجر،

فزجرهم ﷻ عن هذا الاختلاف، وقال ﷻ: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾، صدق ما أخبرت به الرسل، أي: عما قريب سيعلمون، وأول ما يعلم الإنسان عند الموت، فإذا تبدى له العالم الأخروي فإنه يؤمن، لكن لا يقبل منه الإيمان(١)؛ لأنه قد انتقل إلى علم الشهادة الذي لا ينكره أحد.

ثم أكد ذلك، فقال: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾، أي: سيؤمنون بما كذبوا به في وقت لا ينفعهم الإيمان.

ثم ذكر الله ﷻ الأدلة، والبراهين على قدرته على البعث فيما أوجده مما يشاهدونه بأعينهم من الآيات الكونية، ويعترفون أنها من تدبير الله، وخلق الله، فما لهم ينكرون البعث، ويستغربون أن الله يقدر على إحياء الموتى؟.

فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾، استفهام تقرير، أي: قد جعلنا الأرض التي يمشون عليها ﴿مِهَـٰدًا﴾، ممهدة لهم، يسيرون، ويبنون، وينامون، ويستقرون عليها، فمن الذي خلق هذه الأرض الواسعة، وجعلها مهادًا، وفراشًا؟ هم يعترفون أن الله ﷻ هو الذي قدر على خلق هذه الأرض.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾: الجبال الرواسي خلقها الله ﷻ؛ لأجل أن تثبت الأرض عن الاضطراب، فهي أوتاد لها، مثل أوتاد الخيمة، تثبتها عن الاضطراب، والحركة؛ لئلا تميد بهم، فلا يستقرون، ولا يبنون عليها.

﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: ولم نجعلكم صنفًا واحدًا ذكورًا، وإناثًا؛ من أجل

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد في المسند (١٠/ ٤٦١)، والبيهقي في الشعب (٩ / ٢٨١) من حديث ابْنِ عُمَرَ ﵄، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ».

التزاوج، والنسل، والسكن، فلم يجعلكم كلم رجالًا، ولم يجعلكم كلكم إناثًا، بل جعلكم ذكورًا، وإناثًا، وهذا من حكمة الله ﷻ، وهذا ليس خاصًا ببني آدم، بل حتى في الحيوانات، وفي النباتات، الأزواج عامة؛ من أجل بقاء النوع.

فالذي قدر على خلقكم، وجعلكم أزواجًا، ألا يقدر على بعثكم؟، بلى هو قادر على ذلك من باب أولى.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾﴾، أي: نومكم بالليل سباتًا مريحًا، تنقطع فيه الحركات، وتسكن المخلوقات، وتهدأ الأصوات، وأصل «السَّبْتُ» هو: القطع، فالسُّبَات تنقطع فيه الحركات، والأشغال؛ لأجل أن ترتاحوا في نومكم، ثم تقومون من نومكم، فالنوم موتة صغرى، والقيام منه بعث، فالذي قدر على هذا يقدر على البعث الأكبر.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾، يغطيكم بسواده، فيستركم كما يستركم اللباس الذي تلبسونه؛ ولذلك إذا جاء الظلام، وأرخى سدوله على الكون، لا ترى هذا، ولا هذا، فيحصل بذلك الراحة، والطمأنينة، فظلام الليل منه نعمة للناس، وهذا برهان على قدرة الله ﷻ، فالذي جعل الليل لباسًا، أليس قادرًا على البعث؟.

ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾، النهار تتحركون فيه لطلب الرزق، وطلب المعاش، وطلب المصالح، فلم يجعل ﷻ الليل دائمًا، فتنقطع أشغالكم، ولم يجعل النهار دائمًا، فلا تستريحون، بل إنه ﷻ داول بينهما، قال ﷯: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم

بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢].

وانظر كيف عبر عن الليل بالسمع؛ لأن الليل يسرى فيه الصوت أكثر، فسلطان السمع فيه أقوى، وقال في النهار، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأن سلطان البصر فيه أقوى، فالذي قدر على هذا، وداول بين الليل، والنهار، أليس قادرًا على البعث؟.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾، بعضها فوق بعض، فهي سميكة قوية واسعة، قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الذاريات: ٤٧].

وقال: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾، أي: أنها قوية سميكة، ومع ثقلها، وسمكها، وقوتها رفعها الله ﷻ فوق الأرض بدون عمد، فمن الذي أمسكها؛ لئلا تسقط على الأرض؟، قال ﷻ: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥]، هو الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

أليس هذا من عجائب قدرة الله، أليس الذي صنع هذا، وقدر عليه، ألا يقدر على بعث هذا الإنسان؟.

هذه مخلوقات الله ﷻ، فيجب على الإنسان أن يعمل عقله، ويتفكر، ويتبصر.

والمثقفون -الآن- يقولون: إن فكركم، وعقلكم محدود، فلا تفكرون بالمخترعات، وبالمصنوعات، ولا يفكرون بالآخرة، ولا يفكرون بقدرة

الله ﷻ، ولا يعظمون الله ﷻ، وإنما نظرتهم قاصرة على الدنيا، ومتاعها، أما المؤمن فنظرته ثاقبة، ينظر إلى ما وراء الدنيا، ويفكر لها.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾، السراج هو: الشمس؛ لأنها تضيء هذا الكون، وتدخل الأسراب، والأغوار، والذي خلق هذه الشمس، وسخرها وجعل فيها هذه الإضاءة المستمرة هو: الله ﷻ، ألا يقدر على أن يعيد الإنسان كما بدأه أول مرة؟.

وقد ذكر في الشمس فائدتين:

الفائدة الأولى: أنها سراج الكون، ولو لم يكن هناك شمس، لأصبح الكون مظلمًا.

الفائدة الثانية: أنها وهاجة، أي: أنها حارة تجفف الأشياء؛ لمصلحة العباد، وإنضاج الثمار، فحرارتها فيها فائدة، فلو كانت الشمس باردة ما استفاد الناس منها، فحرارتها مفيدة للكون، وللنباتات، وللناس، وفوائد أخرى لا يعلمها إلا الله ﷻ.

فالذي قدر على خلق هذه الشمس العظيمة، وسخرها في هذا الكون، وجعل فيها النور، والحرارة، أليس قادرًا على خلق الإنسان، وإعادته من جديد؟.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾، و«المُعْصِر» هي: السحاب التي فيها الماء الذي تمطره على الأرض، وبعض العلماء يقولون: المراد بالمعصرات: الرياح، ولكن الأقرب أن المقصود بها هو السحاب.

﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾، ماءً كثيرًا يروي الأرض، فلو كان الماء يسيرًا ما روى

الأرض، ولا أنبت النبات، والماء وأيضًا: ﴿ثَجَّاجًا﴾، ينزل على الأرض، فينزل بقوة من أجل أن ينزل فيها حتى تنبت، وتحيا بعد موتها، من الذي صنع هذا، أليس هو الله وحده؟، الذي قدر على هذا، ألا يقدر على بعث الأموات الذي أنكرتموه؟، فهم لا ينكرون هذه الآيات، ولا يقدرون على إنكارها، فهي حجة عليهم فيما أنكروه من البعث.

ثم ذكر فائدة هذا الماء الثجّاج، فقال: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ﴾، أي: ننبت من الأرض، ﴿حَبًّا﴾، للقوت، والادخار، كالبر، والشعير، والذرة، وسائر الحبوب مما يأكله الناس، ﴿وَنَبَاتًا﴾، وهو: الخضار، والفواكه، والعشب الذي تأكله الدواب.

﴿وَجَنَّٰتٍ﴾، أي: البساتين، ﴿أَلْفَافًا﴾، ملتفة الأغصان، فهذا كله أخرجه الله ﷻ من ماء واحد، فانظر إلى العجب العجاب، الماء واحد، والتربة واحدة، وتختلف النباتات فيها، وهي متجاورة، هذا حلو، وهذا مر، وهذا حار، وهذا بارد، هذا أبيض، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهي في بقعة واحدة وتسقى بماء واحد؛ كما قال ﷻ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد: ٤].

﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾، نخلتان بجذع واحد.

من الذي قدر على هذا؟ هو الله ﷻ، ألا يقدر على إخراج الأموات من قبورهم؟.

فنحن نرى الأرض قاحلة يابسة، ليس فيها شيء، ولكن إذا جاء المطر،

ما تلبث إلا وقد أنبتت، وازدهرت، من الذي أحياها بعد موتها، أليس هو الله ﷻ؟، أليس الذي أحياها بعد موتها قادرًا على أن يحيي الموتى من قبورهم؟.

ففي البعث يظهر ما في الأرض من الأموات مثل النبات، وهذا من عجائب قدرة الله ﷻ.

هذه الآيات العظيمة تدل على قدرة الله ﷻ التي لا يعجزها شيء، فهي آيات، وبراهين على البعث الذي أنكره هؤلاء المشركون.

فهذه آيات عظيمة، وبراهين ساطعة على قدرة الله ﷻ على كل شيء، وعلى البعث، والنشور، فكيف ينكر المنكر على رسول الله ﷺ، أنه أخبرهم بالبعث، والنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون.

وإلى الدرس القادم بإذن الله، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

الدرس السابع والثمانون

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ
ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾
لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا
وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا
﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا
﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا
﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَـٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ
خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا
﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ١٧- ٤٠].

لما ذكر الله ﷻ في أول السورة النبأ الذي يتسائل عنه الكفار، والمشركون، والذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، وهو: البعث، والنشور، وأقام الله ﷻ البراهين على وقوعه، وتحققه، كرر ﷻ في هذه الآيات أن هذا النبأ هو: يوم الفصل، ويوم القيامة؛ لأن الله يفصل فيه بين عباده

فيما كانوا فيه يختلفون.

ذكر ﷻ أن ذلك يحصل حينما ينفخ في الصور، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، بين العباد ﴿كَانَ مِيقَـٰتًا﴾، أي: مؤقتًا في زمن لا يتقدم عليه، ولا يتأخر، إذا حان وقته وقع.

ويكون ذلك: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾، والصور هو: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

﴿فَتَأْتُونَ﴾، أي: تأتون أيها الخلق إلى ربكم، وإلى لقائه، ﴿أَفْوَاجًا﴾، أي: جماعات، الأولون، والآخرون.

وحينئذ تفتح السماوات، قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾، للملائكة ينزلون منها، قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقيل: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾، أي: أن السماء تتشقق بعد أن كانت قوية صامدة، فإنها تتشقق، وتتفطر؛ لأنه قد انتهى أجلها.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ كما قال ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، فالجبال الثابتة الرواسي طارت من أماكنها، وسارت في الهواء، وكانت هباءً منبثًا.

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾، والسراب هو: ما يلوح وقت الهجير من إشعاع الشمس على القيعان يحسبه الظمآن ماء.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾، أي: تكون النار في هذا اليوم مرصدة، ومعدة للكافرين على طريقهم، لا يتخلصون منها، وليس لهم عنها.

﴿لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا﴾، أي: مرجعًا للطاغين الذين طغوا على أوامر الله ﷻ،

وعصوا رسله، والطغيان، هو: الخروج عن الحد، فهؤلاء طغوا في دنياهم عن أوامر ربهم، وطغوا على الخلق، فكانت جهنم هي مأواهم.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ﴾، أي: باقين في جهنم، ﴿أَحْقَابًا﴾، جمع حُقْبٍ، وهو مقدار من السنين، قيل: ثمانون سنة، وقيل: أكثر، وقيل: أقل.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾، أي: نومًا، ﴿وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾، وقيل: هم دائمًا في عذاب حار لا برد معه ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ مقابل ﴿بَرْدًا﴾، ﴿وَغَسَّاقًا﴾، ﴿شَرَابًا﴾.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾، هذا الذي حصل لهم من العذاب جزاءً على أعمالهم، وما ظلمهم الله ﷻ؛ لأنهم لم يقدموا لأنفسهم إلا الكفر، والضلال، فجزاهم الله بأعمالهم، ﴿وِفَاقًا﴾، أي: مطابقًا لأعمالهم، من قدم خيرًا وجد خيرًا، ومن قدم شرًا وجد شرًا؛ كما جاء في الحديث القدسي من قول رب العزة ﷻ: «**يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ**»[(١)].

وبين ﷻ السبب الذي جعلهم في هذه الحال، فقال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾، أي: في الدنيا، ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، لا يؤمنون بالبعث، والنشور، ولقاء الله ﷻ، بل كانوا يكذبون بذلك.

﴿وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا﴾، كذبوا بآيات الله الدالة على البعث، والنشور، وسخروا منها، ولم يستفيدوا منها، ولم ينتفعوا بها، ﴿كِذَّابًا﴾: «كِذَّابًا»

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ.

مصدر من كذب، أي: تكذيبًا، فهي مصدر مؤكد للفعل.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾، أحصى الله ﷻ عليهم أعمالهم، وكتبها عليهم بأيدي الحفظة التي تكتب عليهم كل ما يصدر منهم، فلو أنهم أنكروه ما استطاعوا؛ لأنه مثبت عليهم، وهو يعترفون بهذا.

﴿فَذُوقُواْ﴾، أي: ذوقوا عذاب النار، ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، أي: لا يخفف عذابهم، أو يرجون أن يخفف، بل يزيد عذابهم دائمًا، وحينئذ ييأسون، ويبلسون من رحمة الله ﷻ، وينقطع رجاءهم، فهذا مصير الكفار في يوم الفصل.

ثم ذكر الله ﷻ مصير المؤمنين الذي آمنوا بالله ﷻ، وآمنوا باليوم الآخر، واستعدوا له بالأعمال الصالحة، واتقوا هذا العذاب، وجعلوا بينهم، وبينه وقاية من طاعة الله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾، أي: منجاة من هذا العذاب الأليم، فلهم منه مخرج، ومخلص، وذلك حينما يمرون على الصراط، فإنهم ينجون، ويجتازون الصراط، فيفوزون بالسلامة، ومع النجاة من العذاب تحصل لهم الكرامات من الله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾، الأعناب من جملة ما في الحدائق، ولكنه ﷻ نص عليها؛ لكثرتها في الجنة.

قال ﷻ: ﴿وَكَوَاعِبَ﴾، زوجات كواعب، وهن: الشابات من نساء أهل الجنة سواء كن من الحور العين، أو من الآدميات المؤمنات، فإن الله ﷻ يعيدهن كواعب نواهد أجمل ما يكون في الجنة.

﴿أَتۡرَابٗا﴾، أي: متساويات في السن، ما يكون بعضهم أكبر من بعض، ولا أزواجهن أكبر منهن، بل هم في سن واحدة، لا يتفاوتون.

﴿وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا﴾، أي: مملوءة بالشراب اللذيذ المنوع من شراب الجنة.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا﴾، أي: في الجنة، ﴿لَغۡوٗا﴾، أي: باطلًا من الكلام، فهم لا يسمعون فيها إلا حقًا، ﴿وَلَا كِذَّٰبٗا﴾، لا يسمعون الكذب، فالجنة ليس فيها لغو، ولا كلام لا قيمة له، ولا فائدة فيه، كما هو الحال في الدنيا، وليس فيها كذب مثل ما في الدنيا، بل كل ما يسمعونه صدق، وحق، فإن الجنة منزهة عن هذه الأمور.

﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ﴾، جزاءً لهم على أعمالهم، فأعمالهم، وتقواهم هي السبب في هذا.

﴿عَطَآءً﴾، من الله، ليس له حدّ، ﴿حِسَابٗا﴾، جزاء على أعمالهم الصالحة، ويضاعفها الله ﷻ لهم أضعافًا كثيرة تفضلًا منه ﷻ.

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فهو ﷻ رب كل شيء، ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، ما بين السماء، والأرض من الأجواء الواسعة، فكلها ملكٌ لله ﷻ، والربُّ هو: المالك، فهو ﷻ مالك للسماوات، والأرض، وما بينهما.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، اسم من أسماء الله، ومناسبته لجزاء أهل الجنة، أنهم

نالوها برحمة الله، فالجنة لا تنال إلا برحمة الله، والأعمال إنما هي سبب فقط. ثم قال ﷻ واصفًا للربِّ، وللرحمن: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾، أي: مخاطبة، فلا يتكلم أحدٌ إلا بإذنه؛ لعظمته ﷻ، فمن أذن له الله بالكلام تكلم، وإلا فإنهم لا يتكلمون -كما يأتي-.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾، الروح على أقرب الأقوال هو: جبريل عليه السلام، الروح الأمين، أعظم الملائكة، يقومون قيامًا لرب العالمين، ﴿صَفًّا﴾، مصطفين عند الله سبحانه وتعالى صفوفًا، والمسلمين في الدنيا يصطفون صفوفًا أمام ربهم في الصلاة، كما تصطف الملائكة عند الله سبحانه وتعالى.

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، فالملائكة مع قربهم من الله، وفضلهم، ومكانتهم لا يتكلمون، والبشر -أيضًا- لا يتكلمون في هذا اليوم.

﴿إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بالكلام، فلا يتكلم أحد، أو يشفع، أو يخاطب الله جل جلاله لا من الخلق، ولا من الملائكة، إلا من أذن له الرحمن بالكلام.

﴿وَقَالَ صَوَابٗا﴾ من القول، فهناك شرطان للكلام في هذا اليوم:

الشرط الأول: الإذن من الله بالكلام.

الشرط الثاني: الإصابة في القول، فلا يقول أحد قولًا غير صواب.

ثم قال عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، أي: يوم القيامة الذي هذه أوصافه حقٌّ لا مرية فيه، ولابد أن يقع، ولابد أن تلاقوه.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾: من شاء في هذه الدنيا، فإنه يتخذ لهذا اليوم عدته بالأعمال الصالحة، وهذا ممكن، وميسر في الدنيا لمن وفقه الله.

وهذا دليل على أن الإنسان له مشيئة، واختيار، ويستطيع أن يعمل الأعمال الصالحة، ويستطيع -أيضًا- أن يعمل الأعمال السيئة بمشيئته، واختياره، وسيلقى ما عمل في هذا اليوم.

﴿مَـَٔابًا﴾، أي: مرجعًا حسنًا، وطيبًا، وعليه أن يستعد له بالأعمال

الصالحة، والابتعاد عن الأعمال السيئة.

إذًا: ليس لأحد عذر، فكأننا نشاهد هذه الأمور؛ لأن هذا كلام رب العالمين الذي لا يتطرق إليه شك، وقد صور لكم هذا اليوم كأنكم تشاهدونه وأعطاكم فرصة الاختيار، والمشيئة، ومكنكم من الأعمال، فلم يبق لأحد عذر، ولا حجة على الله سبحانه وتعالى.

ثم كرر سبحانه وتعالى التحذير من هذا اليوم، فقال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾، إن لم تستعدوا له، فإن العذاب الذي أخبرناكم عنه واقع عما قريب، لكن أخفى الله عنا وقت حصوله؛ لأن مصلحتنا في العمل، وليست مصلحتنا في معرفة متى يحصل، ومتى يقوم.

ثم قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، من خير، أو شر، فكل إنسان يقف على عمله هذا اليوم.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾، في هذا اليوم حينما ينظر إلى ما قدمت يداه من الكفر، والشرك، والضلال، والسخرية، فإنه يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾، أي: لم أُبعث في هذا اليوم؛ لسوء ما يرى.

وقيل: إن الكافر يقول هذا حينما يبعث الله سبحانه وتعالى البهائم للقصاص لبعضها من بعض.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، قَالَ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٦٠).

فيقام العدل بينها، ثم يقال لها: كوني ترابًا؛ لأنه ليس لها جنة، ولا نار، عند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾، وهذا من تمني المستحيل.

فهذه عاقبة أهل الإيمان، وعاقبة أهل الكفر، وهي قريبة؛ لأن كل آت فهو قريب، فاستعد لذلك، ولا تستبعد ملاقاة هذا اليوم، فليس بينك وبينه إلا أن تموت-نسأل الله حسن الخاتمة-.

الدرس الثامن والثمانون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا
﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ
﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً
﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ
أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾
فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ
وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ
ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ١- ٢٦].

بين الله في السورة العظيمة قدرته على البعث، والنشور، ورد على من أنكر البعث، واستبعد إحياء الموتى بعدما يصيرون عظامًا نخرة، وترابًا، وذكر الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ بقصة موسى ﵇، وذلك أن فرعون وقومه كذبوا رسول الله موسى ﷺ، فما أحلَّ الله بفرعون، وقومه، فسيحل بهؤلاء الذين كذبوا محمدًا ﷺ.

فأقسم سبحانه، وقال: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١﴾: وهي ملائكة الموت الذين ينزعون الأرواح من الأجساد، وهي على قسمين:

القسم الأول: أرواح الكفار تنزعها ﴿غَرۡقٗا﴾، أي: بشدة.

القسم الثاني: أرواح المؤمنين، قال الله في ذلك: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾، تنزعها بسهولة كما ينشط البعير من العقال بسرعة.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾ هي الملائكة تسبح في الفضاء صاعدة، ونازلة.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾، أي: الملائكة التي تسبق الشياطين في

حمل الوحي من الله ﷻ إلى رسله، فلا تتمكن الشياطين من استراقه.

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾، أي: الملائكة التي يأمرها الله ﷻ بتدبير هذا الكون، فكل صنف من الملائكة له عمل خاص، فهناك ملائكة موكلون بالقطر، وهناك ملائكة موكلون بالنبات، وهناك ملائكة موكلون بالوحي، وهناك ملائكة موكلون بقبض الأرواح، وهم: عزرائيل عليه السلام، وأعوانه من ملائكة الموت، وهناك ملائكة موكلون بالأجنة في بطون الأمهات، فهذه التدبيرات في الكون العلوي، والسفلي تنفذها الملائكة بأمر الله ﷻ.

وجواب القسم -والله أعلم- هو: قوله ﷻ: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ أي: صعقة الموت، ﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ صعقة البعث.

فهؤلاء الذين ينكرون البعث يعجزون الله ﷻ، ويجهلون قدرته، وهذا لعدم إيمانهم بأنه على كل شيء قدير، ولا يعجزه شيء؛ لأنهم يقيسون قدرة الله على قدرتهم.

﴿قُلُوبٌ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾، يصيبها الخوف من هذا الحدث الهائل العظيم.

﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩﴾، أي: ذليلة، فلا يستطيع النظر من شدة الهول، والخوف، والفزع، وعند ذلك يتعجبون.

ف ﴿يَقُولُونَ﴾، أي: يقول المشركون المكذبون بهذا البعث، ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾، أي: حالتنا الأولى في الدنيا، فهم يستبعدون هذا، قال ﷻ: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، أنشأها من العدم، ألا يقدر على أن يعيدها؟، قال ﷻ: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٩].

﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ۝١٢﴾، أي: إن صدق محمد ﷺ فيما يقول، وأننا سنبعث، فنحن خاسرون؛ لأننا لم نستعد لهذا، فاعترفوا على أنفسهم بالخسارة عند البعث.

ثم بيَّن الله ﷻ قدرته الهائلة التي لا يعجزها شيء، فقال ﷻ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، حينما ينادي الملك الأموات من قبورهم، فيقومون؛ كما قال ﷻ: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾، قال ﷻ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ۝٢٥﴾ [الروم: ٢٥].

فيناديهم الملك بأمر الله ﷻ، في قبورهم، فيقول: أيتها العظام، والشعور المتفرقة، واللحوم المتمزقة إن الله يأمركم أن تجتمعوا؛ لفصل القضاء، فيقومون من قبورهم، وتعود إليهم أرواحهم، ويسيرون إلى المحشر.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾: في أرض المحشر، و«السَّاهِرَةِ» هي الأرض المستوية، وأرض المحشر مستوية، ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ١٠٧﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]، هذه هي أرض المحشر، يجمع الله ﷻ فيها الأولين، والآخرين، لا يواريهم جدار، ولا جبل، ولا شجر، ولا شيء.

يجتمعون في الساهرة جميعًا، لا يتخلف أحد لا من الأولين، ولا من الآخرين.

و«السَّاهِرَةِ»، في الشام.

ثم ذكر الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ أنه قد سبقه من الرسل من كذبه قومه، وهم كثرة، ولك فيهم أسوة، وذكر له مثالًا واحدًا من الأنبياء، وهو موسى عليه السلام؛ لأنه أقرب الأنبياء إلى محمد في الزمان، ولأن محمدًا مذكور في التوراة، والإنجيل، وقد بشر به عيسى، وموسى.

فقال سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، استفهام تقريري، أي: قد جاءك، ﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ ابن عمران، وقصة موسى عليه السلام كررها الله في القرآن، لما سار بأهله راجعًا إلى أرضه، من أرض مدين، وفي الطريق أصابهم البرد، وتاهوا عن الطريق، فرأى نارًا بجانب الطور، ففرح بها، وأجلس أهله ينتظرون، وذهب؛ ليسأل أهل النار أين الطريق؟، وليأتي من النار بشهاب لأهله؛ يصطلون عليه من البرد، فلما وصل إلى الوادي المقدس ناداه الله جل جلاله، وقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

وهنا قال: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾، هذا فيه أن الله ﷻ يتكلم، وينادي، ويناجي،

قال ﷻ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: ٥٢]، فناداه، وناجاه، والمناداة هي: الصوت المرتفع، والمناجاة هي: الصوت الخفي، وكل هذين حصلا لموسى عليه السلام، واختص الله سبحانه وتعالى بذلك موسى عليه السلام من بين الأنبياء، وهو: أنه سبحانه وتعالى كلمه مباشرة دون واسطة الملك، وسمع موسى صوته، وناجاه؛ ولهذا سمى كليم الله سبحانه وتعالى، قال ﷻ: ﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وهو: موسى عليه السلام.

﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾، أي: المطهر، ﴿طُوًى﴾ اسم الوادي، وقال له: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ [طه: ١٢ - ١٣].

وقال له: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾، فأرسله الله سبحانه وتعالى إلى فرعون، وموسى هارب إلى مدين من فرعون، ومن بطشه، خائفًا على نفسه من القتل، ثم يأمره الله سبحانه وتعالى بالرجوع إليه، هذا من أعجب العجب.

وذكر سبحانه السبب فقال: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾، أي: زاد عن الحد، وترفع على الخلق، وتمرد عن أمر الله جل جلاله، وادعى الربوبية، والطغيان هو: الزيادة، أي: زاد عن قدره، ومكانه في أنه بشرٌ ضعيف مخلوق، ورفع نفسه حتى قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾.

وقال لموسى: ﴿فَقُلۡ﴾، أي: قف أمامه، وقُلْ له مباشرة، وهذا دليل على أن الملوك يناصحون مباشرة، ومشافهة، ولو كانوا من الجبابرة، ومن أعتى الناس، فليس لك أن تسبهم على المنابر، وفي الصحف، فهذا لا ينفع فيهم، بل يجعلهم يغضبون عليك، ويزيدهم شرًا؛ وهم أقوى منك، فيدمرونك ويسكتون دعوتك، وليست هذه هي طريقة الدعوة، لكن اذهب

إليهم، وناصحهم، إذا كان عندك مقدرة، وإلا فاسكت، أما أن تسبهم على المنابر، والنوادي، وتزعم أن هذا غيرة، ودعوة إلى الله، فهذا خلاف دعوة الرسل.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]. أي: خاطباه مباشرة، واعرضا عليه عرضًا، لا أمرًا؛ لأنه جبار، فلا تأمر جبارًا، ولكن تعرض عليه، عرضًا بلطف، هذه هي الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وليست الدعوة إلى الله بالمهاترات، والسباب، والشتم، ويقال: هذا غيرة، بل هذا يزيد الشر، ويصد عن قبول الدعوة.

وقال هنا: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾، فيعرض عليه ما يتزكى به، ويطهر نفسه به.

﴿وَأَهْدِيَكَ﴾، أي: أدلك؛ لأن هداية القلوب لا يملكها إلا الله سبحانه وتعالى، وهداية البيان، والإرشاد يملكها الرسول عليه السلام، ويملكها العالم.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾، إبطالًا لقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فهو الذي خلقك، والذي يملك أمرك، وقادر عليك، والذي أنت في قبضته، فتذكر أنك مخلوق، وأنك عبدٌ، وأن لك ربًّا، ولست أنت الربَّ، بل الله هو رب العالمين جل جلاله، فبيَّن له أنه ليس برب، وأن الرب هو الله سبحانه وتعالى الذي خلق.

ففرض عيه أن يترك قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، فالله هو ربنا جميعًا، وهو رب العالمين، فإذا قبلت الهداية، فإنك تخشى من الله، وإنما يتكبر الجاهل الذي لا يعرف الله، ولما لم ينفع معه هذا العرض اللطيف عند ذلك عرض موسى عليه السلام عليه المعجزات التي معه من الله سبحانه وتعالى.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، وهي: المعجزة التي لا يقدر على إنكارها؛ حيث ألقى موسى عليه السلام عصاه التي يتوكأ عليها أمام فرعون، فصارت حَيَّة تسعى، ومع ذلك تمرد فرعون، ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾﴾، بعد أن رأى الآية، والمعجزة.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]. وهذا الذي معك سحر ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [طه: ٥٨]، ففشل في ذلك، فكانت عاقبته الهلاك: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾﴾، فعاقبه الله سبحانه وتعالى في الدنيا، والآخرة؛ نتيجة لتكبره، وغطرسته، وامتناعه عن قبول الحق بعد ما تبيَّن له، وبعد ما عرض عليه نبي الله موسى عليه السلام الدعوة، وعرض عليه المعجزة.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾، بدلًا من الإقبال على موسى عليه السلام أعرض عنه.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، في قومه يدعوهم لنصرته، فجاءوا جميعًا، وأهلكهم الله غرقًا في البحر، ونجى الله موسى، وقومه، ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس التاسع والثمانون

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا
﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا
لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ
ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن
يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٢٧- ٤٦].

يقول الله ﷻ لمنكري البعث الذين يستبعدون أن يحيي الله ﷻ الأموات ويبعثهم بعد ما صاروا عظامًا نخرة متفتتة؛ بسبب أنهم لا يقدرون الله ﷻ حق قدره، فذكر الله ﷻ برهانًا على البعث، وإحياء الأموات، وهو: خلقه ﷻ للسماوات، والأرض، هذه الأجرام العظيمة الواسعة الممتدة القوية التي لايتصورها الإنسان، ولا يحيط بها، فالذي خلقها على هذه الحال، وعلى هذه العظمة، والقوة، والامتداد، خلق الأرض، ثم خلق السماء فوقها، ورفعها بغير عمد، وأجرى فيها الأفلاك، والكواكب التي ترونها،

فالذي قدر على هذا قادر على إحياء الموتى من باب أولى؛ لأن الذي يقدر على الكبير قادر على ما دونه من باب أولى.

ولهذا قال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، فالسماء أشد خلقًا، فإذا كان الله ﷻ قدر على ما هو أشد فهو قادر على ما هو دونه، وهذا برهان واضح؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

فيا من تنكرون البعث، أأنتم أشد خلقًا أم السماء أشد خلقًا منكم؟، وترك ﷻ الجواب لهم؛ لأن العاقل سيقول: إن السماء أشد خلقًا، فيعترف، فيقال له: إذا كانت السماء أشد خلقًا، وقدر الله ﷻ عليها، ألا يقدر الله على إحياء الموتى من باب أولى؟، فهذا أحد البراهين على قدرة الله ﷻ على البعث.

فالسماء ﴿بَنَىٰهَا﴾، فالسماء مبنية، والسماء في الأصل: اسم لكل ما ارتفع، وعلا، وهو ينقسم إلى قسمين: السماء المبنية، والسماء المطلقو، وهي: الفضاء، وهي كل ما ارتفع.

فالله ﴿بَنَىٰهَا﴾ بقدرته ﷻ، ومشيئته، وإرادته، فأوجدها كما أراد ﷻ، سبع طباق، واحدة فوق أخرى، وبين كل سماء، وسماء فضاء واسع، وفوق السموات بحر، وفوق البحر الكرسي، قال ﷻ فيه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفوق الكرسي العرش، والله ﷻ فوق العرش، هذه مخلوقات الله ﷻ[١].

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٥٤). =

قال ﷻ: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾، فالسماء سميكة قوية، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: لا ترى فيها اعوجاجًا، ولا فطورًا، ولا انشقاقًا، ولا خللاً.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾، جعله مظلمًا يغطي الجبال كموج البحر ظلمة.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، أنار الله ﷻ النهار، فالضحى المراد به: النهار، أناره ﷻ بالشمس فهي السراج المنير التي تنتشر في الكون، وتدخل في الأسراب وتدخل في المغارات، فتصبح الدنيا مسفرة لمصالح العباد، فانظر إلي الشمس تجري، وتشرق الكون كله، ولا تنطفئ، فمن الذي يوقدها؟ والقمر جعله الله ﷻ نورًا في الليل، وجعل الشمس سراجًا في النهار.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: مع ذلك، فثم بمعني مع ﴿دَحَىٰهَآ﴾، وفسر ذلك بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾، خلقها أولًا، قبل السماء، ثم استوى إلى السماء، فخلقها كما أراد الله ﷻ، ثم دحا الأرض بعد ذلك كما في سورة «فصلت»، وكل هذا في ستة أيام، ابتداءً من يوم الأحد، وانتهاءً بيوم الجمعة، ثم قال ﷻ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾، لما خلق ﷻ الأرض، وجعلها على الماء والبحار صارت تموج بأهلها، فخلق الله ﷻ الجبال، وجعلها أوتادًا للأرض تثبتها؛ لئلا تميد، وتموج، فأرساها بها.

= والبزار في مسنده (٩/ ٤٦٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦١٣)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٢)، واللفظ له، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «مَا بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى أُخْرَى مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى الْكُرْسِيِّ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَمَا بَيْنَ الْكُرْسِيِّ إِلَى الْمَاءِ مَسِيرَةَ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللَّهُ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ».

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ﴾، تمتعون بما فيها من الماء، والمرعى، ﴿وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، أي: وتمتع أنعامكم التي تركبونها، وتحلبونها، وتأكلوم من لحومها، فهي تمتع من المرعى من الطعام، والشراب، خلق لأنعامكم -أيضًا-، هذا من رحمته ﷻ.

فالذي خلق هذه الموجودات، ورتبها هذا الترتيب، ونظمها هذا التنظيم، وأمدها بقواها، واستمرت تنتج، ولا يتخلف منها شيء، ألا يقدر على البعث؟

وهذه المخلوقات لها أجل تنتهي عنده؛ ولهذا قال: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾، عندها تقوم الساعة، وتنتهي الدنيا بما فيها، وسميت الطامَّة؛ لأنها التي تَطِمُّ ما عداها من الدواهي، وتغطي ما عداها من الهول، فلا شيء أكبر منها، وعند ذلك يعرف كل مصيره، ويتذكر ما قدم لهذا اليوم.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾، يتذكر الإنسان يوم القيامة ما سعى في الدنيا، وماذا فعل، فيعرض عليه الكتاب الذي سُجل فيه كل ما صدر منه، حينئذ يتذكر أعماله التي أسلفها في الدنيا، سواء من خير، أو شر.

فانتبه لهذا الموفق، واستعد له، واحسب له حسابه؛ حتى لا تقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤].

وفي هذا اليوم تظهر النار، والجنة للعيان بعد ما كانتا من علم الغيب؛ ولهذا قال: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ أمام الناس، فيرونها أمامهم بارزة تتلظى، ولا نجاة منها إلا بالعمل الصالح، فتذكر هذا المشهد.

ثم عندما تبرز الجحيم، فإن الناس ينقسمون إلى قسمين ذكرهما الله بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾، أي: في الدنيا، ﴿طَغَىٰ﴾ بأن تكبر على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ، وعلى الناس.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، فانشغل بالدنيا، ومتاعها، وأفنى حياته كلها في جمع الدنيا، ونسي الآخرة، ولم يقدم لها.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾، ليس له غيره يأوي إليه.

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، أي: خاف قيامه بين يدي ربه، فاستعد لذلك.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، أمسك نفسه، فلم تجمح به إلى الشهوات، والبطالة، والراحة، وترك العمل، وأعطى نفسه ما تشتهي، وما تطلب،

﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، أي: المقر الدائم الذي لا يتحول عنه إلى غيره، ولا يريد غيره، ولما انقطعت حجة المشركين، وقامت أمامهم الأدلة، والبراهين لجئوا إلى التعنت فقالوا:

فصاروا ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾، يقولون: هذه الطامّة الكبرى متى تكون؟

والجواب: أن هذا علمه عند الله، فليس من مهمة الرسول أن يخبركم به؛ لأنه لو كان لكم فيه منفعة لبينه لكم، فإن الله لم يترك شيئًا لكم فيه خير،

أو عليكم منه حذر إلا بينه لكم على لسان رسوله.

ثم قال ﷻ: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣﴾، أي: ليس عندك منها علم، وقيل قوله: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: بعثتك من علامات قرب قيامها.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾، أي: لا يعلم ذلك إلا الله سبحانه وتعالى.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾، هذه هي مهمتك: أن تنذر من يخشى قيام الساعة؛ ليستعد له.

ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى أنها إذا قامت نسوا ما مر، فقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾، العشية من الظهر إلى المساء، والضحى من طلوع الفجر إلى الظهر، فإذا رأوها كأنهم ما عاشوا إلا ضحوة، أو عشية، فلا يبقى الأعمال، والجزاء عليها، والله أعلم.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.

الدرس التسعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ
(٤) أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨)
وَهُوَ يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِي صُحُفٖ
مُّكَرَّمَةٖ (١٣) مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ (١٤) بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۭ بَرَرَةٖ (١٦) قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧)
مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ
إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣)﴾ [عبس: ١ - ٢٣].

هذه السورة العظيمة فيها عبر، وعظات، وزواجر، وتنبيهات لمن كان عنده إرادة للخير، ورغبة فيه.

ابتدأ الله بعتاب نبيه ﷺ؛ وذلك لما كان النبي ﷺ في مجلسه قومٌ من أشراف قريش، يتحدث معهم، وكان ﷺ راغبًا في دعوتهم، ودخولهم في الإسلام، وبينما هو كذلك، إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، وهو: رجلٌ أعمى من السابقين الأولين في الإسلام، ومن المهاجرين، فأقبل إلى الرسول ﷺ يريد أن يسأله عن أمور دينه، وأن يتزود منه بالعلم النافع.

فالرسول ﷺ كره مجيئه في هذه اللحظة التي يخاطب فيها هؤلاء المشركين(١)، لعلهم يسلمون، وابن أم مكتوم له وقت آخر، فالرسول ﷺ لم يرد أن يفوت عليه الفرصة معهم.

ولهذا قال سبحانه وتعالى: ﴿عَبَسَ﴾، أي: الرسول ﷺ قطَّب وجهه من مجيء ابن أم مكتوم في هذه اللحظة.

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾، أي: أعرض عنه، وأقبل على قريش، فلامه الله عز وجل على هذا.

فقال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾، أي: من أجل أن جاءه الأعمى، وهو: عبد الله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وَقِيلَ: اسمه عمرو ابن أم مكتوم.

وكان النبي ﷺ يحبه، ويجله، وكان يؤذن في مسجد الرسول ﷺ هو وبلال، وكان ﷺ يستخلفه على المدينة إذا سافر، فيصلي بالناس، فله فضل عظيم رضي الله عنه.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾، لعل هذا الأعمى يستفيد من الرسول ﷺ، ويتطهر بعلمه، وعمله، فهو قد جاءك يريد أن يتزكى.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤﴾، أي: يتعظ من الرسول ﷺ بموعظة، فهو جاء من أجل هذا، وهو حرى أن يتزكى، ويتذكر.

قال عن هؤلاء المشركين: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾، أي: استغنى عن الإسلام، واستغنى عن التذكير، وعن الدعوة، ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾، أي: تقبل عليه،

---

(١) وهؤلاء المشركون هم: عتبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية، وأبي ابنا خلف. انظر: زاد المسير (٤/ ٣٩٩)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٣٢١).

وهو لا رغبة له في الحق، ولا يريده، وتتولى عن الراغب الطالب للحق، وتقبل على هؤلاء.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝﴾، أي: لست مسؤولًا عن كونه لا يهتدي، فأنت عليك البلاغ فقط، وأما كونه يقبل، أو لا يقبل، فهذا ليس إليك، إنما هو إلى الله سبحانه وتعالى، وهو عز وجل أعلم بمن يصلح للهداية، ومن لا يصلح لها.

فكان ﷺ بعد ذلك إذا أقبل ابن أم مكتوم رضي الله عنه استقبله بالبشر، والسرور، والتقدير، ويقول ﷺ: **«مَرْحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»**.

ثم إنه تعالى أعاد قصة ابن أم مكتوم، فقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝﴾؛ لأن ابن أم مكتوم جاء مسرعًا من حرصه على الخير، وما كان متباطئًا، ولا متثاقلًا، وما جاء بكسل، وفتور، بل جاء مندفعًا يريد الخير، وأما هؤلاء فما هم بمقبلين عليك، وما لهم رغبة فيما تقول.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝﴾، تلهَّى عمن جاءك بهذه الصفة، وتؤجل موضوعه، هذا عتاب من الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ على هذا الذي وقع.

وفي هذا دليل على الاهتمام بالمسلمين، وتعليمهم ما يحتاجون إليه، والاهتمام أكثر بمن عنده الرغبة في طلب العلم، وأما دعوة الكفار فيكفي فيها البلاغ، والهداية بيد الله يضعها فيمن يستحقها.

فهذه قصة عظيمة يستفاد منها: أن الاهتمام بالمسلمين، وشؤونهم، وتثبيت الإيمان في قلوبهم، ونشر العلم فيهم أولى من متابعة الكفار، والإكثار من دعوتهم، وتكرار الدعوة معهم، وهم لا يرغبون، ذلك فمن أعرض أعرض الله عنه.

ثم قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

﴿إِنَّهَا﴾، أي: هذه السورة العظيمة، وما ذكر الله ﷻ فيها، ﴿تَذْكِرَةٌ﴾، للمؤمنين يتذكرون بها، ويتأملونها، ويتدبرونها، وفي آية أخرى، ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ [المدثر: ٥٤]، أي: القرآن تذكرة، فهو ذكر، وتذكير، وموعظة، وتعليم.

قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، أي: من عنده رغبة، وإرادة للخير، فإنه يذكر القرآن، وهذا دليل على أن العبد له مشيئة، وله اختيار، وأما من لا يشاء ذلك، فلسنا مكلفين بمحاولة هدايته، وهو لا يستجيب لها، قال ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۝٨٠ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠ - ٨١].

وبعض الجهال، والملاحدة -الآن- يقولون: إن الإنسان له أن يكفر، أو يسلم حسب قناعته، وهذا كلام باطل، فلا يخير الإنسان بين الإسلام، والكفر، فو كان الأمر كذلك ما أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، ولما خلق الله الجنة، والنار، ولما شرع الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ولما شرع الحدود، والتعزيرات.

فالإنسان ليس مهملًا، ولا حرية له في الدين، فهو عبد مكلف يجب عليه أن يؤمن إذا كان يريد النجاة لنفسه،

﴿فِى صُحُفٍ﴾، هي: صحف الملائكة، وفي المصاحف التي بأيدي الناس ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾، مصونة، لا مبتذلة.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾، يرفع قدره حسًا، ومعنى، فلايلقى في الأرض، بل يحترم، ويعتنى به، ويعظم؛ لأنه كلام رب العالمين ﷻ، فلا يمتهن المصحف، ولا يهان، ولا يستهان به، وإنما يجل، ويحترم.

﴿مُّطَهَّرَةٍۭ﴾، مطهرة من الكذب، والباطل؛ لأن القرآن حق، ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، أي: ليس قبله كتاب يكذبه، ولا يأتي بعده ما يكذبه؛ ولهذا من أهان القرآن، فإنه يرتد عن دين الإسلام، فلو أن مسلمًا أهان القرآن، وداسه، أو ألقاه في مزبلة، فإنه يرتد بذلك عن دين الإسلام.

وهذه الصحف ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾، من الملائكة، جمع سفير، والسفير هو: الواسطة بين الله ﷻ وخلقه، فهذا القرآن إنما يحمله ﴿سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾، ولا تقربه الشياطين.

فالقرآن تتولاه الملائكة الكرام، يبلغونه للرسول ﷺ، ثم يبلغه الرسول لأمته.

ووصف الله الملائكة ﴿كِرَامٍۭ﴾ من الكرم، وهو: الوقار، والتكريم - أيضًا - فيكرمون من قبل الله ﷻ، ومن قبل عباد الله؛ لأنهم رسل الله ﷻ، وهم السفراء بين الله ﷻ وخلقه.

ووصفهم بأنهم ﴿بَرَرَةٍ﴾، جمع: بار، والبر: ضد الإثم، فالملائكة لا يقعون في إثم أبدًا، ولا في معصية، ولا مخالفة، فقد صانهم الله ﷻ عن ذلك ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠].

ثم أنه ﷻ بيَّن حالة هذا الإنسان الآدمي، إذا لم يقبل الهداية، بإنه من أحقر الحيوانات، وأخبث المخلوقات.

قال ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَـٰهُ أَسْفَلَ سَـٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾ [التين: ٤ - ٦].

فقال في حقه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، أي: لُعِنَ، و﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾، أي: جنس الإنسان، والمراد به: الكافر، ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾، ما أشد كفره بالله ﷻ، وبنعمه، وبالقرآن، فهذه صيغة تعجب.

ثم بيَّن ﷻ أصل هذا الإنسان الذي تكبر، وتعاظم في نفسه، واستكبر على آيات الله ﷻ، واستكبر على رسل الله.

فقال: ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨﴾ الله، ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾، خلقه من نطفة، وهي: نقطة المني.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾، أي: قدر أعضاءه، وأعصابه، وعظامه، وعقله، وقدر أجله، وقدر عمله، وقدر حاله من شقي، أو سعيد، كل هذا قدره الله ﷻ لهذا الإنسان، وكتبه في جبينه وهو في بطن أمه.

فقد اعتنى الله ﷻ بهذا الإنسان، ولم يجعله كمثل الحيوانات، والمخلوقات الأخرى التي خلقت؛ لنفع مؤجل، وتنتهي؛ لأن هذا الإنسان يراد به مستقبلًا دائمًا ينتظره؛ ولذلك سخر الله ﷻ له هذه المخلوقات لمصالحه، وأدر عليه الأرزاق، وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب، ومع هذا يكفر بالله ﷻ.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ﴾، طريق الخير، وطريق الشر، ﴿يَسَّرَهُۥ﴾، دله عليه، وأرشده.

وقيل: المراد بـ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾، خروجه من بطن أمه، فالله هو الذي أخرجه من بطن أمه، قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾، إذا جاء أجله.

وبعد وفاته ﴿فَأَقْبَرَهُۥ﴾ جعله في قبر يصونه، ويورايه، وهذا من إكرام الله له، ولم يجعله يرمى كسائر الميتات، فهذا من عناية الله ﷻ بهذا الإنسان، فالقبر من نعم الله على الإنسان، ولم يجعله ممن يلقى مع الجيف، والكلاب والحمير، بل جعله في قبر من الأرض، وأمر بدفنه، حتى الكافر يدفن؛ احترامًا لإنسانيته.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ﴾، الله ﷻ، ﴿أَنشَرَهُۥ﴾، أي: بعثه من القبر، ثم يذهب إلى القيامة، وإلى الحساب، وإلى الجنة، أو النار، فهذا الإنسان محفوظ حيًا، وميتًا.

ومع هذا ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾، أي: ما فعل ما أمره الله ﷻ به من عبادته، وتوحيده، وطاعته، بل ضيع، وكفر بالله ﷻ، مع أن الله ﷻ قد أعتنى به هذه العناية.

وقيل: إن هذا راجع إلى الله ﷻ، أي: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ﴾، الله ﷻ، ﴿مَآ أَمَرَهُۥ﴾، أمرًا كونيًا؛ لأن الله لا يزال يخلق بني آدم، ويتتابعون، فإذا تكامل بنو آدم في الأرض، وفي القبور، بعثهم الله للجزاء، والحساب.

فقوله ﷻ: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾، أي: لم يتم الأجل الذي أراده الله ﷻ

للبشرية، فإذا تم أجل البشرية، حينئذ يموتون جميعًا بالصعقة، ويبعثون، ويحاسبون، وهذا هو الظاهر من قوله: ﴿لَمَّا﴾؛ لأن «لَمَّا» نفي لما يستقبل، وما سيحصل والله تعالى أعلم وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وآله وصحبه.

الدرس الحادي والتسعون

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا
فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ
وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ
﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٢٤-٤٢].

في هذه الآيات يأمر الله هذا الإنسان أن يفكر في غذائه من أين تحصل؛ ليعتبر بذلك، ويستدل به على قدرة الله، ونعمته عليه فقال سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾، كيف تحصل وتكون، ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ﴾، أي: المطر من السماء، ﴿صَبَبْنَا﴾، أي: قويًا؛ من أجل أن ينفذ في الأرض، فتخرج به البذور التي في الأرض، وتترطب به، ولو كان صبًا هينًا ما نفذ في الأرض، وما أثار البذور التي في باطن الأرض.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾، شققنا الأرض بالنبات شقًا؛ لأن الأرض

كانت مطبقة على هذه البذور، وكانت البذور مندثرة فيها، ثم يشقها الله عن النبات.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾، أي: في الأرض، ﴿حَبًّا﴾، سائر الحبوب التي يتغذى بها الإنسان، فهذا للغذاء.

﴿وَعِنَبًا﴾، وهذا ﴿وَقَضْبًا﴾، القَضْبُ للدواب، والقَضْبُ هو: الذي يسميه الناس الْقَتّ، أو الرطبة الذي تأكله الدواب.

﴿وَزَيْتُونًا﴾ يعصر، ويخرج منه دهن الزيتون يأتدمون به في الطعام، ويستصبح به في السرج، ﴿وَنَخْلًا﴾ يخرج منه التمر.

﴿وَحَدَآئِقَ﴾، وهي: البساتين، والجنات التي بها الأشجار المختلفة، ﴿غُلْبًا﴾، والقوية الصلبة كالنخل.

﴿وَفَٰكِهَةً﴾ والفاكهة زيادة على الطعام، فالطعام لأجل الغذاء، والفاكهة للذة، والتفكه، ﴿وَأَبًّا﴾، وهو: ما تأكله الدواب.

ثم بيَّن الله سبحانه وتعالى الحكمة من تنويه هذه المنتجات، قال: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾، أي: أنبتنا لكم هذه الحبوب، وهذه الثمار، وهذه الفواكه متاعًا لكم أيها البشر، وأنبتنا هذا الأبَّ، والعلف من الأعلاف المختلفة، والأعشاب، وأنواع ما يخرجه الله للدوا ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

فهذا من آيات الله، ومن نعمه التي تستوجب من العبد أن يشكر الله سبحانه وتعالى عليها، ويتذكرها، ويتأمل فيها، وليستدل بها على عظمة الله، وقدرته، ورحمته بمخلوقاته، فيذل لربه جل جلاله، ويعبده، ويخلص العبادة له؛ لأن هذه

الأمور لا يقدر عليها، ولا يوجدها إلا الله ﷻ، فلا توجدها الأصنام، ولا القبور، ولا الأضرحة، ولا الأولياء، والصالحون، لايوجدها إلا الله ﷻ، إذًا: فهو المستحق للعبادة، وللشكر ﷻ دون سواه.

ثم بيَّن ﷻ أن هذا المتاع مؤقت، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾، أي: الساعة سميت الصاخة؛ لشدة صوتها؛ لأنها تصخ الأسماع لقوة صوتها، ثم بين ما يحصل عندها، فقال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾، فهذا الذي يحدث عند مجيء الصاخة: يشتد الهول، والخطر، وكلٌ لا يسأل إلا عن نفسه، لا يسأل عن أقرب الناس إليه، فلو رأى قريبه، أو أباه، أو أمه، أو أخاه، أو ابنه فإنه لا يستطيع أن يساعده، ولا أحد يستطيع أن يساعد الآخر، بل يفر منه؛ لأنه لا يقدر على مساعدته، ولأنه واقع في كرب عظيم.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾، وبدأ ﷻ بأخيه قبل أبيه، وأمه، وصاحبته، وهي: زوجته؛ لأن الأخ هو الذي يساعد أخاه عند الشدائد، ففي هذا اليوم، لا يستطيع أحد أن يساعد أخاه لأبيه، وأمه، فالإنسان في الدنيا قويٌ بإخوانه، ولكنهم في الآخرة ليس لهم مفعول.

إذًا: ما بقي لأحد من ينجده في هذا اليوم، أو يرحمه، أو يعطف عليه في هذا اليوم، حتى الأنبياء، وأولو العزم، إذا اشتد الكرب بأصحاب الموقف والمحشر، وجاء أهل المحشر إليهم يطلبون الشفاعة عند الله ﷻ؛ ليريحهم من شدة الموقف، كل منهم يقول: «نفسي، نفسي»، حتى إن عيسى عليه السلام يقول: «نفسي، نفسي، لا أسالك أمي مريم»، حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ

فيطلبون منه الشفاعة، لا من أجل أن ينجوا من النار، ويدخلوا الجنة، بل من أجل فقط أن ينصرفوا من موقف المحشر، وأن يحاسبوا، ويستريحوا من الموقف، هذا مطلبهم، فرسول الله محمد ﷺ يقول: «**أَنَا لَهَا**»، ثم يأتي ﷺ ويخر ساجدًا بين يدي ربه ﷻ، ولا يزال ساجدًا يدعو ربه، ويثني عليه، ويحمده، حتى يقال له: «**يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»، فيأذن الله ﷻ له بالشفاعة، فحينئذ يشفع ﷺ في أن يريح الله البشر من المحشر، وأن يحاسبهم، وكلٌ يذهب إلى مقره في الجنة، أو النار، فيقبل الله ﷻ شفاعته ﷺ[1].

فهذا اليوم هائل، لا يتصور، ونحن في هذه الدنيا ساهون غافلون عنه، وكأنه ليس أمامنا، أو كأننا سنذهب إلى مكان آخر، ونسلم منه، كأن لنا ملاجئ، أو كأننا لن نبعث، ونظل ميتين، هذا كله متعذر، لا بد من مواجهة هذا الموقف لكل أحد.

ثم بين أن الناس في هذا الكرب ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: قال ﷻ عنهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ فالمؤمنون، والكفار، المؤمنون تكون وجوههم مسفرة بالنور، والفرح، والسرور، إذا لقوا جزاءهم، وثوابهم عند الله، ولقوا ربهم، وقرت أعينهم بلقاء الله ﷻ، وفرحوا بما أعد الله لهم، فتسفر وجوههم، ويظهر هذا على محياهم.

فلنستعد لهذا اليوم، وهذا الهول بالأعمال الصالحة ما دمنا في زمن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠، ٤٧١٢)، ومسلم (٣٢٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الإمكان، وما دمنا في زمن السعة، ولا ننساه، ولا نغفل عنه، بل يكون لنا دائمًا على بال، وتصور، ونكثر من تلاوة القرآن؛ ليذكرنا بهذه الأهوال، ولا نغفل عنها؛ لأن القرآن ذكرى، وموعظة، يذكرنا، ويعظنا بهذا الذي أمامنا، ويبيِّن لنا طريق السلامة منه، وطريق الخلاص، وهذا كله في القرآن الذي بين أيدينا، فالقرآن ليس للترنيم، والتلاوة، والتجويد فقط، بل للتدبر، والعمل، والتذكر، قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

والقسم الثاني: قال ﷻ عنهم: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾، في يوم القيامة في هذه الأحوال ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، أي: يعلوها الغبار.

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، أي: سواد، فتسود وجوه الكفار، والمجرمين، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧]، وقال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزمر: ٦٠].

ثم بين فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾، الكفرة بالله، الفجرة في أفعالهم السيئة بالفسوق، والعصيان، فهم كفرة بالله، فجرة في أعمالهم السيئة، فيكون هذا مآلهم، ومردهم.

فهذه سورة عظيمة فيها تذكرة، وموعظة، كأنك تشاهد الحال في هذا الموقف، ليس خفيًا، فالقرآن تبيان لكل شيء، يبيِّن لك الأشياء على حقيقتها، كأنك تشاهد الماضي، والمستقبل، كأنك تنظر إلى الأمم،

والرسل، وما حصل في الماضي، وما يحصل في المستقبل، ليس هو من قصص الخيال، إنما هو تنزيل من حكيم حميد، علام الغيوب،

يقول الرسول ﷺ: «وَالْقُرْآنُ حَجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»(١)، فإن عملت به صار حجة لك، وقادك إلى الجنة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ [الإسراء: ٩-١٠]، هذا هو القرآن، وهو: حبل الله المتين، وإن أعرضت عنه صار حجة عليك.

نسأل الله أن ينفعنا بالقرآن، وأن يجعله حجة لنا، لا علينا، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

(١) أخرجه مسلم (١)، من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

الدرس الثاني والتسعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ
زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ
﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم
بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ
رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا
تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ١ - ٢٩].

سورة التكوير، وبعدها «سورة الانفطار»، و«سورة الانشقاق»، هذه السور الثلاث تصور ما يحصل عند قيام الساعة من الأهوال العظيمة؛ ولهذا جاء عن النبي ﷺ قوله: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ، فَلْيَقْرَأْ**: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»(١)

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، واللفظ له، والحاكم في المستدرك (٤/ ٦٢٠)، والطبراني في الكبير (١٣/ ٣٣٨)، وأحمد في المسند (٨/ ٥٢٨)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، ﴿إِذَا﴾ ظرف لما يستقبل من الزمان، أي: إذا حصل ذلك.

و﴿كُوِّرَتۡ﴾، أي: لُفَّتْ كتكوير العمامة، وذهب ضوءها، فَرُمِيَ بِهَا، وقيل: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، وفسر ذلك بعضهم بذهاب ضوءها، وبعضهم فسره بأنها ترمى، ويجمع هذه التفاسير ما ذكرناه: أنها تلف بعضها على بعض، وعند ذلك يذهب ضوءها، ثم تطرح، وترمى؛ لأنه قد ذهب وقت الاستفادة منها(١).

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾، نجوم السماء، ﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾، أي: ذهب ضوءها، وتناثرت وتساقطت من السماء؛ كما في قوله عَلَيْكَ: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ﴾ [الانفطار: ٢]، فبعد أن كانت منتظمة، وفي مساراتها، وأفلاكها، يذهب ضوءها، وتتناثر، وتتساقط من شدة الأمر.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ﴾، الرواسي التي جعلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أوتادًا للأرض تثبتها ﴿سُيِّرَتۡ﴾: قلعت من أماكنها، وصارت هباء، ثم سيرت في الجو مثل الدخان.

﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤﴾، العشار جمع: عُشَرَاء، وهي: الناقة الحامل التي كانت نفيسة عند أهلها، ففي هذا اليوم يذهلون عنها، وتعطل.

﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ﴾، وهي: الحيوانات المتوحشة التي كانت تهرب من الناس، وتعيش في الصحراء، بخلاف الحيوانات الأهلية التي تعيش مع

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٢٣٨)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٣٢٩)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٢٢٧).

الناس، فما كان طبيعته أنه يعيش في البر، ولا يألف الناس يقال له: متوحش، فإذا ﴿حُشِرَتۡ﴾ يوم القيامة؛ ليقتص لبعضها من بعض، ثم يقول الله ﷻ لها: كوني ترابًا.

وقيل: معنى ﴿حُشِرَتۡ﴾، أي: اختلطت بالناس، ففي السابق كانت تتوحش، وتهرب من الناس، ومن شدة الهول ذهلت، وصارت تخالط الناس، وكأنها تريد الأنس.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ﴾، جمع بحر، ﴿سُجِّرَتۡ﴾، أي: أوقدت، وأضرمت نارًا، فالبحار، والمحيطات الممتلئة بالماء تسجر نارًا في ذلك الوقت.

وقيل: ﴿سُجِّرَتۡ﴾، أي: زالت حواجزها، واختلطت، فاختلط العذب بالمالح.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ﴾، جمع: نفس، ﴿زُوِّجَتۡ﴾، فحشر كل جنس مع جنسه، فأهل الإيمان يلتقون بأهل الإيمان، ويحشرون معهم، ومن أحب قومًا حشر معهم، وأهل النفاق، والكفر، والشرك يحشرون، ويجمعون بعضهم مع بعض.

قال ﷻ: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الصافات: ٢٢]، ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾، أي: وأشباههم.

فيحشر الأشرار مع الأشرار، والأخيار مع الأخيار، فقد كانوا في الدنيا مختلطين الصالح بالطالح، والكافر، والمؤمن، يعيشون في هذه الأرض، ويسكن بعضهم مع بعض، ويتواطنون فيما بينهم، لكن إذا جاء هذا اليوم عزلوا، قال ﷻ: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس: ٥٩]، فيعزل الأشرار

مع الأشرار، والأخيار مع الأخيار.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨﴾، هي: البنت التي تدفن حية حتى تموت تحت التراب، كما كانوا في الجاهلية يفعلون ذلك بالبنات؛ كراهية لهن.

وقد جاء -الآن- أناس يشبهون أهل الجاهلية، فالجاهليون يَئِدُهونها تحت التراب، وهؤلاء يريدون أن يَئِدُهوها فوق التراب، وهي حية، بمعنى: أنهم يسلخونها من أخلاقها، ومن عملها اللائق، وأن يولوها عمل الرجال، وأن تخلع الحياء، والحشمة، فتصبح لا هي رجل، ولا هي امرأة؛ لأنها تخلت عن أخلاقها، ووظائفها، وهذا من الوأد المعنوي الذي قد يكون أشد من الوأد الحقيقي؛ لأن الوأد الحقيقي تكون قد قتلت، وماتت، واستراحت لكن هذه تبقى حية سائبة معذبة، لا قيمة لها في المجتمع، وهذا ما يريده الغرب من المرأة المسلمة، وقد نفذ هذا عملاؤهم من العلمانيين، والليبراليين، والمستغربين من أبناء المسلمين، -نسال الله العافية-.

﴿سُئِلَتْ﴾، تُسْئَلُ، فيقال لها: من قتلك؟ فتقول: قتلني أبي والدي.

وقيل: ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾، ما المبرر لقتلها؟ لأنه لا يجوز قتل النفس بغير حق، فليس هناك أي مبرر إلا الجهل، والجاهلية، ولابد أن تبعث يوم القيامة، وتحاسب من قتلها، ويأخذ الله ﷻ لها حقها منه.

وهذا يدل على أهمية المرأة في المجتمع، وأنه لا يجوز الاعتداء عليها بسلبها حياتها بالقتل، ولا بالاعتداء عليها بسلبها حياءها، وعفتها، وكرامتها، وعملها الذي يليق بها، وهذا يؤكد حق المرأة الصحيح، وليس الحق المزور، فلها الحق في المجتمع، وحق على وليها، وعلى أقاربها،

فلاتهدر المرأة، لا بإزهاق روحها، ولا بإزهاق حيائها، وكرامتها، وعفتها فتصبح لا هي من الرجال، ولا هي من النساء، فلابد أن يسئل يوم القيامة الذي فعل هذا بالمرأة.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، صحف الأعمال؛ لأن كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال تكتبه الملائكة الحفظة في صحيفة أعماله، ثم يوم القيامة يعطى صحيفته إما بشماله، وإما بيمينه، ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤].

وتطوى صحيفة الإنسان عند موته، فإذا جاء البعث نشرت صحيفته، وظهرت بعد أن كانت مطوية.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾﴾، أي: أزيلت بسرعة.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾﴾، أي: زيد في التهابها.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾، أي: قربت من أهلها، فشاهدوها، فقرت أعينهم بمشاهدتها، كان يوعدون بها، وظهرت عيانًا أمامهم[(١)].

عند ذلك ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾: هذا جواب إذا في كل المواضع الماضية، ففي هذا اليوم تعلم كل نفس ما قدمت من خير، أو شر.

ثم إنه سبحانه ذكر سند هذا القرآن العظيم الذي تضمن هذه الآيات البينات، وأقسم على ذلك بقوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٩) من حديث ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا».

وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، «والخنس»، «الكنس»، هي: النجوم.

فـ ﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾، أي: النجوم التي تختفي في النهار، ولا ترى.

﴿ٱلۡجَوَارِ﴾، التي تجري في أفلاكها؛ لأن كل كوكب فهو في فلكه، قال ﷻ ﴿كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣].

و﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾، التي تتضح بالليل، فالنجوم تخنس في النهار، وتكنس في الليل، بمعنى: أنها تتبين، وتتضح، وهذا هو شأن النجوم.

وهذا من آيات الله سبحانه وتعالى، وهو يشمل جميع النجوم فهي: خنس، وجوار، وكنس.

وقيل المراد بـ ﴿بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾، الكواكب السبعة السيارة التي هي: زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾، أي: وأقسم بالليل، ﴿إِذَا عَسۡعَسَ﴾، أي: أدبر بإقبال النهار، وهذا من آيات الله.

فتعاقب الليل، والنهار من أعظم آيات الله سبحانه وتعالى، ولو شاء الله لجعل الدنيا ليلًا دائمًا، ولجعل الدنيا نهارًا دائمًا، قال ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢].، فهذا من أعظم آيات الله، ومن أعظم نعم الله على عباده.

﴿وَٱلصُّبۡحِ﴾، أي: الفجر، ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾، أي: ظهر نوره، وإشراقه، في آخر الليل، وهذا من أعظم آيات الله ﷻ، فأقسم سبحانه بإدبار الليل، وإقبال النهار.

والمقسم عليه ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾، أي: القرآن الذي يكذب به الكفار، والمشركون، والمنافقون، والملحدون، ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، فما هو بقول كاهن، ولا بقول شاعر؛ لأنهم يقولون: إنه شعر، ويقولون: إنه كهانة، ويقولون: إنه أساطير الأولين اكتتبها، والله ﷻ نفى عنه ذلك، وبيَّن سند هذا القرآن إليه سبحانه أنه تلقاه جبريل عليه السلام عن ربه، وألقاه على محمد ﷺ، ومحمد ﷺ بلغه لأمته.

فالرسول هنا هو: جبريل عليه السلام، وأضاف القول إليه؛ لأنه تحمله عن الله ﷻ، وبلغه لمحمد ﷺ.

والكلام إنما ينسب إلى من قاله مبتدأ، لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا، فينسب لجبريل؛ لأنه هو الذي تحمله عن الله ﷻ، وينسب إلى محمد ﷺ؛ لأنه هو الذي تلقاه عن جبريل عليه السلام، وبلغه إلى أمته، ولا يمكن أن يكون الكلام الواحد من عدة متكلمين.

فلو كان كلام جبريل عليه السلام ما نسب إلى محمد ﷺ، ولو كان كلام محمد ﷺ ما نسب إلى جبريل عليه السلام، فدَلَّ على أن محمدًا، وجبريل عليهما السلام مبلغان عن الله كلامه.

ووصف جبريل بـ ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، أي: أعطاه الله ﷻ قوة؛ كما قال ﷻ: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ [النجم: ٦]، أي: قوة.

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، أي: هو قريب من الله ذي العرش، فهو أقرب الملائكة إلى الله تبارك وتعالى، وأعلاهم منزلة عند الله.

وقوله: ﴿مَكِينٍ﴾، أي: له مكانة عظيمة عند الله عز وجل، وهذه صفات جبريل عليه السلام: قوي، وقريب عند الله تبارك وتعالى، عندية المكان.

ثم وصفه بأنه ﴿مُّطَاعٍ﴾، أي: تطيعه الملائكة، فهو سيد الملائكة.

ووصفه بأنه ﴿أَمِينٍ﴾، أي: مع القوة، والمكانة، هو أمين فيما يحمل من عند الله عز وجل، أمين عليه، فلا يزيد فيه، ولا ينقص منه، ولا يغير فيه، فالله تبارك وتعالى وصفه بأنه أمين، قال عز وجل: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٥]، هذا القرآن.

هذه صفات جبريل عليه السلام، ولما ذكر تبارك وتعالى الرسول الملكي، ذكر الرسول البشري، وهو: محمد صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾، أي: محمد صلى الله عليه وسلم، وسماه الله صاحبًا لهم؛ لأنهم يعرفونه، فلو لم يعرفوه ما صار صاحبًا، فهو صلى الله عليه وسلم نشأ بينهم، وتربى عندهم، ويعرفون أمانته، ونسبه، وبلده ونشأته، فما هو بغريب عليهم.

ونفى الله عنه الجنون الذي يصفونهم به، فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾، أي: رأى جبريل عليه السلام بصورته الملكية.

﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾، فيما بين السماء، والأرض.

فقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام على صورته الحقيقة الملكية، مرتين فقط في أغلب الأحوال يأتي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم على صورة رجل، ورءاه على صورته الملكية مرة وهو في بطحاء مكة رآه في الأفق المبين بين السماء،

والأرض قد سد الأفق[١]، والمرة الثانية ليلة المعراج عند سدرة المنتهى[٢].

﴿وَمَا هُوَ﴾، أي: محمد ﷺ، ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، أي: بمتهم فيما يخبر عنه من أمور الغيب فهو صادق فيه، وقيل: ﴿بِضَنِينٍ﴾، ليس ببخيل، ولا يكتم شيئًا، بل إنه ﷺ يبلغ ما أوحى الله ﷻ إليه، فهو ليس بمتهم بالكذب، وليس ببخيل عن البلاغ، بل هو صادق فيما حمل، ومبلغ لما حمل من الرسالة.

فمن أين وجه يطعنون في القرآن الذي هذا شأنه،، وهذا شأن من حمله عن الله.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ﴾، أي: هذا القرآن.

﴿بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، كما تقولون: إنه من وحي الشياطين، والرجيم هو: المرجوم الملعون.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤، ٣٢٣٨، ٤٩٢٥، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤، ٦٢١٤)، واللفظ له، ومسلم (٢٥٥، ٢٥٧) من حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنهما، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «ثُمَّ فَتَرَ عَنِّي الوَحْيُ فَتْرَةً، فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي، سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجُئِثْتُ مِنْهُ، حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ٢].

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، واللفظ له، ومسلم (٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢) من حديث زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ رضي الله عنه في قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ٩ - ١٠] قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ «رَأَى جِبْرِيلَ، لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ».

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾، أي: ما هي حجتكم على رسول الله ﷺ، وعلى القرآن، وعلى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ بعد هذا.

﴿إِنْ هُوَ﴾، أي: هذا القرآن- أي: ما هو ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾، ما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ذكر للعرب، أو ذكر لأهل مكة، بل قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾، فالقرآن كتاب عالمي، وحجة على البشرية كلها، من آمن به صار حجة له، ومن لم يؤمن صار حجة عليه[(١)]، ولابد، وليس له مذهب يذهب إليه غير ذلك.

﴿لِمَن شَاءَ﴾، هذا بدل من العالمين.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾، من أراد الهداية فهذا هو الهداية، وهو: القرآن الكريم.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾، وفي هذا إثبات أن للعباد مشيئة، وهذا رد على الجبرية الذين يقولون: إن العبد مجبور، وليست له مشيئة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أثبت أن له مشيئة، لكنه ربطها بمشيئة الله، وفي هذا رد على القدرية الذين ينفون مشيئة الله لأفعال العباد.

هذا، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (١) من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ».

الدرس الثالث والتسعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦
ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ
۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى
نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ
أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا
وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار: ١ - ١٩].

هذه السورة كسابقتها «سورة التكوير» فيها ذكر الأهوال التي تحصل عندقيام الساعة، وبعدها، وهي أهوال عظيمة، كرر الله سبحانه وتعالى ذكرها في هذه السور، وغيرها؛ للعظة، والعبرة، والتخويف لمن في قلبه إيمان، والإعذار والانذار لغير المؤمن، حتى لا يقول أحد: ما علمت عن مستقبلي، وما يحصل فيه، وباغتني الأمر؛ لذا لم أستعد له، فيصور الله عز وجل لك المستقبل كأنك تشاهده من أجل أن تستعد له.

قال ﷻ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، ﴿إِذَا﴾، ظرف لما يستقبل من الزمان.

﴿ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾، فالسماء كانت مبنية قوية محكمة، وليس فيها فطور؛ كما قال ﷻ: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣]، لكن يأتي عليها يوم تتشقق، وتتفطر، ويحصل لها ما يحصل، إذا جاء الأجل الذي حدده الله ﷻ لها.

فـ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾، تشققت؛ كما في قوله ﷻ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١].

فالسماء إذا انفطرت، وتشققت بالغمام، فهذا يدل على حدوث أمر عظيم، واختلال نظام؛ لأنه قد انتهى الأجل الذي قدره الله ﷻ لها، وكل شيء إذا جاء أجله، فإنه ينتهي.

قال ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾، أي: تتساقطت بعد أن كانت ثابتة في مجاريها، وأفلاكها؛ لأنه انتهى أجلها.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾، البحار، والمحيطات، والخلجان، والأنهار كانت معزولًا بعضها عن بعض، فجعل الله ﷻ بينها حواجز، قال ﷻ: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٠]، أي: حاجز يحجز بعضهما عن بعض.

وقال ﷻ: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٥٣].

فإذا جاء الأجل، أزال الله ﷻ هذه الحواجز، واختلطت البحار، فصارت بحرًا واحدًا: المر، والعذب، وقيل: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣﴾، أي: ملئت بالماء، وفاضت.

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾، أي: قبور الأموات التي تملأ الفجاج، والرحاب

تبعثر، بمعنى: تقلب، ويصير باطنها ظاهرها، وظاهرها باطنها، ويخرج الله ﷻ ما فيها من الأموات الذين كانوا يسكنونها.

يقول الشاعر(١):

صَاحِ هَـذِي قُـبُورُنـا تَمْـلأُ الـرُّحْـ ـبَ، فأينَ القُـبُورُ مِنْ عَـهـدِ عـادِ
خَـفِّـفِ الـوَطْءَ مـا أظُـنّ أدِيمَ الْـ أرْضِ إلاّ مِـنْ هَـذِهِ الأجْـسَـادِ

فالأرض بطنها مملوء بالأموات، ولكن سيأتي يوم يخرجون من قبورهم، حين تبعثر القبور، فيخرجون منها أحياء، لايتخلف منهم أحد، كما بدأ الله ﷻ خلقهم يعيده.

والنتيجة من حصول هذه الأهوال، هي قوله ﷻ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ فهذا جواب الشرط، أي: علمت عند ذلك كل نفس، ما قدمت في الدنيا من الأعمال الصالحة، أو السيئة.

فالميت إن كان قد خلف آثارًا طيبة، وأعمالًا نافعة، فإنه يجري عليه أجرها، كأن يكون خلف أوقافًا، أو مشاريع خيرية، أو كتبًا مؤلفة في العلم النافع، أو أولادًا صالحين، أو خلف آثارًا سيئة -والعياذ بالله- كدور الكفر، أو دور البغاء، ودور خمور، أو مصانع تنتج محرمات، فهذه آثار يلحقه ضررها في قبره، وفي معاده، فهذا فيه الحث على أنه ينبغي للإنسان أن يخلف وراءه شيئًا نافعًا.

---

(١) ينسب البيت إلى أبي العلاء المعري. انظر: الحماسة المغربية (٢/ ٨٨٠)، ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة لأبي علي المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري (٥/ ٢٢٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(١).

فالأولاد من الآثار التي يخلفها الإنسان بعده، ويجري عليه خيرها، أو شرها، والذين يقيمون المشاريع النافعة، والطيبة الخيرية، تدر عليهم أجورًا، وهم في قبورهم وفي بعثهم، ونشورهم، والذين يخلفون مشاريع سيئة، ومصانع خبيثة، فإنها تدر عليهم شرًا بعد موتهم، ويوم مبعثهم.

قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢].

يكتب الله ﷻ ما قدموا من الأعمال، ويكتب آثارهم التي تركوها بعدهم، من خير، أو شر، فلا يحسب الإنسان إنه إذا مات فارق الدنيا، وانتهى، بل ما خلفه من شر يلحقه إثمه، وما خلفه من خير يلحقه خيره، أو شره.

ثم خاطب الرب ﷻ هذا الإنسان، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: كل إنسان من بني آدم يناديه ربه.

ويقول له: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾، أي شيء غرك حتى كفرت بالله ﷻ، وأشركت، وعملت السوء؟ ما الذي خدعك حتى غفلت عن هذا المستقبل، ونسيته؟، وقد أعطاك الله ﷻ من النعم، وغذاك بالخير، وأمدك بالقوة، والصحة، والحواس، والعقل، ما الذي صرفك عن الله ﷻ؟ هل لك عذر

(١) أخرجه مسلم (١٤).

في هذا؟ وهذا من باب التقريع، والتوبيخ له.

﴿ٱلْكَرِيمِ﴾، الكريم الذي كرم عليك، وأعطاك، وتفضل عليك، وغذاك بنعمه، فكيف تقابل هذا بالكفران، والشرك، والفسق؟ فهل كرم الكريم تقابله بالكفران، والجحود؟، هل يليق هذا بعاقل؟

ثم هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾، وأوجدك من العدم، خلقك في رحم أمك من نطفة، هل خلقك غير الله ﷻ حتى تذهب إلى غيره؟، هل هذه الأصنام، وهذه الأضرحة، وهذه المعبودات هل هي التي خلقتك، ورزقتك؟

هذه مخلوقة مثلك، بل قد تكون أضعف منك، فلا خالق إلا الله ﷻ، هو خلقك وحده سبحانه وتعالى، فكيف تكفر به، وتجحد نعمته، وفضله؟

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾، عدَّل خلقتك على أحسن صورة، وجعلك بشرًا سويًا، متكامل الأعضاء، والحواس، والجسم، والأعصاب، وكل ما تحتاجه موجود فيك، ليس فيك عيوب، ولا نقص، تقوم، وتمشي، وتركض معتدلًا.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾، أيُّ شكل، ﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾، أي: أن الله سبحانه وتعالى يوجدك على الصورة التي شاءها سبحانه وتعالى، وصورة الإنسان من أحسن الصور، وأحسن الأشكال، لم يجعلك سبحانه وتعالى كلبًا، ولا قردًا، ولا خنزيرًا، وهو قادر على ذلك سبحانه وتعالى، ولكن الله ﷻ منَّ عليك فجعلك في أحسن صورة.

فمن نعمه سبحانه وتعالى عليك: أنه خلقك، وسواك، وعدلك في أحسن صورة.

ثم قال ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ فالإنسان الذي كفر بهذه النعم، ونسى مصيره، ونسى مآله، والذي حمل الإنسان على هذا الكفر، وهذا

الإعراض، وهذه الغفلة أن كذب بالبعث.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾، لأعمالكم، فأنتم في الدنيا تسرحون، وتمرحون وتفسقون، وتعملون الأعمال، وتظنون أنها ذهبت مع أيامها، وساعاتها، ولا تدرون أنها قد سجلت، وحفظت عليكم بواسطة الحفظة الموكلين بكم ليلًا، ونهارًا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: **أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ: مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ»**... الحديث[1]، يحفظون أعمالكم خيرها، وشرها.

﴿كِرَامٗا﴾، ولم تستحيوا منهم، ولم تنتبهوا لملازمتهم لكم.

﴿كَٰتِبِينَ﴾، أي: يكتبون ما يصدر منكم من خير، أو شر، يكتبون الصغائر، والكبائر، والدقائق، والجلائل.

فهم ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، في الليل، والنهار، وفي الخلوة، ومع الناس، في البر، وفي البحر، اذهب إلى أي مكان شئت فالملائكة معك، يلازمونك فاعمل ما تشاء من خير، أو شر، وقُلْ ما تشاء من ذكر، وتسبيح، وتهليل، وتلاوة قرآن، أو من سب، وشتم، وغناء، وطرب، وكفر، وشرك، وكلمات قبيحة، صل، تصدق، حج، واعتمر، افعل الخير، أو افعل الشر، كل هذا مسجل عليك، سواء أكنت ملكًا، أو صعلوكًا، غنيًا، أو فقيرًا، ذكرًا

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٢٩ - ٧٤٨٦ - ٥٥٥)، واللفظ له، ومسلم (٢١٠)، وتمام الحديث: «وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ العَصْرِ وَصَلاَةِ الفَجْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ، فَيَقُولُ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ».

أو أنثى، جنًا أو إنسًا.

ثم بين الله ﷻ المآل، والنتيجة لذلك، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾.

و﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾، هم: الذين يعملون البر، والأعمال الصالحة، فإنهم يكونون في نعيم، وهذا النعيم معهم في الدنيا، وفي القبر، وفي البعث، فهم في نعيم، وسرور، وانشراح، وطيب نفس، يتنعمون بطاعة الله ﷻ في الدنيا، ويتنعمون بالجزاء في القبر، وفي الآخرة، حتى ولو كان فقيرًا معدمًا، هو في نعيم؛ لأن النعيم في القلب، وليس هو في كثرة المال، فلربما أن كثير المال يكون شقيًا، ويتعب، ويتعذب.

﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ في عذاب، في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة.

فالفاجر في جحيم في الدنيا قبل الآخرة، في جحيم في نفسه، وضيق في صدره، وتشتت به الهموم به حتى يصل به الأمر إلى أن ينتحر.

وفي البرزخ: يتلظى القبر عليهم نارًا، ويكون حفرة من حفر النار، وفي القيامة يكون إلى جهنم، فهو في جحيم دائم.

فلا يتصور أن قوله ﷻ: ﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾، أنه إذا بعث في الآخرة فقط، لا، بل في الدنيا في جحيم، وضنك من العيش، قال ﷻ: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [طه: ١٢٤].

﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾، أي: يصلون النار، ويدخلونها يوم الحساب، ويلازمون عذابها، وحرها.

﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا﴾، أي: عن الجحيم.

﴿بِغَآئِبِينَ﴾، محبوسون فيها مخلدون فيها، لا يخرجون من النار أبد الآباد، قال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال ﷻ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢].

فما هم منها بخارجين، ولا غائبين عنها، فالنار ملازمة لهم.

ثم فخم ﷻ يوم الدين، وعظمه، وهول من شأنه، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾.

وهو: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ﴾، ولو كان قليلًا، فما لك إلا عملك من خير، أو شر.

﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، الأمر يوم القيامة لله ﷻ، لا يتصرف أحد مع الله ﷻ في ذلك اليوم، أو يتوسط، أو يخلص أحدًا، أو يدفع عن أحد، فالملك لله وحده ﷻ، قال ﷻ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْۚ﴾ [الحج: ٥٦].

فكيف -أيها الإنسان- تجحد فضل ربك الذي خلقك، وسواك، وعدلك؟

كيف تنسى الله ﷻ الذي بيده الأمر كله، ومصيرك إليه، وموقفك بين يديه ﷻ؟

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الرابع والتسعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ
يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢
إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤
كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ
تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ
۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين: ١ - ٢١].

هذه السورة تسمى: «سورة المطففين»، وقد اختلف العلماء فيها، هل هي مكية، أو مدنية؟ على قولين.

والتطفيف معناه: النقص، والشيء الطفيف هو: الشيء الناقص، وقد توعد الله سبحانه وتعالى المطففين، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾، وهي: كلمة عذاب، وتوعد.

وقيل: الويل: واد في جهنم.

ويل لهم في الدنيا، ثم بين ﷻ وصف هؤلاء المطففين، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾، أي: ينقصون الناس حقوقهم، ويبخسون الناس أشياءهم.

وقد أهلك الله ﷻ أمة من الأمم، وهم: قوم شعيب عليه السلام؛ لأنهم كانوا يشركون بالله، وينقصون المكاييل، والموازين للناس، ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ﴾ [هود: ٨٤].

والمطففون هم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾، أي: استوفوا حقهم من الناس بالمكيال.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾، أي: كالوا لهم، ﴿أَو وَّزَنُوهُمْ﴾، أي: وزنوا لهم، وحذفت اللام، ووصل الفعل بالضمير، وهذا ما يسمى عند أهل البلاغة: الحذف، والإيصال.

﴿يُخْسِرُونَ﴾، أي: ينقصون، فهم يوفون الموازين، والمكاييل إذا كانت لهم، وينقصونها إذا كانت عليهم للناس.

وفي الحديث: أن النبي ﷺ قدم المدينة، وهم من أبخس الناس كيلًا، فأنزل الله ﷻ هذه السورة، فصاروا بعد ذلك أوفى الناس كيلًا. أي: لا تنقصوا الميزان.

ويجب على ولي الأمر أن يجعل رجالًا للحسبة على البائعين في الأسواق، ويجب أن ينال المجرم جزاءه، ولا يترك الناس يعبثون بحقوق الآخرين.

هذا في الأشياء المحسوسة، وكذلك في الأشياء المعنوية يجب على الإنسان العدل: إذا مدح يعتدل، وإذا ذم يعتدل، فلا يسرف في المدح، ولا يسرف في الذم، بل يعتدل في ذلك، وينزل الناس منازلهم، وقد أوصى النبي ﷺ فقال: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»(١).

فيجب على من ينتقد، أو يرد على المقالات، أو الكتب أن يعتدل في ذلك، وأن يذكر ما عند المردود عليه من الحق، كما عنده من الخطأ، أما أن يجعل كل ما عنده خطأ، فهذا من بخس الناس حقوقهم.

وهذا ما يمشي عليه المحققون، كشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم حينما يردون على المخالفين؛ لأن هذا هو العدل، وهذا داخل في قوله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾، فيجب الاعتدال في هذه الأمور، وإلا فالإنسان سيسأل يوم القيامة، فإن سلم في الدنيا، فلن يسلم في الآخرة.

ثم إنه توعدهم، فقال ﷻ: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤﴾.

﴿أَلَآ﴾، كلمة تنبيه، واستفتاح، ﴿يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، المطففون، ﴿أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ من قبورهم؛ للجزاء، والحساب، وسيلقون ما قدموا.

وكلمة ﴿يَظُنُّ﴾، أي: يعتقد؛ لأن الظن يطلق على اليقين أحيانًا، قال ﷻ ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يعتقدون، ويتيقنون.

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٤٢) من حديث عائشة ﵂.

وقال ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أي: يعتقدون، ويؤمنون.

فقوله ﷻ: ﴿أَلَا يَظُنُّ﴾، أي: ألا يتيقن هؤلاء، ويعتقدون أن هناك بعثًا، ونشورًا، وحسابًا، وجزاء؟

فالحساب قادم، والبعث كائن لا محالة، وكلٌ يلقى جزاءه، وفي يوم القيامة ينصف الله سبحانه وتعالى هؤلاء المظلومين، ويرد عليهم حقوقهم ممن ظلمهم، من حسنات الظالمين؛ ففي يوم القيامة لا توجد دراهم، ودنانير، بل هناك أعمال، وحسنات، وسيئات.

فهؤلاء الذين ظلموا الناس في الدنيا يؤخذ من حسناتهم، وتعطى للمظلومين، وربما لا تبقى لهم حسنة واحدة.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾، يقومون من قبورهم، وهذا هو البعث.

وقيل: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾، أي: في المحشر، يقومون خمسين ألف سنة على أقدامهم، حفاة عراة شاخصة أبصارهم، تدنو منهم الشمس، يأخذهم العرق، فمنهم من يغطيه العرق، ومنهم من يصل إلى أذنيه، ومنهم من يلجمه(١).

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٦٢) من حديث الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ» - قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ - قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.

ثم بيَّن ما يؤول إليه أمر الناس، فقسمهم الله ﷻ قسمين: فجارًا، وأبرارًا.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾، وهم الذين خرجوا عن طاعة الله ﷻ، وفجروا، وفسقوا، وكفروا، و﴿كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾، هو: كتاب أعمالهم.

﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾، سجين على وزن فعيل، من السجن، فالمكان الضيق يقال له سجن، وسجين شديد الضيق، فهي كلمة مبالغة، أي: لفي مكان ضيق بعد موتهم، وقيل: ﴿سِجِّينٌ﴾، اسم للنار تحت الأرض السابعة، وهو مأوى الكفار، إذا ماتوا تكون أرواحهم مسجونة فيه.

ثم هول الله ﷻ سجين بصفة مفزعة، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾، أي: لا يعلم هذا المكان، وما فيه من الضيق، والشرور، والنار، إلا الله ﷻ.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾، أي: أن كتاب أعمالهم مكتوب مدون محفوظ، لا يضيع شيء منه.

وقيل: ﴿مَّرْقُومٌ﴾، أي: مختوم، فلا يزاد فيه، ولا ينقص، ولا يُغير، فهو كتاب ملازم لصاحبه، قال ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الإسراء: ١٣].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾، كرر الله ﷻ التهديد، والوعيد بهذه الكلمة ﴿وَيْلٌ﴾، وهي: كلمة عذاب، لا يعلم شدته إلا الله ﷻ، فهو وعيد من الله لهم.

﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: المكذبين للرسل، المكذبين للكتب، المكذبين

بالبعث، والنشور، ولم يُبيِّن ﷻ ما الذي كذبوا به؛ لأنه عام، فهم كذبوا بكل شيء.

﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝١١﴾، وهو: الحساب.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ﴾، أي: ما يكذب بيوم الدين، ﴿إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾، معتدٍ في أفعاله من الحلال إلى الحرام، وفي أقواله من الصدق إلى الكذب، والفجور.

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا﴾ الآيات القرآنية، والوحي المنزل الذي فيه ذكر البعث، والنشور، والجزاء، والحساب.

﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، أي: هذا القرآن من أكاذيب الأمم السابقة، فهم يقولون: إن القرآن مثل كتب الأساطير، وتواريخ العجم، وتواريخ الأمم إنما هي أساطير، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هو إلا خرافات، وأساطير، أي: أكاذيب سطرها محمد ﷺ، أو أنه استعان بآخرين، ﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾ [الفرقان: ٥]، أي: أنه طلب من غيره أن يكتبها له، ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الفرقان: ٥].

وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤﴾ [الفرقان: ٤].

قالوا هذا في محمد ﷺ، والقرآن، وهذا شأن الملاحدة مع كتب الله ﷻ، يقولون: إنها وضعت من أجل مصلحة الناس، ومن أجل ترويعهم، فهي من باب الترويع لهم، والتأديب لهم بشيء خيالي، فهم يكذبون للمصلحة بزعمهم.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾، أضافها إليه ﷻ، إضافة صفة إلى موصوفها، فهو لا يستهزيء بكلام الله فقط، بل هو يستهزيء بالله ﷻ.

ثم بيَّن الله ﷻ السبب الذي حملهم على هذا، فقال ﷻ: ﴿كَلَّا﴾، أي: حقًا.

﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾، أي: ليس الأمر كما قالوا: إنها أساطير الأولين، لكن قلوبهم غلفت، فلم يصل إليها نور الوحي، ولم تنتفع به.

﴿رَانَ﴾، والرَّان هو: الغلاف الذي يكون على القلب، فلا يصل إليه شيء.

وسببه: ﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾، فالذنوب تتراكم على القلب حتى يعمى، ويصير عليه غلاف حاجب عن الخير، فلا يتأثر بموعظة، ولا ينتفع بدليل؛ لأن عليه غلافًا، وحاجبًا.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»(١).

ثم بين الله ﷻ ماذا تكون عاقبتهم فقال: ﴿كَلَّا﴾، أي: حقًا، ويقينًا، ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، في يوم القيامة، المؤمنون يرون ربهم عيانًا، ويتلذذون برؤيته ﷻ، وأما الكفار، فلا يرون الله ﷻ؛ لأنهم لم يؤمنوا به

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٩/ ١٦٠)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٢١٠).

في الدنيا، ولما لم يؤمنوا به في الدنيا حجبوا من رؤيته يوم القيامة.

فالله ﷻ لا يرى في الدنيا؛ لأن الأجسام لا تطيق رؤية الله ﷻ، وتحترق عند ذلك، لكن في الآخرة، فإن الله ﷻ يقوي أجساد المؤمنين حتى تراه ﷻ إكرامًا لهم.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: «سَأَلْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ»؟ قَالَ: قُلْنَا: لاَ. قَالَ: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ»؟ قَالَ: قُلْنَا: لاَ. قَالَ: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١) ... الحديث.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: (وفي هذا دليل على إثبات رؤية المؤمنين لربهم؛ لأنه إذا حجب عنه الكفار، فهذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون من رؤية ربهم)(٢).

وقد تواترت الأدلة على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، ويتجلى لهم ﷻ، وتقر أعينهم بذلك، فأعظم نعيم يكونون فيه، هو: رؤية الله ﷻ.

وعليهم وعيد آخر، قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾، أي: يقاسون حرها، وعذابها، والجحيم هو: النار، والصلي هو: الحرارة.

﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ لهم تقريعًا، وتوبيخًا، ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، هذا الذي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٧/ ٢٠٢)، وأصل الحديث في البخاري (٦٥٧٣)، ومسلم (٢٩٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٧).

كنتم به في الدنيا تكذبون، وتقولون: أساطير الأولين.

ثم ذكر ﷻ جزاء الأبرار الذين آمنوا به في الدنيا، قال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾، جمع: بار من البر، وهو: العمل الصالح، قال ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾، أي، في الجنة، فالفجار في أسفل شيء، والأبرار في أعلى شيء.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾، تفخيم، وتعظيم لعليين.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ تشريفًا لهم، وهذا جزاء الأبرار الذين آمنوا بالله ﷻ، وعملوا الصالحات، وصدقوا الرسل، وانتفعوا بكتاب الله ﷻ، وسنة رسول الله ﷺ.

فالقرآن تقر به أعين المؤمنين، ويتلذذون به، ويتعلقون به، أما أولئك فيتعلقون بالخرافات، والأساطير، والأكاذيب، والملهيات، والمغريات، ويستبدلون القرآن بالشعر، والأغاني، وبالكلام الباطل، وبكلام السحرة المبطلين الكاذبين.

هذا، وبالله التوفيق. وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

الدرس الخامس والتسعون

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ
﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ
﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ
يَفۡعَلُونَ﴾ [المطففين: ١٨ - ٣٦].

لما ذكر الله جزاء الفجار، ذكر جزاء الأبرار، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ أي: نعيم لا يعلمه إلا الله ﷻ، وأيضًا هم في نعيم في الدنيا، من راحة النفوس، ولذة القلوب، وطمأنينة النفس، هذا بخلاف الفجار، فإنهم في وحشة في دنياهم، وفي قلق، حتى إنهم ينتحرون، أما المؤمن، فإنه مسرور بإيمانه، وفي دنياه، وإن أصابته ضراء صبر عليها، وانتظر حتى يأتي الفرج،

وإن أصابته سراء شكر الله ﷻ، فهو في نعيم دائم في الدنيا(١)، وفي نعيم أقوى منه، وأشد في الآخرة، أما أولئك الكفرة، فإنهم في شقاء في الدنيا، وفي عذاب في الآخرة، قال ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤].

ثم فسر نعيمهم بقوله: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾، أي: المجالس المرتفعة، جمع: أريكة، ولا يعلم هذه الأرائك إلا الله ﷻ، فهي ليست مثل أرائك الناس في الدنيا، ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى الله ﷻ، فهم ينظرون إلى ربهم، وتقر أعينهم برؤيته، ويتنعمون بها؛ لأنهم قد آمنوا به في الدنيا، فيتجلى لهم في الآخرة؛ ليروه عيانًا بأبصارهم، ويتلذذون بذلك، وكذلك ينظرون إلى النعيم الذي حولهم، وإلى ملكهم في الجنة، وينظرون إلى أعدائهم، وهم يعذبون في النار.

قال ﷻ: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ﴾، أي: في وجوه الأبرار، ﴿نَضْرَةَ﴾ أي: من نضارة الحسن من أثر ما هم فيه من النعيم.

ثم ذكر ﷻ شرابهم، فقال: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾، وهو: الشراب المنتهي في الحلاوة، والطعم.

﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، فهو رحيق، وأيضًا مختوم بالمسك، فتطيب رائحته، ويلذ طعمه، وقيل: ﴿خِتَٰمُهُۥ﴾، أي: أن آخره مِسْك.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٦٤) من حديث صُهَيْبٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ».

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾، في ذلك النعيم، وهذا الشراب، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، أمرٌ من الله ﷻ أنه يجب أن يتسابق المتسابقون إلى هذا الشراب، وهذا النعيم بالأعمال الصالحة؛ لينالوه في الآخرة، فهذا هو السباق الذي يحوز على هذه الأرائك، وهذا النعيم، وهذا الشراب؛ ليكون فائزًا، فليس الفائز من ضيع دنياه، وآخرته، وانشغل باللهو، واللعب، والملذات العاجلة، وترك العمل الصالح.

﴿وَمِزَاجُهُۥ﴾، أي: هذا الرحيق المختوم يُخلط ﴿مِن تَسْنِيمٍ﴾، أي: من عين مرتفعة، من التسنيم، وهو: الارتفاع، فتصب من أعلى الجنة.

ثم فسر ﷻ هذا التنسيم بقوله ﷻ: ﴿عَيْنًا﴾، تنبع من أعلى الجنة، ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أي: يشرب منها، ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ لأن المؤمنين على ثلاث طبقات:

الطبقة الأولى: الظالمون لأنفسهم، الذين هم أصحاب الكبائر التي دون الشرك، فهؤلاء يتوب الله ﷻ عليهم، أو أنهم يعذبون في النار بقدر جرائمهم، ثم إنهم يدخلون الجنة، فلا تزال معهم صفة الإيمان، فالظالمون لأنفسهم خلطوا أعمالًا صالحة، وأعمالًا سيئة[1].

الطبقة الثانية: وهم الأبرار، وهي فوق طبقة الظالمين لأنفسهم،

---

(١) وتضافرت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ عن خروج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان من عصاة المسلمين بعدما يلاقون ما يلاقون من العذاب، وأنهم يخرجون، وقد امتحشوا، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل. انظر: صحيح البخاري (٨٠٦، ٦٥٦٠، ٦٥٧٣، ٧٤٣٧، ٧٤٣٩)، ومسلم (٢٩٩، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣٠٦).

والأبرار هم: الذين تركوا السيئات، وعملوا الطاعات، فاقتصدوا، واقتصروا على ذلك، قال ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢]، والمقتصد هو: الذي يقتصر على فعل الطاعات، وترك المحرمات.

الطبقة الثالثة: المقربون، وهي: الطبقة العليا، وهم: الذين تركوا المحرمات، والمكروهات، وفعلوا الواجبات، والمستحبات.

ولما انتهى ﷻ من المؤمنين بطبقاتهم، ومنازلهم، ذكر الكفار، والمجرمين، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾، وهم: الكفار، ﴿كَانُوا۟﴾، في الدنيا، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾، أي: ينتقصونهم، ويقولون: هؤلاء مغفلون، هؤلاء سطحيون، هؤلاء يعيشون في العصور الوسطى، هؤلاء ظلاميون، وغير ذلك من الألفاظ الذميمة التي تعج بها بعض الصحف، والقنوات الفضائية اليوم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾، إذا مرَّ المؤمنون بالفجار، صاروا يضحكون منهم، ويغمزونهم بأبصارهم، وبألسنتهم، وبإشارات السخرية.

وقيل: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ﴾، أي إذا مرَّ الفجار بالمؤمنين ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾؛ تنقصًا لهم، فيشير بعضهم إلى بعض بلسانه، وبيده، وبعينه، من باب السخرية بالمؤمنين.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ﴾، إلى دورهم، ﴿ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾، يتفكهون بما نالوا من المؤمنين، فلا يندمون على ما حصل منهم، بل إنهم يتفكهون، ويسرون بذلك.

وقيل: إنهم يجدون في بيوتهم النعمة، والمآكل، والمشارب،

والمسرات، ولا يشكرون الله ﷻ، فهم قد أساءوا في حق الخلق وأساءوا في حق الخالق ﷻ، فلا يشكرونه على نعمته.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾، إذا رأى الفجار المؤمنين، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، ضائعون عن الطريق الصحيح، وعن التقدم، عن الرقي، عن الحضارة، عن المتعة في الدنيا، والمسارح، والسينما وغير ذلك، فهم يحرمون أنفسهم من ذلك؛ لذا هم مخطئون في عملهم هذا، وهذا شيء مشاهد -الآن- من الكفار، والمنافقين، ومن الفجار العصاة، أصحاب الشهوات.

قال ﷻ: ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣﴾، أنا ما أرسلتكم تحفظون عليهم أخطاءهم، وتتبعون زلاتهم، وتتنقصونهم مثل ما هو الآن واقع، فإذا أخطأ واحد من أهل الخير أدنى خطأ، فإنهم يضخمونه في الصحف، والجرائد، وإن لم يخطيء، فإنهم يكذبون عليه، فهم يتبعون المسلمين، والأبرار، ويحصون عليهم الأخطاء -إن كان لهم أخطاء-، وينسون ما هم عليه من الكفر، والضلال، والأخطاء العظيمة المهلكة، وهكذا هي حالة الشقي يتتبع أخطاء غيره، وينسى أخطاء نفسه، كما يقال: «يَرَى أَحَدُهُمُ الْقَذَى فِي عَيْنِ أَخِيهِ، وَلَا يَرَى الْجِذْعَ فِي عَيْنِ نَفْسِهِ»(١).

قال ﷻ: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾، يوم القيامة، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾، الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا، صار المؤمنون يضحكون منهم في الآخرة، من باب الجزاء، إذا رأوهم في العذاب، والذلة، والصغار.

---

(١) حديث أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٧٠)، والشهاب القضاعي في مسنده (١/ ٣٥٦).

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾، أي: المؤمنون جالسون على الأرائك، وهي: المجالس الرفيعة يشرفون على الكفار في جهنم، وهم يعذبون؛ من أجل أن تقر أعينهم بعدل الله ﷻ، وإنصافه لهم، وينظرون إلى ما لهم من النعيم، والسرور، وأعلى من ذلك فإنهم ينظرون إلى وجه الله الكريم؛ ولهذا ما قال الله ﷻ: «ينظرون إلى كذا، وكذا»، بل إنه ﷻ أطلق، فهم ينظرون إلى كل ما يسرهم.

ثم قال: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٣٦﴾، أي: قد تم مجازاة الكفار، فهذا استفهام تقرير.

فالكفار، والمنافقون، وأهل الشر، مهما تطاولوا، ومهما قالوا في المؤمنين، فإن الأمر سينقلب عليهم، فالمؤمنون صبروا في هذه الدنيا على أذاهم، والكفار صاروا إلى مصير لاينقطع، ولا يفنى -والعياذ بالله-.

فالحاصل: أن الله ﷻ صور لنا أحوال الكفار مع أهل الإيمان في هذه الدنيا، وأخبرنا ﷻ عما يكون عليه الأمر في الآخرة، وأن هذا سينعكس عليهم، ويصيرون هم الأذلين يوم القيامة، والمؤمنون هم الأعلون يوم القيامة، هذا مما يعزي، ويسلي المؤمنين بأن يصبروا على إيمانهم، وعلى دينهم، ويتمسكون بذلك، ويعتبرون أن ما ينالهم من الكفار رفعة في درجاتهم عند الله ﷻ إذا هم صبروا، وثبتوا على دينهم، ولم يتزعزعوا. وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس السادس والتسعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا
وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦
فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا
۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ
فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَآ أُقْسِمُ
بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا
لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ
۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ١ - ٢٥].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾: ﴿إِذَا﴾، ظرف لما يستقبل من الزمان.

﴿ٱلسَّمَآءُ﴾، المراد بها: السموات السبع، وهذه السماء قوية محكمة لها أبواب، ولكن يأتي عليها يوم تتشقق، وتتفطر؛ من شدة الهول، فالانفطار، والانشقاق بمعنى واحد.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾، أي: استمعت لأمر الله، وامتثلت، واستجابت، فالأذن هنا بمعنى: الاستماع.

﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: حُقَّ لها تلك الاستجابة لأمر الله ﷻ.

ثم قال ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾، أي: بسطت، ووسعت، وأزيل ما عليها من جبال، ومرتفعات، ومبان، ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧]؛ من أجل أن يحشر الخلق على ظهرها، بعدما يخرجون من بطنها.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾، أي: أخرجت ما في بطنها من الأموات، والكنوز.

﴿وَتَخَلَّتْ﴾، أي: أفرغت ما في بطنها بأمر الله ﷻ، فالله ﷻ يدعو الأموات، فيستجيبون، ويقومون من قبورهم، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٢﴾ [الإسراء: ٥٢].

فإذا دعا الله ﷻ الأموات، خرجوا من قبورهم، ولا يتخلف منهم أحد، لا من الأولين، ولا من الآخرين.

ثم أعاد الله ذلك، وقال: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾، أي: سمعت لأمر الله ﷻ، واستجابت.

ثم خاطب هذا الإنسان الذي خلقه لعبادته، وطاعته، ورزقه، وسخر له ما في السموات، والأرض، فقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: جنس الإنسان: المؤمن، والكافر، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾، أي: سائرٌ إلى ربك مسرعًا إلي في هذه الحياة.

﴿كَدۡحٗا﴾، أي: سيرًا حثيثًا، فكل بني الإنسان، -المؤمنين، والكفار- يسيرون إلى الله ﷿ في هذه الحياة، ويقطعونها يومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، وشهرًا بعد شهر حتى ينقضي العمر، ويردوا إلى الله ﷻ في النهاية، ولا يتخلف منهم أحد، لا المؤمن، ولا الكافر، ولاالعاصي، ولا المطيع قال ﷿: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠].

﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، أي: لابد أن تلقى الله ﷻ؛ لأن من سار على الدرب وصل، ولن تفوت على الله ﷿، قال ﷿: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت: ٤]. فأنت تعمل لنفسك، وقد أنذرك الله، وبلغك، وكل هذا يسجل عليك، وستلاقيه إذا بعثت يوم القيامة، فالضمير يرجع إلى ربك.

وقيل: الضمير يرجع إلى ﴿كَدۡحٗا﴾، أي: إلى عملك، وكدحك، والمعنى -والله أعلم-: أنت ملاق عملك من خير، أو شر، فاعمل ما شئت، فستلاقيه أمامك محصى، لا يضيع منه شيء.

ثم بين الحالة التي يكون عليها الإنسان إذا لقي الله ﷻ، فقال ﷿: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾، أي: كتاب أعماله.

﴿بِيَمِينِهِۦ﴾، وهو: المؤمن الذي آمن بالله ﷻ في هذه الدنيا، وعمل صالحًا، وملأ صحائفه بالأعمال الصالحة، فهذا يعطى كتابه بيده اليمنى، تكريمًا له؛ لأن اليد اليمنى تستعمل في مباشرة الأعمال الطيبة.

﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا﴾، حسابًا سهلًا، وهو العرض، فلا يناقش؛ حيث تعرض عليه أعماله، فيغفر الله ﷻ له ما كان فيها من الذنوب،

فلا يدقق عليه، ويناقش، وإنما هو العرض فقط، وبعدها ينقلب إلى أهله في الجنة مسرورًا؛ لأنه تخلص من هذه الأهوال، وهذه المواقف الصعبة.

١- منهم من يدخل الجنة بلا حساب، ولا عذاب؛ كما صح في الأحاديث[(١)]، وهم: السابقون، والمقربون.

٢- ومنهم من يحاسب حسابًا يسيرًا، وهو: العرض، وينقلب إلى أهله مسرورًا.

٣- ومنهم من يناقش الحساب، «وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ»، كما في الحديث[(٢)]، لكن كلهم مآلهم إلى الجنة، وإن عذبوا.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٦٥٤١، ٥٧٥٢، ٥٧٠٥)، واللفظ له، ومسلم (٣٧٤) من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ ﭫ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ» ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ القَوْمُ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلاَدُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ، فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَخَرَجَ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣)، واللفظ له، ومسلم (٧٩، ٨٠) من حديث عَائِشَةَ ﭭ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ» قَالَتْ عَائِشَةُ ﭭ: فَقُلْتُ: أَوَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⁕٨⁕﴾، [الانشقاق: ٨] قَالَتْ: فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ».

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩﴾، يرجع إلى أهله في الجنة مسرورًا، بأنه تخلص من هذه الأهوال، ولم يضع عليه شيء من حسناته، وقد تجاوز الله ﷻ عن سيئاته، وليس هناك أعظم من هذا السرور، وبعد ذلك لا يعرض له أي مشكلة، ولا أي خطر في الجنة، هذا هو الفوز العظيم، والنجاة.

أما الفريق الثاني من بني الإنسان، فذكره بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾، أي: كتاب أعماله.

﴿وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾، يعطى كتابه بشماله، وتلوى يده إلى وراء ظهره.

﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا ۝١١﴾، أي: هلاكًا، وخسارًا، بخلاف المؤمن الذي انقلب أهله مسرورًا.

﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾، أي: نارًا مستعرة، لا خلاص له منها، وذلك بسبب كتابه السيئ الذي أخذه بشماله من وراء ظهره.

والسبب في هذا الموقف المخزي: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾، كان في الدنيا مسرورًا بما هو فيه من المأكل، والمشرب، وإعطاء النفس ما تشتهي، غافلًا عن مستقبله، وعن هذا اليوم، ولا يتصور هذا اليوم، أو لا يأتي له على باله، وإنما هو مشغول بدنياه فقط، ومسرورٌ بما هو عليه من ملذات الدنيا، ومتاعها، وشهواتها، ولا يعمل لآخرته، فهذا هو مآله يوم القيامة.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤﴾، أي: ظن أن لن يرجع إلى الله، وسيظل يتلذذ بشهوات الدنيا المحرمة، والحور هو: الرجوع، من حار، أي: رجع[1]؛

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٢/ ١١٧)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٤٥٨)، ولسان العرب (٤/ ٢١٧)، وتاج العروس (١١/ ٩٩).

ولهذا جاء في الحديث: «**اللَّهُـمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ**»(١).

فالْكَوْر هو: التمام، وَالْحَوْر هو: النقص، والرجوع، فهو ﷺ يستعيذ بالله سبحانه وتعالى من النقص بعد التمام، ومن الضلال بعد الهداية.

قال عز وجل: ﴿بَلَىٰٓ﴾، أي: سيحور، وسيرجع إلى الله سبحانه وتعالى خلاف ظنه، وتوقعه، ويجازى بعمله.

﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾، فربه الذي خلقه، وأمره، ونهاه، وأنعم عليه، وأمهله كان بصيرًا بأعماله، وتصرفاته في هذه الدنيا، فليفعل ما يشاء، فلن يفوت على الله عز وجل، ولن ينسى ما عمله، بل يحصى عليه، ولن يسوي بين المحسن، والمسيء.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، أي: أقسم بالشفق، والله سبحانه وتعالى يقسم بما شاء من خلقه، ولا يقسم إلا بشيء فيه عبرة، وله أهمية؛ لأجل أن يلفت الأنظار إليه، أما المخلوق، فلا يقسم إلا بالله(٢).

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٣٤٣٩)، والنسائي (٨٧٥٠)، وأحمد في المسند (٣٧٦/٣٤) من حديث عبد الله بن سرجس رضي الله عنه.

(٢) كما جاء الأمر بذلك عن النبي ﷺ ومنها:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، وَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**». أخرجه البخاري (٧٤٠١) واللفظ له، ومسلم (١٦٤٦).

وعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ: «**أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**».

=

﴿بِٱلشَّفَقِ﴾، وهو: الحمرة التي تكون بعد مغيب الشمس في الأفق، فإذا غربت الشمس في المغرب بقى بعدها حمرة من إشعاعها، تستمر إلى دخول وقت العشاء، فيدخل وقت العتمة، وهذا من آيات الله ﷻ.

﴿وَٱلَّيۡلِ﴾، أي: وأقسم بالليل، لأن الليل من آيات الله ﷻ.

﴿وَمَا وَسَقَ﴾، أي: ما جمع؛ لأن في الليل تجتمع فيه الدواب المنبثة في النهار تجتمع في أوكارها، وجحورها التي تأوي إليها.

﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾، أي: أقسم بالقمر، ﴿إِذَا ٱتَّسَقَ﴾، أي: تكامل جرمه ليلة البدر في ليلة الرابع عشر، والخامس عشر، وصار جميلًا، ومنيرًا، تام النور، والإضاءة للأرض، والسماء، وهذا من آيات الله.

والمقسم عليه قوله ﷻ: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾، أي: أيها الناس.

﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، أي: لتصيرن إلى حال بعد حال.

وقيل: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، معناه أن هذا الإنسان يتنقل في حياته، فكان جنينًا في بطن أمه، ثم وُلِد، ثم رضيعًا، ثم صار طفلًا، ثم بلغ التمييز، ثم بلغ الحلم، ثم بلغ أشده، ثم شاخ، وهرم، ثم مات، ودفن، ثم يبعث، فهذه أحوال عديدة تمر على هذا الإنسان.

وقُرِئَ «لَتَرْكَبَنَّ طبقًا عن طبق»(١): والمخاطب هو الرسول ﷺ، وهذا ليلة

= أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي واللفظ له (١٥٣٥)، وأحمد في المسند (٩/ ٤٢٣).

(١) قرأ بها: عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم، وأبو العالية، ومسروق، =

المعراج حيث رفع ﷺ إلى السموات، ومر بسماء إلى سماء إلى أن وصل إلى السماء السابعة.

ومع هذا، فالإنسان لا يزال غافلًا، قال ﷻ: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، ما دامت هذه أحوالهم، ويشاهدون هذا الشيء، ويعرفونه، ما لهم لا يؤمنون بالله ﷻ، ورسله، ويعملون لآخرتهم، ما الذي منعهم؟

الذي منعهم هو: الكسل، وعدم الإيمان، واليقين والانشغال بالملذات والملهيات، فليس لهذا الإنسان عذر لترك الإيمان بعد أن بيَّن الله ﷻ له هذه الأمور الهائلة في هذه السورة، وفي غيرها.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾، هذا القرآن العظيم الذي فيه العبر، والعظات، وفيه العجائب، وهو كلام رب العالمين ﷻ، أبلغ الكلام وأصدقه، وأحسنه، وأحلاه، إذا قُرِئَ لا يخضعون لأوامره، ونواهيه، ولا يستجيبون له، ولا يصلون، ولا يسجدون تعظيمًا لله؛ كما في قوله ﷻ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات: ٤٨].

وهذه الآية من الآيات التي يشرع السجود عند قراءتها.

فهم يتعجبون من أسلوبه، ومضامينه التي احتوى عليها، وهذا القرآن لا ينتهي عجبه أبدًا، فمهما تأملت فيه، فإنك لن تصل إلى نهاية، وكلٌ يفهم من هذا القرآن بقدر ما أعطاه الله ﷻ من الفهم، فالناس فيه بين مقل،

= وأبو وائل، ومجاهد، والنخعي، والشعبي، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، بفتح الباء والتاء. انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٣٢٢)، وزاد المسير (٤/ ٤٢١)، وتفسير القرطبي (١٩/ ٢٧٨).

ومستكثر لمن تدبر هذا القرآن، ولكن مع هذا لا يلتفتون إليه.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾، بهذا القرآن، فالكفار يقولون: إن هذا أساطير الأولين، وأنه ليس بكلام الله ﷻ، والجهمية، والمعتزلة، يقولون: إن الله ﷻ لا يتكلم، وهذا كلام محمد ﷺ، أو كلام جبريل ﵇ خلقه الله فيهما.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، بما يضمرون في صدورهم من الشك، والريب، والكفر.

ثم بين ﷻ عاقبتهم، فقال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: هذه نتيجة عملهم وموقفهم من القرآن.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾، أي: أخبرهم بخبر يظهر أثره السيئ على بشرتهم، وعلى جلودهم، فالخبر السار يظهر على بشرة الإنسان بالسرور، والانبساط، والخبر السيئ يظهر على بشرة الإنسان بالسواد، والانقباض، وهذا واضح أن الإنسان يظهر على بشرته آثار السرور، أو آثار الضد، والحزن، والخوف.

﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، ليس عذابًا عاديًا، بل أليمًا مؤلمًا، لا يعلم ألمه إلا الله، والسبب: ما مر من ذكر أحوالهم مع الرسول ﷺ، ومع القرآن، بل مع الرسل، ومع الكتب، فهذا نتيجته أنهم يبشرون بعذاب أليم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، هذا استثناء منقطع بمعنى «لكن»؛ لأن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه.

أي: لكن ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، آمنوا بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، بجوارحهم، وقلوبهم، وألسنتهم، فهم آمنوا بقلوبهم، وصدقوا، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وأفعالهم.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾، أجرٌ لا يعمله إلا الله ﷻ، ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، المنَّ يطلق، ويراد به القطع، أي: غير مقطوع، بل هو مستمر، ومتواصل، بخلاف الدنيا فإن الإنسان قد يعطى شيئًا لذيذًا، وسارًا، لكنه ينقطع، أما أهل الجنة فإن نعيمهم، وسرورهم لا ينقطع، والسبب: أنهم آمنوا، وعملوا الصالحات، أما الفريق الأول، فقد كفروا، وعملوا السيئات.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس السابع والتسعون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ
﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾
وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ
جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ
ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾
فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ
مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ١ - ١٤].

هذه السورة العظيمة فيها تسلية للرسول ﷺ، وللمؤمنين فيما أصابهم من أذى الكفار، والمشركين، فقد بيَّن الله ﷻ أن لهم سلفًا من المؤمنين في الأمم السابقة، قد جرى عليهم من المحن، والتعذيب مثلما جرى لهؤلاء، فليصبروا، وستأتي العاقبة للمتقين، ثم إن الله ﷻ ذكر كفار قريش بحالة الأمم الكافرة التي عصت رسلها، مثل فرعون، وثمود، وماذا حصل لهم.

قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، هذا قسم من الله ﷻ بالسماء، وهو ﷻ يقسم بما شاء من خلقه، وقد أقسم بالسماء؛ لما فيها من العبر، ولما فيها من القوة.

﴿ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾، البُرُوج واحدها: بُرْج، وهي بُروجِ الفلك، وأكثر قول أهل العلم على أن المراد بها: منازل الشمس، والقمر، وهي: البروج الاثنا عشر التي تقطعها الشمس في السنة مرة، تنزل فيها برجًا برجًا حتى تستكمل السنة، والقمر يقطع هذه البروج في شهر واحد، وهذه البروج هي: الحَمَل، والثَّور، والجَوْزاء، والسَّرَطان، والأسد، والسُّنْبُلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَدْي، والدلو، والحوت، وقد أوجز الناظم تلك الأبراج في قوله:

حَمَلَ الثَّوْرُ جَوْزَةَ السَّرطَانِ وَرَعَى اللَّيْثُ سُنْبُلَ الميزَانِ
ورمت عَقْرَبٌ بِقَوْسٍ جَدْيًا نَزَحَ الدَّلْوُ بِرْكَةَ الحِيتَانِ

وقيل: البروج هي النجوم، وسميت بروجًا؛ لأمرين:

أولًا: أن فيها حراسة من الشياطين، فهي مثل الحصون التي تكون في الأرض، قال ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ۝٦١﴾ [الفرقان: ٦١].

ثانيًا: أنها سميت بروجًا؛ لما فيها من الزينة، فهي تزين السماء، فهذه البروج فيها حراسة، وفيها جمال للسماء، فهي مأخوذة من التبرج، وهو: التزين.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾، هذا قسم آخر، أقسم الله ﷻ باليوم الموعود، وهو: يوم القيامة؛ لأنه موعود به، فقد وعد الله ﷻ به عباده.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾، الشاهد: يوم الجمعة، يشهده للمسلم بما يفعلونه فيه من صلاة الجمعة، ومن الخير، والأعمال الصالحة، والمشهود: يوم عرفة؛ لأنه يشهده المسلمون من أقطار الأرض، وقيل غير ذلك من الأقوال في الشاهد، والمشهود.

فهذه أقسام ثلاثة، وجواب القسم فيها، هو قوله ﷻ: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾.

ومعنى «قُتِلَ»، أي: لُعِنَ؛ لأن الله ﷻ لعنهم، والأخدود هو: الحفر في الأرض، وأصحاب الأخدود هم الذين حفروه، وأضرموا فيه النيران، وجاءوا بالمؤمنين يريدون منهم أن يرتدوا عن دينهم، فلما أبوا أحرقوهم في هذا الأخدود، وهم جالسون يشاهدونهم، وهم يحترقون.

وقد اختلف العلماء أين كان أصحاب الأخدود؟، قيل: إنهم من بني إسرائيل، وقيل: إنهم من أهل اليمن، وكان هناك ملك كافر جبار، فأراد أن يصرف المؤمنين عن دينهم، فلما أبوا حفر لهم أخدودًا ممتدًا في الأرض، وأضرم فيه النيران العظيمة، وألقاهم فيها، فاحترقوا فيها.

عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ،

فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟ قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا، إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا

بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِم الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِم السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣).

قال ﷻ: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾، أي: الحطب؛ لأنهم أوقدوها بحطب عظيم.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾، أي: الملك الجبار، وقومه جالسون على هذه النيران، ينظرون إلى المؤمنين، وهم يحترقون، ويسخرون منهم.

ثم بين السبب الذي حملهم على تعذيب المؤمنين، فقال ﷻ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾، أي: ما نقموا منهم شيئًا يعابون به إلا إيمانهم بالله سبحانه وتعالى ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، أي: القوي الغالب الذي لا يُغلب سبحانه وتعالى، وفي هذا وعيد لهم من الله سبحانه وتعالى، أنهم لن يفوتوا على الله، ولن يعجزوه سبحانه وتعالى في أن ينتقم لعباده المؤمنين منهم.

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾، المحمود على كل حال، فما يجري من شيء في هذا الكون من خير، أو شر، إلا ويحمد عليه؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الشر لذاته، وإنما خلقه، وأوجده لحكمة، وهي: الابتلاء، والامتحان به، فهو سبحانه وتعالى يحمد على كل حال، على أقداره، وعلى شرعه، وعلى جميع أفعاله سبحانه وتعالى، فليس هناك شيء في أفعاله لا يحمد عليه.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فكلهم خلقه، وعبيده، ومنهم هؤلاء الكفرة، والجبابرة، فلن يخرجوا عن ملك الله سبحانه وتعالى، وقبضته.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾، أي: مطلع، فهو يشاهد ما فعله هؤلاء، الكفار بالمؤمنين، فيجزي بالجنة، ويجازي الكفار بالعقاب.

ثم إن الله سبحانه وتعالى توعد هؤلاء الجبابرة، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: عذبوهم، فالفتنة هي: الاختبار، فهؤلاء الجبارة اختبروا

المؤمنين هل يرجعون عن دينهم، أم لا؟ ولم يرجعوا، بل صبروا، فالمؤمن سيمتحن، وسيبتلى، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، فإن صبر على إيمانه، فإنه صادق، وإن ارتد عن دينه، فإنه لم يصدق في إيمانه، فالله ﷻ يجري الامتحان، والابتلاء؛ من أجل أن يتميز الصادق عن الكاذب، ولأجل أن يصبر المؤمن فيثاب، ويتطاول الكافر، فيعذبه الله ﷻ، فليس هناك شيء في الكون يجري عبثًا، ولا يذهب سدى، ولا يفوت على الله ﷻ، مهما تمادى الكفار، وبغوا، وطغوا، فإن أعمالهم محفوظة، ومرصودة، وسيقفون عليها، ويجازون بها فلا يظنون أنهم قد نجوا بأفعالهم السيئة من قبضة الله.

بعض الناس ممن ينظرون إلى حال الكفار، والمسلمين في هذه الأيام يتساءلون، ويقولون: إن الكفار يفعلون أفعالهم السيئة، والمعاصي، ويطغون، ويتجبرون، ولا يعاقبون، والمؤمنون مضطهدون، ومستضعفون في مشارق الأرض، ومغاربها، وبالرغم من هذا لا يحصل للمؤمنين فرج.

أن النقمة لو أن هذه النقمة لو عجلت لهم في الدنيا، لكان هذا أهون عليهم، لكنها تؤجل لهم إلى يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم: ٤٢]، فهم إن أُمْهِلُوا في هذه الدنيا، فإن جزاءهم ينتظرهم في الآخرة، والمؤمن لا يضيع عمله، وصبره، وثباته على دينه؛ لأنه سيلقى هذا عند الله ﷻ، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠].

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وهم: أصحاب الأخدود، وذكر الله ﷻ المؤمنات؛ لأن معهم نساء مؤمنات، ومن جملتهن: امرأة معها صبي، فلما وصلت إلى النار كأنها تقهقرت، فقال لها الصبي الذي تحمله: «**يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ**»، فكان أحد المتكلمين في المهد كما في الحديث.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾، عرض الله ﷻ عليهم التوبة، مع قبيح فعلهم، وشناعتها، ولو أنهم تابوا لتاب الله ﷻ عليهم، فالله ﷻ يعرض التوبة عليهم، وعلى غيرهم من كل من أساء، وفعل السيئات، فإذا تاب فإن الله ﷻ يتوب عليه، مهما كان ذنبه.

قال الحسن البصري رحمه الله: «**انظروا إلى هذا الكرم، والجود، قتلوا أولياءه، وهو يدعوهم إلى التوبة، والرحمة**»[1].

ولهذا قال: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾، أي: إذا لم يتوبوا، فلهم عذاب جهنم، وهو أشد من نار الأخدود؛ لأن نار الأخدود ساعة، ثم تنقضي، أما نار جهنم يوم القيامة -والعياذ بالله- فإنها لا تنطفئ، كما أن حرَّها أشد من حرِّ نار الدنيا التي عذبوا بها أولياءه، فلا يظنون أنهم متروكون بلا حساب، أو جزاء.

وفي الآية: دليل على أن من تاب قبل الموت، تاب الله ﷻ عليه.

وفيها: أنه لا يجوز الحكم على المعين بالنار، واستحقاقه لعذاب الله

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٨٦).

حتمًا؛ لأنه لا يدرى ماذا يختم له، فربما يتوب إلى الله ﷻ قبل الموت، وأما جنس الكفار فإنهم في النار قطعًا.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾؛ لإحراقهم المؤمنين بالنار.

وقد روي: أن النار ارتفعت إليهم من الأخدود، فأحرقتهم، والحريق، وجهنم اسمان من أسماء جهنم -والعياذ بالله-، فالنار دركات، بعضها تحت بعض.

ثم ذكر اللَّه ما أعدَّ للمؤمنين الذين حُرِّقُوا، وعُذِّبُوا، وصبروا على دينهم من الثواب، والجزاء العظيم، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾، تأمل الفرق بين الفريقين، فالكفار قال ﷻ في حقهم: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾، وهؤلاء المؤمنون ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾، أي: يكونون في جنات النعيم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾، هذا الثواب الذي يناله المؤمنون، لما آمنوا، وصدقوا باللَّه ربًّا واحدًا لا شريك له، وبالرسل، واليوم الآخر، والملائكة والكتب الإلهية، وعملوا صالح الأعمال باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، ومنهم الذين صبروا على المحنة كنار الأخدود، وثبتوا على دينهم، ولم يرتدوا، فقد فازوا عقب الامتحان، فليس هناك فوز إلا بعد ابتلاء، وامتحان، فالمؤمنون قد فازوا، وأما الكفار -أصحاب الأخدود- فقد خابوا، وخسروا.

ثم قال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾، البطش هو: العقوبة، والأخذ بقوة، ﴿لَشَدِيدٌ﴾، لا يعلم شدته إلا الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ

﴿ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: ١٠٢].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣﴾، يبدأ الخلق أولًا، ثم يميتهم، ثم يعيدهم ﷻ في الآخرة أحياء.

قال ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ﴾، كثير المغفرة لمن تاب، واستغفر، فالله ﷻ غفور، يغفر ذنب من تاب إليه، وخضع له، مهما كان الذنب كبيرًا، ومع مغفرته، فهو: ﴿ٱلۡوَدُودُ﴾ الذي يحب التائبين.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»**(١).

فالله ﷻ أشد فرحًا من هذا الرجل في راحلته، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ﴾، العرش في الأصل: السرير الذي يجلس عليه الملك والله ﷻ له عرش فوق مخلوقاته، وهو أعظم مخلوقات الله، وهو ﷻ مستوٍ على هذا العرش، استواء يليق بجلاله ﷻ، قال ﷻ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ٥﴾ [طه: ٥]، في سبعة مواضع من كتابه، أي: علا، وارتفع، وقد وصف هذا العرش بأنه مجيد، وأنه كريم.

---

(١) أخرجه مسلم (٧).

قُرِئَ «الْمَجِيدُ»، بالضم على أنه صفة للرب ﷻ، ومن أسماء الله ﷻ: المجيد.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، أي: لا يعجزه شيء، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فمهما أراد فعله لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل؛ لعظمته، وقهره، وحكمته، وعدله، فكل ما أراده الله ﷻ فإنه يفعله، بخلاف المخلوق، وقد يريد شيئًا، ولكنه يعجز عن فعله.

ثم قال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ مسليًا له، وللمؤمنين الذين آذاهُمْ الكفار من قريش في مكة، ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾، أي: قد جاءك خبر هؤلاء فيما أنزل الله ﷻ في القرآن، وما أحلَّ الله بهم من البأس، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد؟، فلا يظن هؤلاء الكفار أن الله يتركهم وإن أمهلهم.

والجنود هم: ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، وهو: رأس الطغاة، الكفرة، فأغرقه الله في اليم، وأغرق قومه عن آخرهم، ولم تنفعهم قوتهم، وجبروتهم.

﴿وَثَمُودَ﴾، قوم نبي الله صالح ﵇، أهل الحِجْر، في وادي القرى، فقد كانوا في بلاد طيبة، وفيها زروع، ونخيل، وكانوا أقوياء ينحتون من الجبال بيوتًا، لا تزال باقية إلى الآن، وشاهدة عليهم، قال ﷻ: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النمل: ٥٢]، فبيوت قوم ثمود أبقاها الله ﷻ؛ عبرة للمعتبرين، ينظر إليها المسلم، ويبكي، وأما الذي ينظر إليها، ويعجب بها، ويقول: إنها تدل على حضارة، وتقدم، فهذا غافل عن الله ﷻ، ولا يتدبر، فالذي يبكي، ويخاف أن يصيبه مثل ما أصابهم معتبر، وأما الذي

يدخلها معجبًا، ومتفاخرًا بها، ويقول: هذه مفخرة، وحضارة يحتفظ بها، وهذا رقي، وتقدم، فهذا مغرور لم يستفد شيئًا من رؤيتها.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لاَ تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلاَءِ الْمُعَذَّبِينَ» -يَعْنِي أَصْحَابَ ثَمُودَ-: «إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ»(١).

ثم قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾، يكذبون ما جاءت به الرسل من الوعيد، والتخويف بالله تبارك وتعالى، فهم في شك، وريب، وكفر، وعناد، ولا تزيدهم الآيات إلا عتوًا، ونفورًا.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾، أي: الله أماهم محيط بهم، وهو قادر عليهم، قاهر لا يفوتونه، ولا يعجزونه.

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ﴾، أي: ما أتاك الله تبارك وتعالى يا محمد، فهو كلام الله تبارك وتعالى، وفي هذا مدح للقرآن، وأنه كريم شريف كثير الخير، وليس كما زعم المشركون أنه شعر، وكهانة.

ثم قال: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾، أي: مكتوب في اللوح تعظيمًا، وحفظًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف: ٤]، فهو محفوظ، ولا يعبث به عابث، وهذا يدل على جلالة القرآن، وجزالته، ورفعة قدره عند الله تبارك وتعالى، قال عز وجل: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فلا أحد يعبث فيه، أو يزيد، أو ينقص، فالقرآن محفوظ بحفظ الله تبارك وتعالى من التبديل، والتغيير، والتحريف.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠٢، ٤٣٣)، واللفظ له، ومسلم (٣٨).

ومن حفظ الله سبحانه وتعالى له: أنه مكتوب في اللوح المحفوظ.

من الشياطين، والعابثين الذي كتب الله سبحانه وتعالى فيه مقادير الخلائق، وما يجري في هذا الكون.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الثامن والتسعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ
۝٤ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ
عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١
وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ
كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ۝١٧﴾ [الطارق: ١ - ١٧].

يبيِّن الله ﷻ في هذه السورة العظيمة أحوال الإنسان من حيث نشأته، وإعادته بعد الموت، فقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾، أقسم ﷻ بشيئين: أقسم بالسماء، وأقسم بالطارق؛ لأن الواو هي واو القسم، وهو ﷻ يقسم بما شاء من خلقه، ولا يقسم إلا بشيء فيه عبرة، وفيه أسرار عظيمة، وأما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله ﷻ.

عَنْ ابنِ عُمَرَ ﵄، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي رَكْبٍ، وَعُمَرُ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَا إِنَّ اللهَ ﷻ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٨، ٦٦٤٦، ٦٦٤٧)، ومسلم (١، ٣)، واللفظ له.

وعَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ: «أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[١].

ففي هذه الآية أقسم ﷻ بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾، والمراد: السماء المبنية؛ لأن فيها عجائب، ومنافع للناس، وهي: سقف الأرض، فالأرض فراش للناس والسماء بناء، فهم ينتفعون بما في الأرض، وينتفعون بما في السماء، وهذا من نعم الله ﷻ.

﴿وَٱلطَّارِقِ﴾، الأصل: أن الطارق هو: الذي يأتي بالليل، ونهى رسول الله ﷺ عن أن يطرق الرجل أهله بالليل[٢]، بأن يأتي إليهم من سفر ليلًا، وهم لا يدرون، ولا يتهيئون لقدومه، فالطارق هو: القادم بالليل؛ ولهذا استعاذ النبي ﷺ من طوارق الليل، والنهار، إلا طارقًا يطرق بخير[٣]، والمراد به هنا: ما فسره الله به في قوله: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾، ففسر الطارق بأنه النجم الثاقب.

وسمى بالثاقب؛ لأنه يثقب الظلام بنوره، ولأنه يضرب الجن، والشياطين

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي، واللفظ له (١٥٣٥)، وأحمد في المسند (٩/ ٤٢٣).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٨٠١)، ومسلم (١٨٤)، واللفظ له، من حديث جابرٍ رضي الله عنه، قَالَ: **«نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيْلًا يَتَخَوَّنُهُمْ، أَوْ يَلْتَمِسُ عَثَرَاتِهِمْ»**.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند (٢٤/ ٢٠٠)، وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٦٤)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٩٧)، واللفظ له من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ طَوَارِقِ هَذَا اللَّيْلِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ»**.

فيحرقهم، ويطردهم عن السماء، فلا يسترقون السمع.

وجواب القسم هو قوله ﷻ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾: وفي قراءة أخرى: «إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لمَا»[1] بدون تشديد، فتكون اللام لام القسم، و«ما» صلة للتوكيد، والأصل: «إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لعَلَيْهَا حَافِظٌ»، فجيء بـ«ما» للتوكيد.

أما التشديد: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا﴾، فـ«إِنْ» مخففة من الثقيلة، وأصلها «إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ»، فخففت، وصارت «إِنَّ كُلُّ»، ولما خففت أهملت من العمل، فدخلت اللام على جوابها؛ ولهذا يقول ابن مالك في الألفية:

وَخُفِّفَتْ إِنَّ فَقَلَّ الْعَمَلُ ... وَتَلْزَمُ اللَّامُ إِذَا مَا تُهْمَلُ[2]

وفيه وجه آخر: أن تكون «إِنْ» نافية، و«﴿لَمَّا﴾» بمعنى «إلا»: أي ليس هناك نفس إلا عليها حافظ.

﴿نَفْسٌ﴾، أي: نفس من بني آدم، ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ من الملائكة، وقيل: هو الحافظ الذي يحفظها من الشرور، فالإنسان معه ملائكة يحفظونه من الشرور؛ كما قال ﷻ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وكذلك عليه حافظ لأعماله، يحصيها عليه، ويكتبها، فالإنسان ليس بمهمل؛ لأن عليه مسئولية، وهو محاسب عن تصرفاته، فالله ﷻ وكل به الحفظة يحفظونه في نفسه من العدوان، ويحفظون أعماله، ويحصونها عليه، فإذا أراد الله ﷻ مصيبة لهذا الإنسان تخلى

---

(١) انظر: زاد المسير (٢/ ٤٠٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٠٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٣٥٣)، وزاد المسير (٢/ ٤٠٤)، وتفسير القرطبي (٩/ ١٠٦).

عنه الملائكة الحفظة الذين يحفظونه من المضار، وذلك بأمر الله ﷻ.

ثم إنه ﷻ لما بيَّن عنايته بهذا الإنسان، وحفظه، وحفظ أعماله، لفت نظر الإنسان إلى أصله، من أين جاء؟ ومن أين وجد؟ وإلى أين ينتهي؟ فلفته إلى مبدأه، ومعاده، وأكثر الناس غافلون عن هذا، فإنه يأكل، ويشرب، ويسرح ويمرح، ويلهو، وهو غافل عن هذا، قال ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يظن أنه مهمل.

قال ﷻ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، أي: كل إنسان، ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾، من أي شيء خُلِق؟ فالإنسان مخلوق، وموجود بعد أن لم يكن، فمن أي مادة خُلِق هذا الإنسان؟ أي: من أي شيء خلقه الله ﷻ، وما هو أصله؟ هذا الإنسان الذي يفسق، ويطغى، ويظلم، ويتجبر، ولا يتذكر أصله، ولا يتفكر من أين وجد، حتى يعرف قدر نفسه، ويعرف ضعفه؟.

فهو ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾، أي: من المَنِيِّ، وهذا في بني آدم، أما آدم عليه السلام فإنه خُلِق من تراب، وذريته خُلِقت من ماء دافق، يدفق بقوة.

ثم بين ﷻ من أين هذا المَنِيِّ الدافق.

فقال ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾، هذا الماء يخرج من بين صلب الرجل، وترائب المرأة، وترائب المرأة هي: عظام صدرها، فهذا الماء يتكون من ماءين: ماء الرجل، وماء المرأة، قال ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: مختلطة من الماءين: ماء الرجل، وماء المرأة، ثم يتحول هذا الماء إلى علقة، أي: دم أربعين يومًا، ثم يتحول هذا الدم إلى مضغة، وهي: قطعة اللحم، وهذا المضغة تُصور بإذن الله، ويتبيَّن

عليها خلق هذا الإنسان، وتخطيط هذا الإنسان، ثم أنه في الأربعين الرابعة تُنفخ فيه الروح، فيتحرك، ثم بعد ذلك تضعه أمه جنينًا، فهذه هي أطوار الإنسان؛ كما في حديث ابن مسعود ﵁، قال: «**حدثنا رسول الله ﷺ، وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُون عَلَقَة مِثْل ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُون مُضْغَة مِثْل ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَر بِأَرْبَعِ كَلِمَات: بِكَتْبِ رِزْقه وَعُمُره وَعَمَله وَشَقِيّ أَوْ سَعِيد**»(١). كل هذا، وهو في بطن أمه، ثم يعيش في هذه الحياة ما كتب الله له من الأجل، ثم يموت، ثم يبعث بعد الموت، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾، أي: قادر على إعادته بعد الموت؛ لأن الذي قدر على البداية، قادر على الإعادة من باب أولى، وقد استبعد الكفار هذا البعث، والنشور؛ كما قال ﷻ عنهم أن قالوا: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨ - ٧٩]، فالذي قدر على البداية قادر على الإعادة من باب أولى.

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، واللفظ له، ومسلم (١).

فهذا برهان قاطع، يقصم ظهور المعطلة، وليسوا هم الخالقين، ولا خلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا غيره.

وقيل: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ﴾، أي: على رد المَنِيِّ إلى مخرجه لقادر، فهو قادر أن يرد المَنِيِّ إلى الصلب، والترائب.

ويكون هذا، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿يَوْمَ تُبْلَى﴾، أي: تُختبر ﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾، جمع سريرة، وهي ما يكون في نفس الإنسان، وقلبه، وصدره، من النيات، والمقاصد، والعزائم، سواء كانت سيئة، أو حسنة، لا تخفى على الله ﷻ، فالناس لا يعلمون ما في قلبك، ولا ما في نفسك، بل الله ﷻ يعلم هذا، ويظهر ما في الصدور يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: ١٠]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [آل عمران: ٢٩].

ثم بين الله ﷻ كيف يكون حال الإنسان في ذاك الوقت، فقال ﷻ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾، ليس له في ذاك الوقت من قوة تدفع في نفسه، ولا ناصر من غيره.

ثم أقسم الله ﷻ قسمًا آخر، فقال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾، نوع من أنواع السماء، وهي السماء ﴿ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾، أي: المطر الذي ينزل من السحاب، فالسحاب يسمى سماء؛ لأن كل ما علا، وارتفع يسمى سماء: سماء مبنية، أو فضاء.

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ التي إذا نزل عليها المطر تصدعت

بالنبات، فهذا النبات تتصدع عنه الأرض؛ لأن الأرض مملوءة بالبذور، فإذا نزل عليها المطر نبتت هذه البذور، وخرجت، وكذلك الأرض مملوءة بالأموات، فإذا جاء البعث خرجوا من قبورهم، مثلما يخرج النبات من الأرض، فالحب ميت مدفون في الأرض، فإذا أحس بالمطر اهتز، ثم أخرج العروق إلى أسفل، والأوراق، والأغصان إلى أعلى، وأحياه الله ﷻ بعد موته، كذلك الإنسان المنغمر في الأرض، إذا صار ترابًا، وقد ورد أنه ينزل على الأرض مطر لمدة أربعين يومًا، ثم تنبت الأجسام من الأرض، مثلما ينبت النبات من الأرض.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ قَالَ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً قَالَ: أَبَيْتُ قَالَ: ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلاَّ يَبْلَى، إِلاَّ عَظْمًا وَاحِدًا، وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

يفنى كل الإنسان إلا عَجْبُ الذَّنَبِ، وهي: حبة صغيرة، ومنها يُرَكبُ الإنسان، مثل البذور.

والمقسم عليه هو: قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾، أي: إن هذا القرآن، أو هذا الكلام الذي ذكره الله ﷻ في هذه السورة، وهذه الأخبار التي ذكرها الله ﷻ إنها لقول فصل، أي: يفصل بين الحق، والباطل، وبين الصدق، والكذب، وبين الجد، والهزل.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥، ٤٨١٤)، واللفظ له، ومسلم (١٤١).

ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾، الهزل: ضد الجد، فالقرآن ما فيه هزل، ولا مزح بل كله جد، وقولٌ فصل، ولا يتطرق إليه خلل، ولا نقص، قال ﷻ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وليس قصصًا، أو تمثيليات، أو روايات كما يسمونها -الآن-.

ثم بيَّن الله ﷻ حالة الكفار مع هذا الرسول ﷺ، ومع هذا القرآن، قال ﷻ ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: الكفار، ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾، للرسول ﷺ، ويحتالون؛ ليهلكوه ويبطلوا قوله.

والكيد هو: العمل الخفي الذي لا يُدرى عنه، فهم يعملون أعمالًا، يخططون تخطيطات سرية؛ للفتك بالرسول، فهم يكيدون لهذا الرسول ﷺ، وهذا القرآن، ﴿كَيْدًا﴾، لا يُدرى عنه، بل إنهم ينفقون أموالهم؛ لرد هذا القرآن، وصد الإسلام، وهناك دول كافرة تكيد للمسلمين بصنوف الكيد، ويتمثل هذا الآن في المنظمات السرية من ماسونية، وغيرها من سائر المنظمات السرية التي تكيد للإسلام، والمسلمين، ولكن الإسلام محفوظ.

قال النبي ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**».

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

ثم قال ﷻ: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾، أي: فالله ﷻ يكيد، وهذا من باب الجزاء، والمقابلة، فالله ﷻ يكيد لمن ظلم، واعتدى على الناس، فالله ﷻ يدبر له التدابير الخفية التي لايدري عنها حتى تقع به، وتنزل عليه، أما هم فإنهم يكيدون كيدًا، لكنهم يعجزون عن تنفيذه، والله ﷻ لا يعجزه

شيء، فهم يسرون أسرارًا، ومخططات خفية، والله ﷻ يدبر لهم تدبيرًا خفيًا، لا يعلمون به؛ جزاءً لهم، فهذا من باب الجزاء، وهو عدلٌ منه ﷻ يحمد عليه، وأما كيدهم فإنه ظلم وجور.

ثم قال: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: لا تعجل عليهم، واتركهم يعلمون ما يشاءون، فليسوا بمهملين، ولن ينجوا أبدًا، لكن قد يتأخر عذابهم؛ لحكمة من الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٣].

فلا تستغرب أن الله ﷻ لم يعاجلهم بالعقوبة؛ لأن الله ﷻ يدخر لهم عقوبة أشد، ثم أكد الله ﷻ ذلك، فقال سبحانه: ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾، أي: قليلًا، ليس بعيدًا، بل أمهلهم قليلًا، وسيحلّ بهم ما توعدناهم به، وسيلقون جزاءهم في الدنيا، وفي الآخرة، فلن يضيع كيدهم أبدًا، ولن ينسى كيدهم، فهو محصى، ومحاط به، وسيلقونه.

هذا، والله أعلم، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس التاسع والتسعون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ
ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا
يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا
ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ
۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ
هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾ [الأعلى: ١ - ١٩].

هذه سورة عظيمة، كان رسول الله ﷺ يقرأ بها في صلاة الجمعة هي وسورة الغاشية، وكان يقرأ بهما في صلاة العيد(١)، وكان يقرأ بها في شفع

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (١١٢٢)، واللفظ له، والنسائي (١٥٦٨)، وابن ماجه (١٢٨١) من حديث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْعِيدَيْنِ، وَيَوْمِ الْجُمُعَةِ: بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾»، قَالَ: «وَرُبَّمَا اجْتَمَعَا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ، فَقَرَأَ بِهِمَا».
وأخرج ابن ماجه (١١٢٠)، واللفظ له، وأحمد في المسند (٣٣/ ٣٢٥) من حديث أَبِي عِنَبَةَ الْخَوْلَانِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «كَانَ يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾».

الوتر، مع «قل يا أيها الكافرون»، وسورة الإخلاص[(١)]؛ وذلك لعظم هذه السور، وللتذكير بها.

وهذه السورة مكية، نزلت على رسول الله ﷺ وهو في مكة، وهو قول الأكثر، وبعضهم يرى أنها مدنية.

قال ﷻ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، هذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى بالتسبيح، والتسبيح هو: التنزيه، أي: نزه جميع أسماء ربك سبحانه وتعالى، فالله جل جلاله له أسماء كثيرة، لا يعلمها إلا هو، وكلها تدل على الكمال، والعظمة، ومن تنزيهها: صيانتها عن التعطيل، والتمثيل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ»[(٢)].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝٨﴾ [طه: ٨]، فأسماء الله سبحانه وتعالى كلها حسنى، بمعنى: أنها تتضمن معاني جليلة، وليست مجرد أسماء بدون معنى، فكل اسم منها يدل على صفة من صفات الله، فالسميع: يدل على السمع، والبصير: يدل على البصر، والعليم: يدل على العلم،

(١) كما في الحديث الذي أخرجه النسائي (١٧٣١)، واللفظ له، وأحمد في المسند (٢٤/ ٧٢)، والطبراني في الأوسط (٢/ ١٨٥) من حديث ابنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبْزَى عَنْ أَبِيهِ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الْوِتْرِ بِسَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى، وَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ».

(٢) أخرجه مسلم (٦).

والحكيم: يدل على الحكمة، والغفور: يدل على المغفرة، وهكذا، كل اسم يتضمن صفة من صفات الله ﷻ.

وقيل: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، أي: سبِّح ربك، ونزهه، فيراد بالاسم المسمى[1]، ولا تنافي بين القولين؛ لأن من سبَّح الله ﷻ فقد سبَّح أسماءه، وصفاته، ومن سبَّح الأسماء، فقد سبَّح الله، وسبَّح المسمى.

﴿ٱلْأَعْلَى﴾، صفة للرب، وجائز أن تكون صفة للاسم، فهي إما صفة لربك، وإما صفة لاسم ربك، ولا تنافي بين الوجهين؛ لأن العلو لله ﷻ بمعانيه كلها، من علو الذات فوق مخلوقاته، وعلو القدر، وعلو القهر، كلها ثابتة لله ﷻ، ولأسمائه، وصفاته، والعلو صفة ذاتية، والاستواء على العرش صفة فعلية.

ثم وصفه ﷻ وصفًا آخر جليلًا عظيمًا، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾، فلا أحد يخلق غير الله ﷻ، فهو المتفرد بالخلق، والإيجاد، فقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، أي: أوجد الأشياء من عدم، ﴿فَسَوَّىٰ﴾، عدَّل المخلوقات ووازنها، وجعل كل شيء فيها سويًا في خلقته، وأعضائه، وجسمه، فجعله متوازنًا متعادلًا، لا نقص فيه.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، أي: أنه ﷻ قدَّر الأشياء كلها، فكل شيء بمقدار، لا يزيد، ولا ينقص عن مقداره، قال ﷻ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال ﷻ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، فالله ﷻ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٣٦٧)، وزاد المسير (٤/ ٤٣١)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ١٤).

قدَّر الأشياء بمقاديرها، وأحجامها، ووزنها، لاتفاوت في ذلك؛ لأنها صنعة حكيم عليم سبحانه وتعالى.

﴿فَهَدَىٰ﴾، أي: دَّل كل مخلوق إلى أداء مصالحه، ومنافعه دون أن يعلم، بل إنه بفطرته يستدل على مصالحه، ومنافعه، فتجد المولود سواء كان إنسانًا، أو حيوانًا، أول ما يبحث، يبحث عن الثدي؛ لأن الله سبحانه وتعالى هداه إلى ذلك، أي: دَّله هداية دلالة، وإرشاد، دون أن يعلمه أحد، فالمولود بمجرد أن يخرج إلى الدنيا يبحث عن ثدي أمه، وكذلك دَّل الذكور على الإناث، فذكور الأغنام تذهب إلى إناثها، وذكور الخيل، وذكور الحمير، كل شيء يذهب إلى جنسه، وإلى إناثه، ولا أحد يعلمها، ويدربها على ذلك، هذا كله بهداية الله لها، قال موسى وهارون لما سألهما فرعون: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٤٩-٥٠]، هدى كل شيء إلى مصالحه، ومنافعه، وما يبقي عليه حياته.

وهذا دليل على قدرته سبحانه وتعالى، وعلمه، وإحاطته، وإتقانه للمخلوقات، قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، قال عز وجل: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وهذا من الآيات الدالة على قدرة الله سبحانه وتعالى، وربوبيته، وإلهيته، ووجوب عبادته، وشكره سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾، أي: النباتات، فالمراعي أخرجها الله من الأرض، فالأرض تكون يابسة، ثم إذا أنزل الله سبحانه وتعالى عليها المطر، اهتزت، وربَت، وأنبتت فيها من كل زوج بهيج، فالذي أخرج هذه المراعي على اختلاف أنواعها، وروائحها، وطعامها، ومنافعها، ومناظرها، هو: الخلاق العليم سبحانه وتعالى.

ثم قال سبحانه: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً﴾، فيعود بعد نضرته، وبهاءه، وجماله، فيكون غُثاءً، أي: يابسًا، بعد رطوبته، ونضارته، وحسنه، وجماله.

﴿أَحْوَىٰ﴾، أي: أسود، فبعد أن كان أخضر، وفيه نضارة، فإنه يصبح غُثاءً أسود.

ولما ذكر الله ﷻ هذه الآيات، قال لرسوله ﷺ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾؛ لأن الرسول ﷺ كان أُميًا، لا يقرأ، ولا يكتب، ، فلما أراد الله ﷻ أن يبعثه أرسل إليه جبريل عليه السلام، على صورة رجل، وهو ﷺ في غار حراء يتعبد، فقال له: «اقْرَأْ»، فأجابه ﷺ: «ما أنا بقارئ»، لا أعرف، القراءة والكتابة، قال له: «اقْرَأْ»، فقال: «ما أنا بقارئ»، يخبر جبريل عليه السلام بأنه لا يحسن القراءة، ولم يكن يعرف جبريل عليه السلام، ويعتقد أنه إنسان عادي، فغطه عليه السلام ثم أرسله، ثم قال له: «اقْرَأْ»، قال: «ما أنا بقارئ»، ثم غطه الثالثة، ثم أرسله، وقال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١ - ٥]، فعند ذلك حفظها رسول الله ﷺ[1].

هذا مبدأ إقرائه ﷺ، ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ - ٥]، فهذه الآيات أول ما قرأه رسول الله ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، ثم تتابع عليه الوحي.

وكان ﷺ عند مجيء جبريل عليه السلام له بالوحي، يهتم في حفظه، ويخاف من ضياعه، فتكفل الله ﷻ له، فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾﴾، تكفل الله ﷻ

---

(١) أخرجه البخاري (٣، ٤٩٥٣، ٦٩٨٢)، ومسلم (٢٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

له أنه لا ينساه، وهذا تطمين لرسول الله ﷺ، كما في قوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾، أي: قرأه جبريل عليه السلام، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، ما نُقْرِئُك إياه.

ثم قال ﷻ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾، إلا ما شاء الله أن يُنسيك إياه، وهو: المنسوخ، قال ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ لأن الله سبحانه وتعالى ينسخ ما شاء من القرآن، ومن التشريع على حسب مصالح العباد.

﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، الجهر، وهو: ما تجهرون، وترفعون به أصواتكم، وما تخفونه في أنفسكم، ولا تتكلمون به، فهو سبحانه وتعالى يعلم ما في صدروكم، وما في قلوبكم، وما تهمون به، وإن أخفيتموه، وكتمتموه، فإن الله يعلمه سبحانه وتعالى، فهو سبحانه وتعالى يستوي عنده الجهر، والخفاء، ويستوي عنده السر، وأخفى من السر، فلا يخفى عليه شيء سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾، أي: ما يُجهر به، ﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾، أي: ما لا يُجهر به، فالإنسان يكتم أشياء لا يتكلم بها مع الناس، ولكنها لا تخفى على الله سبحانه وتعالى.

فعلى المسلم أن يصلح ظاهره، وباطنه مع الله سبحانه وتعالى، ومع عباد الله؛ لأن الله جل جلاله يعلم ما تسرون، وما تعلنون.

ثم إن الله سبحانه وتعالى وعد رسوله ﷺ، فقال ﷻ: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾، أي: الشريعة السهلة، والتي لا حرج فيها، فهذه الشريعة -ولله الحمد- ميسَّرة، ليس فيها حرج، قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ﴾ [الحج: ٧٨]، فإذا

شق شيء من الأوامر، أو النواهي فهناك الرخص الشرعية التي رخص الله ﷻ بها لعباده حسب أحوالهم، قال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَيَسِّرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ، وَالرَّوْحَةِ، وَشَيْءٍ مِنْ الدَّلْجَةِ»**(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: **«مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا»**(٢).

فالدين مبني على اليسر، والسهولة، ورفع الحرج -ولله الحمد-، بخلاف الأمم السابقة، فإن الله ﷻ قد عاقبها بكفرها، وشدد عليها، وحرم عليها أشياء ليست محرمة في الأصل؛ عقوبة لها، وأما هذه الأمة -ولله الحمد-، فإن الله ﷻ رفع عنها الإصر، والأغلال، وسهل، ويسر عليها أمور دينها، قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، فهذا من تيسير الله ﷻ.

ثم أمر الله ﷻ نبيه ﷺ أن يُذكر الناس بما علمه الله ﷻ بالدعوة، وهكذا العالم إذا علمه الله ﷻ، فإنه ينبغي عليه أن يعلم الناس، وأن لا يقتصر على نفسه، قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ﴾: ذَكِّر الناس بربهم، ذَكِّرهم بالوعد، والوعيد، ذَكِّرهم بالآخرة، ذَكِّرهم بالموت، والبعث، والنشور، والحساب، وبالجنة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩، ٦٤٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٢٦، ٣٥٦٠)، واللفظ له، ومسلم (٧٧).

والنار، وهذا أمرٌ من الله ﷻ بالتذكير، وهو أمرٌ للأمة.

﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، هذا على قولين:

القول الأول: إنه إذا لم تنفع الذكرى، فلا تُذَكّر؛ لأنه لا فائدة منها، وذلك إذا تعامى الكفار، والأشقياء، وصموا آذانهم، وامتنعوا من القبول، فلا فائدة فيهم، فالواعظ، والمُذكِّر، إنما يُذَكِّر إذا كانت هناك فائدة للذكرى أما القوم المعرضون الذين لا يقبلون، ويكابرون، فهؤلاء حسابهم على الله ﷻ.

القول الثاني: أنه لا تخلو الذكرى من مستمع، وقابل لها، وإن كثر الإعراض، فإنه يوجد في الناس من يقبل الذكرى؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠﴾، وهذا المعنى الثاني هو الراجح، أن الذكرى لا تعدم من يقبلها؛ لقوله ﷻ: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ١٠﴾، أي: الذي يخشى الله ﷻ، وقد قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»(١).

فعليك أن تُذَكِّر، ولو لم ينتفع بتذكِّيرك إلا القليل، ولو كان فردًا واحدًا.

قال ﷻ: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ١١﴾، أي: أنه لا يتجنَّب الذكرى إلا الذي اشتدت شقاوته، ولكن هذا لا يهمنا، بل يهمنا من ينتفع بها، ومن يقبل، ولو كان قليلًا، أما هؤلاء فنحن قد أقمنا الحجة عليهم، وأمرهم إلى الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥﴾ [الحجر: ٩٥]، فأنت قد أديت ما عليك، وحسابهم على الله ﷻ، وأنت لا تملك هداية القلوب، إنما يملكها

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩، ٣٧٠١، ٤٢١٠)، واللفظ له، ومسلم (٣٤).

الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]، فهداية التذكِّير مطلوبة للجميع، وأما هداية التوفيق والقبول، فهذه لا يملكها إلا الله ﷻ، فالهداية هدايتان: هداية تعليم، وتذكير، ودعوة، وهداية توفيق، وانتفاع، وهذه لا يقدر عليها إلا الله ﷻ.

ثم بين ﷻ ماذا تكون عاقبة المعرض، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وعاقبته ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، هي: نار جهنم، وهي أكبر من نار الدنيا.

وبين ﷻ حاله في النار، فقال ﷻ: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، لا يموت فيستريح، ولا يحيا فيها حياة مريحة -أيضًا-، بل يكون بين الحياة، والموت، فهو لا يحيى حياة لذيذة، ولا يموت ميتة مريحة، بل هي حياة شقاء، وعذاب، الموت خيرٌ منها؛ ولهذا يقول أهل النار: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، يطلبون من الله ﷻ أن يقضي عليهم بالموت، فيتمنون الموت، ولا يحصل لهم -والعياذ بالله-، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: ٧٧-٧٨]، هذه عقوبة، وعاقبة من لا يقبل التذكِّير، ويقبل الدعوة إلى الله ﷻ، أو يصغي إلى كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ الذي فيه خيره، وهدايته، ونفعه، وسعادته، بل إنه يعرض عنها.

ولما ذكر الله ﷻ عقوبة هؤلاء، ذكر جزاء أهل الإيمان، فقال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق، ﴿أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، والفلاح هو: الفوز، والنجاة، والسعادة، ويكون لـ ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾، أي: طهر نفسه من الكفر، والشرك، والمعاصي، والذنوب، وطهر نفسه بالطاعة، والإيمان، واتباع

رسول الله ﷺ، فالتزكية تكون للنفس؛ كما قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، وقد تكون التزكية للمال عن طريق زكاة المال، وسميت زكاة؛ لأنها تطهر المال، وتنميه، كذلك النفس، فإن الطاعة تزكيها بمعنى: أنها تطهرها من الدنس، ومن الذنوب، ومن المعاصي، والقاذروات.

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾: أي أنه يكثر من ذكر الله ﷻ، والثناء عليه، والتسبيح، والتكبير، والتهليل، وتلاوة القرآن، ﴿فَصَلَّىٰ﴾، أدى الصلاة المفروضة، ونص على الصلاة؛ لأنها مفتاح الخير، وعمود الإسلام، وهي مقدمة الأعمال الصالحة، وأول ما يحاسب عليه العبد من أعماله، فهذا هو الذي يفلح يوم القيامة، فأهل الإيمان -ولله الحمد- في فلاح، وطمأنينة نفوس، وانشراح صدور، ورضا عن الله ﷻ، وإن لم يكن عندهم أموال، فإنهم مسرورون بما فيه قلوبهم من الحياة الروحية، فتجدهم أنعم الناس في هذه الحياة الدنيا، وذلك بذكر الله ﷻ، وعبادته، فالمؤمن في هذه الدنيا في خير، وطمأنينة، وانشراح صدر، ورضا عن الله ﷻ، وطيب نفس، ولو لم يكن عنده مال، كما قال الشاعر(١):

لَعَمْرُكَ مَا السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ ... وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ
فَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا ... وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْأَتْقَى مَزِيدُ

ثم إنه ﷻ حذر مما يشغل عن ذلك، فقال ﷻ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ تقدمون الحياة الدنيا، ومكاسبها، وتجارتها، ورئاستها على الآخرة، فهناك من الناس من يهمه الدنيا، ولا يتذكر الآخرة، وإنما همه هذه الدنيا،

(١) ينسب البيت إلى الحطيئة العبسي. انظر: الحماسة البصرية (٢/ ٦٧).

والآخرة لا تأتي له على بال، أو تأتي على باله قليلًا ، أو بعض الأحيان، لكنه منهمك في هذه الدنيا التي سيفنى ، ويتركها ، أو أنها ستزول عنه ، ويبقى فقيرًا.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ﴾ ، من الدنيا ، ﴿وَأَبۡقَىٰٓ﴾ ، من الدنيا ، فاجتمع فيها هذان الوصفان : الخيرية ، والدوام ، أما الدنيا فإن كان فيها خير ، فإنها لا تبقى ، وقد لا يكون فيها خير ، وإنما هي شقاء.

ثم قال ﷻ : ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ ، أي : الذي ذكرناه في هذه السورة ، ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

والله تعالى أعلم ، وصلى الله ، وسلم على نبينا محمد ، وعلى آله ، وأصحابه أجمعين.

الدرس المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ
نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى
مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا
لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ
﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ
﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ
مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ١ - ٢٦].

هذه سورة عظيمة ثبت أن الرسول ﷺ كان يقرأ بها مع سورة الأعلى في صلاة الجمعة، والعيدين.

وقوله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، أي: قد أتاك؛ لأن ﴿هَلْ﴾، بمعنى قد، فهو استفهام للتقرير، والتحقيق، وليس استفهامًا للاستخبار.

﴿حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾، أي: خبر يوم القيامة، وما يكون فيه من الأهوال،

فالغاشية هي: القيامة، وسميت غاشية؛ لأنها تغشى الناس بهولها، والتغشية، هي: التغطية، أي: تغطي على الناس بهولها، وأحداثها.

ثم ذكر أحوال الناس عند الغاشية، وأنهم ينقسمون إلى قسمين: أشقياء، وسعداء.

فقال ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾، أي: ذليلة منكسرة.

﴿عَامِلَةٌ﴾، عاملة لكنها على غير هدى، وقيل: ﴿عَامِلَةٌ﴾، أي: أنها في العذاب في عمل شاق، أو أنها تعمل أعمالًا لا تنفعها إذا عاينت العذاب، فلا ينفع الإنسان التوبة، ولا العمل حينئذ؛ لأنه قد فات الأوان.

﴿نَّاصِبَةٌ﴾، تتعب من التعذيب، أو من العمل الذي لا يفيدها، من النصب، وهو: التعب، قال ﷻ: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨]، فأهل الجنة لا يمسهم فيها نصب، خلاف أهل النار، فإنهم دائمًا في نصب، وتعب، وعذاب.

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾، تصلى من الصلي، وهو: الشوي في الحميم -والعياذ بالله-، و﴿تَصْلَىٰ﴾، أي: تصلاها نار حامية، ويكفي أنها نار، فإذا وصفت بأنها حامية، فهذا أشد في الوعيد.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾، أي: حارة شديدة الحرارة؛ لأنه ليس لهم شراب إلا هذا، فيجبرون على أن يشربوا هذا الحميم لما يصيبهم من حرارة الظمأ.

أما طعامهم، فهو كما قال ﷻ: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾، الضريع: نوع من الشجر لا ينفع.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾، ليس فيه نفع فيسمن الأجسام، ولا يغني من جوع، أي: لا يدفع الضرر، ولا يجلب النفع، فيأكلونه، وكأنهم لا يأكلون، لكن يأكلونه للحاجة؛ لأنه ليس عندهم غيره، فهذا طعامهم، وشرابهم، وهذا عذابهم.

ثم ذكر الله ﷻ السعداء، فقال ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾، وهي جوه المتقين المؤمنين تكون ناعمة من النعيم، فليست كالحة، ولا شاحبة، وإنما هي وجوه ناعمة، كما قال ﷻ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، فهي ناعمة، أي: منعمة، وبشرتها ناعمة؛ لما تجده من النعيم، والسرور الذي يظهر على وجوههم.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾، لعملها الذي قدمته في الدنيا راضية عنه، إذا وجدت جزاءه، قال ﷻ: ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾ [البينة: ٨].

فدَلَّ هذا على أن العمل هو مناط الجزاء يوم القيامة، فإن كان خيرًا، فجزاءه خير، وإن كان شرًا فجزاءه شر، قال ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾ [يس: ٥٤].

فلا يتمنى أحد على الله ﷻ الأماني من غير عمل، أو يعتمد على شرفه، أو على نسبه، أو على ماله، أو سلطانه، فإن هذا كله لا ينفعه يوم القيامة، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩].

﴿لِّسَعْيِهَا﴾، الذي سعته في الدنيا من الأعمال الصالحة، فإنها ترضى يوم

القيامة إذا وجدت جزاءه عند الله سبحانه وتعالى، ويضاعفه الله عز وجل أضعافًا كثيرة من فضله، وإحسانه.

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾، يكفي أنها جنة، فكيف إذا كانت عالية الظل، والأنهار، والثمار.

﴿عَالِيَةٍ﴾، مرتفعة في عليين، والكفار في سجين -والعياذ بالله- في دركات جهنم، وهؤلاء في درجات الجنة، وفي المنازل العالية المرتفعة، وسقفها عرش الرحمن سبحانه وتعالى، فلا أرفع من هذا المكان.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾، لا تسمع في الجنة كلمة لاغية، لا فائدة فيها، أو كلمة فيها سبٌ، وشتم، وغيبة، ونميمة، فلا يوجد في الجنة شيء من هذا إنما في الجنة الكلام الطيب، لا يتشاتمون، ولا يتسابون، فهم إخوان، خلاف ما يكون في الدنيا من اللغو، والكلام البذيء وغير ذلك، أو الكلام الذي لا فائدة فيه، فكلام أهل الجنة كلام طيب، يستأنس بعضهم ببعض، ويسلم بعضهم على بعض، ويتجاذبون الكلام الطيب الذي يشرح الصدور، ويؤنس النفوس، فليس في الجنة لغو، قال عز وجل: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦﴾ [الواقعة: ٢٥- ٢٦].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢﴾، تجري في الجنة من غير أخاديد، ويشربون منها، ويستعملون مياهها طيبة، وهي -أيضًا- لا تنقطع، ولا تنضب، فهي جارية إلى الأبد، وهذا شراب الأبرار.

ثم ذكر الله عز وجل مجالسهم، فقال عز وجل: ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾، جمع: سرير، والسرير هو الذي يجلس عليه.

﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾، أي: مرتفعة في الجنة، ليست واطئة.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾، جمع: كوب، وهي: أواني الشراب.

﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾، ميسرة لهم.

﴿وَنَمَارِقُ﴾، جمع: نُمْرُقه، وهي: الوسائد.

﴿مَصْفُوفَةٌ﴾، أي: يرتاحون عليها.

﴿وَزَرَابِيُّ﴾، وهي: الفُرُش.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾، أي: ما فيها شح، ولا قلة، فهي مبثوثة لهم، وهذا جزاء السعداء يوم القيامة، والسبب في هذا: سعيهم الصالح في الدنيا، قال ﷻ: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾، ثم ذكره وفصله في هذه الآيات، ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

ثم إنه تبارك وتعالى نبه على شيء من آياته الكونية، والدالة على قدرته تبارك وتعالى، والتي هي بين أيدي العرب، وإلا فإن آيات الله ﷻ كثيرة، لا تحصى في الكون، لكن نبه على أشياء يعرفونها بين أيدي العرب المخاطبين.

قال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، فهي من آيات الله تبارك وتعالى: في خلقتها، وتركيبها، وقوتها، وصبرها، وما فيها من منافع الركوب، والحلب، والأوبار، والشعور، وما فيها من اللحوم التي يأكلون منها، وهي على ضخامتها، وقوتها مذللة لهم، فالطفل الصغير يتصرف في الجمل الكبير، قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ

لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

والأنعام تشمل: الإبل، والبقر، والغنم وذكر الإبل؛ لأنها أقوى الأنعام.

وأيضًا لأنها تناخ عند الحاجة إلى ركوبها، أو الحمل عليها، ولا تمتنع، بخلاف غيرها من الحيوانات، كالحمير، والبغال، فإنها لا تناخ، ولكن يحمل عليها، وهي واقفة، أما البعير، فإنه يبرك؛ لطلب صاحبه، فيحمل عليه، وهو بارك، ثم يقوم بالحمل، هذا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذا الحيوان.

وكذلك فالإبل فيها جمال، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٦ - ٧].

فالإبل فيها جمال، وفيها سرور للنفوس حين تنظر إليها، فإنك عندما تنظر إلى الإبل، وهي ترعى، أو تسير، فإنك تنبسط معها، وينشرح صدرك برؤيتها.

﴿وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾، كيف رفعت فوق الأرض بلا عمد، فالسماء سقف بلا عمد، وارتفاع السموات المبنية بعيد جدًا عن الأرض، فهذا من عجائب خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾، فقد جعل الله عَزَّ وَجَلَّ الجبال مثبتة للأرض عن الميلان، والاضطراب، فهي أوتاد للأرض؛ كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]. ثابتة لا تتحرك، والجبال فيها منافع من المعادن، والحجارة، والكهوف، ففيها منافع للناس لا تحصى.

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، أي: بسطت، ومدت للناس، ووسعت، قال ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾ [ق: ٧].

فالأرض فراش، وحرث للناس، يحرثونها بأصناف المزروعات، والأشجار، والفواكه، وفيها معادن متعددة: معادن سائلة، ومعادن جامدة؛ لمصالح الناس، تنبت النبات، والمراعي، فالأرض فيها عبر، قال ﷻ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠﴾ [الذاريات: ٢٠].

وهذه الأمور لم توجد بدون خالق، ومدبر، عكس ما يقول الكفرة، والملاحدة.

فهذه لها موجد، وخالق، وهو: الله ﷻ، فهي تدل على عظمة الله الذي خلقها، فهي آيات كونية فيها عبر، ومواعظ، ومنافع.

فالله ذكر السماء، والأرض، وهناك آيات أخرى، فهذه مخلوقات الله ﷻ في أرض، وسماء، وكواكب، وشمس، وقمر.

وأهل الطبيعة لا يوجد في اعتقادهم أن السماء مبنية، وما يقرون بهذا، ويقولون: المجموعة الشمسية، فالشمس هي المركز، والأفلاك، والنجوم تدور عليها، وهذا مخالف للقرآن؛ لأن الشمس كوكب من الكواكب التي تدور في أفلاكها حول الأرض.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، قد يورد بعض الناس إشكالًا على هذا، أو يقول: ثبت أن الأرض كروية الشكل، وأن الأفلاك تدور حول

الأرض، وهذا شيء مشاهد، ومعروف، وفي هذه الآية يقول: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

نقول: هذا لا يتنافى مع كونها كروية، والإنسان لا يشعر بكروية الأرض؛ لكبرها، وضخامتها.

ثم قال ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ﴾، هذا أمر من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ أن يذكر هؤلاء الكفرة، ويعظهم، وينصح لهم، ويبيِّن لهم ما يصلحهم، وما ينفعهم، ويبيِّن لهم ما هم قادمون عليه من الجزاء، والحساب، فهذه وظيفة الرسول ﷺ: أنه مبلغ عن الله سبحانه وتعالى، فمهمته التبليغ، قال ﷻ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢].

وأما هداية القلوب، فهي بيد الله سبحانه وتعالى؛ لأن القلوب ملكٌ لله، لا يسيطر عليها إلا الله، هو الذي يهديها، وهو الذي يضلها، وهو الذي يبصرها، وهو الذي يعميها؛ بسبب كسب أصحابها، وأما البلاغ، والبيان، فهذا على الرسول ﷺ؛ ولهذا قال الله سبحانه وتعالى له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

فالسيطرة عليهم لله، وأما التذكير، والبيان، والبلاغ، فهذا من وظيفة الرسول ﷺ، وقد بلغ البلاغ المبين، وترك أمته على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها[1]، وما قصر في شيء ﷺ.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه (٤٣)، واللفظ له، وأحمد في المسند (٢٨/ ٣٦٧)، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**».

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾، ﴿إِلَّآ﴾، بمعنى: لكن، فهو استثناء منقطع، ليس استثناء مما سبق، وإنما هو استئناف كلام، أي: لكن من تولى عن قبول النصيحة، والبلاغ، وكفر بالله ﷻ.

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾، وهو: عذاب النار؛ لأن العذاب في القبر هو: العذاب الأدنى، وأما العذاب الأكبر فهو في الآخرة.

قال ﷻ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، أي: في القبر، أو في الدنيا، ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾؛ بسبب أنه تولى، وكفر، وبسبب أنه لم يستمع إلى الرسول ﷺ، وكفر بالله ﷻ، فهو الذي سبب على نفسه الشقاء بما كسبت يداه.

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾، أي: رجوعهم إلينا يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾، كما قال تعالى فإنما عليك إلا البلاغ، وعلينا الحساب، فالحساب عند الله ﷻ، هو الذي يحاسب عباده المطيعين، والعاصين يوم القيامة، فيجزي المحسنين بإحسانهم، ويجزي المحسنين بإساءتهم، وهذا عدلٌ منه ﷻ، وفضل.

قال ﷻ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، فلا يعذب أحدًا بغير عمله، أو ذنبه، ولا ينعم أحدًا بغير عمله، لكنه ﷻ يزيد أهل الخير من فضله، ولا يزيد على أهل الشقاء شيئًا لم يعملوه، فهو ﷻ يعامل الكفرة بالعدل، فلا يعذبهم بشيء لم يعملوه، ويعامل أهل الإيمان بالفضل، بمعنى: أنه ﷻ يعطيهم أشياء مضاعفة من الجزاء، والنعيم؛ فضلًا منه ﷻ.

فهذه سورة عظيمة، تشتمل على مواعظ، وتذكير، وعلى بيان المآل، والمصير، فيجب على المسلم أن يتدبرها، ويتدبر غيرها من آيات القرآن، فكل كلام الله منه عبر، وكله أحكام، وكله أخبار صادقة، وكله حكم لمن تدبره، وكله هداية، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فالقرآن بشير للمؤمنين بالخير، ونذير للكافرين بالشر، وهذا القرآن الكريم كلام رب العالمين، قال ﷻ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

والله ﷻ أعلم، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الحادي بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ
لِّذِى حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى
ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى
ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ
لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ١ - ١٤].

افتتح الله ﷻ هذه السورة العظيمة بالأقسام المتكررة منه ﷻ، فأقسم بهذه الأشياء من آياته الكونية؛ لأنها تدل على عظمته، وقدرته، وحكمته، واستحقاقه للعبادة دون غيره، والله ﷻ يقسم بما شاء من خلقه، وأما المخلوق، فإنه لا يقسم إلا بالله ﷻ، ولا يقسم بالمخلوقات؛ لأن القسم بغير الله ﷻ شرك، وكفر.

عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ: «أَنَّ ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ

بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»(١).

فلا يأتي جاهل، أو متعالم، ويقول: إنه يجوز الحلف بغير الله ﷻ؛ لأن الله أقسم بمخلوقاته، فنقول: إن هذا لا يجوز لك؛ لأن المخلوق لا يقسم إلا بالخالق ﷻ، وأما الخالق فإنه ﷻ يقسم بالمخلوق؛ لحكمة عظيمة في ذلك، وأنت -أيها العبد- مطلوب منك الانقياد، والامتثال، وقد نهيت عن الحلف بغير الله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿وَٱلْفَجْرِ ①﴾، الواو: واو القسم، والفجر هو: أول النهار، وسمي بالفجر من الانفجار؛ لأنه ينفجر عن ظلمة الليل، وهو: بداية النهار، قال ﷻ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وهو انفراج الصباح، وعنده تجب صلاة الفجر، وتسمى: قرآن الفجر، قال ﷻ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: صلاة الفجر؛ لأنها تطول فيها القراءة، فسميت قرآنًا.

فأقسم الله بالفجر؛ لأن الفجر فيه عبرة، وعظة، وفيه دلالة على قدرة الله ﷻ؛ حيث إن الله ﷻ يجلي هذه الظلمة الحالكة بهذا الضياء الواضح، قال ﷻ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ②﴾، أشهر الأقوال فيها أنها عشر ذي الحجة، وقيل: أنها العشر الأواخر من رمضان، ولكن الراجح -والله أعلم- أنها عشر ذي الحجة، وهي عشر معظمة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي، واللفظ له (١٥٣٥)، وأحمد في المسند (٩/ ٤٢٣).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ ﷻ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ». يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا رَجُلًا خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ»(١).

فهي عشر معظمة، والعمل فيها له أهمية، وله مضاعفة، وهو أحب إلى الله من العمل في غيرها، والعمل فيها يكون بذكر الله سبحانه وتعالى، والتسبيح، والتكبير، فمن أول ما تدخل تلك العشر يبدأ المسلم في التكبير، قال ﷻ: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٨]، فالأيام المعلومات هي: الأيام العشر، ويذكر الله سبحانه وتعالى بالتسبيح، والتكبير، والتهليل، وكان السلف يفضلونها، فيخصونها بذلك، ويرفعون أصواتهم بالتكبير في البيوت، والشوارع، والمحلات، ومن الأعمال التي يستحب أداءها فيها: صيام عشر ذي الحجة؛ لأن الصيام من الأعمال الصالحة، فيدخل في الأعمال الصالحة المستحبة في هذه الأيام، وفيها: اليوم التاسع الذي هو يوم عرفة، ويستحب صيامه لغير الحاج.

سئل الرسول ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال ﷺ: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ»(٢).

وفيها: اليوم العاشر، وهو: يوم الحج الأكبر، وهو: عيد الأضحى، ففي هذه الأيام العشر خيرات كثيرة؛ لذلك أقسم الله سبحانه وتعالى بها؛ تنويهًا

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٣٨)، واللفظ له، وابن ماجه (١٧٢٧)، وأحمد في المسند (٣/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

لشأنها، وحتى يعرف العبد قدرها، فيستغلها لطاعة الله ﷻ.

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾، هذا هو القسم الثالث، والوتر هو: الفرد من العدد، كالواحد، والثلاثة، والخمسة، والسبعة، والتسعة، والشفع هو: الزوج من العدد، كالاثنين، والأربعة، والستة، والثمانية، والعشرة، فهو قسم بكل فرد، وكل زوج من أعداد المخلوقات.

والمراد بـ «الْوَتْرِ» -والله أعلم- هو: الله ﷻ؛ لأنه واحد أحد، فرد صمد، والمراد بـ «الشَّفْعِ»: المخلوقات، فكلها شفع، من ذكر، وأنثى، فكل المخلوقات شفع، كلها تتكون من ذكر، وأنثى، فهي شفع، وأما «الْوَتْرِ» الفرد هو الله ﷻ، وتقرأ «الْوَتْرِ» -بفتح الواو-، وتقرأ «الْوِتْرِ» - بكسر الواو-.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ، فَأَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ**»[1].

والوتر هو الركعة الواحدة، أو ثلاث ركعات، أو خمس، أو سبع، أو تسع، أو إحدى عشر، أو ثلاث عشر يوتر بها المسلم من الليل، وأقل الوتر ركعة واحدة، وأدنى الكمال ثلاث، أو أعلاه إحدى عشرة، يسلم من كل ركعتين.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى أُمَّتِي الْخَمْرَ**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١١٧٠)، واللفظ له، وأحمد في المسند (٢/ ١٧٤)، وأصله في البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٦).

وَالْمَيْسِرَ وَالْمِزْرَ وَالْكُوبَةَ وَالْقِنِّينَ وَزَادَنِي صَلاَةَ الْوِتْرِ»[(١)].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ۝٤﴾ هذا هو القسم الرابع، أقسم الله ﷻ بالليل، ففي الليل عبر، وآيات؛ حيث يغشى هذا الكون، فيظلم، ويمحو ضوء النهار، وفيه: راحة للناس، فينامون فيه، فلو أن الله ﷻ جعل الوقت كله نهارًا لتألم الناس، ولو أنه ﷻ جعل الوقت كله ليلًا لتألم الناس، ولكنه ﷻ جعل لهم الليل، والنهار، فالليل يسكنون فيه، والنهار ليبتغوا من فضله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ۝١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ۝١١﴾ [النبأ: ١٠-١١]، فالنهار معاش؛ من أجل ابتغاء الرزق، والعمل، وجعل الليل لباسًا، وسباتًا؛ للنوم، والراحة، قال ﷻ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ۝٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٧٢﴾ [القصص: ٧١-٧٢]، فهذا من آيات الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ﴾ [فصلت: ٣٧].

والليل موسم للقيام، والتهجد، والتلذذ بكلام الله ﷻ، فقد كان السلف يتلذذون بليالي الشتاء؛ لطولها، فيصلونها، ويتهجدون فيها، ويقرؤون فيها القرآن، فكانوا ينامون أول الليل، ثم يقومون آخره، وقيام الليل ألذ شيء عندهم، فالليل فيه منافع من أعظمها قيامه، والتهجد فيه.

﴿إِذَا يَسۡرِ﴾، أصله يسري بالياء، ثم خففت، فصارت «يَسْرِ»؛ لأجل مراعاة فواصل السور.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١١/ ١٠٥).

ويسري، أي: يمضي، وينتهي، فالليل لا يدوم، وإنما يسري، وينتهي، وهذا من آيات الله ﷻ، ومن نعمه ﷻ على عباده.

فهذه أقسام أربعة، أقسم الله ﷻ بها؛ لعظمها، وفوائدها، وينبغي التفكر فيها، حتى تعرف ما فيها من الأسرار الإلهية، ولا تمر بدون تأمل، أو تدبر.

من العادة في اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم: أن كل قسم له جواب، وفي هذه الآيات لم يُذكر الجواب واضحًا، وبعض العلماء يقول: إن جواب القسم هو نفس القسم، فالمقسمات هي الجواب، أي: أنها قسم، وجواب للقسم في الوقت ذاته، وهناك من يقول: إن جواب القسم في آخر السورة، وبعضهم يقول: إن جواب القسم في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾.

ثم قال ﷻ: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾، هل فيما ذُكِر في هذه الآيات التي أقسم الله ﷻ بها قسم لذي عقل، فالحجر هو: العقل؛ لأن العقل يتدبر هذه الأقسام، ويعتبر بها، وأما الذي ليس عنده عقله يتدبر به، ويفكر، فإنه لا ينتبه لها، لا ينتفع بعقله، ولا ينتفع بهذه الآيات، وسمي العقل حِجْرًا؛ لأنه يمنع صاحبه مما لا يليق؛ لأن الحِجْر في اللغة هو: المنع، قال ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]، وسمي عقلًا؛ لأنه يعقل صاحبه عن الأفعال، والأقوال، والتصرفات الشائنة، والتي لا فائدة فيها، أو فيها مضرة، فالعقل من أعظم نعم الله ﷻ على العباد، ومن أعظم آياته، والعقل هو الذي يميز بين الإنسان، والحيوان، اعتبروا هذه النعمة في الفُسّاق، والشواذ، والمنحرفين تعرفوا نعمة الله ﷻ عليكم بهذا العقل الذي

منعكم من الضلالات، والانحرافات، والأفكار الخبيثة، فالعقل من أعظم آيات الله ﷻ؛ ولهذا أمر الله بالمحافظة على العقل من المؤثرات، من المسكرات، فالذي يتعاطى المسكر، يجلد ثمانين جلدة، حتى يحمى ظهره من الْجَلْد، فيمتنع عن تعاطي المسكر، وهذا من مصلحته؛ ليعود إلى رشده، ويذوق عقوبة المعصية، ويعرف قيمة العقل، ويترك المسكر، وكذلك من باب أولى تعاطي المخدرات، وهي أشد من المخدرات؛ حيث تحول الإنسان إلى حيوان، بل أخس من الحيوان، وتقضي على حياته، ويصبح في حياته عالة على غيره؛ بسبب هذه المخدرات، وكذلك المفترات من الدخان والقات، فهذه من شأنها أن تؤثر على العقل، فهي تفتر الإنسان عن العمل، والنشاط، والجد، والاجتهاد؛ ولهذا جاء في الحديث عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ»[1]؛ لأن التفتّير يثبط عن العمل، والنشاط، كما أنه وسيلة إلى تعاطي المسكر، فالإنسان يتدرج من الدخان، إلى القات، إلى المسكرات، ثم إلى المخدرات.

فيجب على المسلم أن يحافظ على عقله الذي هو الميزة بينه، وبين الحيوانات، والذي به يعرف مصالحه، ويعرف مضاره، ويميز بين الضار، والنافع، ويميز به بين الطيب، والخبيث، والحسن، والقبيح، فالعقل له حرمة؛ ولذلك صارت المحافظة على الضرورات الخمس.

ثم ذكر الله ﷻ من لم ينتفعوا، ولم يهتدوا بعقولهم إلى الصواب، فذكر ﷻ عقوباتهم، وجعلهم مثلًا لغيرهم، فهم نموذج من المنحرفين

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٨٦)، وأحمد في المسند (٤٤/ ٢٤٦)، والطبراني في الكبير (٢٣/ ٣٣٧).

عن العقول، فعندهم عقول، لكنهم صرفوها إلى غير ما ينفعهم، صرفوها لمصالح الدنيا، وللملذات، والمشتهيات، مثلهم الآن دول الكفر التي تقدمت في الصناعة، والمخترعات، ولكنهم لم يلتفتوا إلى الآخرة، ولم ينتفعوا بعقولهم، فهم قد شغلوا عقولهم بشيء يفنى، ويسلب منهم، فليس هناك مانع من أن يصنعوا، ولا مانع من أن يخترعوا، ولكن لا يجوز أن يكون هذا هو شغلهم الشاغل في هذه الحياة الدنيا، قال ﷻ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم: ٧]، فالمسلم يجمع بين هذا، وهذا، فيعمل لدينه، ويعمل لدنياه، وآخرته، فلا يقال: إن الإنسان يترك الدنيا، ويتفرغ لعمل الآخرة فقط، أو يقال: إن الإنسان يتفرغ للدنيا، ويشتغل بها، ويترك الآخرة، لا. فهذا لم يأمر به الله ﷻ، بل على الإنسان أن يجمع بين مصالح دينه، ودنياه، هذا هو المطلوب.

النموذج الأول: قوم عاد، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾: عَاد: هي قبيلة جاءت بعد قوم نوح عليه السلام، ونبيهم هو: هود عليه السلام، ويسكنون في الجنوب الشرقي من جزيرة العرب، في بلاد الأحقاف، وهي بلاد زراعية، وبلاد طيبة التربة، والهواء، ففيها خيرات، وقد أعطاهم الله بلادًا طيبة، وأجسامًا قوية؛ ولهذا ذكرهم نبيهم هود عليه السلام، قال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، أي: سعة في الأجسام، وقوة عظيمة، فهم أقوى، وأطول بني آدم أجسامًا، حتى إنهم لما أنذرهم نبيهم هود عليه السلام طغوا، واستكبروا، وغرتهم قوتهم، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾، أي: ليس علينا خوف أبدًا؛ لأننا أقوياء، قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى

خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فأهلكهم الله بألطف شيء، وهو: الريح، قال ﷻ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٥-١٦]، جاءتهم الريح، فاقتلعتهم من الأرض، قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٨ - ٢٠]، تنزع الناس من الأرض -والعياذ بالله-، وترفعهم إلى الجو، ثم تنكسهم على رؤوسهم، وتدك أعناقهم.

وجاء ذكرهم في آيات أخرى، قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٦ - ٧]، تشبيههم بالنخل دليل على عظم أجسامهم، لكن ما نفعتهم قوتهم أمام بأس الله ﷻ، ولو استعملوا هذه القوة في طاعة الله ﷻ كما ذكرهم نبيهم هود عليه السلام لاستفادوا منها، ولكنهم طغوا بها، واغتروا بها.

قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ﴾، في قوله ﷻ: ﴿بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ﴾، نسبة إلى أبيهم «إِرَمَ»، أي: بنو إِرَمَ، وقيل: نسبة إلى البلد التي كانوا فيها، واسمها: إرَم.

﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾، أي: ذات قوة هائلة في أجسامهم، وثروتهم، وقيل: «ذَاتِ الْعِمَادِ»، أي: اسم البلد، فهي مبنية على عمد، ولكن الراجح -والله أعلم-: أن هذا وصف للأمة، وليس وصفًا للبلد، وأن المراد

بالعماد: القوة التي يعتمدون عليها، ويغترون بها.

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾، أي: لم يخلق مثل قوم عاد؛ ولذلك اغتروا، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ لأنه لم يخلق مثلهم في القوة، والعتاد، ولكن لم ينفعهم ذلك، بل صار ضررًا عليهم.

النموذج الثاني: قبيلة ثمود، وكانوا يسكنون في بلاد الحجر شمالي الحجاز، في وادي القرى، والتي تسمى مدائن صالح، وقد كانت بلادًا خصبة من النخيل، والزراعة، والقوة، قال ﷻ: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وكانوا مهرة في نحت الحجارة، يخلقونها، وينقشونها، ويجعلونها مساكن لهم، وهي باقية إلى الآن، قال ﷻ: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]، قال ﷻ: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ۝١٤٩﴾ [الشعراء: ١٤٩]، قال ﷻ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]، قال ﷻ: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: ٥٨]، وأبقاها الله ﷻ آية لمن يعتبر، والنظر فيها ليس للفخر، كما يقول أهل الجهالة بأن هذا تقدم، وحضارة، وينظرون فيها نظرة الفخر، والتعظيم، بل النظر فيها للاعتبار، والعظة، والتفكر.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «**لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالْحِجْرِ قَالَ: «لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ الَّذِي أَصَابَهُمْ». ثُمَّ قَنَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ، وَأَسْرَعَ السَّيْرَ حَتَّى أَجَازَ الْوَادِيَ**»(١).

(١) أخرجه البخاري (٤٧٠٢، ٤٣٣)، واللفظ له، مسلم (٣٨).

ومساكنهم عجيبة في صورها، ونقوشها، ونحتها، بالرغم من أنه لم يكن عندهم مثل الآلات الحديثة المتقدمة الموجودة الآن مما يدل على أن عندهم قوة، ومهارة، وثروة، ومع هذا لم تنفعهم، فقد كانوا يعبدون الأصنام، ولما جاءهم نبي الله صالح عليه السلام يدعوهم إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام كفروا به، وفي النهاية هددوه بالقتل، واقترحوا عليه أن يأتي لهم بمعجزة تدل على أنه رسول من عند الله سبحانه وتعالى، فجاءهم بالناقة، قال عز وجل: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

علم الله سبحانه وتعالى ما في طبع البشر من العناد، والاستبداد، والمطالبة بالدليل على صدق الدعوة، فأيّد رسله، وأنبياءه الكرام بالمعجزات؛ لتدلّ على صدقهم، والمعجزة: هي الأمر الخارق للعادة، والإمكانات البشرية المألوفة، ومن غرائب المعجزات: ناقة صالح، ولكنهم لم يعتبروا، ولم يؤمنوا بها؛ لأن ليس قصدهم الحق، والإيمان، بل قصدهم التعنت، والتحدي لنبي الله عليه السلام، قال عز وجل: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]. فأخرج الله سبحانه وتعالى لهم النّاقة، قال عز وجل: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٧-٢٨]، فاتركوها تأكل ما شاءت في أرض الله من المراعي، دون أن تتحملوا عبء مؤنتها، وإياكم أن تمسّوها بسوء من أي نوع كان، فيقع بكم عذاب عاجل، لا يتأخر عن إصابتكم.

وأقامت الناقة، وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يومًا، وتدعه لهم يومًا، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، فيملئون ما شاؤوا

من أوعيتهم، وأوانيهم، فلم يستمعوا لنصح نبي الله صالح عليه السلام، وكذّبوه، وعقروا النّاقة بتواطؤ مع أشقاهم وهو: قدار بن سالف.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥-١٥٧]، فكانت هذه عاقبتهم، ولم تنفعهم قوتهم لما لم يؤمنوا بالله تعالى.

وهذا كله تهديد لأمة محمد ﷺ الذين بعث فيهم، من كفار قريش، والمشركين في أنهم إذا لم يؤمنوا بالله تعالى فسوف يفعل بهم كما فعل بأولئك.

والنموذج الثالث: فرعون مصر، والمراد هنا: فرعون الذي في وقت موسى عليه السلام، والذي تجبر، وتكبر، وادعى الربوبية، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، حملته القوة، والكبر، والملك على الطغيان، والكفر، قال ﷻ: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾، الأوتاد، أي: الجنود، فله جنود هائلة، وسموا أوتادًا؛ لأنهم يثبتون الملك، مثلما تثبت الأوتاد البيت.

وقيل: ﴿ذِي الْأَوْتَادِ﴾؛ لكثرتهم حتى كانوا يسكنون الخيام، وبيوت الشعر التي تقوم على الأوتاد، والأعمدة، وهذا دليل على كثرة جنوده، فملأ أرضه بالجنود، ولكن ما أغناه هذا، ولا دافع عنه، فاعتبروا بهؤلاء يا من جاءكم هذا الرسول محمد ﷺ، وعاندتموه، وكفرتم به.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾﴾، أي: قوم عاد، وثمود، وفرعون، فقد طغوا في بلاد الله تعالى، والطغيان هو: الزيادة، والغلو، والجبروت، فطغوا على

ربهم ﷻ، فلم يعبدوه، وطغوا على العباد، وظلموهم، واستعبدوهم، وتعدوا عليهم.

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾، بالكفر، والمعاصي، والمخالفات؛ لأن البلاد، والأرض تفسد بالمعاصي، والكفر، والمخالفات، كما أن الأرض تصلح بعبادة الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، وإصلاحها كان ببعثة الرسل، وإنزال الكتب، والإفساد فيها يكون بالمعاصي، والكفر، والمخالفات، فالمعاصي والمخالفات فساد للأرض، قال ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

ثم بين الله كيف كانت ﷻ عاقبتهم فقال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾: فقوله ﷻ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ﴾، أي: أنزل الله ﷻ عليهم، ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾، والسوط هو: العصا الذي يضرب به، فضربهم الله بسوط العذاب وهذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فالعذاب أشد -والعياذ بالله-، والسبب: أنهم عصوا رسلهم، وكفروا بربهم ﷻ، وأفسدوا في البلاد بالمعاصي، والسيئات، والجبروت.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾، أي: أنه يرصد أعمال العباد، ويحصيها، ويجازيهم عليها، أو «﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾»، أي: على الطريق، فهو ﷻ أمامهم، لا يحيدون عنه، فهم سائرون إلى الله ﷻ، والله أمامهم، وعلى طريقهم، ولا يفرون، ولا يتخلصون منه ﷻ، وليس بغافل عما يعمل الظالمون، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ

فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]. فالله ﷻ يرى، ويعلم ما يعمله الناس من خير، أو شر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: **«يَسْمَع، وَيَرَى يَعْنِي يَرْصُد خَلْقه فِيمَا يَعْمَلُونَ، وَيُجَازِي كُلًّا بِسَعْيِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، وَسَيُعْرَضُ الْخَلَائِق كُلّهمْ عَلَيْهِ فَيَحْكُم فِيهِمْ بِعَدْلِهِ، وَيُقَابِل كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقّهُ، وَهُوَ الْمُنَزَّه عَنْ الظُّلْم، وَالْجَوْر»**.

هذا، وبالله التوفيق. وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

الدرس الثاني بعد المائة

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ
فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ
طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا
﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ
بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾
ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ١٥ - ٣٠].

ذكر الله سبحانه وتعالى أحوال الطغاة الذين اغتروا بقوتهم، وملكهم، فتكبروا على أنبياء الله سبحانه وتعالى، ورسله، وعتوا عن أمر ربهم؛ اغترارًا بما هم عليه من الجاه، والسلطان، والمال، وبيَّن الله سبحانه وتعالى ما أنزله بهم من العقوبات، والنكال، والدمار.

بيَّن الله سبحانه وتعالى حالة الإنسان، أي: جنس الإنسان، فقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾، فإذا أصابه خير، وغنى،

وثروة، فإنه يعتبر أن هذا إكرام له من الله ﷻ، وأن الله راض عنه، ولربما ينكر البعث، ويتمادى، ويقول: لو أنا هناك بعثًا، فسأجد عند الله أكثر من هذا، فهذا الإنسان يغتر بما يعطيه الله ﷻ في هذه الدنيا، ويستدرجه به، ويظن أن هذا من كرامته على الله ﷻ، ولا ينتبه إلى أن هذا اختبار، واستدراج له.

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾، وفي الجانب الآخر، إذا ابتلاه الله ﷻ، واختبره، وامتحنه، ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾، أي: ضيق رزقه عليه، ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، أي: أذلَّني بالفقر، فالإنسان يعتبر الكرامة، والإهانة في أمور الدنيا، إن أُعْطِيَ منها شيئًا اعتبره كرامة، وإكرامًا له، وإن لم يُعْطَ شيئًا اعتبر هذا إهانة له.

هذه هي حالة الإنسان، ولم يعلم بأن الله ﷻ يختبره؛ ليتبيَّن من يشكر عند النعمة، ومن يصبر عند الابتلاء، فهذه هي الحكمة فيما يجريه الله ﷻ من الغنى، والفقر، والسعة، والضيق؛ ليتبيَّن الشاكر عند النعمة، والصابر عند المحنة، ويتبيَّن من يعتبر النعمة كرامة له، والتضييق إهانة له، وهذا ميزان أكثر الناس: يعتبرون الكرامة، والإهانة في أمور الدنيا، ولا يعلمون أن هذا إنما ابتلاء، وامتحان من الله، وأن الله ﷻ قد يُنَعِّم أعداءه، قال ﷻ: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥ - ٥٦]، وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ۝٤٤﴾ [الأنعام: ٤٤].

وأما من ضيق الله ﷻ عليه في الرزق، فهذا ليس دليلًا على هوانه على

الله، فقد يضيق الله ﷻ على أوليائه في هذه الدنيا، ويحميهم من الغنى؛ لأجل أن يصبروا، ويعلموا أن هذا من الله ﷻ، ويرضوا عن الله ﷻ، ويعلموا أن الخير بيد الله ﷻ، فقد يزوي الله ﷻ الدنيا عن أوليائه، ويبسطها على أعدائه؛ لأن الدنيا فانية، على ما فيها من ضيق، وسعة، فإنها منتهية فانية، فهؤلاء لم يعلموا حكمة الله ﷻ في النعم، والشدائد، وجعلوا المقياس للكرامة، والإهانة هو أمور الدنيا، فالله ﷻ يعطي الدنيا لمن يحب، ومن لا يحب، وأما الدين فلا يعطيه إلا لمن يحب[1]، والفقر، وقلة ذات اليد ليست دليلًا على إهانة الله ﷻ للعبد، فقد يكون أراد الله ﷻ به خيرًا، فرب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره؛ كما في الحديث.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، عَنْ جِبْرِيلَ عليه السلام، عَنِ اللَّهِ ﷻ، قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ ﷻ: «وَإِنَّ مِنَ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلا الْغِنَى، وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلا الْفَقْرُ، وَلَوْ أَغْنَيْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلا الصِّحَةُ، وَلَوْ أَسْقَمْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، وَإِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يُصْلِحُ إِيمَانَهُ إِلا السَّقَمُ، وَلَوْ أَصْحَحْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ، إِنِّي أُدَبِّرُ أَمَرَ عِبَادِي بِعِلْمِي بِقُلُوبِهِمْ، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه ابن أبي شيبة في المسند (١/ ٢٣١)، واللفظ له، وأحمد في المسند (٦/ ١٨٩)، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ١٠٤)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلاقَكُمْ، كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ» الحديث.

فالله حكيم عليم سبحانه وتعالى، وكثير من الناس ينظرون إلى الكفار، وما هم فيه من أمور الدنيا، والتقدم الصناعي، والاختراعات، وما في بلادهم من الخيرات، والإنتاج، والأمطار الكثيرة، والأنهار، وغير ذلك، وينظرون إلى المسلمين، وما هم فيه، ويقاسونه من انحباس المطار، ومن القحط والفقر، فيظن، ويعتقد أن الكفار خير من المسلمين، ويظن أن الإسلام هو السبب في تأخر المسلمين، وأن ما يقع بالمسلمين إنما هو بسبب الإسلام، وأن الإسلام هو الذي أفقرهم، ويصرحون بهذا في كلماتهم، ومؤلفاتهم، ولا ينظرون إلى هذه الآيات الكريمات.

الرسول ﷺ أفضل الخلق، وكان أحيانًا لا يجد في بيته ما يأكل، فيصبح صائمًا(١)، وكان يربط الحجر على بطنه من الجوع(٢)، ولو أراد لجعلت جبال الدنيا له ذهبًا، ولكنه ﷺ آثر أن يشبع يومًا، ويجوع يومًا(٣)؛ لعلمه ما

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه النسائي (٢٣٣٠)، من حديث عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها قَالَتْ: «جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ طَعَامٍ؟» قُلْتُ: لَا، قَالَ: «إِذًا أَصُومُ»، قَالَتْ: وَدَخَلَ عَلَيَّ مَرَّةً أُخْرَى، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أُهْدِيَ لَنَا حَيْسٌ، فَقَالَ: «إِذًا أُفْطِرُ الْيَوْمَ وَقَدْ فَرَضْتُ الصَّوْمَ».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٦) من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، يَقُولُ: «جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ يُحَدِّثُهُمْ، وَقَدْ عَصَّبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ، قَالَ أُسَامَةُ: وَأَنَا أَشُكُّ عَلَى حَجَرٍ، فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ لِمَ عَصَّبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَطْنَهُ؟ فَقَالُوا: مِنَ الْجُوعِ» الحديث.

(٣) كما في الحديث الذي أخرجه البيهقي في الشعب (١٣/ ٤٣)، واللفظ له، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ١٣٣)، من حديث أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عز وجل أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، فَقُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا، فَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ، وَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَدَعَوْتُكَ».

في ذلك من الخير له، والقدوة الحسنة لأمته.

ولما بعثه ﷺ رسولًا إلى العالمين، قال الكفار: «ألم يجد الله إلا هذا اليتيم الفقير؟»، أي: أنهم يستبعدون تخصيصه ﷺ بإنزال القرآن عليه من بينهم قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، إما من مكة، وإما من الطائف، ويعنون: الوليد بن المغيرة من مكة، وعروة بن مسعود الثقفي من الطائف، وذلك لأنهم كانوا يزدرون بالرسول ﷺ؛ بغيًا، وحسدًا، وعنادًا، واستكبارًا.

قال ﷻ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، أي: ليس الأمر مردودًا إليهم، بل إلى الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبًا، ونفسًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلًا، فاختار محمدًا ﷺ؛ لأنه يعلم أنه أصلح البشرية لحمل هذه الرسالة العالمية، والله حكيم عليم سبحانه وتعالى.

وقد سأل اليهود النبي ﷺ أن يُنزِّل عليهم كتابًا من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة، قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

قال ابن جريج: «**سَأَلُوهُ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ صُحُفًا مِنَ اللَّهِ مَكْتُوبَةً إِلَى فُلَانِ**

وَفُلَان، وَفُلَان بِتَصْدِيقِهِ فِيمَا جاءَهُمْ بِهِ، وَهَذَا إِنَّمَا قَالُوهُ عَلَى سَبِيل التَّعَنُّت، وَالْعِنَاد، وَالْكُفْر، وَالْإِلْحَاد، كَمَا سَأَلَ كُفَّار قُرَيْش قَبْلهمْ نَظِير ذَلِك كَمَا هُوَ مَذْكُور فِي سُورَة سُبْحَان».

ففي قوله ﷻ: ﴿أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ﴾، أي: من ذهب، وأصله الزينة، فهم يريدون بيت الرسول ﷺ من ذهب، وفي قول الله ﷻ: ﴿أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥ﴾، أي: مكتوب فيه إلى كل واحد منهم صحيفة، هذا كتاب من الله لفلان، تصبح موضوعة عند رأسه، آمن، أسلم، ولا يأتيهم على لسان محمد ﷺ؛ لتعاظمهم في أنفسهم.

قال الله ﷻ للرسول ﷺ: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾، أي: سبحانه، وتعالى، وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه، وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله ﷻ، فهذه نظرة الكفار في كل مكان، وزمان، ينظرون بمقاييس الدنيا، وكذلك كل من تشبه بالكفار من ضعاف الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾، ﴿كَلَّاۖ﴾، نفي، أي: ليس الأمر كما زعمتم، أن الإكرام بالتنعيم، والإهانة بالتضييق على العبد، وتقليل رزقه، بل فالإكرام، والإهانة لا يدوران على المال، وسعة الرزق، والفقر، والغنى بتقديره ﷻ، فيوسع على الكافر، لا لكرامته، ويضيق على المؤمن،

لا لهوانه، إنما يكرم المرء بطاعته، ويهينه بمعصيته.

ثم ذكر الله ﷻ شأن العباد، فقال ﷻ: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾، فذكر أنهم يتكبرون على الضعفاء، والمساكين، وخصوصًا الأيتام الذين لا عائل لهم، وهم ضعفاء، ويحتاجون إلى لفتة نظر من المجتمع، فاليتيم أحوج ما يكون في تغذيته، وتربيته، وإعانته، واليتيم له حق الرحمة، والعطف، والكفالة، على أقاربه، وعلى المجتمع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**خَيْر بَيْت فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْت فِيهِ يَتِيم يُحْسَن إِلَيْهِ وَشَرّ بَيْت فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْت فِيهِ يَتِيم يُسَاء إِلَيْهِ -ثُمَّ قَالَ بِأُصْبُعِهِ- أَنَا وَكَافِل الْيَتِيم فِي الْجَنَّة هَكَذَا**»(١).

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى وَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا قَلِيلًا**»(٢). فكفالة اليتيم فيها أجر عظيم.

وقوله ﷻ: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧﴾، فيه أمر بالإكرام له، فاليتيم بحاجة إلى الإكرام، ورفع معنوياته، ولا يُمَنُّ عليه، أو يحتقر، ما قال الله ﷻ: «تتصدقون على اليتيم»، بل قال ﷻ: ﴿تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾، تُكْرِم اليتيم، وترفع من معنوياته، وكأنه من الأولادك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٩)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣٨٨) بلفظ: «إِنَّ أَحَبَّ الْبُيُوتِ إِلَى اللهِ، بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ مُكْرَمٌ».

(٢) أخرجه أبو داود (٥١٥٠)، وأحمد في المسند (٣٧/ ٤٧٦)، واللفظ له.

﴿وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨﴾، أي: لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء، والمساكين، ويحث بعضهم على بعض في ذلك، والمسكين هو: الفقير الذي لا شيء له يقوم بِأَوَدِهِ، وكفايته، أو عنده شيء قليل من المال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لَيْسَ الْمِسْكِينِ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِد غِنًى يُغْنِيه وَلَا يُفْطَن لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ»**(١).

فالمسكين له حق على الأغنياء، وعلى المجتمع أن يجبر نقصه، ويسد عوزه، وقد أوجب الله سبحانه وتعالى حقًا في أموال الأغنياء للفقراء، والمساكين، قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ - ٢٥].

وقوله: ﴿تَحَـٰٓضُّونَ﴾، أي: تتواصون بهم، وتحثون على الصدقة عليهم والإحسان إليهم، وأما الغفلة عنهم، وتركهم هذا مذموم، ويوجب العقوبة من الله سبحانه وتعالى.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩﴾، التراث هو: الميراث الذي يورث عن الميت، فيأكلون مال الميت، وربما يحرمون منه الصغار، والضعفاء، فإنهم كانوا لا يُورِثون النساء والصبيان، ويأكلون أنصباءهم، ويأكلون كل ما تركه المُورّث من المال، وجاء الإسلام بمنع هذا، فجعل للمرأة نصيبًا، وجعل للصبي الصغير نصيبًا من الميراث.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾، أي: حبًا كثيرًا مما زاد بعضهم فحشًا،

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١).

وهذا من طبيعة الإنسان، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، فالخير هو: المال، وحب المال غريزة في الإنسان، ولكن ينبغي ألا يحمله حب المال على أخذ غير حقه، ومنع الحق الذي أوجبه الله ﷻ فيه من الحقوق للفقراء، والمساكين، والأقارب، وأما الحب الطبيعي، فهذا لايلام عليه الإنسان، إذا لم يحمله على أخذ المال بغير الحق، أو بمنع الحقوق التي في ماله.

ثم ذكر الله ﷻ نهاية هذه الدنيا بما فيها، والانتقال إلى الدار الآخرة؛ من أجل أن يتذكر الناس هذه الأحوال، وألا يقعوا في هذه الصفات الذميمة، ويغفلوا عن الآخرة، وتلهيهم أموالهم عن الآخرة، كما هو عليه كثير من الناس حتى إنهم يسمعون الأذان، والمساجد مفتحة الأبواب، وقريبة منهم، ولا يذهبون إلى المساجد، ويقولون: بأن صلاة الجماعة سُنَّة، وليست بواجبة، وتسألهم عن الدليل، فيجيبون قال بهذا فلان، والمسألة فيها خلاف، كما يطالبون بعدم إغلاق المحلات في وقت الصلاة، وترك الذهاب إلى المسجد للصلاة، فهم يرون أن الدين على حسب أهوائهم، ولا حجة لهم إلا قال فلان، وقال فلان، ولا يأتون بدليل ثابت من الكتاب، والسُنَّة.

قال ﷻ: ﴿كَلَّآ﴾، حرف تنبيه، وزجر، فتنبهوا، فهو رد لانكبابهم على الدنيا، وجمعهم لها، ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾، زُلْزِلَتِ الأرض، وَسُوِّيَتْ الجبال، وصارت هباء منبثًا، وطارت في الجو؛ من شدة أهوال يوم القيامة.

﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾، ليس جبلًا واحدًا، بل كل جبال الأرض تُدَكّ،

يضرب بعضها ببعض، فتكون هباء منبثًا، يطير في الهواء، فتذكر هذا، فإن الهول شديد.

﴿دَكًّا دَكًّا﴾، أي: دكًا بعد دك، مرة بعد مرة، حتى صارت قاعًا واحدًا، قال ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾، جاء الله سبحانه وتعالى بذاته مجيئًا حقيقيًا يليق بجلاله سبحانه وتعالى، يأتي؛ لفصل القضاء بين عباده، وذلك حينما يحشر الناس، ويطول عليهم الحشر، والزحام، والعرق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «**أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، ثُمَّ قَالَ: أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يُجْمَعُ النَّاسُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ؛ فَيَقُولُ النَّاسُ أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام؛ فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي؛ اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ؛ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ**

لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي ﷻ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذهبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ يَا إِبْرَاهِيمُ! أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَه، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ؛ وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاثَ كَذَبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ الله بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسى؛ فَيَأْتُونَ عِيسى، فَيَقُولُونَ يَا عِيسى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ فَيَقُولُ عِيسى، إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي. اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ؛ فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟

فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ،

ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مَا بَيْنَ المِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»(١).

وهذه هي الشفاعة العظمى، والمقام المحمود الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ، قال ﷻ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، يحمده عليها الأولون، والآخرون، فيجيء الله ﷻ؛ للفصل بين عباده، وليس يأتي أمره -كما تقوله المؤولة-، أو تأتي ملائكته، فهذه كلها تأويلات باطلة، بل يأتي هو ﷻ بذاته؛ لفصل القضاء بين عباده، ولكنه إتيان ليس كإتيان المخلوقين، بل إنه إتيان يليق بجلال الله ﷻ، وهذا من صفات الأفعال لله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ۝٢٦﴾ [الفرقان: ٢٥ - ٢٦].

قال الله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة: ٢١٠]. فملائكة السموات يأتون معه ﷻ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: **«أَنَّ النَّاس إِذَا اهْتَمُّوا لِمَوْقِفِهِمْ فِي الْعَرَصَات تَشَفَّعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِالْأَنْبِيَاءِ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ آدم فَمَنْ بَعْده فَكُلّهم يَحِيد عَنْهَا حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى مُحَمَّد ﷺ فَإِذَا جَاءُوا إِلَيْهِ قَالَ: «أَنَا لَهَا أَنَا لَهَا». فَيَذْهَب فَيَسْجُد لِلَّهِ تَحت الْعَرْش، فَيَشْفَع عِنْد اللَّه فِي أَنْ يَأْتِي لِفَصْلِ الْقَضَاء بَيْن الْعِبَاد فَيُشَفِّعُهُ اللَّهُ، وَيَأْتِي فِي ظُلَلٍ مِنّ الْغَمَام بَعْد مَا تَنْشَقّ السَّمَاء الدُّنْيَا، وَيَنْزِل مَنْ فِيهَا مِنْ الْمَلَائِكَة ثُمَّ الثَّانِيَة ثُمَّ الثَّالِثَة إِلَى السَّابِعَة، وَيَنْزِل حَمَلَة**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠، ٤٧١٢)، واللفظ له، ومسلم (٣٢٧).

الْعَرْش وَالْكَرُوبِيُّونَ. قَالَ: وَيَنْزِل الْجَبَّار ﷻ فِي ظُلَل مِنْ الْغَمَام وَالْمَلَائِكَة وَلَهُمْ زَجَل فِي تَسْبِيحهمْ يَقُولُونَ: سُبْحَان ذِي الْمُلْك وَالْمَلَكُوت، سُبْحَان ذِي الْعِزَّة وَالْجَبَرُوت، سُبْحَان الْحَيّ الَّذِي لَا يَمُوت، سُبْحَان الَّذِي يُمِيت الْخَلَائِق وَلَا يَمُوت، سُبُّوح قُدُّوس رَبّ الْمَلَائِكَة وَالرُّوح، سُبُّوح قُدُّوس، سُبْحَان رَبّنَا الْأَعْلَى، سُبْحَان ذِي السُّلْطَان وَالْعَظَمَة، سُبْحَانه سُبْحَانه أَبَدًا أَبَدًا»(١).

فالله ﷻ موصوف بأنه يأتي، قال ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وموصوف كذلك بأنه يجيء كما في هذه الآية، قال ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾، فكل هذا سيحصل.

فيجيء الله ﷻ مجيئًا يليق بجلاله؛ لأجل فصل القضاء بين عباده، ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾، أي: وتأتي معه ملائكة السموات، ﴿صَفًّا صَفًّا﴾، كل أهل سماء مصطفين صفًا واحدًا، يحيطون بالخلق من جميع الجوانب، فأهل كل سماء إذا نزلوا يوم القيامة، كانوا صفًا على حده محيطين بالأرض، ومن فيها، فيكونون سبعة صفوف من الملائكة.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾، يُؤْتَى بها، تقودها الملائكة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يقودونها.

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بِجَهَنَّم يَوْمئِذٍ لَهَا

(١) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٤/ ٤٣٠).

سَبْعُونَ أَلْف زِمَام مَعَ كُلّ زِمَام سَبْعُونَ أَلْف مَلَك يَجُرُّونَهَا»[١].

ولها تغيظ، وزفير، ويشاهدها الناس، قال ﷻ: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ - ٧]، قال ﷻ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦]، أي: أُظْهِرَتْ للناظرين فرآها الناس عيانًا؛ لأنها كانت في الدنيا في أمر الغيب، لا يعلمها إلا الله ﷻ، ولكن نؤمن بها، ولا نراها، وأما في الآخرة، فيكشف عنها الغطاء، فينظر إليها الخلق، ويراها الناس.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، يتذكر كل إنسان عمله، وما كان قد أسلفه في قديم دهره، وحديثه، ويتذكر ما سعى في هذه الدنيا من العمل الصالح، والذي ينجيه من هذه النار، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، أي: يظهر التوبة، ومن أين له التوبة؟ فات وقتها.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي﴾، يتمنى، ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾، أي: قدمت الخير، والعمل الصالح في حياتي الدنيا لحياتي في الآخرة، والآخرة حساب، ولا عمل.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾، أي: في هذا الموقف ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾، ليس أحد أشد عذابًا من تعذيب الله من عصاه، يعذبه الله ﷻ عذابًا شديدًا.

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾، أي: ليس أحد أشد قبضًا، ووثقًا من الزبانية لمن كفر بربهم ﷻ، هذا في حق المجرمين من الخلائق، والظالمين، فيُوثَق الكافر بالسلاسل، والأغلال -والعياذ بالله-، فيسحب بها.

(١) أخرجه مسلم (٢٩).

ثم إن الله ﷻ قال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾، في هذا اليوم ينادي الله ﷻ النفس المؤمنة الثابتة الدائرة مع الحق الساكنة بطاعة الله ﷻ، تنادى في الآخرة؛ إكرامًا لها، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾، أي: التي كانت مطمئنة بطاعة الله ﷻ، وذكره في الدنيا، فإنها تطمئن في الآخرة عند هذا الهول، بخلاف غيرهم، فإن أنفسهم، وأفكارهم تطير؛ من شدة الهول.

﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾، أي: إلى الله ﷻ خالقك، ﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾، أي: راضية بما أعد الله ﷻ لكِ، مرضية من الله ﷻ، وهذا نظير قوله ﷻ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وهذه المقولة تقال عند موت المؤمن، فإذا أراد الله قبض نفس المؤمن اطمأنت إلى الله، ورضيت عن الله، ورضي الله عنها، وتقال له عند البعث، فالمحتضر ينادى بهذا، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، وكذلك في الآخرة يقال لها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨﴾.

قال ﷻ: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩﴾، في جملة عبادي الصالحين المطيعين المصطفين، كوني مع المؤمنين في الآخرة في الجنة، كما كنت مع المؤمنين في الدنيا.

قال ﷻ: ﴿وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ۝٣٠﴾، فأهل الشرك، والكفر تبرز لهم النار، وأهل الإيمان، والطاعات، والأعمال الصالحة يدعون إلى دخول الجنة، فيدخلونها، وهؤلاء يلقون في النار مسلسلين، مقرنين بالأصفاد -والعياذ بالله-.

وقيل: المراد بقوله ﷻ: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩﴾، إنما يقال لها ذلك عند البعث، أي: إلى صاحبك، وجسدك، فهي كانت ميتة مفارقة للبدن، وفي يوم القيامة يأمر الله الأرواح أن ترجع إلى الأجساد، ولا مانع أن الآية تشمل كلا المعنيين.

عن سَعِيد بْن جُبَيْر قال: **مَاتَ اِبْن عَبَّاس رضي الله عنهما بِالطَّائِفِ، فَجَاءَ طَيْر لَمْ يُرَ عَلَى خِلْقَته فَدَخَلَ نَعْشه، ثُمَّ لَمْ يُرَ خَارِجًا مِنْهُ، فَلَمَّا دُفِنَ تُلِيَتْ هَذِهِ الْآيَة عَلَى شَفِير الْقَبْر لَا يُدْرَى مَنْ تَلَاهَا، وهي قوله** ﷻ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾، هذه عاقبة النفس المطمئنة؛ والله سبحانه وتعالى قد ذكر في القرآن الكريم أن هناك ثلاثة أصناف من النفس:

النوع الأول: النفس الأمارة بالسوء، وهي: النفس التي لا تقف عند حد، بل تقود صاحبها دائمًا إلى المعاصي، والكبائر، والذنوب، والسوء، ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣].

النوع الثاني: النفس اللوامة، وهي: النفس التي تذنب، ثم إنها تندم، وتتوب، فهي تلوم صاحبها، قال ﷻ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢].

النوع الثالث: النفس المطمئنة، وهي: النفس التي تكون مطمئنة بطاعة الله سبحانه وتعالى، فليس عندها نزعات إلا لطاعة الله سبحانه وتعالى، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾.

عن أَبِي أُمَامَة رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللَّه ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «قُلْ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلك

نَفْسًا بِك مُطْمَئِنَّة تُؤْمِن بِلِقَائِك وَتَرْضَى بِقَضَائِك وَتَقْنَع بِعَطَائِك»[١].

والله تعالى أعلم، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٩٩)، وفي مسند الشاميين (٢/ ٤٠٩).

الدرس الثالث بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ [البلد: ١ - ٢٠].

هذه السورة العظيمة، سورة البلد، وهي مكية، يقسم الله ﷻ بهذا البلد، وهو مكة المكرمة، وهو ﷻ يقسم بمن شاء من خلقه، ولا يقسم بشيء إلا وله شأن، واعتبار؛ ليلفت النظر إليه، وأما المخلوق فلا يقسم إلا بالله ﷻ؛ كما نهى النبي ﷺ عن الحلف بغير الله، وأخبر أنه من الشرك الأكبر(١)

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي، واللفظ له (١٥٣٥)، وأحمد في المسند(٩/ ٤٢٣)، من حديث ابن عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ».

وهذا البلد الحرام له شأن عظيم عند الله، وعند خلقه.

فقوله ﷻ: ﴿لَآ﴾، «لا» نافية، وهي مزيدة؛ لأجل التوكيد، والأصل ﴿أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، أي: أحلف بهذا البلد، وهو: مكة، وتسمى: البلد، ومكة، وأم القرى، فالبلد هو: مكة المكرمة، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١].

وأقسم الله ﷻ بها في سورة «التين»، فقال ﷻ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]، وهي: مكة - شرفها الله -، فأقسم الله بها؛ لعظمتها، ومكانتها عند الله، وعند خلقه.

﴿وَأَنتَ﴾، أي: والرسول ﷺ.

﴿حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، قيل: حلٌّ من الإحرام، وقيل: أحللنا لك، أو سنحلها لك، وفي هذا إشارة إلى فتح مكة في المستقبل، وأن الله ﷻ أذن له أن يقاتل فيها ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها إلى يوم القيامة.

وقيل: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾، أي: أنت مقيم في هذا البلد؛ وذلك لأن إقامته ﷺ فيها تشريفٌ لمكة، كما أن المدينة النبوية تشرفت بهجرته، وإقامته فيها، فالمكان يشرف بالساكن فيه، إذا كان هذا الساكن له شأن عند الله ﷻ.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾، هذا قسمٌ آخر، فأقسم بالوالد، وما ولد، وقيل: المراد بالوالد، هو: آدم، وما ولد: ذرية آدم.

وقيل: المراد بالوالد إبراهيم عليه السلام، وما ولد من الأنبياء؛ لأن الأنبياء الذين جاءوا من بعد إبراهيم عليه السلام كلهم من ذريته عليه السلام، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى

﴿ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقيل: هو عامٌ لكل والد، ومولود من المخلوقات؛ لما في ذلك من العبرة، وهذا اختيار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه عامٌ في كل والد، وفي كل ولد؛ لما في ذلك من العبرة.

ثم ذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جواب القسم، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾، فاللام موطئة للقسم، و«قد» حرف تحقيق، و﴿خَلَقْنَا﴾، أي: أوجدنا.

﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، جنس الإنسان من بني آدم.

﴿فِى كَبَدٍ﴾، قيل: في اعتدال، وتناسب أعضاء، وهذا من عجائب خلق الله عَزَّ وَجَلَّ، فالإنسان أعجب المخلوقات في استقامة جسمه، واعتدال أعضائه وحواسه، وعقله، وهذا يدل على قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي خلقه.

وقيل: ﴿فِى كَبَدٍ﴾، أي: في مشقة، فالإنسان لا يزال في مشقة، ويكابد المشاق منذ ولد إلى أن يموت، فهو في مشاق في الحياة الدنيا، وما يقاسيه في هذه الحياة فهو كبدٌ، وكذلك إذا كان مشركًا، أو كافرًا -والعياذ بالله-، فهو في كبد دائم[(١)].

﴿أَيَحْسَبُ﴾، هذا الإنسان، ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أي: أيحسب أنه متروك، وأن أحدًا لا يغلبه، فهو معجب بنفسه، ومتماد في غيه، وكأنه غير مسئول، ومحاسب عن تصرفاته، لا بل إنه تحت قدرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وتصرفه، فقد يسلط الله عليه من المخلوقين من هو أقوى منه، فلا يعجب الإنسان

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٤٣٤ - ٤٣٥)، وزاد المسير (٤/ ٤٤٧)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٣٩٢ - ٣٩٣).

بحاله، ويتكبر على الله ﷻ، وعلى خلقه، بل يجب عليه أن يتواضع.

ثم إن الإنسان يتأسف على ما أنفق من المال، ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا﴾، أي: أنفقت مالًا، ﴿لُبَدًا﴾، أي كثيرة، فيتأسف على ما أنفق، ويتحسر، وهذا يدل على شحه، وبخله بالمال، ولم يعلم بأن هذا المال ابتلاء من الله ﷻ، هل يحسن فيه، أم لا يحسن؟، وسيحاسب عن هذا المال، من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**»(١).

فالعبد يحاسب عن ذلك، والله قادر عليه ﷻ، فلا يحسبن أنه مهمل، وأنه يفعل، ويتصرف في هذا المال ما شاء من شهواته، وتصرفاته، فالمال مال الله ﷻ، وقد أعطاك الله ﷻ إياه؛ ليبتليك، ويختبرك ماذا تصنع به.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾، وأنه يفعل ما يشاء، ولا يراه أحد، بل يراه الله ﷻ، ولا يغيب عن الله، ففي أي مكان هو تحت رؤية الله له، فينبغي له أن يحسن في ماله، ويراقب الله ﷻ؛ لأنه يراه، وقد قال ﷺ: «**الْإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(٢).

فالله ﷻ يراك في أي مكان، ولا تخفى عليه، سواء أكنت وحدك، أم مع

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، واللفظ له، والدارمي في السنن (١/ ٤٥٢)، والطبراني في الأوسط (٢/ ٣٤٨).

(٢) جزء من الحديث المشهور بحديث جبريل عليه السلام الذي أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الناس، أو أكنت في ظلمة، أو في ضياء، فالله ﷻ يراك في جميع أحوالك، فإن اختفيت عن الناس، واستترت عنهم، فإنك لا تستتر عن الله ﷻ، فراقب الله ﷻ في مالك، وفي تصرفاتك.

ثم أعاد ﷻ تذكير الإنسان بما منَّ الله ﷻ عليه في خلقته، وفي جسمه، فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾، يبصر بهما، ويرى، فنعمة البصر من أكبر نعم الله ﷻ، واعتبروا هذا في الأعمى، ماذا يكون حاله؟ فالبصر من أكبر نعم الله عليه.

فيجب عليه أن يستفيد منهما أكثر من أن يكون نظره للمعيشة، أو ترفًا بالنظر في المخلوقات، وفي الجبال، والأرض، والسماء، بل ينظر؛ للاعتبار، وللاستدلال على قدرة الله ﷻ، وقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾، أي: بلى قد جعلنا له عينين، فهذا تقرير، وليس استفهامًا.

﴿وَلِسَانًا﴾، ينطق به، ويبيِّن به عما في نفسه من الحاجات، فاللسان من أعظم نعم الله ﷻ على العبد، ينطق به، ويتكلم في حوائجه، وأموره، وأعظم ذلك أنه ينطق بذكر الله ﷻ، ويتلو القرآن، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويدعو إلى الله ﷻ بهذا اللسان الذي أعطاه الله إياه.

﴿وَشَفَتَيْنِ﴾، يستران فمه، وأسنانه، وأيضًا يعينان اللسان على النطق، فاعتبروا هذا بمن أصيب في شفتيه، ماذا يكون نطقه، وماذا تكون صورته إذا انكشف فمه، وأسنانه؟ فالشفتان فيهما جمال، ونفع عظيم.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾، تثنية نجد، وهو: المرتفع من الأرض، فيسمى نجدًا، والمنخفض من الأرض يسمى تهامًا، أي: دللناه على طريق الخير،

والشر، فبيَّنا له طريق الخير؛ ليسلكه، وبيَّنا له طريق الشر؛ ليجتنبه، ولم نجعل الأمر متلبسًا عليه، فالله ﷻ بيَّن الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والضار من النافع، فالهداية هنا: هداية الدلالة والإرشاد.

وهذا من نعم الله ﷻ علينا، أن الله ﷻ بيَّن لنا طريق الخير، وطريق الشر، وقيل: دللنا الطفل على ثديي أمه، فالطفل أول ما يولد يبحث عن الثدي؛ لأن الله ﷻ دَّله، وألهمه ذلك، وهذا داخل في معنى الآية بلا شك، أفلا يستعمل هذه النعم فيما ينفعه؟

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾، أي: أنه بعد ما أنعم الله ﷻ عليه هذه النعم العظيمة، ومكنه من التصرف، وبيَّن له طريق الخير، وطريق الشر، فاقتحم، أي: صعد العقبة، والعقبة هي: الطريق المرتفع في الجبل، وذلك أن فعل الخير يحتاج صعودًا، ويحتاج إلى صبر، والجنة عالية تحتاج إلى صعود، وإلى صبر، وأما النار -والعياذ بالله-، فهي سافلة ينحدر إليها الإنسان.

والصعود فيه مشقة، فكذلك أعمال الجنة فيها مشقة على النفس، وتحتاج إلى صبر، وأما النار، فإنه ينحدر، ويتبع رغباته، وشهواته، وهواه، وتنحدر به إلى النار، والانحطاط أسهل عليه من الصعود؛ ولهذا سمى الله ﷻ فعل الخير عقبة، أي: طريقًا صاعدًا يحتاج صبرًا، وعزيمة.

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»(١).

ثم فخمها الله ﷻ، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٢٢).

أي شيء أعلمك أيها الرسول، ﴿مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾؛ لعظم شأنها.

فالطاعة شاقة، وتحتاج إلى اقتحام، وارتفاع، وصعود، وإلا سيظل في أسفل شيء.

ثم بين اقتحامها بماذا يكون فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾، فهذا اقتحام العقبة، وهو التصدق، فالمال غال على النفوس، صعبٌ على الإنسان إخراجه، والعجيب أنه صعبٌ إخراجه في الطاعة، وسهلٌ إخراجه في الشهوات، والمحرمات، فالإنسان سهل عليه أن يفقد أموالًا في اللهو، واللعب، والشهوات، فيفقد الملايين، والمليارات، وإذا كان مبلغًا بسيطًا في سبيل الخير يصعب عليه.

و﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾، بمعنى أنه يعتقه من الرق؛ تقربًا إلى الله ﷻ، وعتق الرقاب من الرق من أفضل الأعمال الجليلة، أو إذا كان الرقيق مكاتبًا لسيده، فإنه يعينه على دين الكتابة حتى يعتق، فعتق الرقبة يشمل أن يعتقها هو، أو أن يساعد في عتقها، وكذلك من فك الرقاب: فداء الأسرى من أيدي المشركين إذا كان مسلمًا.

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾، أي: مجاعة، والإطعام في حال المجاعة، وعند الحاجة أفضل، وأشق على النفوس.

وفي الأية: أن المسلم يتحرى بصدقته أهل الحاجة، ومن هم أشد حاجة، وعند حدوث المجاعات.

﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾﴾، فالصدقة تكون على القريب المحتاج أفضل؛ لأنها صدقة، وصلة، ولاسيما اليتيم الذي فقد أباه دون

سن البلوغ، ﴿ثُمَّ كَانَ﴾، هذا الإنسان، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، بالله ﷻ الإيمان الصحيح بالنطق، والاعتقاد، والعمل؛ لأن الإيمان: قولٌ باللسان واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، وليس الإيمان بالقلب فقط لايدخل فيه العمل، فهذا قول المرجئة الضلال.

فلابد من أن يتوافر في الإيمان هذه الأمور الثلاثة: قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، والإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وله أركان ستة؛ كما جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**الْإِيْمَان أن تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وِالْيَوْم الْآخِر، وَالْقَدْرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

والإيمان له شعب كثيرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً أَعْلاَهَا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»(٢).

وكل الأعمال الصالحة من الإيمان، لكن منها ما هو ركن، ومنها ما هو مكمل.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، أي: انضم إليهم بالموالاة، والنصرة.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، فلا يكفي أن الإنسان يعمل الخير بنفسه

---

(١) جزء من الحديث المشهور بحديث جبريل عليه السلام الذي أخرجه البخاري (٥٠، ٤٧٧٧)، ومسلم (١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٨).

بل لا بد أن يدعو إلى الله ﷻ، وإلى الدين، فيدعو أول شيء إلى التوحيد[١]، وعبادة الله وحده، لا شريك له، وينهى عن الشرك، ويأمر باتباع السنة، وينهى عن البدع، والمعاصي.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ [العصر: ٣]، أي: أوصى بعضهم بعضًا بالحق.

ولما كان الذي يوصي بالحق، ويدعو إلى الله ﷻ، يؤذى، ويجد من أصحاب الشهوات، والشبهات، أنهم يؤذونه، ويضايقونه، فيحتاج إلى صبر، واستمرار.

قال ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر: ٣]، كما في سورة «العصر»، وهنا يقول ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾؛ وذلك لأن الإيمان يحتاج إلى صبر؛ لما فيه من الاعتقادات، والأقوال، والدعوة إلى الله ﷻ، وما فيه من الأعمال، فيحتاج إلى صبر، والصبر على ثلاثة أنواع:

١- صبر على طاعة الله ﷻ؛ لأن الطاعة شاقة تحتاج إلى صبر.

٢- صبر عن الشهوات؛ لأن النفس تنازع إلى الشهوات المحرمة، بالإضافة إلى دعاة الضلال يحرضونه على الشر، فيحتاج إلى صبر عن محارم الله.

٣- الصبر على أقدار الله المؤلمة، فإذا أصابته مصيبة تؤلمه في نفسه،

---

(١) كما في حديث معاذ رضي الله عنه الذي أخرجه البخاري (٧٣٢٧)، واللفظ له، ومسلم (٣١)، حين أرسله النبي ﷺ لليمن فقال له: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ» الحديث.

أو في أهله، أو في أقاربه، أو ماله، فإنه يصبر على ما أصابه.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، فلابد من الصبر على هذه الأمور؛ لأن الذي يقتحم العقبة يحتاج إلى صبر.

ثم بيَّن الله ﷻ عاقبة هؤلاء الذين اقتحموا العقبة، وأعتقوا الرقاب، وفكوا الأسرى، وتصدقوا على المحتاجين، من اليتامى، والمساكين بيَّن جزاءهم، فقال:

﴿أُولَٰئِكَ﴾، هؤلاء المتصفون بهذه الصفات، ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، أي: أصحاب اليمين؛ لأن الناس يوم القيامة يكونون على ثلاثة أصناف:

١- السابقون المقربون إلى الله ﷻ.

٢- أصحاب اليمين.

٣- أصحاب الشمال.

﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، قيل معناه: الذين يأتون صحائفهم في أيمانهم، أو أنهم يكونون على يمين الرحمن.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾، وأما الصنف الثاني، وهم: الذين كفروا بآيات الله ﷻ، وكذبوا بها، وقالوا: إنها أساطير الأولين، وهذا القرآن من كلام البشر، ومن كلام محمد ﷺ.

﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾، أي: هم أشقى الخلق -والعياذ بالله- أصحاب الشمال.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾﴾، مغلقة مطبقة عليهم في عمد ممدة، لا يخرجون

منها، ولا يطعمون في اقتحام أسوارها، أو أبوابها فهي موصدة، ولا حيلة لهم فيها، وعليها خُزّان من الملائكة، فلا حيلة لهم بالتخلص منها.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الرابع بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾

[الشمس: ١ - ١٥].

هذه السورة العظيمة - سورة الشمس -، أقسم الله ﷻ في أولها ثمانية أقسامات، وهو ﷻ يحلف بما شاء من خلقه، وأما المخلوق، فلا يحلف إلا بالله[1] ﷻ، والله ﷻ لا يقسم إلا بشيء فيه عبرة، وله خاصية؛ لأجل أن يعتبر العباد بهذه الأشياء التي يقسم الله ﷻ بها.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي، واللفظ له (١٥٣٥)، وأحمد في المسند(٩/ ٤٢٣)، من حديث ابْنَ عُمَرَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: «لَا وَالكَعْبَةِ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا يُحْلَفُ بِغَيْرِ اللَّهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ».

فقوله ﷻ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾، أقسم بالشمس، وهي: الكوكب العظيم، والسراج الذي يضيء الكون، فالله ﷻ جعل الشمس سراجًا تضيء الكون كله، حتى إن ضوءها ليدخل في الجحور، والكهوف، ثم يغيب من نصف الأرض إلى النصف الثاني، ويصبح النصف الأول ليلًا، وهكذا، وهذا من آيات الله ﷻ.

﴿وَضُحَىٰهَا﴾، أي: ضوءها، وضياءها، وهذا الضحى، وهذا الضوء العظيم الذي يمحو ظلام الليل.

ثم هو - أيضًا - لا يتغير، إلى أن يشاء الله ﷻ نهاية الأجل، وانقضاء الدنيا، فهو دائمًا مضئ لهذا الكون المدة التي قدرها الله ﷻ، إلا إذا أصابه كسوف، فإنه يتغير ضوء الشمس، وينحجب عن الناس، فحينئذ تشرع صلاة الكسوف، والدعاء؛ خشية أن يكون هذا بداية عذاب، أو بداية تغير في هذا الكون.

ثم أقسم ﷻ بالقمر، الذي هو الكوكب الثاني، فقال ﷻ: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾، إذا تلى الشمس، فإذا غربت الشمس، أظلم الكون، وجاء القمر نورًا للكون، يضيء للناس في الليل، وهكذا يتعاقبان إلى أن يرث الله ﷻ الأرض، ومن عليها.

فهو يتلو الشمس، يبعد عنها شيئًا فشيئًا منتصف الشهر، فتنتهي بعده عنها، ويتكامل ضوؤه، ويكون بدرًا، ثم إنه ينقص شيئًا فشيئًا إلى آخر الشهر فيغرب بعدها بيسير، وينتهي الشهر، ويظهر الهلال، وهذا تقدير الله ﷻ.

والقمر - أيضًا - يعتريه الخسوف، ويصيبه ما يصيب الشمس أحيانًا،

فيشرع حينئذ صلاة الخسوف.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾، جلى الكون، وجلى البسيطة بضوئه، وإشراقه، بعد أن كانت مظلمة، فتصبح مسفرة مضيئة، وهذا من آيات الله سبحانه وتعالى.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾، ثم يأتي الليل بعد النهار، يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل، هذا يطلب هذا حثيثًا، ولكن النهار في وقته، والليل في وقته حتى يستويان، فيزيد الليل، وينقص النهار، أو العكس، يزيد النهار، وينقص الليل، قال عز وجل: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [فاطر: ١٣]، وهذا من آيات الله عز وجل؛ من أجل مصالح العباد.

فلا يوجد إله غير الله سبحانه وتعالى يأتيكم بالليل، والنهار، وليس هناك إله يصرف هذا الكون، ويأتي بالليل في وقته، والنهار في وقته، ولو شاء سبحانه وتعالى لجعل النهار سرمدًا إلى يوم القيامة، فلا تستريحون، ولا تنامون، ولم يقل أحد غير الله: إني فعلت هذا.

ثم قال عز وجل: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾، أقسم بالسماء، وهي: السقف المرتفع، والمراد: السماوات السبع، ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾، أي: رفعها، فجعل الله سبحانه وتعالى السماء بناء، أي: سقفًا مرتفعًا عن الأرض.

﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي: والشمس وبنائها، أو الذي بناها.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾، أي: أوسعها، قال عز وجل: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات: ٤٨]. فالأرض مفروشة للناس، ينامون، ويسيرون عليها، فهي مبسوطة؛ لأجل أن يسيروا عليها، ولم يجعلها كلها مرتفعة، قال عز وجل: ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ۝٢٠﴾ [الغاشية: ٢٠]، فهي ممهدة، ومسهلة

للناس؛ لتنتظم معاشهم، وراحتهم عليها، ولو كانت الأرض ضيقة، لتزاحم الناس، وتقاتلوا، وحصل الضرر، فأوسعها ﷻ لكي لا يتضايقوا فيها، فكلٌ يعيش بما عنده من الأرض، ولا يحصل زحام، ولا ضرر على الناس، فكلٌ يعيش في المكان الذي يسره الله ﷻ له، وعنده كل ما يحتاج إليه من رزق الله ﷻ، ويألف المكان الذي يعيش فيه.

وهذا من آيات الله ﷻ: خلق السموات، والأرض مع سعتهما لمصالح العباد، فالأرض فراش، والسماء سقف، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، سقف للأرض، وفيها مصالح للعباد.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾، المراد بها: نفس الإنسان.

وهي التي تحركه، وتسيره، والنفس فهي: الروح، وهذه الروح من آيات الله ﷻ، ولا تعلم البشرية بعلومها، وتجاربها حقيقتها، وعجزت أن تدرك ما حقيقة الروح، والله ﷻ أعلم بها، فهي سر من أسرار الله، لا يعلمه إلا الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥].

وهذه الروح تتصل بالبدن، وتنفصل عنه، فهي تتصل به، وهو في بطن أمه، وتتصل به بعد ولادته مدة عيشه في الدنيا، وتتصل به في النوم، وتتصل به في القبر، وتتصل به في الآخرة، وهذا اتصال دائم.

فهذه الروح، وهذه النفس من آيات الباري ﷻ، وقد عجزت البشرية عن إدراكها، ومعرفة حقيقتها، مع أنها بين أضلاعهم، وفي أجسامهم، ومع هذا لا يعلمون حقيقتها.

﴿وَنَفْسٍ﴾، نكرة؛ لتعم كل النفوس: نفس الإنسان، والبهائم، والحشرات وكل ما يتحرك، وكل ما فيه روح.

﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، الله ﷻ سوى النفوس، بأن أعطاها ما تحتاج إليه بحسبها.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾، فهي إما: فاجرة خارجة عن طاعة الله ﷻ، فاسقة منحطة، وإما تقية صالحة بارة، فالنفوس ليست على حد سواء، وهذا من آيات الله ﷻ، والله ﷻ هو الذي ألهمها فجورها، وألهمها تقواها، فالأمر بيد الله ﷻ، وهذا بقضاء الله ﷻ، وقدره، وهو من آياته ﷻ، ولكن الإنسان سبب في سعادة نفسه، أو شقاوتها، فالقدر بيد الله ﷻ، والسبب من المخلوق؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، أي: فاز، ونجا من زكى نفسه بالطاعة، ورفعها بالعبادة، وأكرمها، ورعاها رعاية صحيحة، فهذا يفلح، ويربح، ويفوز في الدنيا، والآخرة، فهو السبب في ذلك.

والتزكية المراد بها: التطهير، ويراد بها: النماء، والزيادة، فتزكية النفس تكون بطاعة الله ﷻ، والعبد سبب في تزكيتها.

وتزكية النفس على قسمين:

قسم منهي عنه: قال ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

ومعناه: الذي يمدح نفسه، ويكملها بالمدح، فلا يجوز أن يمدح الإنسان نفسه، قال ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٤٩﴾ [النساء: ٤٩].

القسم الثاني: أن يزكي نفسه بطاعة الله ﷻ، وبعبادته، ويرفعها عن الدنايا، والخسائس، والانحطاط، ويرفع نفسه عن السفهاء، والفسقة، وعن مجالس السوء.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾، نسب التزكية إلى صاحبها.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، نسب التدسية، والتزكية إلى صاحبها، فهو الذي يرفعها، أو يخفضها بأفعاله، واختياره، وإرادته، والله ﷻ ييسر له الخير، وييسر له الشر.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾، أي: ألهمها الله فجورها، وتقواها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ»، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠][(١)].

فالتربية إن كانت صالحة، صلحت النفس، وصلح الإنسان، ، وإن كانت التربية سيئة، فسد الإنسان، وفسدت النفس، فلابد من بذل الأسباب، من الوالدين في الصغر، ومن الإنسان نفسه إذا كبر، وعقل.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، مثل قوله ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: بيَّنا له طريق الخير، وطريق الشر، فقد بيَّن الله ﷻ له طريق الفجور، وطريق التقوى، وأعطاه القدرة، والاختيار لأن يسلك أي السبيلين،

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩)، واللفظ له، ومسلم (٢٢، ٢٣).

والله ﷻ يجازيه على ذلك، فالجزاء من جنس العمل، لكن من علم الله ﷻ فيه الخير، وفقه إلى الخير، ومن علم فيه الشر، وفقه إلى الشر؛ عقوبة له، فأنت مع نفسك، اختر لها أي الطريقين، وستجزى بما تعمل لنفسك، قال ﷻ: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ثم ذكر ﷻ أمة من الأمم الكافرة، وهي: أمة ثمود، قال ﷻ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾﴾، وثمود أمة كافرة من الأمم البائدة التي أهلكها الله ﷻ.

تسمى بلادها: وادي القرى، وهو معروف بهذا الاسم، وهو على طريق أهل الحجاز، إذا ذهبوا إلى الشام.

فثمود تسكن في هذا الوادي، وهو وادي خصب، فيه مياه عذبة، وفيه نخيل، وفيه مزارع، وفيه قوة، وكانت هذه الأمة تعيش فيه عيشة غنية كريمة؛ لأنه واد خصب، لكنهم كفروا بالله ﷻ، وأشركوا به، وعبدوا الأصنام، وما شكروا الله ﷻ على نعمته، وعلى ما هم فيه من رغد العيش، وخصوبة البلاد، وأعطاهم الله ﷻ قوة، فصاروا يبنون في السهول القصور، وينحتون الجبال بيوتًا يسكنونها، ولا تزال بيوتهم باقية إلى الآن منحوتة في الجبال عبرة، قال ﷻ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النمل: ٥٢].

ولا يجوز السفر للفرحة إليها، لكن إذا مر الإنسان بها في طريقه، ونظر إليها من باب الاعتبار والاتعاظ، فلا حرج في ذلك.

قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن

﴿قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

فينظر إليها نظر اعتبار، وخوف، واتعاظ، ولا ينظر إليها نظر إعجاب؛ لأنها آثار كفار طغاة، فكيف تعجب بآثار الكفار، والطغاة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا مَرَّ بِالحِجْرِ في طريقه إلى غزوة تبوك قال لأصحابه: «لاَ تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ» ثُمَّ تَقَنَّعَ بِرِدَائِهِ، وَهُوَ عَلَى الرَّحْلِ»**(١).

أما الذي يدخل هذه الديار، وهو معجب بها، فحريٌ به أن يصاب بقسوة القلب، وأما الذي يدخلها، ويمر بها خائفًا، ومعتبرًا، فهذا يستفيد منها، قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢].

﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الشمس: ١٣]، أي: احذروا ناقة الله ﷻ، ﴿وَسُقۡيَٰهَا﴾، أي: احذروا يومها الذي لها، لا تعتدوا عليها فيه.

قال ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: كذبوا نبي الله صالحًا عليه السلام لما جاءهم بالآية الباهرة والمعجزة، وما صدقوا في وعدهم، واعتدوا على الناقة، فعقروها.

عقر الناقة واحد منهم، انتدبوه لها يسمى: قدار بن سالف من أقواهم، ومن أشرفهم قال ﷻ: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾ [القمر: ٢٩].

﴿فَتَعَاطَىٰ﴾، مفتخرًا بنفسه، وعقر الناقة.

﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم﴾، عاملهم بذنبهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣، ٣٣٧٨، ٣٣٨٠، ٣٣٨١، ٤٤١٩)، واللفظ له، ومسلم (٣٩).

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾، أي: سوى الأمة كلها بالهلاك في لحظة واحدة، فصاعقة واحدة قضت عليهم.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾، أي: لا يخاف الله ﷻ أنهم ينتصرون لأنفسهم، وينتقمون من صالح، فالله سبحانه وتعالى عزيز مقتدر.

وصلى اللهم، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس الخامس بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾
فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾
وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾
وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ
تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل: ١ - ٢١].

هذه السورة من السور التي بدأها الله ﷻ بالأقسام المكررة؛ توكيدًا لما جاء فيها من البيان.

فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾، قسم من الله ﷻ بالليل وقت غشيانه على الكون بظلامه.

قال ﷻ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: ٣٧]، فهذا من آيات الله ﷻ.

ثم أقسم ﷻ بالنهار، فقال ﷻ: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، أي: ظهر، وأشرق،

وأدبر الليل، فهما يتعاقبان، إذا هب هذا، جاء هذا، في انتظام دقيق لا يتأخر شيء منهما، فهذا من آياته ﷻ العظيمة، والدالة على قدرته، ورحمته بعباده، فهو الذي يستحق العبادة دون غيره ممن لا يخلق، ولا يرزق، ولا يدبر شيئًا، قال ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢]، وقال ﷻ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾، «ما» بمعنى «الذي»، أي: والذي خلق الذكر، والأنثى، وهو: الله ﷻ، والظاهر: أن الذكر، والأنثى عامان لكل المخلوقات، فـ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾، أي: جنس الذكر، وجنس الأنثى، قال ﷻ: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، من بني آدم، ومن البهائم، ومن كل شيء، ومن النباتات، والأشجار، فكلها تتكون من ذكر، وأنثى؛ من أجل بقاء النوع، والنسل، وهذا من حكمته ﷻ، ورحمته بعباده.

وقيل المراد: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾، أي: آدم عليه السلام، وحواء، ولكن الظاهر -والله أعلم- العموم، ويدخل فيه آدم، وحواء من باب أولى، فهو ماء واحد، ويُكوِّن الله ﷻ منه الذكر، والأنثى، أو مادة واحدة، يكون الله ﷻ منه شيئين متضادين، وهذا من آياته ﷻ.

وجواب القسم هو: قوله ﷻ: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾، أي: إن سعيكم أيها الناس، وعملكم في هذه الحياة لمختلف، فمنكم المؤمن، ومنكم الكافر، ومنكم المطيع، ومنكم العاصي، ومنكم من يعمل عملًا مثمرًا، ومنكم من يعمل عملًا فاسدًا مدمرًا، فاختلاف أعمال الناس، وتضاد الخير، والشر من آيات الله.

﴿لَشَتَّىٰ﴾، أي: مختلف، ومتضاد، مثل تضاد الليل، والنهار، والذكر، والأنثى.

ثم قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾، من الناس من سعيه في الخير، فيعطى المال في وجوه الخير، ويتقي الله ﷻ، ويصدق بالحسنى، أي: بالجزاء، والخلف من عند الله، قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، فلا يبخل بالمال، ويظن أن المال بيده، بل المال بيد الله ﷻ، فإذا أنفقت أنفق عليك[١]، وإذا بخلت، فإنه يمسك رزقه ﷻ عنك[٢].

قيل: الحسنى هي: الخلف من الله ﷻ، وقيل: الحسنى هي: الجنة،

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٣٦، ٣٧)، واللفظ له، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ**».

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (٧٥)، واللفظ له، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ، أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللهُمَّ، أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**».

وقيل: الحسنى: «لا إله إلا الله»، وكل هذه التفاسير تدخل في معنى الآية.

هناك من يعطي المال، ويجزل العطاء، لكنه رياء، وسمعة، وليس من أجل وجه الله سبحانه وتعالى، ولا صدق بالحسنى، ولا اتقى ربه، وإنما يبذل المال في البذخ؛ رياء، وسمعة، أو ينفق المال فيما حرمه الله سبحانه وتعالى من الشهوات المحرمة، والمعاصي، فهو ينفق المال لكنه في غير وجهه، ولكن الذي اتقى الله سبحانه وتعالى، وصدق بالحسنى، هذا هو الذي ينفعه إنفاقه، وينفع الناس -أيضًا-، وينمي المصالح للناس، فعطاؤه ينمي المجتمع، وأما من بذل المال في الرياء، والسمعة، ولم يصدق بما عند الله سبحانه وتعالى، ولم ينفق طلبًا لثواب الله سبحانه وتعالى، أو ينفقه في معصية الله سبحانه وتعالى، فهذا مخالف للأول.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، ييسره الله سبحانه وتعالى للحسنى، ويهديه الطريق الصحيح، وموافقة الحق، والثواب؛ لأنه بذل السبب للهداية، والتيسير للحسنى، فالعبد عليه أن يبذل السبب، والله سبحانه وتعالى منه التوفيق، والهداية، والتيسير، والله جل جلاله لا يضيع عمل العامل، وهذا وعدٌ من الله سبحانه وتعالى أنه سييسيره لليسرى وهي: الطريقة السهلة السمحة، كما أنه يسره على الناس، فإن الله سبحانه وتعالى ييسر له الخير، والجزاء من جنس العمل.

وعلى النقيض من ذلك، قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ﴾، بخل بالمال الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى، فحبس الزكاة، وحبس الحقوق الواجبة عليه، واستغنى عن الله سبحانه وتعالى، واستغنى عن الأجر، والثواب، وذلك بزعمه أن هذا المال يكفيه عن الله جل جلاله.

قال عز وجل: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾، كذب بوعد الله، وكذب بالجنة، وكذب

بـ«لا إله إلا الله»، قال ﷻ: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾، فكلٌ ميسر لما خُلِق له، وهذا فيه: الإيمان بالقضاء، والقدر، وفيه: أن الإنسان لا يكتفي بالإيمان بالقضاء، والقدر، بل عليه أن يعمل، ولا يقول: إنه يتبع القضاء، والقدر؛ لأن هذا هو مذهب الجبرية الضلال، وغيرهم الذين يعتمدون على القضاء، والقدر، ولا يعملون، أما مذهب أهل السنة، والجماعة: فإنهم يؤمنون بالقضاء، والقدر، ويعملون الأسباب التي يقدرون عليها، ولا يتكلون على القضاء، والقدر.

عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ»[1]، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾.

فالآية فيها: ردٌ على الجبرية الذين يعتمدون على القضاء، والقدر، وفيها: ردٌ على المرجئة الذين يعطلون العمل، ويقولون: إنه يكفي الإيمان بالقلب، ولا ضرورة للعمل، فالذي يترك العمل، إما أنه جبري، أو مرجئ، أما الذي يجمع بين الإيمان بالقضاء، والقدر، وبين العمل فيما ينفع، وتجنب ما يضر، فهذا هو المؤمن، وهذا هو الطريق الصحيح، وهذا هو

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، واللفظ له، ومسلم (٧، ٩).

مذهب أهل السنة والجماعة، -والحمد لله-.

ثم قال الله ﷻ في الذي بخل، واستغنى، وكذب بالحسنى، ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾، إذا مات ما يغني عنه ماله، ولم يقدم لنفسه شيئًا، ولم يؤمن بما وعد الله به ﷻ، بل إنه بخل، واستغنى، وكذب بالحسنى، فهذا لابد أن يأتيه الموت، ولو كان عنده مليارات، أو كما يقولون: مليونير، وعنده أموال الدنيا، إذا جاء الموت، ولم يكن قد قدم لنفسه شيئًا من هذا المال، فإنه يخرج منه، وليس معه شيء، ويأخذه غيره، ممن قد يكون عدوًا له من ورثته.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾، هذا استفهام إنكار، أي: ماذا يفيده هذا المال الذي تعب فيه، وأفنى حياته، وحبسه، ولم ينتفع به، ولم ينفع به، فهذا لا يغنيه شيء عند الله ﷻ. قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: إن الله ﷻ يضيق على من يشاء، ويبسط على من يشاء، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٤-٣٧].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلاَّ مِنْ ثَلاَثَةِ أَشْيَاءَ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»**(١).

بدأ رسول الله ﷺ بالصدقة الجارية، يخرجها من ماله، وهو على قيد

(١) أخرجه مسلم (١٤).

الحياة، وتستمر بعد موته، ويجري ثوابها له بعد موته بأن وقف أوقافًا، أو أقام مشاريع خيرية تنفع المحتاجين، أو بنى مساجد، أو مدارس، فهذا يجري عليه أجره بعد موته، ولا ينقطع ما دامت هذه الصدقة مستمرة فإن الأجر مستمر.

ثم بيَّن الله ﷻ أن الإنسان ليس بيده شيءمن ذلك ولا هو الذي يهدي نفسه، بل إنما هذا بيد الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾، فالهدي بيد الله ﷻ، لكن الهدي له سبب من العبد بالعمل الصالح، والحركة في الخير، فالإنسان يعمل إما في الخير، وإما في الشر.

فالهداية بيد الله ﷻ، وهي: هداية التوفيق، وهداية الدلالة، والإرشاد، فكلها من الله ﷻ، فالله ﷻ هدى الخلق، وأرشدهم، ودَّلهم، والله ﷻ وفقهم، فالدلالتان كلاهما بيد الله ﷻ، لكن دلالة الإرشاد يملكها العباد، فيدعون إلى الله ﷻ، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويعلمون الناس الخير، فهذه هداية دلالة، وإرشاد، يقدر عليها الإنسان، وهي عمل صالح، أو العكس يدعو إلى الشر، ويدعو إلى النار، والشهوات، ويدعو إلى المعاصي، والضلال، والانحراف.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ۝١٣﴾، الدنيا، والآخرة بما فيهما لله ﷻ، فهو: المالك المطلق الذي يملك الدنيا، والآخرة، فكما أنه ﷻ يملك الهداية، فإنه يملك الآخرة، والأولى، والأملاك التي بأيدي الناس تؤول إلى الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم: ٤٠]، وإنما هذا المال عارية عند الإنسان، وابتلاء، وامتحان لهذا الإنسان، كيف يتصرف فيه؟.

ثم قال ﷻ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾، أي: حذرتكم، ﴿نَارًا﴾، أتى الله ﷻ بها نكرة للتعظيم، والتهويل، ﴿تَلَظَّىٰ﴾، أي: تشتعل، ولا تنطفئ، فهي دائمًا تتوقد، قال ﷻ: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهمزة: ٦]، دائمًا تتوقد، وتستعر، فهي ليست مثل نار الدنيا تنطفئ، وتذهب، بل هي نار عامرة دائمًا، وأبدًا.

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، فالأشقى من العباد هو الذي يصلى النار، أي: يقاسي حرَّها، وصليها، يدخلها الكافر، والمشرك، ويخلد فيها، ويدخلها العاصي من الموحدين بمعصيته، ويذوق عذابها، ويبقى فيها إلى ما شاء الله ﷻ، ثم إنه يخرج منها إلى الجنة بعد التمحيص، والتطهير، كما صحت بذلك الأحاديث[(١)]، قال ﷻ: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾، إما شقاوة مطلقة، أو شقاوة محددة مؤقتة بالنسبة لعصاة الموحدين، كما دلت على ذلك الأحاديث.

ثم بين الله ﷻ كيف أنه صار أشقى، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾، أي: كذب بوعد الله ﷻ، كذب بقلبه، يقول، إنه ليس هناك جنة، أو نار، وهذه خرافات، وليس هناك بعث، أو نشور، وإنما هذه خرافات، وأساطير فـ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ﴾ بقلبه، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، بفعله، فلا يصلي، ولا يزكي، ولا يصوم ولا يحج، ولا يعتمر، ولا يعمل شيئًا، فهو قد تولى، وانصرف عن الخير، وهذا التولي مسببٌ عن تكذيبه، فإنه لما كذب بقلبه تولى بأفعاله.

---

(١) تضافرت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ عن خروج من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان من عصاة المسلمين بعدما يلاقون ما يلاقون من العذاب، وأنهم يخرجون منها، وقد امتحشوا، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل. انظر: صحيح البخاري (٧٤٣٩، ٧٤٣٧، ٦٥٧٣، ٦٥٦٠، ٨٠٦)، ومسلم (٣٠٦، ٣٠٥، ٣٠٢، ٢٩٩).

ثم بين الله ﷻ ما الذي يقي من هذه النار التي تتلظى، فقال ﷻ: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾، يجنَّبها، فلا يدخلها، ولا يجد حرَّها، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١- ١٠٣].

وقوله ﷻ: ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، يدُّل على أن السبب من قِبَلِ العبد، فمن اتقى الله ﷻ، وعمل بطاعته، جنَّبه الله هذه النار، أما من كذب، وتولى، أصلاه الله ﷻ النار، فالعباد يجزون بأعمالهم، ولا يظلم ربك أحدًا، فعمل العبد هو الذي بسببه يدخله النار، أو يدخله الجنة، وليس بالقضاء، والقدر فقط، والله ﷻ يقدر على كلٍ بحسب عمله.

قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾، ماله الذي يملكه، وهو أغلى شيء عنده، و﴿يُؤْتِى﴾، أي: ينفقه في طاعة الله ﷻ، ويبذله لنفسه، وليس لغيره، ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾، بخلاف الذي كذب، وتولى، واستغنى عن الله ﷻ، فهذا الأتقى، يؤتي ماله، لا من أجل الرياء، والسمعة، ولا من أجل الإسراف، والبذخ، ولا للشهوات المحرمة، بل يتطهر به من الذنوب، والمعاصي، ومن الشح، والبخل.

قال ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩﴾، أي: ما ينفق المال على من لهم معروف عليه من باب المكافأة لهم، بل إنه ينفق المال لوجه الله ﷻ، بل إنه ربما لا يعرفهم، لكن يعطيهم، فيحسن إليهم، وليسوا من أقاربه، بل إنهم ربما لا يكونون من بلده، ولا من جنسه، وإنما هم من بني آدم المحتاجين.

قال ﷻ: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠﴾، ﴿إِلَّآ﴾، بمعنى «لكن»، أي: لكن يؤتي ماله؛ ابتغاء وجه ربه الأعلى، لا غير ذلك، ولا إرضاء للناس، ولا تملقًا، وإنما يبتغي به وجه الله ﷻ، وطمعًا في رؤية الله ﷻ يوم القيامة، والسعادة بلقاء الله ﷻ.

قالوا: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق ﵁؛ لأنه أعظم المحسنين في هذه الأمة، ومواقفه مع رسول الله ﷺ، وفي الغزوات، وعلى المحتاجين، وفي عتق الرقاب أمرٌ معروف، ولا يسبقه أحد في الخير ﵁؛ ولذلك حاز على لقب الصديق، وهذا القول وإن كان حقًا، ويدخل فيها أبو بكر الصديق ﵁ من باب أولى، إلا أنه ليس خاصًا به، بل إنه عامٌ لكل من اتصف بهذه الصفة العظيمة، وتغلب على نفسه، وتغلب على حب المال، وأنفقه في طاعة الله، وفي مرضاته، وابتغاء وجهه ﷻ، هذا الذي حاز على هذه الكرامة، وأنه سيجنَّب النار يوم القيامة.

عن عدي بن حاتم ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(١). أي: ولو بنصف تمرة، ما يجد غيرها يتصدق بها، فيقيه الله ﷻ بها من النار، فكيف بالذي يعطي مالًا جزيلًا في طاعة الله ﷻ، وفي سبيل الله ﷻ، كأبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان، عبد الرحمن بن عوف ﵃، الذين أنفقوا أموالهم في سبيل الله، ولاسيما في أيام العسرة، والشدة، فهؤلاء هم الذين يجنبهم الله ﷻ النار يوم القيامة.

(١) أخرجه البخاري (١٤١٧، ٦٠٢٣، ٦٥٤٠، ٦٥٦٣، ٧٥١٢)، واللفظ له، ومسلم (٦٦، ٦٧، ٦٨، ١٠١٦).

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾، ﴿وَلَسَوْفَ﴾، هذا الذي اتصف بهذه الصفات سوف ﴿يَرْضَىٰ﴾، واللام لام القسم، والتقدير: والله لسوف يرضى، فهي قسم من الله ﷻ، وهو أصدق القائلين، فسوف يرضى هذا الإنسان عن الله ﷻ، إذا لقيه سوف يرضيه بالجزاء العظيم الذي لا تدركه العقول.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس السادس بعد المائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١ - ١١].

في هذه السورة العظيمة -الضحى- يمتن الله ﷻ على نبيه ﷺ بما أعطاه من الكرامات في الدنيا، وما سيعطيه له في الآخرة؛ لأنه أكرم، وأشرف مخلوق ﷺ، وهو سيد ولد آدم؛ كما في الحديث الصحيح: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ**»(١).

فأقسم ﷻ وهو الصادق المصدوق، ولو لم يقسم؛ ولكن هذا لزيادة التشريف لهذا الرسول ﷺ، والتوكيد.

فقال ﷻ: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾، المراد به: ضوء النهار كله؛ لأن النهار مضيء كله، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، أي: سكن فيه كل شيء، فجعل الله الليل سكنًا،

---

(١) أخرجه مسلم (٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ﷻ: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقيل: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، أي: إذا أظلم، وغطى بظلامه الكون، وضياء النهار وظلام الليل؛ لمصالح العباد؛ ليسكنوا في الليل، ويتحركوا في النهار؛ لمعاشهم، ومصالحهم، وهما من أعظم نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على عباده، فلم يجعل سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الليل دائمًا، ولم يجعل النهار دائمًا، وإنما جعلهما يتعاقبان على العباد لمصالحهم، فالنهار لحركاتهم، ومعاشهم، والليل لهدوئهم، وراحتهم، وفي الليل مزية للصلاة، والعبادة، والتهجد أكثر من غيره.

وجواب القسم هو في قوله ﷻ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، وفي قراءة أخرى «مَا وَدَعَكَ»، أي: ما تركك؛ وذلك لأن الوحي فتر عن رسول الله ﷺ، ولم يأته جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فضاق صدر النبي ﷺ من انقطاع الوحي، وتكلم بعض الناس، وقالوا: إن رب محمد قد جفاه، حتى قال بعضهم: ما نرى شيطانك إلا قد جفاك، فهم يصفون ما يأتي على النبي ﷺ من الوحي بأنه من الشيطان، فضاق صدر النبي ﷺ، لا شكًا في ربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنما لكلام الناس في ذلك، فالله جَلَّ جَلَالُهُ أقرَّ عينه، وقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾، كما يقولون، ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾، أي: ما أبغضك، وهذا نفي لما قالوه في حق النبي ﷺ، فما تركك، ولا أبغضاك بل هو يوالي من نعمه عليك.

ثم بيَّن له أن ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له خيرٌ مما في الدنيا، وأن ما عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خيرٌ، وأبقى، قال ﷻ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾، ما أعد الله له في الجنة خيرٌ له مما أعطاه في الدنيا؛ لذلك لم يبسط سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عليه الدنيا كما يبسطها على الملوك، والرؤساء؛ لكرامته على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الدنيا زائلة، وخداعة، والآخرة باقية.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾، أي في الآخرة، ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾، عن الله ﷻ، وكذلك يعطيك في الدنيا، وقد صدق الله ﷻ وعده، فنصره عبده، ورسوله، وهيأ له الأنصار الذين أحاطوا به، ونصروه، ونشروا دينه في مشارق الأرض، ومغاربها، فهذا مما أعطاه الله ﷻ لنبيه ﷺ، وأعطاه من المعجزات ما لم يعطه لغيره، وأعظم معجزة هي: القرآن الكريم، فهو المعجزة الخالدة الباقية، والتي تحدى به الله ﷻ الإنس، والجن أن يأتوا بمثلها، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، فعجزوا عن ذلك كله، وهذا أكبر آية دالة على رسالته ﷺ، وصدق نبوءته.

ثم إنه ﷻ عدد نعمه عليه مقررًا لهذا الوعد الكريم، قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾، فهذه نعم من الله ﷻ على نبيه ﷺ، فالذي أعطاك هذه النعم، سيعطيك أجل، وأعظم منها.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾، لأن النبي ﷺ كان يتيمًا، مات أبوه، وهو في بطن أمه، وماتت أمه، وهو في السادسة من عمره ﷺ، فبقي ﷺ بدون أم، ولا أب، فكفله جده عبد المطلب، ولما حضرته الوفاة عهد به إلى عمه أبي طالب، فكفله أبو طالب، وهو صغير، وأيده، وناصره بعد البعثة، وحماه من أذى قومه، وهذا من تسخير الله ﷻ له، وإلا فإن أبا طالب كافر مشرك، ولكن الله ﷻ عطفه على هذا اليتيم، وعطفه على هذا الرسول ﷺ لما بعثه، فحمى رسول الله ﷺ حماية تامة، فلم يستطيعوا الوصول إلى الرسول ﷺ؛ لحماية الله ﷻ له، وتسخيره ﷻ لأبي طالب، وكان رجلًا شريفًا مهابًا مطاعًا في قومه، جعله الله ﷻ وقاية للرسول ﷺ من أذاهم.

قال ﷻ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾، أي: لا تعرف شيئًا من الوحي، قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وليس المراد بالضلال ضلال الكفر، وإنما المراد بالضلال: الجهل بالشرع، والوحي.

قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت: ٤٨]، قال ﷻ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣]، فالله سبحانه وتعالى هو الذي علم رسوله ﷺ، وهداه من الحيرة، وبصره طريق الحق، وهذه أكبر نعمة، ومنَّة.

قال ﷻ: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا﴾، العائل هو: الفقير، والعَيْلة هي: الفقر، فرسول الله ﷺ ما كان عنده شيء، فأغناه الله سبحانه وتعالى بما فتح عليه من الفتوحات، وفاء عليه من الأموال التي صرفها ﷺ في الدعوة إلى الله ﷻ، وفي مصالح المسلمين، ومكنه بذلك، فالمال عصب الحياة، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ ما يعينه على حمل هذه الرسالة، وتبليغها للناس، والإنفاق في سبيل الله، وكان ﷺ عائلًا لا يملك شيئًا، فأتته الغنائم، وكانت عونًا له على طاعة الله سبحانه وتعالى، وتمكينًا له للدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله.

ثم إن الله سبحانه وتعالى نهاه عن أن ينسى هذه النعم، ولا يعطف على الأيتام، ولا السائلين، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، فكما كنت يتيمًا، وأحسن الله سبحانه وتعالى إليك، وأنعم عليك، فاعطف على يتامى الناس؛ ولذلك يجب إكرام اليتيم، والإنفاق عليه، وجبر يتمه، واليتيم من الآدميين هو: من مات أبوه، وهو دون البلوغ، إما إذا بلغ فإنه قد زال اليتم.

عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قال: حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «لاَ يُتْمَ بَعْدَ احْتِلاَمٍ وَلاَ صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ»(١)، وأما اليتيم من البهائم هو: من ماتت أمه، وهو صغير.

﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾، بل أكرمه، واعطف عليه، وتذكر حالك يوم أن كنت يتيمًا، فآو اليتيم؛ لأنه فاقد لعطف، وتربية الأب، والقيام عليه.

وهذا عامٌ للمسلمين في أن يحسنوا إلى اليتامى، إن لم يكن لهم أموال، فإنهم ينفقون عليهم، وإذا كان لهم أموال يحافظون عليها، وينفقون عليهم منها حتى يكبروا، فمن الإحسان لليتيم: حفظ ماله إذا كان له مال، حتى يسلم إليه عند بلوغه، ورشده، ولا يضيع ماله، وهو يتيم، فهو لا يستطيع حفظ نفسه، وكذلك لا يستطيع حفظ ماله.

قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، السائل هو من يسأل للحاجة، والفقر، فيعطى، عن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«للسَّائِلِ حَقٌّ، وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ»**(٢). قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ - ٢٥].

فإذا لم تقدر على إعطائه، فقل له قولًا طيبًا، ولا تنهره، وتزجره، بل اعطف عليه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٧٣)، والفظ له، والطبراني في الأوسط (١/ ٩٥)، والبغوي في شرح السنة (٩/ ١٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٦٥)، واللفظ له، وأحمد في المسند (٣/ ٢٥٤)، والطبراني في الكبير (٣/ ١٣٠).

وقيل : المراد بالسائل هو سائل العلم الذي يسأل عن المسائل العلمية ؛ ليستفيد منها ، والآية عامة ، وسائل العلم له حق إلا ، إذا كان سؤاله متعنتًا ، أو لا فائدة فيه ، فإنه يوجه إلى تركه ، وأما إذا كان سؤاله سؤال استرشاد ، فإنه يرشد.

ثم قال ﷻ : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ ، تحدث بنعم الله بلسانك ؛ لأن هذا من الشكر ، وكذلك من الشكر : الاعتراف بها بالقلب ، ومن الشكر على النعمة : إنفاقها في طاعة الله ﷻ ، والاستعانة بها على طاعة الله.

هذاوبالله التوفيق ، وصلى الله على نبينا محمد.

الدرس السابع بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح: ١ - ٨].

قوله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، أي: قد شرحنا؛ لأنه إذا دخل النفي على إثبات قرر الإثبات، فقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، أي قد شرحنا لك صدرك، أي: وسعناه لقبول العلم، والإيمان، قال ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، أي: يوسعه للإسلام، ويفرح به، ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، أي: يضيق، فالشقي يضيق بالعلم، ويضيق بذكر الله ﷻ، ولا يقبل، بخلاف المؤمن، فإنه ينشرح صدره، قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨].

فانشراح الصدر علامة على الإيمان، وضيق الصدر علامة على الضلال، فالذي يضيق صدره عند الذكر، وعند الدعوة إلى الله ﷻ، ويضيق صدره عند الوعظ، والتذكير، فهذا شقي، وهذه علامة على ضلاله، وإما إذا اتسع

الصدر لذكر الله ﷻ، فهذا دليل على السعادة، والهداية.

والشرح هنا: شرح معنوي، قال ﷻ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٢٢]؛ ولهذا لما خاطب الله ﷻ نبيه موسى عليه السلام، حين كلمه، وأرسله إلى فرعون قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه: ٢٥]، فأول ما دعا به ربه عند تحمل الرسالة ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾﴾ [طه: ٢٥ - ٢٩].

فالإنسان بحاجة إلى من يساعده، وأحسن من يساعدك هو قريبك، ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢]، فاستجاب الله ﷻ له، وتقبل دعاءه، قال ﷻ: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٣٦].

فالحاصل: أن أول ما دعا به موسى عليه السلام هو قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ لأجل أن يتحمل هذا الحمل الثقيل، ولأجل أن يواجه فرعون؛ لأن فرعون طاغ، وجبار، فلا يضيق صدره إذا قابل فرعون بما يقابله، بل يتسع صدره، والله ﷻ قد منَّ على نبينا محمد ﷺ بذلك، فقال ﷻ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

ثم قال سبحانه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾﴾، قد غفر له الله ﷻ ما تقدم من ذنبه، وما تأخر، قال ﷻ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ٢].

وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾﴾، أي: أثقلك، والله ﷻ وضعه عنك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، وأتم نعمته عليك.

ثم قال ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، رفع الله ﷻ ذكر هذا الرسول ﷺ في الدنيا، والآخرة، فلا يُذكر الله ﷻ إلا ويُذكر معه رسول الله ﷺ، وهذا من رفعه ذكره، وذلك في الأذان، والإقامة، والخطبة، والتشهد في الصلاة، والدخول في الإسلام، فلا يدخل أحدٌ في الإسلام حتى يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهو يتكرر دائمًا، وأبدًا منذ أن شرع الأذان في جميع أرجاء العالم كلها تصدح بـ «أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله»، وتصدح بهذا منائر العالم الإسلامي في مشارق العالم، ومغاربه، وهذا من أكبر آيات الله ﷻ، يسمعه من قرب، ومن بعده، وحتى الآن صار في وسائل الإعلام، وفي الإذاعات، يصدح -ولله الحمد- على رغم أنوف الكفرة، ولا يقدرون على منعه.

فلا يذكر الله، وإلا يذكر معه هذا الرسول ﷺ، وهذا يكفي في ذكره ﷺ عن إحداث البدع لذكره بزعمهم، فالذين يحدثون بدعة المولد، ويقولون: لأجل أن نذكر رسول الله ﷺ، فهذه ذكرى.

فهل رسول الله ﷺ لا يذكر إلا في يوم في السنة؟، إن الرسول ﷺ يذكر دائمًا، وأبدًا، وفي مجالات كثيرة، فيذكر خمس مرات في اليوم في الأذان، بأعلى صوت على رؤوس المنائر، والمرتفعات، ويذكر في الخطب، في الجمع، والأعياد، فهذا من رفع ذكره.

ثم قال ﷻ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، هذا وعد من الله ﷻ أنه كلما جاء العسر، جاء اليسر، فلا يدوم العسر أبدًا، قال ﷻ: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**واعْلَمْ أنَّ النَّصر مَعَ الصَّبْرِ، وأنَّ مَعَ الكَرْبِ الفَرَجِ، وأنَّ مَعَ العُسْر يسْرًا**»[(١)].

وكرره الله سبحانه وتعالى في آيتين: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾، فالعسر واحد، لكن اليسر يسران؛ لأنه نكرة يقتضي التكرار، فالعسر واحد، واليسر يسران؛ ولهذا عند نزول هذه الآية قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أبْشِرُوا أتاكُمُ اليُسْرُ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ**».

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾، فاليسر مقارن له، أي: كلما جاء العسر، جاء معه اليسر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «**لَوْ أَنَّ الْعُسْرَ دَخَلَ فِي جُحْرٍ لَجَاءَ الْيُسْرُ حَتَّى يَدْخُلَ مَعَهُ**»[(٢)].

فدائمًا العسر يعقبه اليسر -والحمد لله-، وهذا كله تطمين لرسول الله ﷺ وتطمين لأمته أنه مهما اشتد أذى الكفار، وتطاول الكفار، والمنافقون، والملاحدة، فإن تطاولهم سيزول، ويعقبه اليسر، والفرج بإذن الله سبحانه وتعالى، وهذا يقتضي أن المسلم لا ييأس، ولا يقنط من رحمة الله سبحانه وتعالى مهما اشتد به العسر؛ لأن الفرج قريب، وهو قرين العسر، فكلما يشتد العسر يشتد الرجاء.

ثم قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾، إذا فرغت من أشغالك الدنيوية، فانصب في العبادة، والنصب هو: التعب،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، واللفظ له، وأحمد في المسند (٥/ ١٩)، والطبراني في الكبير (١١/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٤)، والبيهقي في الشعب (١٢/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (١٢/ ٣٦٠).

ولا تقضي الفراغ في اللهو، واللعب، بل في العبادة، وذكر الله ﷻ.

عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ**»(١).

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾، وهذا يقتضي الحصر؛ بسبب تقديم المعمول على العامل، فالله ﷻ ما قال: «ارغب إلى ربك»، بل إنه ﷻ قال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾، فقدم الجار والمجرور؛ ليفيد الحصر، أي: اجعل رغبتك في الله ﷻ وحده، وهذا من التوحيد؛ لأن الرغبة إلى الله عبادة، والعبادة يجب إخلاصها لله ﷻ.

وقيل: إذا فرغت من الصلاة، فارغب إلى الله بالدعاء، والذكر، فأتبع الصلاة بالذكر.

فالحاصل: أن المسلم لا يضيع وقته إذا فرغ، وإنما يستغله فيما ينفعه في دينه، وفي دنياه؛ لأن الفراغ نعمة من الله ﷻ، المشغول لا يتمكن مما يتمكن منه الفارغ، فهو مشغول بما هو فيه، فالفراغ نعمة من الله ﷻ.

وصلى اللهم، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢).

الدرس الثامن بعد المائة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ١ - ٨].

هذه السورة العظيمة تتضمن العديد من آيات الله ﷻ، وبديع صنعه مما يقتضي ربوبيته، وإلوهيته، وشكره ﷻ.

قال ﷻ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾، أقسام أقسم الله ﷻ بها؛ لأن هذه الأقسام المقسم بها فيها عبر، وعظات، وآيات يلفت الأنظار إليها، والتأمل فيها.

فقوله ﷻ: ﴿وَٱلتِّينِ﴾، الواو: واو القسم، و«التّين» مقسم به، وكذلك بقية الآيات، والتين هو: الفاكهة المعروفة، أقسم الله ﷻ بها؛ لما فيها من العبر، والمنافع، ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ﴾، الزيتون كذلك، وهو: الزيتون الذي يعصر منه الزيت الذي يؤتدم به، ويستصبح به، وينتفع به، وهي شجرة مباركة، كما قال ﷻ: ﴿شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ [النور: ٣٥].

قال ﷻ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾، الطور هو: الجبل، والمراد هنا: الجبل الذي كلم الله ﷻ عليه نبيه موسى عليه السلام، و«سينين»، إضافته إلى سيناء، فـ «سينين، وسيناء» بمعنى واحد، وقرئ «وَطُورِ سَيْنَاءَ».

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾، وهو: مكة المكرمة، وسمي أمينًا؛ لأن من دخلها كان آمنًا، فالله ﷻ جعله آمنًا، قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٦٧]، وقال ﷻ: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وهذا من آيات الله ﷻ، حتى في وقت الجاهلية كانوا يتقاتلون، ولكنهم إذا دخلوا في الحرم امتنعوا عن القتال، حتى إن الرجل يلقى قاتل أبيه، ولا يتعرض له، حتى يخرج من الحرم.

وقد ذكر العلماء أن الحكمة من تخصيص هذه المواطن في القسم: أنها مواطن الأنبياء، ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١﴾، يراد به: بلاد الشام، التي بها بيت المقدس التي بعث الله ﷻ منها عيسى ابن مريم عليه السلام، ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾، هو: الجبل الذي كلم الله ﷻ عليه نبيه موسى عليه السلام، و﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾، هو البلد الذي بعث منه محمدًا ﷺ، فالله ﷻ خصها بالذكر، وأقسم بها؛ لأنها مبعث الأنبياء الثلاثة من أولى العزم: عيسى عليه السلام، وموسى عليه السلام، ومحمد ﷺ.

وقد جاء في التوراة إشارة إلى هذا، وهي: قوله: «ظهر الله في سيناء، وأشرق من سعير، واستعلم من فاران».

فظهور الله من سيناء يراد به: الجبل الذي كلم الله ﷻ عليه نبيه موسى عليه السلام، وأشرق من سعير، وهي: بلاد الشام، والتي بعث منها عيسى

ابن مريم عليه السلام، واستعلم من فاران، وهي: مكة، فجبال مكة تسمى فاران، بعث منها رسوله، وخاتم النبيين محمدًا ﷺ، فهذه بلاد معظمة، بعث الله سبحانه وتعالى منها ثلاثة من أولي العزم من الرسل.

وجواب القسم هو: قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، واللام للقسم، و«قد»: حرف تحقيق، ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: جنس الإنسان، ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، في أحسن صورة فأحسن صورة هي صورة الإنسان، وأحسن قامة هي قامة الإنسان، فهو أحسن المخلوقات باعتداله، وتناسب أعضائه، وحواسه، وجمال صورته.

فالإنسان أجمل المخلوقات(١)؛ لأن الله سبحانه وتعالى يريد به شيئًا، وهو أن يعبده سبحانه وتعالى، فأنعم الله سبحانه وتعالى عليه بجمال الصورة، وحسن المظهر، وأعطاه العقل الذي يميز به بين الضار، والنافع، والطيب، والخبيث، وأعطاه خصائص ليست لبقية المخلوقات، فجعله على هذا الشكل الجميل، يمشي على رجلين معتدلًا، مستويًا، كما قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

وقال ﷻ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤]، على أحد التفسيرين: ﴿فِى كَبَدٍ﴾، أي: في اعتدال القامة، وأحسن صورة.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند (٣٢/ ٢٢١)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (٧/ ٣١٦)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤/ ٤٠٩)، من حديث عَمْرِو ابْنَ الشَّرِيدِ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تبع رَجُلًا مِنْ ثَقِيفٍ، حَتَّى هَرْوَلَ فِي أَثَرِهِ، حَتَّى أَخَذَ ثَوْبَهُ، فَقَالَ: «ارْفَعْ إِزَارَكَ». قَالَ: فَكَشَفَ الرَّجُلُ عَنْ رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي أَحْنَفُ، وَتَصْطَكُّ رُكْبَتَايَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ خَلْقِ اللهِ ﷻ حَسَنٌ».

قال ﷻ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ﴾، أي: أرجعناه، ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، فيه معنيان:

المعنى الأول: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾، أي: إلى الهرم، والكبر، فتتغير صورته، وتتغير ملامحه، ويخف عقله، أو يفقد، قال ﷻ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

والمعنى الثاني: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ﴾، أي: الكافر، ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، أي: إلى النار.

وعلى المعنى الأول، فإنه عامٌ لكل إنسان: المؤمن، والكافر، يدركه الهرم، والكبر، وعلى المعنى الثاني أنه خاصٌ بالكافر الذي عصى الله، وكفر به سبحانه وتعالى، فإن الله سبحانه وتعالى يرده في أسفل سافلين في النار.

وهذا المعنى أرجح من المعنى الأول؛ بدليل قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، فيقابل الذين آمنوا: الكفار، أما كبر السن فهذا لا يختص به أحد، فالمؤمن والكافر كلهم سواء، فهذا لا يمكن الاستثناء منه، إنما الاستثناء يناسب المعنى الثاني.

وقد قال ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، آمنوا بالله جل جلاله ربهم، وخالقهم، وإلههم، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، الأعمال الصالحة داخلة في الإيمان، فلا يكون إيمان بدون أعمال صالحة، ولكن نص عليها؛ من أجل الاهتمام بها، كما قال ﷻ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فالصلاة الوسطى داخلة في الصلوات، ولكن الله سبحانه وتعالى خصها بالذكر؛ لأهميتها.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾، أجرٌ عند الله سبحانه وتعالى، لا يعلمه إلا الله، و﴿أَجْرٌ﴾، هنا

نكرة؛ للتفخيم والتعظيم، فلا يعلمه إلا الله ﷻ، وهو بحسب أعمالهم، ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع، فأجرهم متواصل إلى أبد الآباد في الجنة بخلاف ما يكون في الدنيا، وإن طاب، وإن لذَّ، فإنه ينقطع، وأما نعيم الآخرة فإنه لا ينقطع، كما أن عذابها -أيضًا- لا ينقطع.

ثم قال ﷻ: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾، أيها الإنسان، ﴿بَعْدُ﴾، أي: بعد ما عرفت هذه الآيات، وهذه النعم التي أنعم الله ﷻ بها عليك، فما السبب الذي يجعلك تكذب؟ ﴿بِالدِّينِ﴾، أي: بالحساب، وهذا في منكري البعث، فما الذي يحملك على التكذيب بالبعث، والحساب بعد ما عرفت قدرة الله ﷻ الذي خلقك من عدم؟، أليس قادرًا على أن يعيدك؟ بلى. قال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧].

فكل شيء عليه هين ﷻ، ولكن هذا من باب مخاطبة العقول، أن الذي قدر على البداءة من عدم قادر على الإعادة من باب أولى.

ثم قال ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴿٨﴾﴾، وهذه حجة أخرى على البعث، والحجة الأولى: البداية دليل على الإعادة من باب أولى.

والحجة الثانية هي: قوله ﷻ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾، فمن حكمته ﷻ: أن جعل البعث والحساب؛ لئلا يفلت الظالم الذي أفنى حياته في الكفر، والإلحاد، ثم ينتهي، ولا يحاسب، ولا يجازى، فهذا لا يليق بحكمة الله ﷻ، وكذلك المؤمن الذي أفنى حياته في طاعة الله ﷻ، وعبادته، ينتهي به الموت، ولا يعاد، ولا يجازى، وهذا يتنافي مع حكمة الله ﷻ.

فالذي ينكر البعث يجحد حكمة الله ﷻ، ويطعن فيها، فهو ﷻ أحكم الحاكمين، فلا يليق به أن يترك عباده يعملون في هذه الدنيا من الخير، أو الشر، أو الكفر، أو الإيمان، ثم ينتهون نهاية واحدة، ولا يحاسبون، فهذا لا يليق بحكمة الله ﷻ؛ لأن هذا من العبث الذي ينزه الله ﷻ عنه، قال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦]، فتعالى الله ﷻ عن هذا العبث، وتنزه ﷻ.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.

الدرس التاسع بعد المائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ
بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ
رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ
بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ
﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ
وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ١ - ١٩].

ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة، كيف نبئ الرسول ﷺ، وكيف أُرسل، وبماذا أُرسل، وأن جبريل عليه السلام لما أتى إلى الرسول ﷺ، وهو يتعبد في غار حراء، أتاه في صورة رجل لا يعرفه، وقال له: «**اقْرَأْ**»، فأجاب الرسول ﷺ «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، أي: لا أحسن القراءة من قبل، فهو أُمِّي، قال عز وجل: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، فغطَّاه جبريل عليه السلام مرة ثانية، أي: جذبه بشدة، وقال له «**اقْرَأْ**»، قال ﷺ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**»، ثم غطَّه المرة الثالثة، ثم أرسله، وقال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فحفظها النبي ﷺ،

وذهب بها إلى بيته فزعًا خائفًا من هذا المشهد الذي لم يعتده، وقال لزوجته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، «زَمِّلُونِي، زَمِّلُونِي»، أي: غطّوني، فسألته عما حدث له، فقال لها ﷺ: «قَدْ خَشِيت عَلَى نَفْسِي»، ثم ذكر لها ما جرى له، فطمأنته رضي الله عنها، وقال له: «كَلَّا أَبْشِرْ فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»، فاستدلت رضي الله عنها بصفاته ﷺ الكريمة على أن الله سبحانه وتعالى يكرمه، وما هذا الذي حصل من كرامته على الله سبحانه وتعالى، وطمأنته بذلك رضي الله عنها.

ثم ذهبت به إلى ابن عمها -ورقة بن نوفل-، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ الكتب، وعرف التوراة، والإنجيل، وعرف نبوءات الأنبياء، ، فقالت خديجة رضي الله عنها: «أَيْ اِبْن عَمٍّ اِسْمَعْ مِنَ اِبْنِ أَخِيكَ»، فقال ورقة: «اِبْنَ أَخِي مَا تَرَى؟»، فقرأ عليه الآيات التي سمعها من الملك، فلما سمعها ورقة قال له: «هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى»: أي: الرسول، وهو: جبريل عليه السلام، فاطمأن رسول الله ﷺ، وذهب عنه الروع، ثم تواصل عليه الوحي بعد ذلك[(١)].

فقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾، أمره بالقراءة، فلا يمكن أن يتعلم الإنسان، وهو لم يقرأ، فيقرأ كتاب الله سبحانه وتعالى، وأحاديث الرسول ﷺ، ويقرأ الفقه في دين الله-فقه العقيدة، وفقه العبادة، والمعاملات-، فلا أحد يأتيه العلم بدون قراءة.

﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ أي: مستعينًا باسم الله سبحانه وتعالى على القراءة، وقوله: ﴿رَبُّكَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٣، ٤٩٥٣، ٦٩٨٢)، ومسلم (٢٥٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

طمأنينة له بأن ربه ﷻ سيعتني به.

ثم قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فمن صفات الله ﷻ: الخلق، وتفرد الله به، فلا أحد يخلق أبدًا، ولا يستطيع أحد أن يخلق ذرة، ولا ذبابة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

وكل علماء الطب، وأهل الاختراع، لا يخلقون ذبابة؛ لأن الخلق من خصائص الله، وصفات الله ﷻ، والذي يخلق هو الذي يستحق العبادة، قال ﷻ: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧]، قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، فهذا من براهين التوحيد، أنه لا يخلق إلا الله ﷻ، فله الخلق، والأمر، قال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فإذا كان له ﷻ الخلق، فله الأمر، أي: الشرع، والأمر، والنهي، وأما غيره فليس له أمر، ولا يستحق العبادة.

وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، عامة، أي: خلق كل المخلوقات، ثم إنه ﷻ خص الإنسان، فقال ﷻ: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾، أي: جنس الإنسان، ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾، أي: من دم؛ لأن النطفة حينما تُقذف في رحم المرأة تبقى أربعين يومًا نطفة، ثم تتحول إلى علقة، تعلق في الرحم، أي: إن هذا المَنِيِّ يتحول إلى دم، ثم إن هذا الدم يتحول إلى مضغة، وهي: قطعة لحم، ثم هذه المضغة تخلق فيها الأعضاء، والسمع، والبصر، والعصب، ثم ينفخ فيه الروح في الأربعين يومًا الثالثة، فيصبح حَيًّا بعد أن كان ميتًا، وتدب فيه

الروح[١]، ويتحرك، هذا من آيات الله سبحانه وتعالى.

ثم قال عز وجل: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، أعادها مرة ثانية، ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾، ومن كرمه سبحانه وتعالى: أن أوحى إليك، وعلمك؛ لتُعلم، ولتنذر، وتبشر، فهذا من كرمه سبحانه وتعالى.

قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤﴾، عَلَّم بالقلم الذي يُكتب به، والقلم الذي في أيدينا من آيات الله سبحانه وتعالى، فنكتب به العلم، والديون، والتاريخ، ويحفظ علينا العلم، فالكتابة قيدٌ للعلم، وهذا من آيات الله سبحانه وتعالى، ومن وسائل التعليم، والكتب على اختلافها من قرآن، وأحاديث، ولغة، وفقه، كلها مكتوبة بالقلم.

ثم قال: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾، فالإنسان في بداية أمره لا يعلم أي شيء، قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨]، فعلمك الله سبحانه وتعالى أيها الرسول ما لم تعلم صلى الله عليه وسلم.

قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣]، فهذه منّة من الله سبحانه وتعالى أن: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، من العلم الشرعي، والعلم الدنيوي الذي يدرك به مصالحه، فكله من تعليم الله سبحانه وتعالى، وهذا خاصٌ بالإنسان، ومن نعم

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٣٢، ٧٤٥٤، ٣٢٠٨)، واللفظ له، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ**»... الحديث.

الله ﷻ على الإنسان أن الله علمه ما لم يعلم.

ثم أن الله ﷻ بيّن حالة هذا الإنسان الكافر، أو الظالم مع هذه النعم، فقال ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، فالسبب في كون الإنسان يطغي: أنه قد رأى نفسه استغنى عن الله ﷻ، وهو في الحقيقة ضعيف، فقير، لكنه أُعجب بنفسه لما تعلم، وصار له مال، وهذه هي طبيعة الإنسان -إلا من رحم الله-.

وقوله ﷻ: ﴿أَن رَّءَاهُ﴾، أي: رأى نفسه، وإلا هو ما استغنى عن الله ﷻ، ولكنه رأى من نفسه أنه استغنى.

ثم توعد ﷻ هذا الإنسان، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾، أي: الرجوع إليه يوم القيامة، وسيجازي هذا الإنسان الكفور الذي لم يعترف بنعم الله ﷻ، وطغى، والطغيان هو: مجاوزة الحد، فالإنسان قد تجاوز حده، وكل شيء تجاوز حده انقلب إلى ضده -كما في المثل-، والمفروض أن الإنسان إذا تعلم العلم فإنه يتواضع؛ لأن العلم يكسبه التواضع، به يعرف العبد بالله، ويُعَرف العبد بحالته، وضعفه، فيتواضع لله، ويتواضع مع عباد الله، لكن هناك من الناس من يخرج عن هذا إلى الطغيان، والإعجاب بنفسه، والكبر، وغير ذلك.

ثم قال ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾، سبب نزول هذه الآيات: أن أبا جهل -قبحه الله- لما رأى النبي ﷺ يصلي عند الكعبة هدده بأن يقتله إن عاد للصلاة؛ ليمنعه من الصلاة، ومن عبادة الله ﷻ.

و﴿يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا﴾، أي: محمدًا ﷺ، وهل الصلاة ذنب؟ لا، بل هي

عبادة، وهي الواجب على الإنسان، فلا ذنب للرسول ﷺ إذا صلى، وهذا الإنسان الكافر لا يريد من الرسول ﷺ أن يصلي، وهذا من الطغيان، فقال أبو جهل: «**وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيته يُصَلِّي كَذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَته، وَلَأُعَفِّرَنَّ وَجْهه فِي التُّرَابِ**».

فعاد الرسول ﷺ يصلي عند الكعبة، فجاء؛ لينفذ تهديده، فمنع الله سبحانه وتعالى رسوله بالملائكة، ولم يستطع، وقريش في دار الندوة ينظرون إليه ماذا يصنع، فشاهدوه قد تقهقر، وصار يدفع بيده شيئًا لا يرونه، فلما سألوه، قال لهم: رأيت نهرًا من النار بيني وبين محمد، ورأيت أهوالًا، فخاف على نفسه، وقريش تنظر إليه، وحمى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ من كيده.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ، قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا»(١).

قال ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ﴾، أي: محمد ﷺ، ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾، ومعناه: أنك أنت أيها الكافر على الضلال، وهو على الهدى، فهل الذي على الهدى يُمنع؟.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨).

﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾، يأمر بتقوى الله ﷻ، فهو على هدى من الله، ويأمر بطاعة الله، أما أنت أيها الكافر، فأنت على ضلال، وتأمر بالكفر -والعياذ بالله- فشتان بينكما.

ثم قال الله ﷻ عن أبي جهل: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾، أي: أبو جهل كذَّب بالحق، وكذَّب رسول الله محمدًا ﷺ، وتولى عن العمل، فلم يعبد الله ﷻ، ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ﴾، أي: بالقول، ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾، بالفعل، فجمع بذلك بين الجريمتين: الكذب، والتولي، في مقابل من كان «على الهدى»، «وأَمَر بالتقوى»، والفرق بينهما واضح.

قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾، هذا الكافر الطاغية، ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾، أي: أن الله ﷻ يرى ما يفعل، ويطلع عليه، وأن الله ﷻ ليس بغائب عنه، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ صنيعه، وكفره، وتهديه لعبده، ورسوله عن طاعة الله ﷻ.

ثم إن الله هدده، فقال ﷻ: ﴿كَلَّا﴾، فهي كلمة ردع، وزجر، ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾، ينتهي عن جرمه، وتهديده لرسولنا ﷺ، ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾، وهي مقدمة رأسه، يقاد بها، ويلقى في جهنم، ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾.

﴿لَنَسْفَعًا﴾، السَّفْعَ، معناه: الأخذ، والدفع بشدة، ويقاد بناصيته؛ إهانة له.

﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ﴾، ناصية أبي جهل، ﴿خَاطِئَةٍ﴾، فهي كاذابة في القول، خاطئة في العمل.

ثم قال ﷻ مهددًا له: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾، أي: المجتمع الذي ينتسب إليه، ويهدد رسول الله ﷺ به، ويقول: أنه سأدعو لنادي قريش، وأستعين بهم.

وبين الله أنه إذا دعا ناديه، فماذا يصنع الله به: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾، الزبانية، وهم: ملائكة العذاب، فما الفرق بين نادي قريش، وبين الزبانية، لا يتصوره أحد، ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

أي: ندعوا ملائكة العذاب تأخذه.

ثم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ: ﴿لَا تُطِعْهُ﴾، لا تطعه في تهديده، وتمتنع عن الصلاة، وعند بيت الله سبحانه وتعالى، ﴿وَٱسْجُدْ﴾، أي: صَلِّ، فعبر عن الصلاة بالسجود؛ لأنه أعظم ركن فيها، ﴿وَٱقْتَرِب﴾، لأن الساجد أقرب ما يكون إلى ربه سبحانه وتعالى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَقْرَب مَا يَكُون الْعَبْد مِنْ رَبّه وَهُوَ سَاجِد فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»[1].

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

(١) أخرجه مسلم (٢١٥).

الدرس العاشر بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾﴾ [القدر: ١ -٥].

قال الله سبحانه وتعالى مخبرًا عن وقت إنزال القرآن الكريم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، و﴿إِنَّآ﴾، ضمير يرجع إلى الله سبحانه وتعالى، وهو ضمير العظمة، ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، وضمير الغائب هنا يرجع إلى القرآن، أنزله الله جل جلاله بواسطة جبريل عليه السلام أمين الوحي إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي هذا دليل على أن القرآن مُنزل من عند الله سبحانه وتعالى، وليس مخلوقًا كما تقوله الجهمية، ومن سار في ركابهم من المعتزلة، وغيرهم، فالجهمية، والمعتزلة يقولون: إن القرآن مخلوق: لفظه، ومعناه؛ لأنهم ينفون الكلام عن الله سبحانه وتعالى، فهو ليس بكلام الله سبحانه وتعالى، وإنما هو كلام محمد صلى الله عليه وسلم.

والله سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، وهذا يشمل اللفظ، والمعنى، فالله جل جلاله تكلم به، وحمله جبريل عليه السلام، وأرسله به إلى محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليبلغه إلى الأمة، هذا هو المذهب الحق، وهو مذهب أهل السنة، والجماعة.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾، وقال في آية أخرى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦﴾ [الدخان: ٣ - ٦].

فقال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، ولم يُبيِّن هذه الليلة، أما في هذه السورة -سورة القدر- بيَّنها سبحانه وتعالى أنها ليلة القدر، وقال ﷻ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ وذلك لأن ليلة القدر من رمضان، فإذًا يكون القرآن قد أنزله الله سبحانه وتعالى في ليلة القدر من رمضان.

وسميت ليلة القدر؛ لأنها ذات قدر عظيم، ولأنه يقدر فيها أعمال السنة من حياة، وموت، وصحة، ومرض(١)، وهذا التقدير تقدير خاص حولي، وهو مأخوذ من التقدير العام المكتوب في اللوح المحفوظ، كما أن هناك تقديرًا عمريًا، وهو ما يُقدر، ويكتب على الجنين، وهو في بطن أمه، حين يُرْسَل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقي، أو سعيد(٢)، وهذا تقدير عمري، وهناك تقدير اليوم، فكل يوم يُقدر ما يجري

---

(١) كما روي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «إِنَّكَ لَتَرَى الرَّجُلَ يَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ، وَقَدْ وَقَعَ اسْمُهُ فِي الْمَوْتَى»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ [الدخان: ٤]، يَعْنِي: لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ يُفْرَقُ أَمْرُ الدُّنْيَا إِلَى مِثْلِهَا مِنْ قَابِلٍ». أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٧)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٢٥٤).
وعن عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ [الدخان: ٤] قَالَ: «أَمْرُ السَّنَةِ إِلَى السَّنَةِ إِلَّا الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ وَالشَّقَاءَ وَالسَّعَادَةَ». أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في السنة (٢/ ٤٠٧).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٣٣٢، ٧٤٥٤، ٣٢٠٨)، واللفظ له، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: «حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ =

فيه؛ كما في قوله ﷻ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، يميت، ويحيي، ويخلق، ويرزق، ويدبر ما يجري في هذا اليوم، وكل هذه التقديرات ترجع إلى التقدير السابق، وهو: التقدير العام المكتوب في اللوح المحفوظ.

والقرآن -كما هو معلوم- نزل على رسول الله ﷺ منجمًا بحسب الوقائع، والحوادث منذ أن بعثه الله ﷻ، إلى أن توفاه طيلة مدة الرسالة التي عاشها النبي ﷺ، وهي: ثلاث وعشرون سنة: ثلاث عشرة في مكة، وعشر سنوات في المدينة، فعلى مدار ثلاث وعشرين سنة ينزل القرآن على الرسول حسب الوقائع، والحوادث، يُبيِّن أحكامها، وتفاصيلها.

فمعنى قوله ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، وقوله ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾: أنه قد أُبتدئ نزول القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، ثم توالى نزوله على رسول الله ﷺ حتى تكامل في آخر حياته ﷺ، وبعض القرآن يسمى قرآنًا، والآية الواحدة تسمى قرآنًا، والسورة تسمى قرآنًا، فيطلق القرآن على كل القرآن، ويطلق على بعضه أنه قرآن.

ثم إن الله ﷻ عظم من شأن هذه الليلة، فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾، تفخيم لها، ثم بيَّن ﷻ ذلك، فقال ﷻ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، أي: أن العمل في هذه الليلة خيرٌ من العمل في ألف شهر، وهذا يدل على فضلها؛ ولذلك سميت بليلة القدر، وسميت بالليلة المباركة.

= المَصْدُوقُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ، وَأَجَلُهُ، وَرِزْقُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»... الحديث.

و﴿أَلْفِ شَهْرٍ﴾، يتكون منها ثلاث، وثمانون سنة، وأربعة أشهر، كلها إذا قضاها الإنسان في العمل الصالح، فإن العمل في هذه الليلة يعادل عمل ألف شهر، وهذا فضلٌ عظيم لمن وفقه الله ﷻ، ولكن المحروم منها لا يلقي لها بالًا، ولا يلتفت إليها، وتمر عليه كسائر الليالي، ولا يستفيد منها.

ثم أنهم اختلفوا في أي ليلة هي من رمضان، على أقوال كثيرة:

قيل: إنها أول ليلة من رمضان، وقيل: إنها آخر ليلة، وقيل: إنها ليلة السابع عشر، وقيل: إنها ليلة الحادي والعشرين، وقيل: إنها ليلة ثلاث وعشرين، وقيل: إنها ليلة السابع والعشرين من رمضان، وهذا القول هو أرجح الأقوال.

وعلى كل حال فمن اقتصر على ليلة واحدة، فإنه لا يضمن أن يدرك ليلة القدر، وأما من قام جميع ليالي الشهر فإنه قد أدرك ليلة القدر؛ لأنها تمر عليه، ولا شك، فلا يدرك هذه الليلة يقينًا إلا من قام جميع الليالي من رمضان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**(١).

وكان رسول الله ﷺ يتحرَّاها في العشر الأوسط من رمضان، وكان يعتكف فيها؛ طلبًا لليلة القدر، ثم تبيَّن له أنها في العشر الأواخر، فانتقل باعتكافه إلى العشر الأواخر يتحرَّى ليلة القدر، وقد بقي على اعتكافه في

(١) أخرجه البخاري (١٩٠١).

العشر الأواخر حتى توفاه الله[١] ﷻ، فيترجح أن هذه الليلة العظيمة في العشر الأواخر.

ولهذه الليلة فضائل:

أولًا: سماها الله: ليلة القدر، وسماها: ليلة مباركة، فهذا يدل على فضلها.

ثانيًا: نوه الله بشأنها، وفخم أمرها، فقال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾.

ثالثًا: قال ﷻ: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾.

رابعًا: قال ﷻ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾، مما يدل على فضلها، أي: يكثر نزولها في هذه الليلة، وتحضر عمل المسلمين، وتحضر في المساجد، وتساعد المسلمين، وتقوي عزائمهم على قيام هذه الليلة.

﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، جمع مَلَك، ﴿وَٱلرُّوحُ﴾، قيل: هو جبريل عليه السلام؛ لأن الله ﷻ سماه الروح الأمين، وقيل: الروح: صنف من الملائكة، ينزلون في هذه الليلة، وعطف الروح على الملائكة من عطف الخاص على العام؛ تنويًا بشأنه، مما يدل على عظمته.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٠٢٧) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَعْتَكِفُ فِي العَشْرِ الأَوْسَطِ مِنْ رَمَضَانَ، فَاعْتَكَفَ عَامًا، حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَهِيَ اللَّيْلَةُ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْ صَبِيحَتِهَا مِنَ اعْتِكَافِهِ، قَالَ: «مَنْ كَانَ اعْتَكَفَ مَعِي، فَلْيَعْتَكِفِ العَشْرَ الأَوَاخِرَ، وَقَدْ أُرِيتُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ ثُمَّ أُنْسِيتُهَا، وَقَدْ رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ فِي مَاءٍ وَطِينٍ مِنْ صَبِيحَتِهَا، فَالْتَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ، وَالتَمِسُوهَا فِي كُلِّ وِتْرٍ».

خامسًا: وصفها بأنها ﴿سَلَٰمٌ﴾، فالليلة كلها سلام، لا شر فيها، وذلك من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وما يجري فيها فهو سلام.

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾، إذا طلع الفجر انتهت هذه الليلة، فهي ليلة عظيمة مباركة، وهي خيرٌ من ألف شهر.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

الدرس الحادي عشر بعد المائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ
فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ١ - ٨].

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، أي: من اليهود، والنصارى؛ لأن أهل الكتاب منهم مؤمنون، فهم ليسوا سواء، كما قال ﷻ: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَاءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران: ١١٣ - ١١٤]، ففيهم مؤمنون، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهم الذين آمنوا برسول الله محمد ﷺ، فأضافوا إلى إيمانهم بالرسل السابقين إيمانهم بمحمد ﷺ، فآمنوا بعيسى بن مريم عليه السلام ، وآمنوا بمحمد ﷺ، فكتب الله تعالى لهم الأجر مرتين[1]، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص: ٥٤]، أي: أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله محمد ﷺ يؤتون أجرهم مرتين: مرة على إيمانهم بالرسل السابقين، ومرة على إيمانهم بمحمد ﷺ، وأما من كفر بالرسول محمد ﷺ فقد كفر بالأنبياء السابقين كلهم؛ لأن من كفر بنبي واحد، فقد كفر بجميع الأنبياء، والرسل، قال ﷻ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فأهل الكتاب صنفان: صنف مؤمنون، وصنف كافرون، وهذا فيه ردٌ على من يقول -الآن-: إن أهل الكتاب مؤمنون. وليسوا مؤمنين كلهم، إلا من قد آمن برسول الله محمد ﷺ، وأما من كفر بمحمد ﷺ فليس بمؤمن، وهو كافر في جهنم[2].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٩٧، ٥٠٨٣)، ومسلم (٢٤١)، واللفظ له من حديث أَبِي بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ**»... الحديث.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٤٠) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**».

قال ﷻ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾، المراد بالمشركين: من لا كتاب لهم من عبدة الأصنام، والمجوس، وغيرهم من الملاحدة، لم يكونوا ﴿مُنفَكِّينَ﴾، أي: منتهين عن ما هم عليه من الباطل، فكلٌ يدعي أنه على الحق، ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، أي: حتى يأتيهم الوحي الذي يُبين لهم المخطئ من المصيب، وهو: القرآن الكريم، فهو البيِّنة؛ ولهذا فسرها ﷻ بقوله: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: رسول الله محمد ﷺ، ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾، مطهرة من الشياطين، وهي: القرآن.

﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾: هذه الصحف فيها كتبٌ، ﴿قَيِّمَةٌ﴾، مكتوب فيها القرآن العظيم، وهي مطهرة من الشياطين، قال ﷻ: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]، وهم: الملائكة، أما الشياطين فلا تقربه، ولاتطيقه.

ثم قال ﷻ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهم: اليهود، والنصارى، ما لم يتفرقوا عن جهل، بل نزل الله عليهم التوراة، والإنجيل، ومع هذا تفرقوا مع كتبهم، فطبيعتهم التفرق -والعياذ بالله-؛ لأنهم يتبعون أهواءهم، ولا يتبعون كتاب الله ﷻ، فهذا شأنهم.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾، أي: بعد ما أنزل الله ﷻ عليهم التوراة، والإنجيل، وبعث إليهم رسله، ومع هذا تفرقوا.

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً،

وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ»(١).

وفي رواية: **قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»**(٢).

ولهذا سميت بالفرقة الناجية؛ لأنها نجت من الضلال، ومن النار، فأهل السنة والجماعة، هم الفرقة الناجية.

فأهل الكتاب من اليهود، والنصارى لم يتفرقوا عن جهل، بل قامت عليهم الحجة؛ ولذلك نهانا الله ﷻ عن أن نتفرق مثلهم، قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. فالاختلاف من طبيعة البشر، وخصوصًا الاختلاف في الاجتهاد، والاستنباط، ولكن يحسم هذا الاختلاف بالرجوع إلى كتاب الله ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، فمن كان على الدليل يؤخذ بقوله، ومن خالف الدليل يترك قوله، قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، فالرد إلى الله ﷻ، هو الرد إلى كتابه، وهو: القرآن، والرد إلى الرسول ﷺ، في حياته يرجع إليه ﷺ، وبعد وفاته يرجع إلى سنته التي تركها لنا، وتركنا عليها.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، وابن ماجه (٣٩٩٢)، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ١٤٠)، والطبراني في الكبير (١٨/ ٧٠)، والحاكم في المستدرك (١/ ٢١٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (٨/ ١٥٢)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

فإذا اختلفنا نعرض اختلافنا على كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، فما شهد له الكتاب، والسنة فهو حق، وما خالف الكتاب، والسنة فهو خطأ، لا يجوز الأخذ به، وإن قال به عالم من العلماء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»(١).

وفيه دليل على أن الحاكم عالم يخطئ، فليس معصومًا، أما الذين ينادون -الآن-، ويطلقون في الصحف، والجرائد، والمجلات، والإذاعات، والمحطات أن الاختلاف رحمة، وأن الدين واسع، وخذ بهذا القول الذي قال به عالم، فهذا من التيسير، فكل هذا كلام باطل، فالاختلاف موجود، والاجتهادات موجودة، ولكننا لا نأخذ إلا بما قام عليه الدليل من كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، أو أجمع عليه العلماء، وأما أن نأخذ ما يوافق أهواءنا، ولو كان مخالفًا للدليل، ونترك ما وافق الدليل؛ لأنه لا يوافق أهواءنا، فهذه هي طريقة اليهود، والنصارى، قال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، يحللون لهم، ويحرمون لهم، ويطيعونهم، ولا يرجعون إلى كتاب الله ﷻ، أما نحن فالأمر محسوم -والحمد لله-، قال ﷻ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠﴾ [الشورى: ١٠].

فلا ننكر أنه يوجد خلاف، وتوجد اجتهادات، ولكن ننكر أن يؤخذ بكل

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٧٤)، والترمذي (١٣٢٦)، واللفظ له، والنسائي (٥٣٨١)، وابن ماجه (٢٣١٤).

خلاف، وكل قول بدون عرض على الدليل، فهذا هو المنكر، ولا يفعل هذا إلا أصحاب الأهواء، الذين يتبعون أهواءهم، ويتصيدون من الأقوال ما يوافقها.

فلا يستغرب أن أهل الكتاب قد اختلفوا على رسول الله محمد ﷺ، فهذا اختلاف من الأصل، قال ﷻ: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، على ألسن رسلهم، فاختلفوا، وتفرقوا؛ لأنهم يتبعون أهواءهم، قال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠﴾ [القصص: ٥٠].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾، ما أُمِر جميع الخلق من أهل الكتاب، وغيرهم، ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، فجميع الرسل، وإن اختلفت شرائعهم إلا أن دينهم واحد، وهو التوحيد، الذي هو إفراد الله ﷻ بالعبادة.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، مخلصين له الدين من الشرك، والعبادة تسمى دينًا، ﴿حُنَفَآءَ﴾، جمع: حنيف، والحنيف هو: المائل عن الباطل، والمقبل على الحق كخليل الله إبراهيم عليه السلام، قال ﷻ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٠]؛ ولهذا تسمى ملة رسول الله محمد ﷺ بالحنفية؛ لأنها توحيد.

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾، نص ﷻ على الصلاة، والزكاة مع أنه أمر بإخلاص الدين، علمًا بأن الصلاة، والزكاة داخلان في الدين؛ لأهمية الصلاة، والزكاة؛ لأنهما يبعثان على الأعمال الصالحة، قال ﷻ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والزكاة تطهر الإنسان

من الشح، والبخل، فمن حافظ على الصلاة حافظ على دينه(١)، ومن أدى الزكاة أدى بقية الحقوق؛ لأنها تدربه على الخير، والصلاة عبادة بدنية، والزكاة عبادة مالية، فمن أقام الصلاة، وأدى الزكاة أقام الدين من باب أولى، ولو أنه فعل الخيرات، والطاعات، لكنه لايصلي، ولا يؤدي الزكاة فليس بمسلم؛ لهذا قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مانعي الزكاة، وهم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويصلون.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: **«وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا»**(٢). فقاتلهم رضي الله عنه حتى أخضعهم لحكم الله تبارك وتعالى.

قال عز وجل: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾، أي: من عَبد الله تبارك وتعالى مخلصًا له الدين، وأقام الصلاة، وأدى الزكاة، فإنه على دين القيّمة، أي: الملة القيّمة المستقيمة.

ثم بيَّن الله تبارك وتعالى جزاء الفريقين: جزاء الذين كفروا من أهل الكتاب، والمشركين، وجزاء الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهم: اليهود، والنصارى، كفروا، وهم أهل الكتاب؛ لأنهم لم يتبعوا الكتاب، ولم يعملوا بما فيه، ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وهم: عبدة الأوثان من الأشجار، والأحجار، والنار الذين ليس لهم كتاب.

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه مالك في الموطأ (٢/ ٩)، والبيهقي في السنن (١/ ٦٥٤) واللفظ له: **«أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رضي الله عنه كَتَبَ إِلَى عُمَّالِهِ إِنَّ أَهَمَّ أَمْرِكُمْ عِنْدِي الصَّلَاةُ مَنْ حَفِظَهَا أَوْ حَافَظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ وَمَنْ ضَيَّعَهَا فَهُوَ لِمَا سِوَاهَا أَضْيَعُ»**.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٠٠، ٦٩٢٥، ٧٢٨٤)، واللفظ له، ومسلم (٣٢).

ولم يفرق الله ﷻ بين أهل الكتاب، والمشركين، في حين أننا نجد أن بعض معاصرينا ممن يدعي العلم، والثقافة يقول: هناك فرق بين أهل الكتاب، والمشركين في الجزاء، ونقول: نعم، هناك بعض الفروق من جهة الأحكام الشرعية، لكن من جهة الجزاء عند الله ﷻ لا فرق بينهم، فكلهم كفار، وكلهم من أهل النار؛ لأنهم لم يعملوا بما في الكتاب، فصاروا من أهل النار.

﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، وجهنم طبقة من طبقات النار -والعياذ بالله-؛ لأن النار دركات، كما أن الجنة درجات، فالجنة علو، وارتفاع، وأما النار فهي انخفاض، وسفال؛ كما قال ﷻ: ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥]، قال ﷻ: ﴿فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، باقين فيها أبد الآباد، -والعياذ بالله-، فهم في عذاب شديد، لا طمع لهم في النجاة، والخروج منه؛ جزاء على كفرهم، والسبب: أنهم كفروا، والحكم إذا قُرِن بوصف دَّل على أن هذا الوصف علة ذلك الحكم.

ثم قال ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ﴾، أي: الذين كفروا من أهل الكتاب، والمشركين ﴿هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، أي: شر الخليقة، فدعك من قولهم: إن اليهود، والنصارى -الآن- تحضروا، وتقدموا، وترقوا، وصار لهم شأن في هذه الدنيا، فكل هذا لا ينفعهم عند الله ﷻ، فهم خالدون في النار، ولا ينفعهم ما حصلوا عليه في الدنيا من المخترعات، والصناعات، والثروات.

أما الآن فبعض الناس يمدحونهم، ويقولون: إنهم أخيار الناس؛ لأنهم

تقدموا، ولأنهم تحضروا، فهم يستدلون على خيريتهم بما هم عليه من زهرة الدنيا، ولكن الله ﷻ قال: هم ﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾؛ لأنهم لم يعملوا بالكتاب، ولم يستفيدوا منه، فالمسألة ليست بالانتساب إلى الدين، أو الانتساب إلى الصالحين، ولكن المسألة مسألة عمل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعِ بِهِ نَسَبُهُ»**(١).

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، اتبعوا كل الأنبياء، خصوصًا خاتم النبيين محمدًا ﷺ، وآمنوا به، وواصلوا العمل، والإيمان، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، فخير البرية هم المؤمنون، وأما الكفار هم شر البرية برغم ما هم عليه من التقدم، والحضارة، والازدهار الدنيوي، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإن لم يكن معهم مال، ولا زهرة دنيا، ولا حضارة، ولا تقدم، فهم خير البرية، وفوق الخلق عند الله سبحانه وتعالى، وذلك دون النظر إلى نسبهم، ودون نظر إلى ثروتهم، فالله سبحانه وتعالى لا ينظر إلى هذا، بل ينظر إلى عملهم(٢).

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فليس كل عمل يقبل، وإنما عمل الصالحات الموافقة للكتاب، والسنة، مع الإخلاص لله سبحانه وتعالى، فالعمل لا يكون صالحًا إلا إذا كان خالصًا لله سبحانه وتعالى، وموافقًا لكتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة نبيه ﷺ.

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»**.

قال ﷻ: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾، ليست جنَّة واحدة، وإنما جنَّات متعددة، ﴿عَدْنٍ﴾، أي: إقامة، يقال: عدن في المكان، أي: إذا أقام فيه[(١)] فهم مقيمون فيها، لا يرحلون منها، ولا تؤخذ منهم، ولا يؤخذون منها، باقية مستمرة في نعيم، وفي سرور.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، من تحت قصورها، وأشجارها الأنهار الطيبة اللذيذة لشرابهم، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، لا يرحلون عنها، لا يصيبهم هرم، ولا مرض، ولا خوف، ولا موت، ولا همٌّ، ولا حَزَن، بل هم في سرور دائم[(٢)].

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، ورضى الله عنهم أعظم من الجنة، قال ﷻ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أعطاهم، ولا تتطلع نفوسهم إلى زيادة عليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء ﴿لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾، وخافه، واتقاه.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٤/ ٢٤٨)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ١٩٢)، ولسان العرب (١٣/ ٢٧٩)، وتاج العروس (٣٥/ ٣٨١).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه مسلم (٢٢) من حديث أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا**».

الدرس الثاني عشر بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ١ - ٨].

يُخبر الله ﷻ عما سيحصل لهذه الأرض، فبعد أن كانت ساكنة مستقرة، ويعيش عليها الخلق، سيأتي عليها يوم ترتجف، وتتحرك، وتضطرب، وذلك عند قيام الساعة، ونهاية الدنيا.

قال ﷻ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾، فـ ﴿إِذَا﴾، ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿زُلْزِلَتِ﴾، أي: حُركت، واضطربت، ﴿ٱلْأَرْضُ﴾، أي: جميع الأرض، والآن يحصل زلازل، لكنها في أجزاء من الأرض، والزلازل التي تحصل الآن وقتها قصير، ومع هذا يحصل من الكوارث، والفزع عند الزلزلة ما الله به عليم، فكيف إذا زُلْزِلت الأرض كلها؟، فالأمر شديد؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]، وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٤]، وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦-٧]، فكل هذه الآيات بمعنى واحد، وإن اختلفت ألفاظها، فالأرض تضطرب عند قيام الساعة اضطرابًا شديدًا يتغير معه ما على وجهها، ويخرج ما فيها.

قال ﷻ: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، ما في بطنها من معادن، وأموات، فإنها تلفظها عند هذا الهول العظيم، ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾﴾، وهي الأشياء المخزونة فيها، والتي كانت تثقلها من كثرتها.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، جنس الإنسان، ﴿مَا لَهَا﴾، يسأل مستغربًا، ومتعجبًا ما الذي حصل لها، وما السبب الذي حركها؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾، أي: تنطق، وتتكلم؛ لأن الله ﷻ على كل شيء قدير، كل شيء يتكلم إذا أراد الله ﷻ.

فتخبر عما فعل على ظهرها من خير أو شر، وتشهد على الناس بما عملوا على ظهرها من خير أو شر.

والسبب: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾، أمرها الله ﷻ أن تخبر بما عمل عليها، وتشهد على الناس بما عملوا عليها من خير، أو شر، فأخبرت بذلك.

ثم بيَّن الله ﷻ حالة الناس في هذا اليوم، وأنهم ينقسمون إلى قسمين، فقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾، يصدرون من الموقف، وهو: المحشر، ﴿أَشْتَاتًا﴾، أي: متفرقين: المؤمنون جميعًا، والكفار جميعًا، فراقًا

لا اجتماع بعده، وكانوا في الدنيا متفرقين، ثم إنهم يتفرقون فراقًا لا لقاء بعده، قال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، يتفرقون، وذلك على حسب أعمالهم، قال ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٥ - ١٦]، وكما قال ﷻ: ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾، أي: متفرقين؛ ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، وفي قراءة أخرى: «لِيَرَوْا» مبني للمعلوم، والمعنى واحد، فكلٌ يرى ما قدم من خير، أو شر، وليس بإمكانه أن يبدل، أو يغير، أو يتراجع، أو يتوب، أو يستكثر من الأعمال الصالحة، أو يتوب من الأعمال السيئة.

ثم أنه فصل ذلك، قال ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾، أي: يعمل في الدنيا، ﴿مِثْقَالَ﴾، أي: وزن، ﴿ذَرَّةٍ﴾، وهي: النملة الصغيرة، وقيل: الهباءة في الهواء عند إشعاع الشمس، و﴿ذَرَّةٍ﴾، وهي أصغر شيء، فالعمل لا يهمل، ولو كان قليلًا، سواء كان خيرًا، أو شرًا.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، فالأعمال مضبوطة خيرها، وشرها، لا تضيع، ولا تنسى، يجدها صاحبها يوم القيامة.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا﴾، أي: عملًا صالحًا، ﴿يَرَهُۥ﴾، ففي هذا اليوم، يطلع على عمله، قال ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝١٣ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ

حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٤]، فيرى ما عمل، وإن ستره في هذه الدنيا، أو أخفاه، أو استصغره، فإنه يواجهه يوم القيامة، ويَرَاه، فإن كان خيرًا فإنه يُسَر، ويفرح به، ولو كان قليلًا، وقد ينجيه الله من النار بهذا القيل.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمرةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجدْ فَبِكَلِمَةٍ طيّبةٍ**».

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، يبصره عيانًا، ويستاء منه.

هذا ونسأل الله تعالى التوفيق لعمل الخير، واجتناب عمل الشر، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثالث عشر بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤
فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ
لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ
۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾ [العاديات: ١ - ١١].

قال ﷻ: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١﴾، العاديات هي: الخيل، أقسم الله سبحانه وتعالى بها؛ لعظم شأنها، وما فيها من آيات، ﴿ضَبْحًا﴾، هو: الصوت الذي يكون في صدر الفرس عندما تعدو.

قال ﷻ: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، وهي: الخيل التي توري النار، أي: توقد نارًا بحوافرها، فالخيل إذا عدت في أرض فيها حصباء، وفيها حصى يطير، ويضرب بعضه بعضًا فيقدح شررًا، وذلك من شدة العدو.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾، جمع: مغيرة، ﴿صُبْحًا﴾، من الإغارة على العدو، ويكون هذا في الغالب في وقت الصباح.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾، والإثارة هي: تحريك الأرض حتى يخرج منها النقع،

وهو: الغبار، ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ﴾، أي: بعدوها، ﴿نَقْعًا﴾، أي: غبارًا، كما قال الشاعر بشار بن برد:

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا ... وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهْ

وجاء في تفسير الآية أن المراد بها: الإبل، ولكن المشهور: أن المراد به: الخيل.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾، أي: توسطن بالراكب عليهن، ﴿جَمْعًا﴾، أي: جمع العدو، وجوف المعركة، وقلبها.

والآيات السابقة كلها أقسام، أقسم الله سبحانه وتعالى بالخيل، وصفاتها؛ لما فيها من العبر، والآيات، والنعمة على عباد الله سبحانه وتعالى.

عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الجَعْدِ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «الخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الخَيْرُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ: الأَجْرُ وَالمَغْنَمُ»(١).

وجواب القسم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: الكافر، ﴿لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، أي: يجحد نعمة الله، ويمنع ما أوجب الله عليه من الحقوق، ويبخل بذلك.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾، أي: على هذه الصفة القبيحة، ﴿لَشَهِيدٌ﴾، أي: يشهد على نفسه، ويصرح بذلك.

وقيل أن المراد بـ﴿وَإِنَّهُۥ﴾، أن الضمير يرجع إلى الله سبحانه وتعالى، أي: أن الله جل جلاله شهيدٌ على هذا الإنسان، فضمير الغائب في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يحتمل

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٠، ٢٨٥٢، ٣١١٩، ٣٦٥٤)، واللفظ له، ومسلم (٢٦، ٩٦، ٩٨).

رجوعه إلى الإنسان، وهذا هو الظاهر، ويحتمل رجوعه إلى الله.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ﴾، أي: المال؛ كما في قوله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: ترك مالًا كثيرًا، وكما قال ﷻ: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ۝٢٠﴾ [الفجر: ٢٠]، وذلك غريزة في الإنسان، والكافر يحمله حب المال على أن يبخل، وأن يجحد ما أوجب الله فيه، وأما المؤمن فتجود نفسه بالصدقات، وبالزكاة، وأفعال الخير، وبالتالي يكون له هذا المال خيرًا له دنيا، ودينًا، أما الكافر، فإن هذا المال يكون تعبًا في الدنيا، وعذابًا له في الآخرة، قال ﷻ: ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾ [التوبة: ٥٥].

ثم إن الله ﷻ وبخ هذا الإنسان، وذكره بالعاقبة، قال ﷻ: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ﴾ هذا الإنسان، وهذا استفهام، وإنكار، ﴿إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ﴾، إذا أخرجت الأموات من القبور، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾ [الانفطار: ٤]، أي: خرج ما فيها من الأموات بعد أن كانت هذه القبور صامتة، متماسكة على من تحتها.

فنسي هذا الإنسان، ولم يتذكر، ولم يستحضر هذا اليوم الذي يبعثر فيه ما في القبور، وهو من جملتهم.

قال ﷻ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾، من خير، أو شر، فيظهر ما في الصدور من النيات والمقاصد، ففي الدنيا لا يدرى عن الذي في صدور الناس، ولا يعلمه إلا الله، أما غير الله فلا يعلمون ما في صدور الناس من خير،

أو شر، وفي الآخرة يظهر ما في الصدور، قال ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩﴾ [الطارق: ٩]، أي: تظهر، ولا يخفى شيء من ذلك اليوم.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾، وهو: الله ﷻ، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿لَخَبِيرٌ﴾ ففي هذا اليوم يظهر ما كان خفيًا، فكان بهم ﷻ خبيرًا قبل أن يظهر ما في صدروهم، ولكن في هذا اليوم يظهر ما كانوا يخفونه، وما يعلمه الله ﷻ في صدروهم، يظهر علانية، ولا يمكن أن ينكروا، ويجحدوا ذلك، فالله ﷻ يعلم ذلك، والملائكة تشهد عليهم، والأرض تشهد عليهم، وكذلك جوارحهم تشهد عليهم، وجلودهم، بأن يختم الله على أفواههم، وتتكلم أعضاءهم، وجلودهم، قال ﷻ: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢١﴾ [فصلت: ٢١]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢﴾ [فصلت: ٢٢].

وهذا من رحمة الله ﷻ أن نبهنا لهذا اليوم، وبيّن لنا، حتى لا نغفل، ولا نذهل عن ذلك اليوم، ونستعد له بالعمل الصالح، ولم يتركنا ﷻ دون أن يخبرنا، ويبيّن لنا مستقبلنا.

نسأل الله أن يرزقنا الاستعداد لهذا اليوم، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.

الدرس الرابع عشر بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ١ - ١١].

قال ﷻ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، القارعة هي: القيامة، وسميت بذلك؛ لأنها تقرع الأسماع بهولها، وإزعاجها.

نبه إلى ذلك؛ ليستعد العباد لهذا اليوم، ولقائه؛ لأنه لا ينجي من أهواله إلا الأعمال الصالحة، فالمؤمنون لا يفزعون في هذا اليوم، قال ﷻ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

بينما شدة الهول، والإزعاج إنما تكون على الكافرين فقط؛ لأنهم لم يستعدوا لهذا اليوم، وليس معهم زاد من الأعمال الصالحة تؤمنهم من الخوف، ولذلك يهولهم، ويفزعون.

وقد كرر الله ﷻ ذكر هذا اليوم، فقال ﷻ: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ﴾، أي: أي شيء تعلمه عن القارعة، وعن أهوالها؟، والخطاب هنا لجنس الإنسان؛ لأننا في غفلة عن ذلك اليوم، ولا يأتي لنا على بال، ولا ذكر، كأننا آمنون منه، فالله ﷻ يذكرنا به؛ من أجل أن ننتبه، ونستيقظ من رقدتنا، ما دمنا في زمن الإمكان قبل أن يفاجئنا بغتة، ثم لا مفر لنا منه.

ولما عظم الله ﷻ من شأن هذا اليوم، وفخمه، ونبه العقول إليه، بيَّنه بقوله ﷻ: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ﴾، يحشر الناس في هذا اليوم، الأولون، والآخرون، ولا يغيب منهم أحدٌ، ويقومون من قبورهم، ويحشرون في صعيد واحد، ويتجهون إلى المحشر، كما قال ﷻ: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر: ٧]، الأجداث هي: القبور، ويكونون كالجراد حال انتشاره على وجه الأرض، يغطيها بكثرته، فالناس يوم القيامة يكونون مثل الجراد يغطون وجه الأرض من كثرتهم، ويهونون، ويذلون، حتى يكونوا كالفراش، والفراش هو: الخشاش، ﴿ٱلۡمَبۡثُوثِ﴾، أي: المنتشر؛ كما في قوله ﷻ: ﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر: ٧].

قال ﷻ: ﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ﴾، تلك الصم الصلاب الراسيات الشاهقات على عظمها، وضخامتها، وقسوتها، لا تدركها الأسلحة، ولا المعدات الثقيلة إلا بجهد، وكلفة؛ وذلك من قسوتها، وشدتها، ولكن في يوم القيامة تذوب، وتصير هباءًا، ﴿كَٱلۡعِهۡنِ﴾، والعهن هو: الصوف، ﴿ٱلۡمَنفُوشِ﴾ فالجبل القاسي الصلب الصعب يكون لينًا ضعيفًا مثل الصوف المنفوش، والصوف لاسيما إذا كان منفوشًا، فإنه يكون لينًا، كذلك الجبال الصلبة

تكون لينة في يوم القيامة؛ من شدة الهول، فإذا كان هذا حال الجبال، فما بالك بالإنسان الضعيف؟

ثم إنه ﷻ بيَّن حال الناس في هذا اليوم الهائل بحسب أعمالهم، فتنصب الموازين، وتوزن فيها الأعمال، وذلك لكل عبد، توضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، كما توزن الأموال، والأثقال في الدنيا؛ لأن اليوم يوم عدل، لا ظلم فيه، ولا يضيع لأحد شيء، مهما قل، أو صغر، سواء من خير، أو شر.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾، أي: رجحت حسناته بسيئاته، ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١﴾، يكون هنيئًا عيشه، صافيًا، سارًا، و﴿رَّاضِيَةٍ﴾، بمعنى مرضية، أي: يرضى عن أعماله، ويسر، ويفرح بها.

فلا تعلق أملك على أصدقائك، وأقاربك، ففي الآخرة ليس هناك إلا حسناتك، أو سيئاتك، فلا تلتفت إلى أحد، وليس لك طمع في أن أحدًا سيساعدك.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، أي: رجحت سيئاته بحسناته، ﴿فَأُمُّهُۥ﴾: أم رأسه، وهي: دماغه، ﴿هَاوِيَةٌ﴾ أي: أنه يهوي على رأسه في جهنم؛ تعذيبًا له.

وقيل: المراد: أن مأواه النار التي ليس له مأوى غيرها، أي: كما يأوي الإنسان إلى أمه في هذه الدنيا.

ثم قال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾، تهويل لشأنها.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا، مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ» قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»[(١)].

فهذه السورة على وجازتها فيها: آيات بينات، وفيها: تنبيه، وفيها: بيان لما تؤول إليه هذه الدنيا من الفناء، والزوال، وبيان لحال الآخرة، وما يكون فيها، وفيها: بيان لمصير الناس يوم القيامة، فهم لا يخرجون عن هذا المصير، منهم من يكون ممن ثقلت موازينه، ومنهم من يكون ممن خفت موازينه، وتثقل الموازين، أو تخف بالأعمال، والأعمال محلها في هذه الدنيا، فأنت الآن في محل العمل، ويمكنك أن تتوب من السيئات، وان تكثر من الحسنات، فالله ﷻ أعطاك القوة، ومكنك من العمل الصالح، وفتح لك باب التوبة، فتب إلى الله، والله ﷻ يقبل توبتك، ويمحو سيئاتك ويبدلها حسنات.

فينبغي التنبه، ولا تضيع نفسك، ولا تغامر، ولا تغفل عن ذلك ما دمت في زمن الإمكان، واعلم بأن الصحة لا تدوم، وكذلك الفراغ، والقوة، فبادر ما دمت متمكنًا قبل فوات الأوان، وخذ من صحتك لمرضك، وخذ من حياتك لموتك، **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هِرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاءَكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»**.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٣٠) واللفظ له.

الدرس الخامس عشر بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا
سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا
عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: ١ - ٨].

قال ﷻ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾، أي: شغلكم، ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾، أي: التكاثر في الأموال، والأولاد، كما قال ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فمهمة الإنسان الآن، وكل ما يشغله هو أن يكون أكثر الناس مالًا، ويكون أكثر الناس أولادًا، بل ويفاخر بذلك، وهذا يشغل الإنسان عن العمل الصالح، فكل همه التكاثر من الأموال، والأولاد، وأمور الدنيا، وأما الآخرة فهو غافل عنها.

وما زال يلهيكم هذا التكاثر، ويشغلكم، ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، فلا تدري إلا عندما يفاجئك الموت، وما أكملت أعمالك التي تعملها، فيفاجئك الموت، وتنقل إلى المقبرة، وليس معك من هذا التكاثر إلا كفنك فقط، فقد دخلت الدنيا، وأنت ليس عليك شيء، وخرجت منها عريانًا، ليس

معك إلا الكفن، والعمل فقط.

وقال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾، ولم يقل: «حتى صرت إلى المقابر»؛ لأن المقابر مؤقتة، وليست دائمة، فأنت في المقابر مثل الزائر تنتظر فيها؛ لهذا سميت «دار البرزخ»، والبرزخ هو: الحاجز بين الشيئين[1]، والمقابر دار فاصلة بين الدنيا، والآخرة، ليس الإنسان دائمًا فيه، إنما هي محطة انتظار، ثم ينتقل منها بعد ذلك إلى دار المقام، ومن هنا يخطئ من يقول عند وفاة شخص: «نُقِل فلان إلى مثواه الأخير».

فالقبر ليس مثواه الأخير، بل مثواه الأخير يكون إما في الجنة، وإما في النار؛ ولذلك سميت الدار الآخرة بدار القرار، أي: التي ليس بعدها رحيل، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩]. وأما القبر إنما هو منزل مؤقت.

قال ﷻ: ﴿كَلَّا﴾، حرف تنبيه، وزجر، ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ما خرجتم به من هذه الدنيا، وتعلمون مآلكم في الآخرة، وما هو أمامكم، فأنتم الآن تعلمون، ولا تعلمون، ولكنكم سوف تعلمون مستقبلًا، ولا تعملون.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾، توكيد، ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥﴾، لو تعلمون الآن علم اليقين الذي لا شك معه ماذا سيكون حالكم، ومآلكم، لصار لكم حال غير هذه الحال، وكرر الله ﷻ: ﴿كَلَّا﴾؛ للزجر، والتهديد.

---

(١) انظر: مادة (بزخ) مقاييس اللغة (١/ ٣٣٣)، وتاج العروس (٧/ ٢٣٤)، ولسان العرب (٣/ ٨).

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾، هذا هو المآل، فقد بيَّن الله ﷻ لنا كل شيء، ما يخفي علينا.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾، فالعلم ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: علم اليقين، وهو الذي تعلمه من الكتاب، والسنة، فأنت لم تعاينه، ولكنك تعلمه من الخبر الصادق.

الدرجة الثانية: عين اليقين، وهو أنك إذا شاهدت الشيء بعينك، ووقفت عليه صار عين اليقين، وهو أقوى من علم اليقين.

الدرجة الثالثة: حق اليقين، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ۝٩٥﴾.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾، أي: جهنم، فالناس يرون النار يوم القيامة عيانًا، قال ﷻ: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]، فيراها الناس بعد أن كانوا يسمعون عنها، وتوصف لهم في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم يرونها عيانًا، لا يشكون فيها، قال ﷻ: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ۝٥٣﴾ [الكهف: ٥٣].

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾، أي: تحاسبون يوم القيامة عن النعم التي أنعمها الله ﷻ عليكم في الدنيا، هل شكرتموها؟

فالنعيم الذي أنعمه الله ﷻ عليكم في الدنيا، لها ثمن، وثمن النعم هو الشكر، وستحاسب عن ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ**

القِيَامَةِ -يَعْنِي العَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ- أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ»[1].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ -أَوْ لَيْلَةٍ- فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟»، قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ، فَأَتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ، قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَانْطَلَقَ، فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكَ، وَالْحَلُوبَ»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذَلِكَ الْعِذْقِ وَشَرِبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ»[2].

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٠).

الدرس السادس عشر بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

هذه السورة العظيمة على اختصارها، ووجازة ألفاظها، وبلاغتها، فيها كفاية لمن تأملها، وعمل بها، يحفظها: الصغير، والكبير، والعامي، والمتعلم.

فقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾، الواو: واو القسم، والعصر هو: الوقت، الليل والنهار، فالعصر، والدهر، والزمان كله بمعنى واحد، وقد أقسم به الله سبحانه وتعالى، وهو يقسم بما شاء من خلقه سبحانه وتعالى، ولا يقسم إلا بشيء له أهمية؛ ليلفت الأنظار إليه، فالعصر له أهمية عظيمة؛ لأنه وقت، وزمان العمل الصالح، والعمل السيئ أيضًا، فكل الأعمال تقع في هذا العصر، قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان: ٦٢].

فهو فرصة لمن وفقه الله سبحانه وتعالى، واستغله، وأما من ضيع دهره، وعمره،

وحياته في اللهو، واللعب، والغفلة، أو بالاشتغال بالدنيا، والانصراف عن الآخرة فهو خاسر خسارة لا تجبر، مهما كان من الأفراد، أو الدول، وكل أحد.

وجواب القسم هو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾، وهذا يشمل كل إنسان إلا من اتصف بهذه الأربع صفات المذكورة.

الصفة الأولى: الإيمان بالله ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، آمنوا بالله ﷻ، وأما الذين كفروا، وأشركوا، فإن هؤلاء باقون في الخسران، ولا ينجون منه.

الصفة الثانية: العمل الصالح؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لأنه لا يصح الإيمان بدون عمل، كما أنه لا يصح العمل بدون إيمان، فإنه لابد من أن يجتمع الاثنان: الإيمان، والعمل الصالح؛ لهذا قال العلماء: (الإيمان قولٌ باللسان، واعتقادٌ بالقلب، وعملٌ بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية).

وإذا كان العمل داخلًا في حقيقة الإيمان، وتعريفه، فما وجه عطفه على الإيمان؟

الجواب عن هذا: أنه داخلٌ في الإيمان، ولكن عطفه ﷻ على الإيمان؛ نظرًا لأهميته، فيكون بذلك ذكره مرتين: مرة داخلًا في الإيمان، والمرة الأخرى مفردًا؛ لأهميته، وتوكيده؛ كما قال ﷻ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فعطف الله ﷻ الصلاة

الوسطى، وهي: صلاة العصر(١)، على الصلوات الخمس مع أنها داخلة فيها؛ لأهميتها، والتنبيه عليها، وبيان فضلها، فهو من عطف العام على الخاص، وله نظائر.

قال ﷻ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، فجبريل، ومِيكَال عليهما السلام داخلان في الملائكة، فعطفهما؛ لأنهما أفضل الملائكة، وذلك لأن جبريل عليه السلام جاء بالوحي الذي فيه حياة القلوب، ومِيكَال عليه السلام موكل بالقطر، والمطر الذي هو حياة الأرض بعد موتها، فعطفهما الله تعالى على الملائكة؛ لفضلهما، ومكانتهما وميزتهما على الملائكة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(٢).

فالإيمان ليس شيئًا واحدًا، هو التصديق فقط -كما يقولون-، بل إن الإيمان كما جاء في الحديث الصحيح: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ، أَوْ سَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَرْفَعُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»(٣).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٦٩)، وزاد المسير (١/ ٢١٥)، وتفسير ابن كثير (١/ ٤٩١)، وتفسير القرطبي (٣/ ٢١٣).

(٢) أخرجه مسلم (٥٧).

(٣) أخرجه مسلم (٥٨) بلفظ: «فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وأحمد في المسند (١٤/ ٤٩٦)، واللفظ له، والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٠٩)، وابن حبان في صحيحه (١/ ٣٨٤)، والطبراني في الأوسط (٤٧١٢)، والبيهقي في الشعب (١/ ٨٧)، بلفظ: «فَأَرْفَعُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

فهذا الحديث بين أن الإيمان قولٌ، وعملٌ، واعتقادٌ، قولٌ في قوله ﷺ: «**أَعْلَاهَا: قَوْلُ لَا إِلَه إِلَّا الله**»، والعمل في قوله ﷺ: «**وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»، واعتقاد بالقلب؛ كما في قوله ﷺ: «**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**».

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وكذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٤]، فهذه كلها أعمال، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، هذا حصر، وكما قال الحسن البصري رحمه الله: «**لَيْس الإيمانُ بالتحلي، وَلا بالتمنّي، وَلَكِنْ مَا وَقرَ في القُلوب، وَصدقَتْهُ الأَعْمالُ**»(١).

قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ [المؤمنون: ١]، وبين وصفهم، فقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [المؤمنون: ٢-٩]، فهذه كلها أعمال داخلة في الإيمان، قال ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٩)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٦٠).

فالإيمان ليس مجرد اعتقاد القلب، كما هو قول المرجئة، بل الإيمان قولٌ باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وفي هذه السورة العظيمة يقول ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ما قال ﷻ: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ فقط، بل قال ﷻ: ﴿ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

الصفة الثالثة: التواصي بالحق: في قوله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، يوصي بعضهم بعضًا، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويدعون إلى الله سبحانه وتعالى، فليس الإنسان مقتصرًا على نفسه، ويعتقد أنه إذا صلح، فلا عليه من الناس، ما عليه إلا نفسه فقط، لا، بل عليه واجب نحو إخوانه، وعليه واجب الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، عليه واجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، عليه تعليم العلم النافع.

الصفة الرابعة: التواصي بالصبر: في قوله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، فلما كان التواصي بالحق، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، والجهاد في سبيل الله سبحانه وتعالى يحتاج إلى صبر، قال ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾؛ لأن الذيلا يصبر لا يقوم بهذه الأمور، هذا هو الإيمان، فلا ينجو من هذا الخسران إلا من اتصف بهذه الصفات الأربع: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، هذه هي الصفة الأولى، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هذه هي الصفة الثانية، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ هذه الصفة الثالثة، ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ هذه هي الصفة الرابعة.

ولهذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «**اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللهُ-: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:**

الأولى: الْعِلْمُ، وَهُوَ: مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالْأَدِلَّةِ.

الثانية: الْعَمَلُ بِهِ.

الثالثة: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الرابعة: الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى فِيهِ»(١).

فقد أخذ رحمه الله هذه الأمور الأربع من سورة العصر.

ولأهمية هذه السورة العظيمة كان الصحابة إذا أرادوا أن يتفرقوا بعد اجتماعهم في طريق، أو في مجلس، فإن بعضهم يقرأ على أخيه سورة العصر، ثم يتفرقون.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «**لو ما أنزل الله تعالى على خلقه حجة إلا هذه السورة لكفتهم**».

فهذه السورة حجة على العباد، فلا نجاة من الخسران إلا بالاتصاف بالأربع صفات، والتي تشمل الدين كله، على اختصارها، ووجازتها، وتفصيل هذه السورة كل ما جاء في الكتاب، والسنة من القول، والعمل.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

---

(١) انظر: ثلاثة الأصول مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ (١/ ١٨٥).

الدرس السابع عشر بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾ [الهمزة: ١ - ٩].

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾، هاتان صفتان قبيحتان، وهما: الهمز، واللمز، فالهمز يكون بالفعل، واللمز يكون بالقول.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة: ٥٨]، أي: يتكلمون في حق الرسول ﷺ في توزيع الصدقات.

﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، فمن اتصف بهاتين الصفتين، أو بإحداهما فإنه متوعد بهذا الويل، فالذي يهمز الناس بيده، أو لسانه، أو شفته، أو عينه؛ احتقارًا لهم، والذي يتكلم فيهم، ويعيبهم بلسانه، متوعد بالويل، وهو: العذاب الشديد، وقيل: إنه واد في جهنم، فالمسلم لا يكون همازًا، ولا لمازًا.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾، أي: أنه ليس هم إلا جمع الدنيا، وحسابها،

وما زاد من ماله، وما نقص، ليس له هم إلا الدنيا، وحساب الدنيا، وأما الآخرة فإنه غافل عنها، والمفروض أن الإنسان لا يجمع المال لمجرد الجمع، إنما يجمع المال؛ لينفقه في سبيل الله ﷻ، وليتصدق به على الفقراء، والمحتاجين، ويزكي، ولينفق على نفسه، وعلى من تلزمه نفقته، قال ﷻ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الحديد: ٧]، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤]. وفي القرآن آيات كثيرة، يأمر الله ﷻ بالإنفاق، وأما الذي ليس لهم هم إلا جمع المال، وزيادته في الأرصدة، ولا ينتفع منه أحد، فهذا متوعد بالويل.

قال ﷻ: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾، أي: يظن أن هذا المال سيخلده في النعيم، وفي الجنة، والسرور.

لن ينفعك المال إلا إذا استعملته في طاعة الله ﷻ، فحينها يصير لك نفعًا في الدنيا، وأجرًا في الآخرة، فهذا هو المال النافع؛ كما صح عن النبي ﷺ قوله: «**نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحِ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ**»(١).

وليس هذا ذمًا لمجرد جمع المال من وجوهه الصحيحة، ولكن المراد الجمع الذي لا يكون معه إنفاق على الوجه الصحيح، فهذا هو الجمع المذموم، قال ﷻ: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]، جمع المال، فَأَوْعَاهُ، أي: أَوْكَاهُ، ومنع حق الله ﷻ منه من النفقات، ومن إخراج الزكاة؛ لهذا جاء في

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١١٢)، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه (٨/ ٦)، والبيهقي في الآداب (١/ ٣٢٠)، وفي الشعب (٢/ ٤٤٦).

الحديث: «لَا تُوعِي فَيُوعِيَ اللَّهُ عَلَيْكِ»(١).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَا ابْن آدم سَمِعْت وَعِيد اللَّه ثُمَّ أَوْعَيْت الدُّنْيَا»(٢).

والإنسان منهي -أيضًا- عن تبذير، وإضاعة المال، فعليه أن يحفظ ماله، لكن ينبغي، ولا يقتصر على جمعه فقط.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾، اللام موطئة للقسم، أي: والله لينبذنَّ، أي: ليطرحن، ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾، وهي: النار، فلم ينفعه ماله، والحطمة من أسماء النار.

ثم فسر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الحطمة، فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝٥﴾، تفخيم لشأنها، وتهويل من أمرها، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾، هذه هي الحطمة، ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦﴾، وقد أضافها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى نفسه، فهي ليست مثل نار فلان، أو نار الدنيا تنطفئ، وتزول، بل هي نار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالله هو الذي خلقها، وهو الذي يمدها، وتوقدها الملائكة بأمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فلها صفتان:

الصفة الأولى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾، فنار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لايستطيع أحد أن يطفئها، فلو أنك أتيت بكل وسائل الإطفاء، ما انطفأت؛ لأنها نار الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أما إن كانت نارًا لفلان، أو لفلان، لكان من الممكن إطفاءها بسهولة.

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٤٣٤، ٢٥٩١)، واللفظ له، ومسلم (١٠٢٩) من حديث أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٢٤٠).

الصفة الثانية: في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾، أي: يصل حرها إلى القلوب، فهي لا تصل إلى الجلد فقط مثل نار الدنيا، بل هذه النار يجد الكافر حَرّها في قلبه، فيحترق قلبه، لكنه لا يموت، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝١٣﴾ [الأعلى: ١٣]. فأقوى شخص في الدنيا، لو احترق بنار الدنيا فإنه سيموت فورًا، وهي جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، وأما نار الآخرة فلا موت فيها؛ وذلك من أجل أن يتمدد عذابه فيها -نسأل الله العافية-؛ لذا يتمنى الكافر أن يموت، قال ﷻ: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾، ومرادهم بذلك سؤال مالك خازن النار، أن يدعو الله لهم بالموت؛ ليستريحوا.

فهي نار مغلقة مطبقة عليهم، لا يمكن فكها، قال ﷻ: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾، أي: مغلقة مطبقة محكمة، فلا يفتح لهم باب، ولا يخرج منها من غم، ولا يدخل فيها روح أبد الآباد.

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾، صفة لمؤصدة، عمدٍ من الحديد من وراء الأغلاق، والمراد: بأن العمد صارت وصدًا للباب كالقفل، والغلق له، وهذا توكيد ليأسهم في الخروج، وتيقنهم من حبس الأبد، فما لهم حيلة في الخروج منها.

هذا ونسأل الله النجاة من النار، والفوز بالجنة، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.

الدرس الثامن عشر بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١ - ٥].

قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾.

قصة الفيل قصة معلومة مشهورة، وذلك: أن أبرهة ملك الحبشة، وكان ملكًا جبارًا نصرانيًا، وكان يحكم اليمن من قبل الحبشة بعدما قتل الحميريين - ملوك حمير - الذين كانوا يملكون بلاد اليمن، وقد بنى بصنعاء كنيسة يضاهي بها البيت العتيق، وسماها «القليس»؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها، وأراد أن يصرف إليها الناس عن البيت الذي هو شرف العرب، وعزهم، إلى تلك الكنيسة.

ولما رأى أن الناس لا يقبلون هذه الكنيسة، ولا يلتفتون إليها، وأنهم لا يزالون يذهبون إلى الكعبة المشرفة، بيت الله العتيق، أراد أبرهة أن يهدم

الكعبة المشرفة، حتى لا يكون هناك إلا تلك الكنيسة، فجمع جيشًا عظيمًا؛ لهدم الكعبة المشرفة، ومعه أفيال، وجاء قاصدًا مكة المكرمة، فما مر بحي من أحياء العرب إلا وقد حطمه، فلا يقف في وجهه أحد؛ لقوته، وجبروته، وبطشه، إلى أن وصل إلى مكة، إلى المغمس قرب الحرم، وعسكر فيه بقواته، وفيله العظيم، وحينئذ لجأ أهل مكة، ومن حولهم إلى الجبال، لأنهم ليس لهم حيلة تجاه هذا الجيش الغاشم، ولم يبق إلا أن يباشر هدم الكعبة المشرفة كما يزعم.

وأغار جيش أبرهة على سرح أهل مكة، فأخذوه، وكان في السَّرْح مائتا بعير لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ، وقد بعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشراف قريش، وأن يخبرهم أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تصدوه عن البيت، فجاء حناطة إلى عبد المطلب بن هاشم، وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: «والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته، وحرمه، وإن يخل بينه، وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه».

فقال له حناطة: فاذهب معي إليه، فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلًا جسيمًا حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: «ما حاجتك؟»، فقال للترجمان: «إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي». فقال أبرهة لترجمانه: قل له: «لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك، ودين آبائك، قد جئت؛ لهدمه، لا تكلمني فيه؟»، فقال له عبد المطلب: «**أَنَا رَبُّ الْإِبِلِ**،

وَلِلْبَيْتِ رَبٌّ يَحْمِيهِ». فصارت هذه الكلمة العظيمة على الألسنة إلى الآن.

ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش، فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رؤوس الجبال؛ تخوفًا عليهم من معرة الجيش، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله، ويستنصرون على أبرهة، وجنده، فدعا عبد المطلب ربه، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة.

فلما أن أراد أبرهة الجبار مباشرة هدم الكعبة، بَرَكَ الفيل الذي معه، ولم يتوجه إلى الكعبة، وكانوا إذا أقاموه، ووجهوه إلى جهة غير جهة الكعبة مثل الشام، أو اليمن، فإنه يهرول، وإذا وجهوه إلى جهة الكعبة بَرَك، فحبسه الله ﷻ.

وبينما هم كذلك إذ جاءتهم فرقانٌ من الطير من جهة البحر، وهي: طير أبابيل، أي: جماعات، جماعة بعد جماعة مسلحة بالحجارة، فكل طائر معه ثلاثة أحجار: حجرٌ في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص، والعدس، فلما توسطت القوم حصبتهم، فصارت الحجارة تدخل من دماغ أحدهم، وتخرج من دبره، حتى أتت عليهم جميعًا، وأهلكهم الله ﷻ، وحمى بيته منهم.

هذه هي قصة أبرهة، وأصحاب الفيل، وفي هذه السورة يذكر الله ﷻ بها، وهذه الحادثة من الإرهاصات على بعثة الرسول ﷺ؛ لأنه ﷺ وُلِد في هذا العام، عام الفيل، وصاروا يؤرخون به.

قال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَـرَ﴾، ألم تر يا محمد، فهذا استفهام تقريري، أي: قد

علمت، والرؤية هنا معناها: العلم، وإلا فإن الرسول ﷺ ما حضر هذه الواقعة.

﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، خطاب لرسول الله ﷺ، وجائز أن يكون خطابًا لكل من يعقل.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾، في ضياع، فكيدهم، والهول الذي جاءوا به صار ضياعًا أمام قدرة الله، وبأسه، والله سبحانه وتعالى ما أنزل عليهم جنودًا، ولا أنزل عليهم دبابات، أو أسلحة فتاكة، ولكنه سبحانه وتعالى أرسل عليهم طيرًا صغارًا، معها حجارة صغيرة جدًا في حجم الحمص، ولكن هذه الحجارة ليست مثل الحجارة العادية، بل إنها حجارة من النار.

والاستفهام في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ للتقرير، أي: قد جعل ﴿كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ﴾، جعله الله ﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾ أي: قوة ضائعة، لا قيمة لها، وقابل الله سبحانه وتعالى هذه القوة بطير صغار، ولم يقابلهم بجنود، أو أسلحة، قال عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧]، حتى إن البعوض من جنود الله سبحانه وتعالى، يسلطه الله جل جلاله.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾، حجارة محماة من النار.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾، جعلهم الله سبحانه وتعالى بعد هذا الحصب الذي أصابهم مثل التبن، فالعصف هو: التبن تبنًا، تدوسه الأرجل، فهم قد صاروا مثل التبن، فالله -جل وعلا- يحمي بيته؛ ولذلك سمي بالبيت العتيق؛ لأن الله يعتقه من الجبابرة.

هذا، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه.

الدرس التاسع عشر بعد المائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [قريش: ١ - ٤].

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾، «لِإِيلَافِ»، اللام: لام الجر، و«إِيلَافِ» مجرور، والجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبل هذه السورة، وهي: سورة الفيل، ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾، أي: أهلكنا أصحاب الفيل؛ لأجل قريش، وإكرام هذه القبيلة التي هي سدنة بيت الله ﷻ العتيق الذي نجاه من كيد هذا الجبار، وكانت قريش هي: تاج العرب؛ بسبب أنهم جيران البيت العتيق، وكانوا يتولون أمور الحجاج في الجاهلية بالرفادة، والسقاية.

﴿إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾، أي: كما ألفوا الرحلتين، وكان من عادة قريش أن لها رحلتين؛ لأن مكة ليس فيها إنتاج، فهي واد غير ذي زرع؛ كما أخبر الله عن ذلك بقوله ﷻ على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فهم يجلبون لها البضائع، والتجارة من هنا، وهناك، فكانت لقريش رحلتان تجاريتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن؛ لأن فيه الدفء، والرحلة الأخرى كانت إلى

الشام؛ لأن فيه البرودة، والجو الطيب، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرف، قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧]، فكان هذا شأن قريش، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم؛ لعظمتهم عند الناس، ولكونهم جيران بيت الله الحرام، البيت العتيق، وكان هذا -أيضًا- مقدمة لبعثة رسول الله ﷺ من أرض هذا البيت العتيق؛ لهذا قال ﷻ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾.

وتأمل قوله ﷻ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾، ولم يقل: «فليعبدوا هذا البيت»، فأرشدهم الله سبحانه وتعالى إلى شكر هذه النعمة العظيمة بأن يقيموا العبادة لله سبحانه وتعالى، وأما البيت فإنه مسجد، ومكان للعبادة، والمعبود هو: الله سبحانه وتعالى، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل: ٩١].

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾، أي: تفضل عليهم، ووفر لهم الأرزاق، والأمن من الخوف، وهذا كله بسبب جوارهم لبيت الله الحرام، فالرزق، والأمن مقترنان، كما أن الجوع، والخوف مقترنان، قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [النحل: ١١٢].

قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]؛ لأن الخليل إبراهيم عليه السلام دعا

لهذا البيت؛ كما ذكر الله بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

فالله سبحانه وتعالى وفر لهم الأمن، ووفر لهم الرزق، ولكنهم لما بُعث رسول الله ﷺ، كفروا به، وأخرجوه من مكة، أحلَّ الله سبحانه وتعالى بهم عذابه، وضيق عليهم، قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢ - ١١٣]. فالنعم إذا لم تُشكر فإنها تنقلب إلى نِقَم، فلما عصوا رسول الله ﷺ، وكفروا به، لم ينفعهم أنهم جيران البيت الحرام، بل أبدلهم الله بغيرهم، وفتح الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ مكة، وولاه عليها، وصارت في قبضة المسلمين -والحمد لله-.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس المائة والعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون: ١ - ٧].

قوله ﷻ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾، خطاب للنبي ﷺ، وهو خطاب لكل مسلم، ﴿أَرَءَيْتَ﴾، أي: علمت، والمراد هو: التعجب من حال هذا الذي يتصف بهذه الصفات، وهي:

الصفة الأولى: ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾، أي: بالبعث، والحساب، والجزاء، وهو لابد من وقوعه، ولكن هذا الصنف من الناس يكذبون به، ولا يعتقدون البعث، والنشور، أو أنه يؤمن به، ولكنه لا يستعد له، فيتجنب المحرمات، ويقوم بالأعمال الصالحة.

والإشارة إلى الذي يكذب بالدين باسم الإشارة؛ لتمييزه أكمل تمييز حتى يتبصر السامع فيه، وفي صفته، أو لتنزيله منزلة الظاهر الواضح بحيث يشار إليه.

الصفة الثانية: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، يسئ إلى الأيتام، ويدفعهم بعنف، وقسوة، وهم ضعاف، فقدوا آباءهم، ومن يحنو، وينفق عليهم، فلذلك استحق الأيتام على المسلمين العناية بهم؛ تعويضًا لما فقدوه من آبائهم؛ لذلك فإن كفالة اليتيم فيها فضلٌ عظيم.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا»، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا(١).

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «خَير بَيْت فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْت فِيهِ يَتِيم يُحْسَن إِلَيْهِ وَشَرّ بَيْت فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْت فِيهِ يَتِيم يُسَاء إِلَيْهِ -ثُمَّ قَالَ بِأُصْبُعِهِ- أَنَا وَكَافِل الْيَتِيم فِي الْجَنَّة هَكَذَا»(٢). وفيه: دليل على فضل كفالة اليتيم، والقيام بشئونه.

ولكن هذا الصنف من الناس يحتقرون اليتيم، ويستضعفونه، ويسيئون إليه بالقول، والفعل، فيزجرونه بالقول، ويدفعونه بالفعل، وهذه جريمة عظيمة لا يفعلها إلا من يكذب بالدين، وأن الله ﷻ سيجازيه يوم القيامة على هذا الصنيع.

الصفة الثالثة: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، أي: لا يحث، ويرغب في إطعام المساكين، والفقراء، والفقير هو: الذي لا شيء له يَقُومُ بأوده، وكفايته، فالفقراء لهم حق على الأغنياء، فإن الله ﷻ قد جعل للفقراء نصيبًا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٠٤)، ومسلم (٤٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٩)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (١٢/ ٣٨٨) بلفظ: «إِنَّ أَحَبَّ الْبُيُوتِ إِلَى اللهِ، بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ مُكْرَمٌ».

في الزكاة؛ جبرًا لحاجتهم، وفقرهم.

الصفة الرابعة: تهاونه في الصلاة ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤﴾، وهم الذين يتهاونون في الصلاة، فهم يُصَلُّونَ؛ لذلك سماهم الله ﷻ مصلين، وأما الذين لا يُصَلُّونَ، فهؤلاء كفار، وإنما هذا يصلي، ولكنه لا يصلي الصلاة المطلوبة، والواجبة عليه، وإنما يصليها شكلًا، لا حقيقة.

وإذا كان هذا الوعيد في حق الذين يُصَلونَ، ولكنهم لا يُصَلونَ على الصفة المشروعة، فكيف بالذين لا يُصَلُّونَ أصلًا، ولا يعرفون الصلاة؟.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾، يدخل في الصلاة، ولا يدري ماذا يقول، وماذا يفعل؛ لأنه مشغول بدنياه، وأفكاره، ولا يحضر قلبه فيها، وأيضًا لا يخشع قلبه في الصلاة، والله ﷻ يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١ - ٢].

فروح الصلاة هو: الخشوع، والخضوع لله ﷻ، وهؤلاء لا يخشعون في صلاتهم، فهو ساه عن ذلك، غافل عنه، لايُصَلُّونَ في الوقت، بل يؤخرون الصلاة عن وقتها، ويخرجونها عن وقتها، فالسهو عن الصلاة أنواع كما ذكره العلماء.

وكذلك هم ساهون عن إتمامها، والإتيان بشروطها، وأركانها، وواجباتها، فالسهو عن الصلاة يشمل كل هذه الأنواع.

وينقرها نقرًا سريعًا؛ ليخرج منها، ولايطمئن لا في القيام، ولا في الركوع، ولا في السجود، وهذه هي صلاة المنافق.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»(١).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَسْوَأَ النَّاسِ سَرِقَةً، الَّذِي يَسْرِقُ صَلَاتَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْرِقُهَا؟ قَالَ: «لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا»(٢).

فصفة صلاة المنافق:

أولًا: لا يقيم ركوعها.

ثانيًا: لا يقيم سجودها.

ثالثًا: لا يذكر الله ﷻ إلا قليلًا.

رابعًا: يؤخرها عن وقتها، فإذا قاربت الشمس الغروب، قام، وصلى أربعًا على هذه الصفة.

فصلاته شكلية، وليست مجزية، أو نافعة له، وهذا كله داخل في قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾.

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٤٣٤).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٨/ ٩٠)، واللفظ له، وابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ٢٥٨)، وابن حبان في صحيحه (٥/ ٢٠٩)، والطباني في الكبير (٣/ ٢٤٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٥٢).

سَاهُونَ ۝٥﴾. قَالَ: «هُمُ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عن وقتها»(١).

وقال عطاء بن دينار: «الحمد لِلَّهِ الَّذِي قَالَ: عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ وَلَمْ يَقِلْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ».

وذلك لأن السهو في الصلاة يقع للمسلم، بل إنه قد وقع للرسول ﷺ، وإنما قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ﴾.

وقد ثبت في الصحيح، والسنن سَهْوُ النَّبِيِّ ﷺ في الصلاة.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةً فَزَادَ فِيهَا أَوْ نَقَصَ، فَلَمَّا سَلَّمَ، قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحَدَثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ؟، قَالَ: «لَا، وَمَا ذَاكَ؟»، قَالُوا: صَلَّيْتَ كَذَا وَكَذَا، فَثَنَى رِجْلَهُ وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، فَلَمَّا سَلَّمَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَمَا أَنَّهُ لَوْ حَدَثَ فِي الصَّلَاةِ شَيْءٌ لَأَنْبَأْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي وَإِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَتَحَرَّ الصَّوَابَ، فَلْيُتِمَّ عَلَيْهِ ثُمَّ يُسَلِّمْ ثُمَّ يَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ»(٢).

قال الحافظ: (وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى وُقُوعِ السَّهْوِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامِ فِي الْأَفْعَالِ)(٣).

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٢/ ١٤٠)، والدولابي في الكنى والأسماء (٢/ ٨٢٧)، والبيهقي في الكبرى (٢/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩)، وأبو داود (١٠٢٠، ١٠٢٢)، والنسائي (١٢٤٢، ١٢٤٣، ١٢٤٤، ١٢٥٦، ١٢٥٩)، وابن ماجه (١٢٠٣).

(٣) انظر: فتح الباري (١/ ٥٠٤).

وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ أَبَا بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيَّ، يَقُولُ: لَمَّا نَزَلَتِ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٥]. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ هَذِهِ الْآيَةُ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ يُعْطَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِثْلَ جَمِيعِ الدُّنْيَا، هُوَ الَّذِي إِنْ صَلَّى لَمْ يَرْجُ خَيْرَ صَلَاتِهِ، وَإِنْ تَرَكَهَا لَمْ يَخَفْ رَبَّهُ»[1].

الصفة الخامسة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾، يراءون الناس، فلا يصلون لله ﷻ، وإنما يصلون رياءًا، فإذا رآهم الناس صلوا، وإذا غفلوا عنهم تركوا الصلاة.

فإذا كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله، فهو عمله مردود على فاعله[2]، وهذا حال المنافقين، والمرائين، وهذا نظير قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢]. فهم لا يصلون لله ﷻ، وإنما يصلون رياءًا، وسمعة، وهؤلاء لا صلاة لهم.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: «يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ»[3].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٦٩).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، واللفظ له، ومسلم (١٧) من حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ».

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢/ ٢٢٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٢/ ٦٧)، واللفظ له، والبيهقي في الشعب (٤/ ٥٠٢).

فإذا كان في حضرة الناس فإنه يزين صلاته، وإذا كان غائبًا عن الناس، فإنه يفرط فيها، فهذا، وإن صلى، فصلاته لا تقبل.

عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»[١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ ﷻ: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ»[٢].

وعَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ أَبِي فَضَالَةَ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الأولين والآخرين لِيَوْمِ لَا رَيْبَ فِيهِ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ أَحَدًا فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ»[٣].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي جَهَنَّمَ لَوَادِيًا تَسْتَعِيذُ جَهَنَّمُ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٩/ ٣٩)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (٤/ ٢٥٣)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٢٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٢)، واللفظ له، وأحمد في المسند (١٥/ ٣٨٢)، والبيهقي في الشعب (٩/ ١٤٣)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٢٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٣)، واللفظ له، وأحمد في المسند (٢٩/ ٤١٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ١٣١)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٠٧)، والبيهقي في الشعب (٩/ ١٤٤).

مِنْ ذَلِكَ الْوَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرْبَعمِائَةِ مَرَّةٍ أُعِدَ ذَلِكَ لِلْمُرَائِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ لِحَامِلِ كِتَابِ اللَّهِ وَلِلْمُصَّدِّقِ فِي غَيْرِ ذَاتِ اللَّهِ وَلِلْحَاجِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ وَلِلْخَارِجِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»[(١)].

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ أَبِي عُبَيْدَةَ، فَذَكَّرُوا الرِّيَاءَ فَقَالَ رَجُلٌ يُكَنَّى بِأَبِي يَزِيدَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ وَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَهُ»[(٢)].

وأما من عمل عملًا لله، فَاطَّلَعَ عليه الناس، فأعجبه ذلك، فهذا لايعد رياء.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ يَعْمَلُ العَمَلَ فَيُسِرُّهُ فَإِذَا اطُّلِعَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَهُ أَجْرَانِ، أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ العَلَانِيَةِ»[(٣)].

والصفة السادسة: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾، والمراد بالماعون هو: كل ما يحتاجه الناس من الْعَارِيَةِ: كعَارِيَةِ السيارة، وعَارِيَةِ الدواب، وعَارِيَةِ الفأس، وعَارِيَةِ الْقِدْرُ، وعَارِيَةِ الحبل، وعَارِيَةِ الدلو، يعيره لهم.

والْعَارِيَة فيها فضل؛ لأن فيها سداد لحاجة المسلم، وترجع الْعَارِيَةِ إليه مع أنه قد نفع أخاه المسلم في سد حاجته بها، فإنه قد كان في أيدي من كان

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٦٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١١/ ٥٦)، واللفظ له، والطبراني في الكبير (١٣/ ٣٧٠)، والبيهقي في الشعب (٩/ ١٤٨)، والبغوي في شرح السنة (١٤/ ٣٢٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٨٤)، واللفظ له، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٩٩).

قبلكم، والآن في أيديكم.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ عَامَّ حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «الْعَارِيَةُ مُؤَدَّاةٌ وَالْمِنْحَةُ مَرْدُودَةٌ وَالدَّيْنَ مَقْضِيٌّ، وَالزَّعِيمُ غَارِمٌ»(١).

فهو يشمل جميع أنواع الْعَوَارِي التي يتعوارها الناس لحاجتهم، فهذا يمنع الماعون، ولا يعير، وهذه خصلة ذميمة، وهذا فيه الحث على الْعَارِيَةِ لمن يؤتمن عليها، وينتفع بها، ويردها، وأما من يأخذها، ويتهاون بها، ولا يردها، أو أنه يجحدها، وينكرها، فهذا سارق.

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَتِ امْرَأَةٌ مَخْزُومِيَّةٌ تَسْتَعِيرُ الْمَتَاعَ، وَتَجْحَدُهُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِقَطْعِ يَدِهَا، فَأَتَى أَهْلُهَا أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ فَكَلَّمُوهُ، فَكَلَّمَ أُسَامَةُ النَّبِيَّ ﷺ فِيهَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا أُسَامَةُ لَا تَزَالُ تَكَلَّمُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ»، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ ﷺ خَطِيبًا، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، بِأَنَّهُ إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ قَطَعُوهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ ابْنَةُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعَ يَدَهَا»(٢).

فهذه سرقة في صورة الْعَارِيَةِ، فيرغب المعير في بذل الْعَارِيَةِ، ويحث المستعير على العناية بها، والمحافظة عليها، وردها لصاحبها، هذا هو الواجب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٦٥)، واللفظ له، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٣٩٨).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٠/ ٤٤٦)، واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٧/ ١٢)، والبغوي في شرح السنة (١٠/ ٣٢٣).

فالْعَارِيَةِ عند الجمهور سُنَّة، وليست بواجبة، وإنما هي سُنَّة، وقد اختار شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ بأن الْعَارِيَةِ واجبة(١)؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد توعد الذي يمنعها.

هذا، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

(١) انظر: الاختيارات الفقهية (١/ ٤٩٦)، والفتاوى (٥/ ٤١٣).

الدرس المائة والحادي والعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١ - ٣].

هذه السورة العظيمة تتضمن ثلاث آيات، وهي من أقصر سُوَرِ القرآن.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ فَقَرَأَ سُورَتَيْنِ مِنْ أَقْصَرِ سُوَرِ الْمُفَصَّلِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: «إِنِّي سَمِعْتُ بُكَاءَ صَبِيٍّ فِي مُؤَخَّرِ الصُّفُوفِ فَأَحْبَبْتُ أَنْ تَفْرُغَ إِلَيْهِ أُمُّهُ»، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَرَأَ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ يَوْمَئِذٍ»(١).

وفي هذه السورة العظيمة يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، والكوثر هو: الخير الكثير، فضلًا منه سبحانه وتعالى، وإحسانًا.

عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: (الْكَوْثَرُ: الْخَيْرُ الْكَثِيرُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ)، قَالَ أَبُو بِشْرٍ: (قُلْتُ لِسَعِيدٍ إِنَّ أُنَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٢/ ٣٦٤).

نَهَرٌ فِي الجَنَّةِ؟ فَقَالَ سَعِيدٌ: «النَّهَرُ الَّذِي فِي الجَنَّةِ مِنَ الخَيْرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ»(١).

وعَنْ عِكْرِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «الْكَوْثَرُ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ: النُّبُوَّةُ، وَالْكِتَابُ»(٢).

وقد منَّ عليه بذلك؛ ليشكر الله تبارك وتعالى على هذه النعمة.

وقيل: الكوثر هو: نهر في الجنة، وهذا صحيح ثابت.

عَنْ أَنَس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا نَهَرًا حَافَّتَاهُ خِيَامُ اللُّؤْلُؤِ فَضَرَبْتُ يَدِي إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، فَإِذَا مِسْكٌ أَذْفَرُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرَئِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللَّهُ»(٣).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْكَوْثَرِ، فَقَالَ: «هُوَ نَهَرٌ أَعْطَانِيهِ اللهُ فِي الْجَنَّةِ، تُرَابُهُ الْمِسْكُ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، تَرِدُهُ طَيْرٌ أَعْنَاقُهَا مِثْلُ أَعْنَاقِ الْجُزُرِ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهَا لَنَاعِمَةٌ، فَقَالَ: آكِلُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا»(٤).

وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنِّي سَالِفٌ لَكُمْ عَلَى الْكَوْثَرِ وَيُمَرُّ بِكُمْ أَرْسَالًا فَيُخْتَلَفُ بِكُمْ فَأُنَادِيكُمْ أَلَا هَلُمُّوا، فَيُنَادِي

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٨).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٥٦٢).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٥٦١)، واللفظ له، والآجري في الشريعة (٣/ ١٣٦٥).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢١/ ١٣٢)، واللفظ له، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٥)، والبيهقي في البعث والنشور (١/ ١١٣).

مُنَادٍ، إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ: فَسُحْقًا»[(١)].

عَنْ عَطَاءٍ، فِي قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ قَالَ: «حَوْضُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَنَّةِ»[(٢)].

وهذا النهر يصب في حوض النبي ﷺ، والنبي ﷺ يسقي أمته منه، وآنيته عدد نجوم السماء، ومن شرب منه لم يظمأ بعدها أبدًا.

عَنْ حُذَيْفَةَ ؓ أَنَّهُ قَالَ: «مَا بَيْنَ طَرَفَيْ حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَمِصْرَ، آنِيَتُهُ أَكْثَرُ أَوْ مِثْلُ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَاؤُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[(٣)].

فرسول الله ﷺ يسقي بيده الذين يردون إليه على الحوض من أمته، ويذاد أقوام عن الحوض؛ لأنهم قد أحدثوا، وبدلوا، وغيروا بعده ﷺ.

وَعَنْ الْمُخْتَارِ بْنِ فُلْفُلٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ؓ يَقُولُ: أَغْفَى النَّبِيُّ ﷺ إِغْفَاءَةً، فَرَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، إِمَّا قَالَ لَهُمْ، وَإِمَّا قَالُوا لَهُ: لِمَ ضَحِكْتَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّهُ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ»، فَقَرَأَ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ حَتَّى خَتَمَهَا قَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هُوَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ رَبِّي ﷻ فِي الْجَنَّةِ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ الْكَوَاكِبِ، يُخْتَلَجُ

---

(١) أخرجه ابن راهويه في المسند (٤/ ٩٨).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق (١/ ٥٦١).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٨/ ٣٧٠)، واللفظ له، وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٣٣٦).

الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي فَيُقَالُ لِي: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»(١).

وأما الذين استقاموا بعد الرسول ﷺ، فهؤلاء هم الذين يردون الحوض على الرسول ﷺ.

والكوثر داخل في القول الأول، والذي هو: الخير الكثير، فالخير الكثير يدخل فيه نهر الكوثر بلا شك.

وأمر الرسول ﷺ أن يقابل هذه النعمة بالشكر؛ لذلك قال ﷻ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢﴾، مخلصًا لله ﷻ في صلاتك، بخلاف الذي يصلي رياءً، وسمعة، فاخلص الصلاة لله ﷻ، والصلاة هي أفضل الأعمال.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا، وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ». وَلَوِ اسْتَزَدْتُ لَزَادَنِي»(٢).

وهي أول ما يحاسب العبد يوم القيامة من عمله.

عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ صَلَاتُهُ، فَإِنْ كَانَ أَتَمَّهَا كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَتَمَّهَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: انْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَتُكْمِلُوا بِهَا

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١٩/ ٥٤)، واللفظ له، والبزار في مسنده (١٤/ ٥٣)، وابن أبي عوانة في مستخرجه (١/ ٤٤٧)، وابن عساكر في معجمه (١/ ٣٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٣٤)، ومسلم (١٣٧)، وأحمد في المسند (٧/ ٨٢)، واللفظ له.

فَرِيضَتَهُ؟ ثُمَّ الزَّكَاةُ كَذَلِكَ، ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ»(١).

فالصلاة مقامها عظيم، وخيرها كثير؛ لذلك أمر الله ﷻ نبيه ﷺ بقوله ﷻ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، وهي: الصلاة المفروضة، والصلاة النافلة، فالمسلم يصلي، ويكثر من الصلاة، سواء أكانت مفروضة، ونَافِلَةً، فالْفَرْضِ لابد منه، والنَفَلُ مرغب فيه؛ لأنه خير، وزيادة خير(٢).

﴿وَٱنْحَرْ﴾، أي: اذبح لله ﷻ، وتقرب إلى الله ﷻ بذبح القربان، سواء من الهدي في الحج، أو الأضحية، أو العقيقة، فكل هذه قرابين تذبح لله ﷻ، أو للصدقة.

وقوله ﷻ: ﴿وَٱنْحَرْ﴾، دل على أن الذبح للتقرب إلى الله ﷻ من أفضل العبادات؛ لأن الله قرنه مع الصلاة في هذه الآية، وقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

والمقصود من هذه الآية -والله أعلم-: مشروعية الذبح من أجل التقرب إلى الله ﷻ.

فالذين يذبحون لغير الله ﷻ كأن يذبحوا للقبور، والأضرحة، وللمخلوقين الأحياء، والأموات على وجه التعظيم لهم، والتقرب إليهم،

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤٢٦)، واللفظ له، وابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٧١)، وأحمد في المسند (٢٧/ ١٦٠)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٥٥٦).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ٨٤) من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ».

فهذا من الشرك الأكبر، وهو مخرج من الملة؛ لأن الله ﷻ قد قرن الذبح مع الصلاة، فيدل على أنه عبادة عظيمة، ولا يجوز الذبح لغير الله ﷻ على وجه التعظيم، والتقرب، لا على وجه التكريم، والضيافة.

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا جِبْرِيلُ مَا هَذِهِ النَّحِيرَةُ الَّتِي أَمَرَنِي بِهَا رَبِّي؟»، فَقَالَ: «لَيْسَتْ بِنَحِيرَةٍ وَلَكِنَّهُ يَأْمُرُكَ إِذَا تَحَرَّمْتَ لِلصَّلَاةِ ارْفَعْ يَدَيْكَ إِذَا كَبَّرْتَ وَإِذَا رَكَعْتَ وَإِذَا رَفَعْتَ رَأْسَكَ مِنَ الرُّكُوعِ، وَإِذَا سَجَدْتَ فَإِنَّهَا صَلَاتُنَا وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ زِينَةً وَزِينَةُ الصَّلَاةِ رَفْعُ الْيَدَيْنِ عِنْدَ كُلِّ تَكْبِيرَةٍ»(١).

ثم قال ﷻ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾، الشانىء هو: المُبْغِض، والشَّنْآن هو: البغض، كقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، والذي يبغض الرسول ﷺ كافر.

﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، أي: مقطوع الذكر، فلا يذكر بخير، ولا يثنى عليه، وهو مقطوع الذكر حيًا، وميتًا.

والرسول ﷺ فإن الله ﷻ قد رفع له ذِكْره حيًا، وميتًا، إلى أن تقوم الساعة، فلا يذكر الله ﷻ إلا ويذكر معه الرسول ﷺ: في الأذان، وفي الإقامة، وفي الخطب، وفي الصلاة.

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٧٦)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢١٩)، وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٨٦)، والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١١٠).

فذكر الرسول ﷺ باق، ومستمر إلى أن تقوم الساعة، وأما الكافر، فينقطع ذِكْره.

ويروى في سبب نزول هذه الآية: أنه لما مات إبراهيم ابن الرسول ﷺ قالوا: إن محمدًا قد انقطع ذكره؛ لأن ابنه مات، فانقطع ذكره، فرد الله ﷻ عليهم بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

وأما رسول الله ﷺ فقد وصل الله ﷻ ذكره، وأبقاه على رؤوس الأشهاد مستمرًا على دوام الآباد، إلى يوم المحشر، والمعاد، صلوات الله، وسلامه عليه إلى أن تقوم الساعة.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ أَبُو جَهْلٍ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: بَتِرَ مُحَمَّدٌ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

وَعَنْهُ رضي الله عنه قَالَ: «لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ، قَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: أَنْتَ خَيْرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَسَيِّدُهُمْ، قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الْمُنْبَتِرِ مِنْ قَوْمِهِ، يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ - يَعْنِي: أَهْلُ الْحَجِيجِ، وَأَهْلُ السِّدَانَةِ قَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَنَزَلَتْ:

هذا، وصلى الله، وسلم على نبينا محمد.

الدرس المائة والثاني والعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾

[الكافرون: ١ - ٣].

هذه السورة العظيمة تتضمن خمس آيات فيها البراءة من دين المشركين.

عَنْ أَبِي فَرْوَةَ الْأَشْجَعِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِرَجُلٍ: «اقْرَأْ عِنْدَ مَنَامِكَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ»(١).

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَرَأَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ، وَالرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ، بِضْعًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً أَوْ بِضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً: قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»(٢).

وَعَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يُوتِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَتْ: كَانَ «يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى بِـ ﴿سَبِّحِ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٩/ ٤٨٩)، واللفظ له، والبيهقي في الشعب (٤/ ١٣١).

(٢) أخرجه مسلم (٩٨).

﴿ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، **وَفِي الثَّانِيَةِ بِـ** ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، **وَفِي الثَّالِثَةِ بِـ** ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، **وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ»**(١).

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: **«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَرَأَ فِي رَكْعَتَيِ الطَّوَافِ بِسُورَتَيِ الْإِخْلَاصِ:** ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١﴾، ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾»(٢).

فهذه الأدلة تدل على فضل هاتين السورتين؛ لأنهما اشتملتا على التوحيد فسورة «الكافرون» فيها توحيد العبادة - الألوهية -، وسورة «الإخلاص» فيها توحيد الربوبية.

قال ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «كَانَ أَكْثَرُ مَا يُصَلِّي رَسُولُ اللهِ ﷺ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَ الْفَجْرِ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٦] **إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، وَالْأُخْرَى:** ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران: ٥٢]، **إِلَى قَوْلِهِ:** ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]»(٣).

فقوله ﷻ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٦]، يتضمن توحيد الربوبية، وأما قول الله ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ

---

(١) أخرجه أبوا داود (١٤٢٤)، واللفظ له، وابن ماجه (١١٧٣)، وأحمد في المسند (٤٣/ ٧٩)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ١٠٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٨٦٩)، واللفظ له، وابن أبي شيبة في المصنف (٣/ ٤٤٤)، والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٣١).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٤٨٣).

تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. يتضمن لتوحيد الألوهية؛ لذلك كان ﷺ يقرأ بهما في هاتين الصلاتين.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ رُبُعُ الْقُرْآنِ»(١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: **«لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ أَشَدُّ غَيْظًا لِإِبْلِيسَ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا تَوْحِيدٌ وَبَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرْكِ»**(٢).

وفي قوله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾، خطاب لكل كافر في وقته ﷺ.

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، بل يعبد رسول الله ﷺ الله سبحانه وتعالى وحده لا شريك، ولا يعبد ما يعبده المشركون من الأصنام، والأحجار، والأشجار، والأضرحة، والقبور.

﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾، حتى وإن عبدوا الله سبحانه وتعالى ببعض أنواع العبادة، فإنهم إذا أشركوا بطلت عبادتهم لله سبحانه وتعالى؛ فالشرك يبطل العباد؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦]. فالمشركون يعبدون الله سبحانه وتعالى بأنواع من العبادات، ولكنهم يخلطونها مع الشرك،

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي (٢٨٩٤)، وعبد الرزاق في المصنف (٣/ ٣٧٢)، وأحمد في المسند (١٩/ ٤٧٢)، والطبراني في الأوسط (١/ ٦٦)، والبيهقي في الشعب (٤/ ١٢٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٥).

فيعبدون غير الله مع الله، فالله ﷻ لا يقبل عباداتهم، فعباداتهم لله المخلوطة بالشرك ليست لله ﷻ؛ لأن الله ﷻ لا يقبلها.

ثم إن الله ﷻ كرر هذه الآية؛ توكيدًا، فقال ﷻ: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾، توكيد، وقطع لأطماعهم في المداهنة، وأن عبادتي ليست كعبادتكم، ولا عبادتكم كعبادتي، والغرض الذي اشتملت عليه السورة هو: تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر، وأن دين الإسلام لا يخالط شيئًا من دين الشرك.

وهذه السورة فيها: البراءة التامة من دين المشركين، وفيها: الإعلان لهذه البراءة، فينبغي عل المسلم أن يعلن أنه بريء من دين المشركين، كما أن المشركين بريئون من دين الله ﷻ، وليس كما يفهم بعض الجهلة، أو أهل الضلال الذين ينادون بعدم الإنكار على المشركين، مستشهدين بقوله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ فلا تنكروا على المشركين، وينادون بحرية الأديان.

فهذا من باب البراءة، وليس من باب التراضي بيننا، وبين الكفار، والمشركين، وليس من باب التسوية، وإنما هذه الآية براءة من دين المشركين، وإن كانوا يعبدون الله ﷻ ببعض أنواع العبادات، فهذه العبادات لا تنفع، ولا تزيدهم شيئًا؛ لأن العبادة إذا خالطها الشرك بطلت؛ كما أن الحدث، والنجاسة إذا خالطت الطهارة بطلت.

ولهذا ينبغي الانتباه لهذه الأمور التي ينادي، ويقول بها كثير ممن يدعون الإسلام، ويصلون، ويصومون، ويحجون، ويعتمرون، ويذكرون الله ﷻ كثيرًا في أورادهم، ثم إنهم يدعون غير الله، ويذبحون لغير الله ﷻ،

وينذرون لغير الله، ويستغيثون بالأموات، فهؤلاء عباداتهم باطلة، ولا يقبلها الله ﷻ، وهم مشركون، وإن كانوا يتسمون بالمسلمين، فهم مشركون على الحقيقة، فيجب أن يتنبه لهذا هؤلاء المغرورون؛ لأن هذا تنبيه عظيم من الله ﷻ على أن المسلم يجب عليه أن يتبرأ من دين الكفار بل ويصرح بهذا.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾، الذي هو دين الشرك، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾، الذي هو دين التوحيد.

فيجب على المسلمين أن يتبرئوا من دين الكفار أو المشركين، ويجب أن يصرحوا بذلك، وهذه السورة قائمة بهذا الشيء، بل القرآن الكريم كله قائم به، فكيف نتناساهل، ونتقارب معهم، كما يسمون ذلك -الآن-: التقارب بين الأديان، فلا نتقارب معهم، وأما أن نتعامل معهم في المباحات، فهذا لا بأس به، وكذلك نكافئ، ونجازي المحسن منهم، قال ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]. فيكافئهم على إحسانهم، ونتعامل معهم في البيع، والشراء، والمباحات، أما إننا نتقارب معهم في الدين، فهذا أمرٌ لا يجوز، ولا يقول به إلا جاهل أو ضال -والعياذ بالله-.

وصلى اللهم، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس المائة والثالث والعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ - ٣].

كان رسول الله ﷺ ماضيًا في الدعوة إلى الله ﷻ، والجهاد في سبيله، ينتصر تارة، ويدال عليه تارة أخرى، هكذا منذ أن هاجر ﷺ إلى المدينة، ففي مكة كانت دعوة بلا جهاد، وأما في المدينة فكانت دعوة، وجهادًا، فقد أذن الله ﷻ له بالجهاد، وأمره به، فجاهد ﷺ وكانت الحرب بينه، وبين أعداءه سجالًا، ودولًا، وهذه هي سُنَّة الله ﷻ في خلقه.

ولما كان ﷺ في آخر أيامه، وختام عمره، فتح الله ﷻ عليه النصر، والتوفيق، فغزا مكة، وقد كان الكفار أخرجوه منها وقت الهجرة مختفيًا مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه، وكانوا يترصدونه ﷺ، ويترقبونه؛ ليقتلوه، ولكن الله ﷻ نجاه منهم، وخرج ثاني اثنين، كما قال ﷻ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]. وليس معهما إلا دليلهما عبد الله بن أريقط الليثي، فخرجوا ثلاثة، هم: رسول الله ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه، والدليل: عبد الله بن أريقط، وكان كافرًا، ولكن استأجره أبو بكر رضي الله عنه؛ ليدلهما على الطريق.

فلما كان العام الثامن جمع رسول الله ﷺ جيشًا جرارًا يبلغ العشرة آلاف مدججين بالسلاح، قاصدًا مكة بهذا الجيش العظيم في فترة وجيزة، وسنين قليلة، وهكذا الله ﷻ، ينصر رسله؛ كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر: ٥١]. فالنصر، والعاقبة لرسل الله ﷻ، وإن جرى عليهم ما يجري.

خرج رسول الله ﷺ في عشرة ألاف مقاتل، واجتهد أن يخفي عن أهل مكة خروجه ﷺ، وكان ذلك في رمضان، وسبب خروجه ﷺ هو: أن قريشًا قد نقضت العهد الذي كان بينها، وبين رسول الله ﷺ في الحديبية؛ حيث أنها نصرت أحلافها على أحلاف رسول الله ﷺ.

فقد كان لقريش أحلاف وهم: بَنُو الدَّيْلِ من بَنِي بَكْرٍ، والرسول ﷺ له أحلاف، وهم: قبيلة خزاعة، وصارت بين أحلاف الرسول ﷺ، وأحلاف قريش منازعة، فقامت قريش بمناصرة أحلافها على أحلاف الرسول ﷺ، وبذلك انتقض عهدهم، فغزاهم رسول الله ﷺ مختفيًا؛ حتى يفاجأهم، وأتم الله ﷻ له ما أراد، ووصل إلى مكة لابسًا للسلاح، وعلى رأسه المغفر ومعه أصحابه، فدخلوها ﷺ، ونصره الله ﷻ عليهم، وفتح له مكة.

وقد اجتمعت قريش في المسجد الحرام؛ ينتظرون ماذا يفعل بهم رسول الله ﷺ، فخطب رسول الله ﷺ فيهم قائلًا: **«يَا أَهْلَ مَكَّةَ، مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرًا أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»**[1].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ٢٥٨)، والسيرة النبوية لابن كثير (٣/ ٥٧٠)، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٩٩)، وفي معرفة السنن والآثار (١٣/ ٢٩٣).

فعفا عنهم ﷺ مع أنهم أذوه، وضايقوه، وحاربوه، وعادوه طيلة البعثة، ولكنه ﷺ عفا عنهم، فأسلم منهم خلقٌ كثير.

ولما علمت قبائل العرب أن رسول الله ﷺ قد فتح مكة، وأن أهلها قد أسلموا عرفوا عند ذلك أن ليس هناك مفرٌ لهم من اتباع الرسول ﷺ؛ لأنه لما استولى على مكة لم يبق لهم حينئذٍ مدافع.

ودخل الناس في دين الإسلام أفواجًا، أي: جماعات، بدلًا من أن يدخل الناس أفرادًا مختفين خائفين، صاروا يدخلون جماعات معلنين.

وهذا هو معنى قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ أي: فتح مكة[(١)] وأما قوله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا﴾ [الفتح: ١]. هذا في صلح الحديبية[(٢)]، وهو مقدمة لفتح مكة، والفتح هنا المراد به: فتح مكة.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أيها الرسول ﷺ، رأيت الناس، وأبصرتهم، ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: دين الإسلام؛ لأن الإسلام هو دين الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، فالإسلام هو دين الله ﷻ، وما عدا الإسلام فإنه دين الشيطان، وإضافة الدين إلى الله ﷻ إضافة تشريف.

﴿أَفۡوَاجٗا﴾ أي: جماعات كثيرة، ومن كل قبيلة، وجاءت الوفود إلى الرسول ﷺ؛ لمبايعته على الإسلام.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٦٦٨)، وزاد المسير (٤/ ٥٠١)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ١٩٩)، وزاد المسير (٤/ ١٢٥)، وتفسير القرطبي (١٦/ ٢٦١).

وقد أمر الله نبيه حصل ذلك فعلى الرسول ﷺ أن يقابل ذلك بالشكر لله ﷻ، قال ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾، وهكذا يجب على المسلمين إذا انتصروا أن يقابلوا ذلك بالخضوع لله ﷻ، والاستغفار، وأن لا يروا في أنفسهم الْعجب، والفخر، كما تفعل ذلك الدول الكافرة، ومن يقلدهم، فالمسلمون إنما يخضعون لله ﷻ، ويشكرونه، ويحمدونه، وهذا هو الواجب الذي يقابل به نصر الإسلام، والمسلمين، بالتسبيح والتحميد، والتهليل، والتكبير لله ﷻ.

قال ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، جواب الشرط، «إذا»، أي: نزهه عما لا يليق به من الشرك الذي كان المشركون، فنزهه عن الشرك، وعن النقائص والعيوب.

اجمع بين التسبيح، والتحميد، «**سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ**»، «**سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ**»، فيجمع بين هذا، وهذا.

﴿وَٱسْتَغْفِرْهُۚ﴾، اطلب منه ﷻ المغفرة عن التقصير، فإذا كان الرسول ﷺ بحاجة إلى الاستغفار، فنحن بباب أولى، فالرسول ﷺ كان أوفى الناس عبادة، وأوفى الناس بحق الله ﷻ، ولكن حق الله ﷻ عظيم، ولا يستطيع أحد أن يحصي حق الله ﷻ، ولكن الله غفور رحيم، فاطلب منه المغفرة، والمغفرة.

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي آخِرِ وِتْرِهِ: «اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ،

لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[١].

وفي هذا إشارة إلى قرب أجله ﷺ.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْسَطَ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَعَرَفَ أَنَّهُ الْوَدَاعُ فَأَمَرَ بِرَاحِلَتِهِ الْقَصْوَاءِ فَرَحَلَتْ، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ فَذَكَرَ خُطْبَتَهُ الْمَشْهُورَةَ[٢].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ دَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاطِمَةَ وَقَالَ: «إِنَّهُ قَدْ نُعِيتْ إِلَيَّ نَفْسِي» فَبَكَتْ ثُمَّ ضَحِكَتْ وَقَالَتْ: أَخْبَرَنِي أَنَّهُ نُعِيتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فَبَكَيْتُ ثُمَّ قَالَ: «اصْبِرِي فَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لِحَاقًا بِي». فَضَحِكْتُ[٣].

فبهذه السورة عرف رسول الله ﷺ قرب أجله؛ لذلك كان ﷺ يكثر من الاستغفار.

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «مَا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ صَلَاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيهَا: «سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي»»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٢) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأبو داود (١٤٢٧)، واللفظ له، والترمذي (٣٤٩٣)، والنسائي (١٦٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٨١)، وأخرجه البزار في المسند (١٢/ ٢٩٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٥/ ٢٤٧).

(٣) أخرجه الدرامي في سننه (١/ ٢١٦)، والطبراني في الأوسط (١/ ٢٧١)، والكبير (١١/ ٣٣٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٨١).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٦٧).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ قَالَ: نُعِيَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ نَفْسُهُ حِينَ نَزَلَتْ، قَالَ: فَأَخَذَ بِأَشَدِّ مَا كَانَ قَطُّ اجْتِهَادًا فِي أَمْرِ الْآخِرَةِ.

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ: «جَاءَ الْفَتْحُ وَنَصْرُ اللهِ، وَجَاءَ أَهْلُ الْيَمَنِ». فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا أَهْلُ الْيَمَنِ؟ قَالَ: «قَوْمٌ رُقَيْقَةٌ قُلُوبُهُمْ لَيِّنَةٌ قُلُوبُهُمْ، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْفِقْهُ يَمَانٍ»(١).

وقد أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يختبر الصحابة، فكان يجمع أهل بدر، وأكابر الصحابة في مجلسه، واستشارته، وكان يدخل معهم ابن عباس رضي الله عنهما، وكان شابًا صغيرًا، فاندهش البعض من وجود عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ لصغر سنه، فأراد عمر رضي الله عنه أن يُبيِّن لهم فضل هذا الغلام الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى الفقه في الدين، وألهمه التفسير، وأراد أن يبين أنه لم يحابِ ابن عباس في شيء.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «كَانَ عُمَرُ رضي الله عنه يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا الْفَتَى مَعَنَا، وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ مِمَّنْ قَدْ عَلِمْتُمْ، قَالَ: فَدَعَاهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ وَدَعَانِي مَعَهُمْ، قَالَ: وَمَا رُئِيتُهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ مِنِّي فَقَالَ مَا تَقُولُونَ فِي ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾، حَتَّى خَتَمَ السُّورَةَ؟

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٣٤٩)، والفظ له، والطبراني في الكبير (١١/ ٣٢٨)، وأبو يعلى في مسنده (٤/ ٣٨٤)، وانظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٧٠٧)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٣).

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ وَنَسْتَغْفِرَهُ إِذَا نُصِرْنَا وَفُتِحَ عَلَيْنَا. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا نَدْرِي أَوْ لَمْ يَقُلْ بَعْضُهُمْ شَيْئًا.

فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَكَذَاكَ تَقُولُ؟ قُلْتُ: لَا. قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّهُ لَهُ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ①﴾ فَتْحُ مَكَّةَ، فَذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

قَالَ عُمَرُ: «مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَعْلَمُ»[1].

فتبيَّن بذلك فضل ابن عباس رضي الله عنهما وتميزه، وأن عنده من الذكاء، والمعرفة بمراد الله عز وجل ما ليس عندهم.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، وَابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم قَالَا: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ①﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: «يَا جِبْرِيلُ، نَفْسِي قَدْ نُعِيَتْ». قَالَ جِبْرِيلُ: الْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى.

فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ①﴾، معناه -والله أعلم-: أن الله سبحانه وتعالى قد أتم لك الأمر، وجاء الأجل، ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ② فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ③﴾.

فالحاصل: أن هذه السورة فيها عجائب، وفيها البشارة بالنصر، وقد وقع، وفيها الإشارة إلى قرب أجله ﷺ، وقد كان كذلك، فإنه ﷺ ما عاش بعدها إلا قليلًا، ثم توفاه الله سبحانه وتعالى، بعد ما أكمل الله سبحانه وتعالى به الدين، وأتم به النعمة.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٩٤ - ٤٩٧٠).

قال قتادة، ومقاتل: عَاشَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ نزول هذه السورة سنتين(١).

فدَّل على أن الأعمار ينبغي أن تختم بالاستغفار، وطلب المغفرة؛ لأن الإنسان مهما كان عليه من الصلاح، والاستقامة، والعمل الصالح، فإنه مقصرٌ في حق الله سبحانه وتعالى، فيستغفر، وبالتالي: فإن العبد المذنب يجب عليه الاستغفار من باب أولى، ويطلب المغفرة من الله عز وجل، فهذا فيه فضل الاستغفار، وأنه ختام الأعمال الصالحة، وختام العمر، وختام الصلاة الفريضة.

عَنْ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْصَرِفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قَالَ: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ، وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»(٢).

وكذلك يختم العمر بالاستغفار.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/ ٥٠١).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٥، ١٣٦).

الدرس المائة والرابع والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد: ١ - ٥].

بعث الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ برسالته إلى الناس، فدعا إلى الله ﷻ، وجاهد في سبيله منذ أن بعثه الله إلى قبيل فتح مكة، وذلك في السنة الثامنة من الهجرة، وهو ﷺ يدعو، ويجاهد في سبيل الله ﷻ، وقد نصره الله ﷻ في مغازيه، وسراياه، وقد يحصل عليه ﷺ، وعلى أصحابه بعض الهزائم، أو يحصل لهم بعض النكبات في هذه الفترة.

وكان قبل ذلك يدعو إلى الله ﷻ في مكة دعوة مجردة، ليس معها جهاد؛ لأنه ﷺ لم يؤمر بالجهاد؛ لأن حالة المسلمين في مكة لا تتحمل الجهاد، وتبعاته، فكان ﷺ مقتصرًا على الدعوة إلى الله ﷻ، بالرغم مما يلقاه من المعارضات، والتهديدات، والمضايقات، ولكنه ﷺ لم ييأس.

وكان ﷺ يعرض نفسه على القبائل في منازلهم في مِنى وقت الحج، يدعوهم إلى الله ﷻ، ويقرأ عليهم القرآن، ويبلغهم رسالة ربه ﷻ، وأما

أهل مكة فكانوا معادين له أشد العداوة، ومنابذين له أشد المنابذة، إلا من أسلم منهم، لكنه ﷺ صبر، واستمر في الدعوة إلى الله ﷻ.

وقد كان عمه أبو لهب يتابعه، ويكذبه، فيمشي خلفه إذا ذهب يدعو الناس، ويقول لهم: «لا تصدقوه فإنه كذاب»، وكذلك كانت امرأته، وهي: أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان، كانت تقف من رسول الله ﷺ موقف العداوة، والأذى، وتسميه مُذَمَّمًا بدلًا من «محمدًا»[(١)].

وسبب نزول هذه السورة العظيمة: كما جاء **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ** ﷺ، **قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ** ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، **قَالَ: أَتَى النَّبِيُّ** ﷺ **الصَّفَا، فَصَعِدَ عَلَيْهِ، ثُمَّ نَادَى: «يَا صَبَاحَاهْ». فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ، بَيْنَ رَجُلٍ يَجِيءُ إِلَيْهِ، وَبَيْنَ رَجُلٍ يَبْعَثُ رَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **«يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا يَا بَنِي يَا بَنِي... أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، صَدَّقْتُمُونِي؟». قَالُوا: نَعَمْ. مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ». فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟ فَأَنْزَلَ اللهُ** ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾. **إِلَى آخِرِهَا»**[(٢)].

---

(١) كما في الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٥٣٣)، من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا، وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ»**.
وانظر: تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٤)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٠، ٤٨٠١، ٤٩٧١، ٤٩٧٢)، واللفظ له، ومسلم (٣٥٥)، وانظر: تفسير الطبري (١٩/ ٤٠٧ - ٤٠٨)، وزاد المسير (٤/ ٥٠٢)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٥)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٤).

وفي قول أبي لهب: «**تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟**»، تَبَّ، تَبابٌ، أي: خُسْرَانٌ، وتَتْبِيبٌ، أي: تَدْمِيرٌ، فالتَبّ معناه: الخسار، أي: خسارة لك **أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟**، أي: ألهذا الخبر جمعتنا؟ فهو يسخر من رسول الله ﷺ ويحقر خبره.

قال ﷻ ردًا على أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، أي: خَابَتْ، وخَسِرَتْ، وهَلَكَتْ.

ولكنه ﷻ عبر باليدين في قوله ﷻ: ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾؛ لأنهما أداة الكسب والأخذ، والعطاء، وما أشبه ذلك، وقد يُعَبَّرُ باليد عن النفس؛ كما في قوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. أي: نفسك، وإلا فالخسار عائدٌ إليه.

وأبو لهب هو: عَبْدُ الْعُزَّى بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، والْعُزَّى: صَنَم أهل مكة، وكنيته: أبو عتيبة. وإنما سُمِّيَ «أَبَا لَهَبٍ»؛ لِإِشْرَاقِ وَجْهِهِ من حمرته، فكان جميلًا.

وقوله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾، مقابل قوله لرسول الله ﷺ: «تَبًّا لَكَ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا؟»، فصار التباب عليه هو، وليس على الرسول ﷺ.

ثم أخبر الله ﷻ بقوله: ﴿وَتَبَّ﴾، أي: خسر، وهلك، وخاب؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧]

ففيها: دعاء، وخبر، فالدعاء في قوله ﷻ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾، والخبر في قوله: ﴿وَتَبَّ﴾ أي: خاب، وخسر، وهلك.

ثم قال ﷻ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾، فله مال، وله كسب،

لكنه لم ينفعه ذلك مادام على الكفر، فإن الكافر لا ينفعه ماله مهما بلغ، ولا ينفع ولده مهما كثر؛ كما قال ﷻ: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة: ٨٥].

فلم ينفعه ماله، وما كسب من المكاسب الكثيرة من الأرباح، والجاه، وهذا له نظير، وهو ما صح **عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلْتُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ وَإِنَّ أَوْلَادَكُمْ مِنْ كَسْبِكُمْ»**(١).

فأبو لهب كان غنيًا، ولكن هذا الغنى لن ينجيه من عذاب الله ﷻ؛ إذ كفر بالله، وعاند رسوله ﷺ.

وقد رُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ وَذُكِرَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لما دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الْإِيمَانِ، قَالَ أَبُو لَهَبٍ: «إن كَانَ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِي حَقًّا فَإِنِّي أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب الأليم بمالي وولدي». فأنزل الله ﷻ: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾(٢).

ثم إن الله ﷻ قد أخبر خبرًا آخر، فقال ﷻ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا﴾، أي: يقاسي من حرِّها، ونارها.

ثم قال ﷻ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾، هي: **أُمُّ جَمِيلٍ أَرْوَى بِنْتُ حَرْبٍ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ** وكانت عونًا لزوجها أبي لهب على كفره، وجحوده، وعناده؛ لأنها كانت حربًا على رسول الله ﷺ، وتؤذيه أشد الأذى.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٥٨)، وابن ماجه (٢٢٩٠)، وأحمد في المسند (٤٢/ ١٧٦).

(٢) انظر: زاد المسير (٤/ ٥٠٣)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٨٦)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢٣٨).

فقوله: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾، أي: وتبت امرأته مثله.

قوله ﷻ: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾، معناها- والله أعلم-: أنها كانت تمشي بالنَّمِيمَةِ بين الناس، وقيل: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾: أنها كانت تَحْمِلُ الشَّوْكَ، وتطرحه، وتلقيه بالليل في طريق رسول الله ﷺ؛ لتؤذيه بذلك الفعل.

﴿فِي جِيدِهَا﴾، أي: يكون في عنقها يوم القيامة، ﴿وَحَبۡلٌ﴾، أي: قلادة من النار -والعياذ بالله-.

﴿مِّن مَّسَدِۭ﴾، وَالْمَسَدُ هو: اللِّيفُ الَّذِي تُفْتَلُ مِنْهُ الحبا، ولكن المراد به هنا أنه حبل من النار تعذب به.

وهذه السورة من المعجزات؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر أنهما قد خابا، وخسرا، وأن أبا لهب سيصلى نارًا ذات لهب، وامرأته كذلك ستصلى النار مع زوجها، فلم يسلما، وماتا على الكفر.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس المائة والخامس والعشرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

سورة الإخلاص، والمعوذتين هي آخر سور المصحف الشريف، وهي سور عظيمة، وكان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام، نفث في كفيه، ويقرأ هذه السور الثلاث، ثم يمسح بها وجهه، وما استطاع من جسده ﷺ.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[(١)].

فهي سور عظيمة واقية -بإذن الله ﷻ-، ورقية، وفيها فضائل عظيمة.

وأما سورة الإخلاص فسميت بذلك؛ لأنها خلصت بالتوحيد في توحيد

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

الأسماء، والصفات، وقد صح في الأحاديث أنها تعدل ثلث القرآن، أي: في الفضيلة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ»(٢).

وفي رواية: قال له النَّبِيُّ ﷺ: **«حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ»**(٣). فهي سورة عظيمة.

قال ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: قُلْ يا محمد للناس: هو الله أحد.

والأحد معناه: الكامل في ذاته، وأسماءه، وصفاته، لا شريك له ﷻ.

قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، مبتدأ، وخبر، والله اسم الجلالة معناه:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٣، ٦٦٤٣، ٧٣٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، واللفظ له، ومسلم (٢٦٣).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٩/ ٤٢١)، وابن حبان في صحيحه (٣/ ٧٢)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٧٥).

ذو الألوهية، والعبودية على خلقه أجمعين، فهو المعبود ﷻ بحق، ومن عُبِدَ سواه، فهو باطل.

والصمد معناه: الذي تصمد إليه الخلائق، أي: تقصد إليه الخلائق في حوائجها، ومسائلها، فكل الخلائق من الإنس، والجن، والدواب، وكل شيء، فإنه يقصد الله ﷻ في قضاء حوائجه.

وقيل: **الصَّمَدُ** هو: السيد الذي قد كَمُلَ في سُؤْدُدِهِ.

وقيل: **الصَّمَدُ** هو: الشَّرِيفُ الذي قد كَمُلَ في شَرَفِهِ

وقيل: **الصَّمَدُ** هو: الغني بذاته[1] ﷻ، ولا تنافي بين هذه الأقوال؛ لأن كلها تفاسير صحيحة الصَّمَدُ، فالصَّمَدُ يجمع هذه المعني، وأكثر منها.

قال ﷻ: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، أي: ليس له ولد ﷻ؛ لأنه غني عن الولد، قال الله ﷻ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]. فهو ﷻ ليس بحاجة إلى الولد، ولأن الولد جزءٌ من الوالد، وبعضٌ منه، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، أي: ولدًا، والله ﷻ ليس له جزءٌ من خلقه.

وأيضًا: الولد يشارك الوالد، ويشبهه، والله ﷻ لا شبيه له، فمن جميع المعاني فإن الله ﷻ لا يحتاج إلى الولد.

وفي هذا ردٌّ على اليهود الذين يقولون: إن عُزَيْرًا هو ابن الله، وردٌّ على

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٦٩١ - ٦٩٢)، وتفسير ابن كثير (٨/ ٤٩٧ - ٤٩٨)، وتفسير القرطبي (٢٠/ ٢٤٥ - ٢٤٦).

النصارى الذين يقولون: إن المسيح عيسى عليه السلام هو ابْنُ اللَّهِ، ورد على المشركين الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾، ليس له والد سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الأول، فليس قبله شيء، أولٌ بلا بداية، وآخرٌ بلا نهاية.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾، كما يولد البشر، ويوجدون من العدم، فالله جل جلاله أول بلا بداية، وآخر بلا نهاية؛ كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا﴾، وَالْكُفْءُ هو: الشبيه، والمماثل، فالله سبحانه وتعالى ليس له كُفْءُ يكافئه، ويساويه، ويعادله سبحانه وتعالى، فهذا فيه ردٌّ على المشبهة الذين يشبهون الله سبحانه وتعالى بخلقه.

والسورة فيها: ردٌّ على المعطلة الذين يعطلون الأسماء، والصفات، فهو الله الواحد الأحد الصمد؛ وجاء في الحديث أنها: «صِفَةُ الرَّحْمَنِ».

وفي هذه الآية: ردٌّ على المعطلة الذين ينفون الصفات عن الله سبحانه وتعالى.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه.

الدرس المائة والسادس والعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: ١ - ٥].

قال ﷻ: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد: ﴿أَعُوذُ﴾، أي: ألوذ، وأعتصم، وألجأ، ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، الفلق هو: الصبح؛ كما في قوله ﷻ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ [الأنعام: ٩٦].

فهو سبحانه وتعالى الذي يفلق هذه الكائنات، فيفلق الإصباح حين يظهر، ويجلي الليل بضيائه، فهو سبحانه وتعالى الذي يقدر على جلب الصباح، وجلب المساء، قال ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢].

قال ﷻ: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾﴾، أي: من شر جميع المخلوقات؛ لأن

«مَا» من ألفاظ العموم، فتستعيذ بالله ﷻ من شر كل خلقه.

قال ﷻ: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾، الغَاسِق هو: الليل إذا أظلم، فإنه حينئذ تظهر الهوام، والوحوش، ويحصل على الإنسان منها الأضرار، فينبغي على المسلم أن يستعيذ من شر ما يخرج في الليل من السباع، والهوام، والملهيات، ومن الشياطين.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾، وهي: السَّوَاحِرَ اللاتي يسحرن الناس، بأن يعقدن العقد في الخيوط، وينفثن فيها مستعينات في ذلك بالشياطين، فيحصل بذلك السحر الذي هو شرٌ، ومرضٌ، وداءٌ، وضررٌ على الناس.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾، أي: الساحرات، والسَّوَاحِرَ، فقد يكون الساحر من الرجال، وقد سحر النبي ﷺ رجلٌ من اليهود.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾، الحاسد هو: الذي يتمنى زوال النعمة عن المحسود، والحسد شر، وهو يأكل الحسنات.

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ، كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ، أَوْ قَالَ: الْعُشْبَ»(١).

أما الذي يتمنى أن الله ﷻ يعطيه مثل ما عند هذا الإنسان من الخير، فهذا شيء طيب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣)، واللفظ له، وابن ماجه (٤٢١٠)، والبيهقي في الشعب (٩/ ١٠).

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»(١).

فالحاسد ما يضر إلا نفسه؛ لأنه يضيق من عطاء الله سبحانه وتعالى، والله لن يمنع عطاءه عن خلقه، فيلتهب هذا الحاسد دائمًا، فهو في كدر؛ لما يرى من النعم على عباد الله، وهو إنما يضر نفسه، وكان الأولى أن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يعطيه مثلما أعطى إخوانه.

ويدخل في الحاسد: العائن الذي يصيب الناس بنظره، والعين حق.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ، فَإِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ»(٢).

فهي نوع من الحسد، بل هي شر الحسد -والعياذ بالله-. وقد نهى رسول الله ﷺ عن الحسد.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣، ١٤٠٩، ٥٠٢٦، ٧١٤١، ٧٣٦١، ٧٥٢٩)، واللفظ له، ومسلم (٢٦٦ - ٢٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٤٠، ٥٩٤٤)، ومسلم (٤١، ٤٢)، وأبو داود (٣٨٧٩)، والترمذي (٢٠٦١)، وابن ماجه (٣٥٠٨)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٦٤، ٦٠٦٥، ٦٠٦٧)، واللفظ له، ومسلم (٢٣).

فهذه سورة عظيمة، فيها: الاستعاذة من هذه الشرور، وأهلها، ومن استعاذ بالله أعاذه الله ﷻ، وحماه.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

الدرس المائة والسابع والعشرون

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٦].

﴿قُلْ﴾ أي: قُلْ يا محمد: ﴿أَعُوذُ﴾، أي: ألوذ، وأعتصم، والتجأ ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، الربّ هو: المالك الخالق المدبر، والسيد الكامل في سُؤْدُدِهِ(١) سبحانه وتعالى.

والربّ، هو الذي يربي عباده بنعمه، ويغذيهم بها، ويربيهم -أيضًا- بالوحي المنزل، وبالعلم النافع، فهو ربهم بمعنى: أنه مالكهم، وسيدهم ومدبرهم.

﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، جميع الناس من بني آدم.

قال عز وجل: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾، هذه صفة من صفات الله سبحانه وتعالى، فالربّ،

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ١٧٩)، ولسان العرب (١/ ٣٩٩)، وتاج العروس (٢/ ٤٥٩).

والملك من أسماء الله ﷻ، فلا مالك لهم سواه ﷻ، ولا يشاركه أحد في ملكيته للناس جميعًا، فكلهم ملكه ﷻ، وعبيده، وتحت تصرفه، وقهره، ومنهم الأشرار، فاستعذ بالله ﷻ أن يكف عنك هؤلاء الأشرار من الناس؛ لأنه هو ربهم، وهو القادر عليهم.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، فهو المالك ﷻ الذي لا يشاركه أحد، وله الملك المطلق في يوم القيامة.

وأما في الدنيا فإن هناك ملوكًا، لكن ملكهم محدود، وليس مطلقًا، وضعيف بالنسبة إلى ملك الله ﷻ، كما أن ملكهم منحة من الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]. فلا يشابهون ملك الله ﷻ، وأما في الآخرة، فإن الله ﷻ يقول: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر: ١٦].

﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾، هذه الصفة الثالثة، الإله هو: المعبود، والمعبود على قسمين:

القسم الأول: معبود بحق، وهو: الله ﷻ.

والقسم الثاني: وهو: المعبود بالباطل، وهوما سوى الله ﷻ من آلهة المشركين.

وفي هذه السورة نجد أنواع التوحيد الثلاثة مذكورة:

أولًا: توحيد الربوبية، والمتمثل في قوله ﷻ: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

ثانيًا: توحيد الألوهية؛ كما في قوله ﷻ: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾.

ثالثًا: توحيد الأسماء، والصفات في قوله ﷻ: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢﴾.

وكل هذه الاستعاذات تقي من شر الشيطان-لعنه الله-.

قال ﷻ: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾، الْوَسْوَاسِ - بفتح الواو -، وهو: الشيطان، وأما الْوِسْواسِ -بكسر الواو- فإنه مصدر، وسوس، يسوس، وساسًا.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾، هو: الذي يخنس، ويتأخر؛ وذلك لأن الشيطان إذا ذكرت الله ﷻ خنس، وتأخر، وإذا لم يذكر الله، فإنه يوسوس، ويدنو، فهو وساوس مع الغفلة، وخَنّاسِ مع ذكر الله ﷻ.

عَنْ أَنَسٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ وَاضِعٌ خَطْمَهُ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ، وَإِنْ نَسِيَهُ الْتَقَمَ قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ».

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ قَالَ: «يُولَدُ الإِنْسَانُ وَالشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِهِ فَإِذَا عَقِلَ وَذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ وَإِذَا غَفِلَ وَسْوَسَ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ، فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا؟ حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ».

ثم فسر الله ﷻ ذلك بقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، بأن يلقي الوسوسة في قلوبهم، فمن أصابه الوساوس، فليبادر بالاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان، فإنه سيذهب عنه -بإذن الله-.

ولا يلتفت إلى الوساوس، ولا يتأثر به، فما يأتي في خاطر النفس من الوسوسة يحصل لكل إنسان، وقد حصل للصحابة ﷺ، وقد كرهوه.

فإذا كره الإنسان أن يتكلم بالوسوسة، والخواطر السيئة في جانب الله ﷻ، أو في جانب رسوله ﷺ، أو في جانب الدين، فلا يتكلم بها، فهذا علامة الإيمان، وأما إن تكلم بها، فإنها تضره.

وصلى الله، وسلم على نبينا محمد، وآله، وصحبه.

فهرس المصادر والمراجع

* الإبانة الكبرى. المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: ٣٨٧هـ). المحقق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري. الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض. عدد الأجزاء: ٩.

* أبيات مختارة تشتمل على: عقيدة، نصائح، مواعظ، وصايا، حكم، أمثال، أدب. المؤلف: عبد الله بن محمد البصيري. الناشر: مطابع الحميضي. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م. عدد الأجزاء: ١.

* الإتقان في علوم القرآن. المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م. عدد الأجزاء: ٤.

* اجتماع الجيوش الإسلامية. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). تحقيق: عواد عبد الله المعتق. الناشر: مطابع الفرزدق التجارية - الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. عدد الأجزاء: ٢ (الجزء الأول دراسة من المحقق).

* الآحاد والمثاني. المؤلف: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو ابن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ). المحقق: د. باسم فيصل أحمد الجوابرة. الناشر: دار الراية - الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩١. عدد الأجزاء: ٦.

* الأحاديث الطوال. المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ). المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. الناشر: مكتبة الزهراء - الموصل. الطبعة: الثانية، ١٤٠٤ - ١٩٨٣. عدد الأجزاء: ١.

* الأحاديث المختارة أو المستخرج من الأحاديث المختارة مما لم يخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما. المؤلف: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (المتوفى: ٦٤٣هـ). دراسة وتحقيق: معالي الأستاذ الدكتور عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان. الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ١٣.

* أحكام القرآن. المؤلف: أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (المتوفى: ٣٧٠هـ). المحقق: محمد صادق القمحاوي - عضو لجنة مراجعة المصاحف بالأزهر الشريف. الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت. تاريخ الطبع: ١٤٠٥ هـ.

* الاختيارات الفقهية (مطبوع ضمن الفتاوى الكبرى المجلد الرابع). المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني

(المتوفى: ٧٢٨هـ). المحقق: علي بن محمد بن عباس البعلى الدمشقي. الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان. الطبعة: ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٨م.

* أخلاق الوزيرين = مثالب الوزيرين = أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد. المؤلف: أبو حيان التوحيدي، علي بن محمد بن العباس (المتوفى: نحو ٤٠٠هـ). حققه وعلق عليه: محمد بن تاويت الطنجي. الناشر: دار صادر - بيروت، بإذن: المجمع العلمي العربي بدمشق. عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.

* أدب الدنيا والدين. المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ). الناشر: دار مكتبة الحياة. تاريخ النشر: ١٩٨٦م. عدد الأجزاء: ١.

* الأدب المفرد. المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ). المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار البشائر الإسلامية - بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ - ١٩٨٩. عدد الأجزاء: ١.

* الأسماء والصفات للبيهقي. المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ). حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي. قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي. الناشر: مكتبة السوادي، جدة - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م. عدد الأجزاء: ٢.

* أصول الإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول). المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ). المحقق: إسماعيل الأنصاري وغيره. الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية. عدد الأجزاء: ١.

* أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة. المؤلف: محمد بن عبد الرحمن الخميس. الناشر: دار الصميعي، المملكة العربية السعودية. عدد الأجزاء: ١.

* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ). الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان. عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

* إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد. المؤلف: صالح بن فوزان ابن عبد الله الفوزان. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م. عدد الأجزاء: ٢.

* إعراب القرآن. المؤلف: أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ). وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم. الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

* إعلام الموقعين عن رب العالمين. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م. عدد الأجزاء: ٤.

* أعلام النبوة. المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ). الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت. الطبعة: الأول - ١٤٠٩ هـ. عدد الأجزاء: ١.

* إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان. المؤلف: محمد بن أبي بكر ابن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: محمد حامد الفقي. الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية. عدد الأجزاء: ٢.

* الاقتصاد في الاعتقاد. المؤلف: عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، تقي الدين (المتوفى: ٦٠٠هـ). المحقق: أحمد بن عطية بن علي الغامدي. الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م. عدد الأجزاء: ١.

* ألفية ابن مالك. المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ). الناشر: دار التعاون. عدد الأجزاء: ١.

* الأموال لابن زنجويه. المؤلف: أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني المعروف بابن زنجويه (المتوفى: ٢٥١هـ). تحقيق الدكتور: شاكر ذيب فياض الأستاذ المساعد - بجامعة الملك سعود. الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م. عدد الأجزاء: ١.

* أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. المؤلف: عبد الله بن يوسف ابن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ). المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي. الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. عدد الأجزاء: ٤.

* الإيمان لابن منده. المؤلف: أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد ابن يحيى بن مَنْدَه العبدي (المتوفى: ٣٩٥هـ). المحقق: د. علي بن محمد ابن ناصر الفقيهي. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤٠٦. عدد الأجزاء: ٢.

* الإيمان. المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ). المحقق: محمد ناصر الدين الألباني. الناشر: المكتب الإسلامي، عمان، الأردن. الطبعة: الخامسة ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م. عدد الأجزاء: ١.

* البحر المحيط في أصول الفقه. المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد ابن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ). الناشر: دار الكتبي. الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م. عدد الأجزاء: ٨.

* البداية والنهاية. المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م. سنة النشر: ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

* البرهان في علوم القرآن. المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ). المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م. الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه. (ثم صوَّرته دار المعرفة، بيروت، لبنان - وبنفس ترقيم الصفحات). عدد الأجزاء: ٤.

* بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز. المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ). المحقق: محمد علي النجار. الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة. عدد الأجزاء: ٦.

* البعث والنشور للبيهقي. المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ). الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ. تحقيق: الشيخ عامر أحمد حيدر. الناشر: مركز الخدمات والأبحاث الثقافية، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م. عدد الأجزاء: ١.

* بغية الطلب في تاريخ حلب. المؤلف: عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي، كمال الدين ابن العديم (المتوفى: ٦٦٠هـ). المحقق: د. سهيل زكار. الناشر: دار الفكر. عدد الأجزاء: ١٢.

* البلاغة العربية. المؤلف: عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ). الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م. عدد الأجزاء: ٢.

* البيان والتبيين. المؤلف: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: ٢٥٥هـ). الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت. عام النشر: ١٤٢٣ هـ. عدد الأجزاء: ٣.

* تاج العروس من جواهر القاموس. المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ). المحقق: مجموعة من المحققين. الناشر: دار الهداية.

* تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام. المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ). الناشر: المكتبة التوفيقية. عدد الأجزاء: ٣٧.

* تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري. المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ). (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي المتوفى: ٣٦٩هـ). الناشر: دار التراث - بيروت. الطبعة: الثانية - ١٣٨٧هـ. عدد الأجزاء: ١١.

* تاريخ المدينة لابن شبة. المؤلف: عمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة ابن ريطة النميري البصري، أبو زيد (المتوفى: ٢٦٢هـ). حققه: فهيم محمد شلتوت. طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد - جدة. عام النشر: ١٣٩٩هـ.

* تاريخ بغداد. المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ). المحقق: الدكتور بشار عواد معروف. الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م. عدد الأجزاء: ١٦.

* التبيان في إعراب القرآن. المؤلف: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري (المتوفى: ٦١٦هـ). المحقق: علي محمد البجاوي. الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه. عدد الأجزاء: ٢ (في ترقيم مسلسل واحد).

* التبيان في أقسام القرآن. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: محمد حامد الفقي. الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان. عدد الأجزاء: ١.

* التبيان في تفسير غريب القرآن. المؤلف: أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم (المتوفى: ٨١٥هـ). المحقق: د. ضاحي عبد الباقي محمد. الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤٢٣هـ.

* التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد). المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ). الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس. سنة النشر: ١٩٨٤هـ. عدد الأجزاء: ٣٠ (والجزء رقم ٨ في قسمين).

* تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي. المؤلف: أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى (المتوفى: ١٣٥٣هـ). الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. عدد الأجزاء: ١٠.

* التحفة السنية شرح منظومة ابن أبي داود الحائية. المؤلف: عبد الرزاق ابن عبد المحسن البدر. الناشر: مطابع أضواء المنتدى. عدد الأجزاء: ١.

* التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية. المؤلف: فالح بن مهدي بن سعد ابن مبارك آل مهدي، الدوسري (المتوفى: ١٣٩٢هـ). الناشر: مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. الطبعة: الثالثة، ١٤١٣هـ. عدد الأجزاء: ٢.

* التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار. المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ). المحقق: بشير محمد عيون. دار النشر: مكتبة المؤيد - الطائف، دار البيان - دمشق. الطبعة: الثانية، ١٤٠٩ - ١٩٨٨. عدد المجلدات: ١.

* تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي. المؤلف: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر. الناشر: غراس للنشر والتوزيع. الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. عدد الأجزاء: ١.

* تعظيم قدر الصلاة. المؤلف: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (المتوفى: ٢٩٤هـ). المحقق: د. عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. الناشر: مكتبة الدار - المدينة المنورة. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦. عدد الأجزاء: ٢.

* تفسير أسماء الله الحسنى. المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ). المحقق: أحمد يوسف الدقاق. الناشر: دار الثقافة العربية. عدد الأجزاء: ١.

* تفسير أسماء الله الحسنى. المؤلف: أبو عبد الله، عبد الرحمن ابن ناصر بن عبد الله بن ناصر بن حمد آل سعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ). المحقق: عبيد بن علي العبيد. الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. الطبعة: العدد ١١٢ - السنة ٣٣ -١٤٢١هـ. عدد الأجزاء: ١.

* تفسير القرآن العظيم (ابن كثير). المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). المحقق: محمد حسين شمس الدين. الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون - بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤١٩هـ.

* تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم. المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن ابن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ). المحقق: أسعد محمد الطيب. الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثالثة - ١٤١٩هـ.

* تقريب التدمرية. المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى ١٤٢١هـ). الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودسة، الدمام. الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ. عدد الأجزاء: ١.

* التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد. المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي

(المتوفى: ٤٦٣هـ). تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ،محمد عبد الكبير البكري. الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية -المغرب. عام النشر: ١٣٨٧ هـ. عدد الأجزاء: ٢٤.

* تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار. المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ). المحقق: محمود محمد شاكر. الناشر: مطبعة المدني - القاهرة. عدد الأجزاء: ٢.

* تهذيب الأسماء واللغات. المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى ابن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ). عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية. يطلب من: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. عدد الأجزاء: ٤.

* تهذيب اللغة. المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ). المحقق: محمد عوض مرعب. الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م. عدد الأجزاء: ٨.

* توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم. المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى (المتوفى: ١٣٢٧هـ). المحقق: زهير الشاويش. الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٦. عدد الأجزاء: ٢.

* تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ). المحقق: عبد الرحمن ابن معلا اللويحق. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ١.

* ثلاثة الأصول وأدلتها - وشروط الصلاة - والقواعد الأربع. المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ). الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية. رقم الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ. الصفحات: ٤٨. عدد الأجزاء: ١.

* جامع البيان في تأويل القرآن. المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ). المحقق: أحمد محمد شاكر. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ٢٤.

* جامع الدروس العربية. المؤلف: مصطفى بن محمد سليم الغلايينى (المتوفى: ١٣٦٤هـ). الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت. الطبعة الثامنة والعشرون، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

* جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم. المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ). المحقق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م. عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد).

* الجامع الكبير - سنن الترمذي. المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ). المحقق: بشار عواد معروف. الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت. سنة النشر: ١٩٩٨م. عدد الأجزاء: ٦.

* الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه. المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله. المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الناشر: دار طوق النجاة. الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

* جامع بيان العلم وفضله. المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ). تحقيق: أبي الأشبال الزهيري. الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م. عدد الأجزاء: ٢.

* الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي. المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة. الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م. عدد الأجزاء: ٢٠ جزءا (في ١٠ مجلدات).

* الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي. المؤلف: أبو الفرج المعافى بن زكريا بن يحيى الجريرى النهرواني (المتوفى: ٣٩٠هـ) المحقق: عبد الكريم سامي الجندي. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م. عدد الأجزاء: ١.

* الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشِّنقيطي في تفسيره أضواء البيان. جمع : أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي. الناشر : مكتبة ابن عباس، مصر. الطبعة : الأولى ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م. عدد الأجزاء : ٢.

* الجنى الداني في حروف المعاني. المؤلف : أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (المتوفى : ٧٤٩هـ). المحقق : د فخر الدين قباوة -الأستاذ محمد نديم فاضل. الناشر : دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان. الطبعة : الأولى، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م. عدد الأجزاء : ١.

* الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء. المؤلف : محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى : ٧٥١هـ). الناشر : دار المعرفة - المغرب. الطبعة : الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م. عدد الأجزاء : ١

* حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك. المؤلف : أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (المتوفى : ١٢٠٦هـ). الناشر : دار الكتب العلمية بيروت-لبنان. الطبعة : الأولى ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م. عدد الأجزاء : ٣.

* حجة القراءات. المؤلف : عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة (المتوفى : حوالي ٤٠٣هـ). محقق الكتاب ومعلق حواشيه : سعيد الأفغاني. عدد الأجزاء : ١. الناشر : دار الرسالة.

* الحجة في القراءات السبع. المؤلف: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (المتوفى: ٣٧٠هـ). المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الكويت. الناشر: دار الشروق - بيروت. الطبعة: الرابعة، ١٤٠١ هـ. عدد الأجزاء: ١.

* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ). الناشر: السعادة - مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م. عدد الأجزاء: ١٠.

* الحماسة البصرية. المؤلف: علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو الحسن البصري (المتوفى: ٦٥٩هـ). المحقق: مختار الدين أحمد. الناشر: عالم الكتب - بيروت. عدد الأجزاء: ٢.

* الحماسة المغربية مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب. المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي (المتوفى: ٦٠٩هـ). المحقق: محمد رضوان الداية. الناشر: دار الفكر المعاصر - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٩٩١م. عدد الأجزاء: ٢.

* خلق أفعال العباد. المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ). المحقق: د. عبد الرحمن عميرة. الناشر: دار المعارف السعودية - الرياض. عدد الأجزاء: ١.

* الدر المنثور. المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ). الناشر: دار الفكر - بيروت. عدد الأجزاء: ٨.

* درة الغواص في أوهام الخواص. المؤلف: القاسم بن علي بن محمد ابن عثمان، أبو محمد الحريري البصري (المتوفى: ٥١٦هـ). المحقق: عرفات مطرجي. الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٨/ ١٩٩٨هـ. عدد الأجزاء: ١.

* الدرر السنية في الأجوبة النجدية. المؤلف: علماء نجد الأعلام. المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الطبعة: السادسة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م. عدد الأجزاء: ١٦.

* الدعاء للطبراني. المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ). المحقق: مصطفى عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٣. عدد الأجزاء: ١.

* دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني. المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ). حققه: الدكتور محمد رواس قلعه جي، عبد البر عباس. الناشر: دار النفائس، بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م. عدد الأجزاء: ٢.

* دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ). الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤٠٥ هـ. عدد الأجزاء: ٧.

* الدلائل في حكم موالاة أهل الإشراك. المؤلف: سليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: ١٢٣٣هـ). تقديم ومراجعة: الوليد بن عبد الرحمن الفريان. الناشر: مكتبة دار الهداية، الرياض. عدد الأجزاء: ١.

* ديوان ابن مشرف (ط الفلاح). المؤلف: أحمد بن علي بن حسين بن مشرف الوهيبي التميمي. حالة الفهرسة: غير مفهرس. الناشر: مؤسسة مكتبة الفلاح - الإحساء. عدد المجلدات: ١. رقم الطبعة: ٤. عدد الصفحات: ١٩٢.

* ديوان أبي العتاهية. المؤلف: أبو العتاهية. الناشر: دار بيروت. سنة النشر: ١٤٠٦ - ١٩٨٦. عدد الصفحات: ٥١١.

* ديوان الشافعي (ت سليم). المؤلف: محمد بن إدريس الشافعي. المحقق: محمد إبراهيم سليم. الناشر: مكتبة ابن سينا. عدد المجلدات: ١ عدد الصفحات: ١٦٠.

* ديوان زهير بن أبي سلمى. المؤلف: زهير بن أبي سلمى. المحقق: علي حسن فاعور. الناشر: دار الكتب العلمية. سنة النشر: ١٤٠٨ - ١٩٨٨. عدد المجلدات: ١. رقم الطبعة: ١.

* ربيع الأبرار ونصوص الأخيار. المؤلف: جار الله الزمخشري توفي ٥٨٣ هـ. الناشر: مؤسسة الأعلمي، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ. عدد الأجزاء: ٥.

* رسائل في العقيدة للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.

* الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. عدد الأجزاء: ١.

* روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار. المؤلف: محمد بن قاسم بن يعقوب الأماسي الحنفي، محيي الدين، ابن الخطيب قاسم (المتوفى: ٩٤٠هـ). الناشر: دار القلم العربي، حلب. الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ. عدد الأجزاء: ١.

* الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام. المؤلف: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ) المحقق: عمر عبد السلام السلامي. الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت. الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ٧.

* الروض الداني (المعجم الصغير). المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ). المحقق: محمد شكور محمود الحاج أمرير. الناشر: المكتب الإسلامي دار عمار - بيروت، عمان. الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥. عدد الأجزاء: ٢.

* روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل. المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي

(المتوفى: ٦٢٠هـ). الناشر: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع. الطبعة: الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م. عدد الأجزاء: ٢.

* زاد المسير في علم التفسير. المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ). المحقق: عبد الرزاق المهدي. الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

* زاد المعاد في هدي خير العباد. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت. الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م. عدد الأجزاء: ٥.

* الزهد لأبي داود السجستاني. المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث ابن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ). تحقيق: أبو تميم ياسر بن ابراهيم بن محمد، أبو بلال غنيم ابن عباس بن غنيم وقدم له وراجعه: فضيلة الشيخ محمد عمرو بن عبد اللطيف. الناشر: دار المشكاة للنشر والتوزيع، حلوان. الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م. عدد الأجزاء: ١.

* الزهد والرقائق لابن المبارك. المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١هـ). المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. عدد الأجزاء: ١.

* الزهد. المؤلف: أبو السَّرِي هَنَّاد بن السَّرِي بن مصعب بن أبي بكر بن شبر بن صعفوق بن عمرو بن زرارة بن عدس بن زيد التميمي الدارمي الكوفي (المتوفى: ٢٤٣هـ). المحقق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي - الكويت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦. عدد الأجزاء: ٢.

* السنة. المؤلف: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ). المحقق: محمد ناصر الدين الألباني. الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٠. عدد الأجزاء: ٢.

* سنن ابن ماجه. المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي. عدد الأجزاء: ٢.

* سنن أبي داود. المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ). المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت. عدد الأجزاء: ٤.

* سنن الدارقطني. المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي ابن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ). حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي

عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم. الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م. عدد الأجزاء: ٥.

* السنن الصغير للبيهقي. المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ). المحقق: عبد المعطي أمين قلعجي. دار النشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي . باكستان. الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م. عدد الأجزاء: ٤.

* السنن الكبرى. المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ). حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي. أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط. قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١م. عدد الأجزاء: (١٠ و٢ فهارس).

* السنن الكبرى. المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ). المحقق محمد عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنات. الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

* سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي). المؤلف: محمد بن إسحاق ابن يسار المطلبي بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ). تحقيق: سهيل زكار. الناشر: دار الفكر - بيروت. الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م. عدد الأجزاء: ١.

* السيرة النبوية (من البداية والنهاية لابن كثير). المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ). تحقيق: مصطفى عبد الواحد. الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - لبنان. عام النشر: ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٦م.

* السيرة النبوية لابن هشام. المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ). تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م. عدد الأجزاء: ٢.

* شرح (مسائل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب). المؤلف: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان. الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع الرياض. الطبعة: الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠٥م. عدد الأجزاء: ١.

* شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. المؤلف: ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى: ٧٦٩هـ). المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه. الطبعة: العشرون ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠م. عدد الأجزاء: ٤.

* شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. المؤلف: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي (المتوفى: ٤١٨هـ). تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي. الناشر: دار طيبة - السعودية

الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م. عدد الأجزاء: ٩ أجزاء (٤ مجلدات) - الجزء ٩ تجده منفردا باسم: كرامات الأولياء.

* شرح السنة. المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش. الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. عدد الأجزاء: ١٥.

* شرح السنة. المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش. الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م. عدد الأجزاء: ١٥.

* شرح العقيدة الطحاوية. المؤلف: صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ). تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد الله بن المحسن التركي. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. عدد الأجزاء: ٢.

* شرح العقيدة الواسطية، ويليه ملحق الواسطية. المؤلف: محمد بن خليل حسن هرّاس (المتوفى: ١٣٩٥هـ). ضبط نصه وخرَّج أحاديثه ووضع الملحق: علوي بن عبد القادر السقاف. الناشر: دار الهجرة للنشر والتوزيع - الخبر. الطبعة: الثالثة، ١٤١٥ هـ. عدد الأجزاء: ١.

* الشرح الممتع على زاد المستقنع. المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ). دار النشر: دار ابن الجوزي. الطبعة: الأولى ١٤٢٢ - ١٤٢٨ هـ. عدد الأجزاء: ١٥.

* شرح الورقات في أصول الفقه. المؤلف: جلال الدين محمد بن أحمد ابن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعي (المتوفى: ٨٦٤هـ). قدَّم له وحققه وعلَّق عليه: الدكتور حسام الدين بن موسى عفانة. صف وتنسيق: حذيفة ابن حسام الدين عفانة. الناشر: جامعة القدس، فلسطين. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م. عدد الأجزاء: ١.

* شرح ديوان المتنبي. المؤلف: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين (المتوفى: ٦١٦هـ). المحقق: مصطفى السقا/ إبراهيم الأبياري/ عبد الحفيظ شلبي. الناشر: دار المعرفة - بيروت. عدد الأجزاء: أربعة أجزاء في مجلدين.

* شرح ديوان المتنبي. المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ).

* شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب. المؤلف: شمس الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد الجَوجَري القاهري الشافعي (المتوفى: ٨٨٩هـ) المحقق: نواف بن جزاء الحارثي. الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية.

* شرح قطر الندى وبل الصدى. المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى ٧٦١هـ)

المحقق : محمد محيى الدين عبد الحميد. الناشر : القاهرة. الطبعة : الحادية عشرة، ١٣٨٣. عدد الأجزاء : ١.

* شرح كشف الشبهات. المؤلف : محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (المتوفى : ١٣٨٩هـ). المحقق : محمد بن عبد الرحمن بن قاسم. الناشر : طبع على نفقة محمد بن عبد الرحمن بن قاسم. الطبعة : الأولى، ١٤١٩هـ. عدد الأجزاء : ١.

* شرح مشكل الآثار. المؤلف : أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى : ٣٢١هـ). تحقيق : شعيب الأرنؤوط. الناشر : مؤسسة الرسالة. الطبعة : الأولى - ١٤١٥هـ، ١٤٩٤م. عدد الأجزاء : ١٦ (١٥ وجزء للفهارس).

* شعب الإيمان. المؤلف : أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى : ٤٥٨هـ). حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه : الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد. أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه : مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي - الهند. الناشر : مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند. الطبعة : الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣م. عدد الأجزاء : ١٤ (١٣، ومجلد للفهارس).

* شعر الخوارج دراسة موضوعية فنية، دار البشير - عمان (١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م) (١٨٣صفحة). لعبد الرزاق حسين.

* الشعر والشعراء. المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ). الناشر: دار الحديث، القاهرة. عام النشر ١٤٢٣ هـ. عدد الأجزاء: ٢.

* الشفا بتعريف حقوق المصطفى. المؤلف: عياض بن موسى بن عياض ابن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ). الناشر: دار الفيحاء - عمان. الطبعة: الثانية - ١٤٠٧ هـ. عدد الأجزاء: ٢.

* شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان. الطبعة: ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. عدد الأجزاء: ١.

* صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان. المؤلف: محمد بن حبان بن أحمد ابن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ). المحقق: شعيب الأرنؤوط. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤١٤ - ١٩٩٣. عدد الأجزاء: ١٨ (١٧ جزء ومجلد فهارس).

* صحيح ابن خزيمة. المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ). المحقق: د. محمد مصطفى الأعظمي. الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت. عدد الأجزاء: ٤.

* صحيح مسلم - المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري - الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. عدد الأجزاء: ٥.

* صفة الصفوة. المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ). المحقق: أحمد بن علي. الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر. الطبعة: ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ٢.

* طريق الهجرتين وباب السعادتين. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر. الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ. عدد الأجزاء: ١.

* العاقبة في ذكر الموت. المؤلف: عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله ابن الحسين بن سعيد إبراهيم الأزدي، الأندلسي الأشبيلي، المعروف بابن الخراط (المتوفى: ٥٨١هـ). المحقق: خضر محمد خضر. الناشر: مكتبة دار الأقصى - الكويت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ - ١٩٨٦. عدد الأجزاء: ١.

* العزلة. المؤلف: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ). الناشر: المطبعة السلفية - القاهرة. الطبعة: الثانية، ١٣٩٩ هـ. عدد الأجزاء: ١.

* العظمة. المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (المتوفى: ٣٦٩هـ). المحقق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري. الناشر: دار العاصمة - الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤٠٨. عدد الأجزاء: ٥.

* العقد الفريد. المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ). الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ. عدد الأجزاء: ٨.

* العقيدة الواسطية مع شرحها للشيخ صالح الفوزان حفظه الله.

* العقيدة رواية أبي بكر الخلال. المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ). المحقق: عبد العزيز عز الدين السيروان. الناشر: دار قتيبة - دمشق. الطبعة: الأولى، ١٤٠٨. عدد الأجزاء: ١.

* عمل اليوم والليلة سلوك النبي مع ربه ﷻ ومعاشرته مع العباد. المؤلف: أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أسباط بن عبد الله بن إبراهيم بن بُدَيْح، الدِّيْنَوَرِيُّ، المعروف بابن السُّنِّي (المتوفى: ٣٦٤هـ). المحقق: كوثر البرني. الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية ومؤسسة علوم القرآن - جدة / بيروت. عدد الأجزاء: ١.

* عمل اليوم والليلة. المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ). المحقق: د. فاروق حمادة. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤٠٦. عدد الأجزاء: ١.

* فتح الباري شرح صحيح البخاري. المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي. الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.

رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي. قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز. عدد الأجزاء: ١٣.

* الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية. المؤلف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (المتوفى: ٤٢٩هـ). الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت. الطبعة: الثانية، ١٩٧٧. عدد الأجزاء: ١.

* الفروق = أنوار البروق في أنواء الفروق. المؤلف: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ). الناشر: عالم الكتب. الطبعة: بدون طبعة وبدون تاريخ. عدد الأجزاء: ٤.

* فقه الأدعية والأذكار. المؤلف: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر. الناشر: الكويت. الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م. عدد الأجزاء: ٣.

* فيض القدير شرح الجامع الصغير. المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ). الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر. الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ. عدد الأجزاء: ٦.

* القاموس المحيط. المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ). تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي. الناشر: مؤسسة

الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان. الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. عدد الأجزاء: ١.

* قصة الأدب في الحجاز. المؤلف: عبد الله عبد الجبار - محمد عبد المنعم خفاجي. الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية. عدد الأجزاء: ١.

* القضاء والقدر. المؤلف: عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر العتيبي. الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن. الطبعة: الثالثة عشر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م. عدد الأجزاء: ١.

* قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد. المؤلف: محمد بن علي بن عطية الحارثي، أبو طالب المكي (المتوفى: ٣٨٦هـ). المحقق: د. عاصم إبراهيم الكيالي. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان. الطبعة: الثانية، ١٤٢٦ هـ -٢٠٠٥م. عدد الأجزاء: ٢.

* الكامل في اللغة والأدب. المؤلف: محمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ). المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار الفكر العربي - القاهرة. الطبعة: الطبعة الثالثة ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م. عدد الأجزاء: ٤.

* الكامل في ضعفاء الرجال. المؤلف: أبو أحمد بن عدي الجرجاني (المتوفى: ٣٦٥هـ). تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود - علي محمد معوض. شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة. الناشر: الكتب العلمية - بيروت - لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

* كتاب التعريفات. المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ). المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر. الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان. الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م. عدد الأجزاء: ١.

* كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ. المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (المتوفى: ٣١١هـ). المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان. الناشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض. الطبعة: الخامسة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م. عدد الأجزاء: ٢.

* كتاب السبعة في القراءات. المؤلف: أحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي (المتوفى: ٣٢٤هـ). المحقق: شوقي ضيف. الناشر: دار المعارف - مصر. الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ. عدد الأجزاء: ١.

* كتاب العين. المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ). المحقق: د مهدي المخزومي د إبراهيم السامرائي. الناشر: دار ومكتبة الهلال. عدد الأجزاء: ٨.

* الكتاب. المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ). المحقق: عبد السلام محمد هارون. الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة. الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م. عدد الأجزاء: ٤.

* كشاف القناع عن متن الإقناع. المؤلف: منصور بن يونس بن صلاح الدين ابن حسن بن إدريس البهوتى الحنبلى (المتوفى: ١٠٥١هـ). الناشر: دار الكتب العلمية. عدد الأجزاء: ٦.

* الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ). الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ. عدد الأجزاء: ٤.

* كشف الشبهات. المؤلف: محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ). الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ. عدد الصفحات: ٦٠. عدد الأجزاء: ١.

* الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. المؤلف: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ). المحقق: عدنان درويش - محمد المصري. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. عدد الأجزاء: ١.

* الكنى والأسماء. المؤلف: أبو بِشْر محمد بن أحمد بن حماد بن سعيد بن مسلم الأنصاري الدولابي الرازي (المتوفى: ٣١٠هـ). المحقق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي. الناشر: دار ابن حزم - بيروت/ لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ٣.

* اللالئ البهية في شرح العقيدة الواسطية، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، تحقيق عادل بن محمد مرسي رفاعي، دار العاصمة، الرياض

ط ١، ١٤٣١ هـ/ ٢٠١٠ م، مجلدان (الأول =٦٣١ صفحة، الثاني = ٧٣١ صفحة).

* لسان العرب. المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ). الناشر: دار صادر - بيروت. الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ. عدد الأجزاء: ١٥.

* اللمع في العربية. المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ). المحقق: فائز فارس. الناشر: دار الكتب الثقافية - الكويت. عدد الأجزاء: ١.

* ؟؟؟؟؟؟؟ المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي (المتوفى: ٢٩٠هـ). المحقق: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني. الناشر: دار ابن القيم - الدمام. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م. عدد الأجزاء: ٢.

* مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب. المؤلف: محمد بن عبد الوهاب. الناشر: مكتبة ابن تيمية. عدد المجلدات: ١٣.

* متن الآجرومية. المؤلف: ابن آجُرُّوم، محمد بن محمد بن داود الصنهاجي، أبو عبد الله (المتوفى: ٧٢٣هـ). الناشر: دار الصميعي. الطبعة: ١٤١٩هـ-١٩٩٨م. عدد الأجزاء: ١.

* متن شذور الذهب. المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ). الناشر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي. الطبعة: الأخيرة. عدد الأجزاء: ١.

* المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي. المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ). تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة. الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب. الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦. عدد الأجزاء: ٩ (٨ ومجلد للفهارس).

* مجموع الفتاوى - المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ). المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. عام النشر: ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

* مجموع مهمات المتون. الناشر دار الفاروق.

* مجموعة التوحيد (ت: عيون). المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين - محمد بن عبد الوهاب وآخرون. المحقق: بشير محمد عيون. حالة الفهرسة: غير مفهرس. الناشر: مكتبة دار البيان - دمشق. سنة النشر: ١٤٠٧ - ١٩٨٧. عدد المجلدات: ٢. عدد الصفحات: ٨٤٤.

* مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول). المؤلف: محمد بن عبد الوهاب ابن سليمان التميمي النجدي (المتوفى: ١٢٠٦هـ). المحقق: إسماعيل ابن محمد الأنصاري. الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية. عدد الأجزاء: ١.

* مختار الصحاح. المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ). المحقق: يوسف الشيخ محمد. الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا. الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. عدد الأجزاء: ١.

* مختصر الحجة على تارك المحجة. المؤلف: نصر بن إبراهيم المقدسي أبو الفتح. المحقق: محمد إبراهيم محمد هارون. حالة الفهرسة: غير مفهرس. الناشر: أضواء السلف. سنة النشر: ١٤٢٥ - ٢٠٠٥. عدد المجلدات: ٢.

* مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ). المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي. الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م. عدد الأجزاء: ٢.

* مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر (ط. المجمع). المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي. حالة الفهرسة: غير مفهرس. الناشر: مجمع الفقه الإسلامي بجدة - دار عالم الفوائد. سنة النشر: ١٤٢٦. عدد المجلدات: ١. رقم الطبعة: ١. عدد الصفحات: ٥٤٧.

* مستخرج أبي عوانة. المؤلف: أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (المتوفى: ٣١٦هـ). تحقيق: أيمن بن عارف الدمشقي. الناشر: دار المعرفة - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م. عدد الأجزاء: ٥.

* المستدرك على الصحيحين. المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ). تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠. عدد الأجزاء: ٤.

* المستطرف في كل فن مستظرف. المؤلف: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة الثانية، ١٩٨٦. تحقيق: د. مفيد محمد قميحة. عدد الأجزاء: ٢.

* مسند ابن أبي شيبة. المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد ابن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ). المحقق: عادل بن يوسف العزازي وأحمد بن فريد المزيدي. الناشر: دار الوطن - الرياض. الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م. عدد الأجزاء: ٢.

* مسند أبي داود الطيالسي. المؤلف: أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى (المتوفى: ٢٠٤هـ). المحقق: الدكتور محمد ابن عبد المحسن التركي. الناشر: دار هجر - مصر. الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م. عدد الأجزاء: ٤.

* مسند أبي يعلى. المؤلف: أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى ابن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ). المحقق: حسين سليم أسد. الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق. الطبعة: الأولى ١٤٠٤ - ١٩٨٤. عدد الأجزاء: ١٣.

* مسند إسحاق بن راهويه. المؤلف: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن مخلد بن إبراهيم الحنظلي المروزي المعروف بـ ابن راهويه (المتوفى: ٢٣٨هـ). المحقق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي. الناشر: مكتبة الإيمان - المدينة المنورة. الطبعة: الأولى، ١٤١٢ - ١٩٩١. عدد الأجزاء: ٥.

* مسند الإمام أحمد بن حنبل. المؤلف: أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني. الناشر: مؤسسة قرطبة - القاهرة. عدد الأجزاء: ٦. الأحاديث مذيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

* مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار. المؤلف: أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ). المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩). وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧). وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨). الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة. الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م). عدد الأجزاء: ١٨.

* مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي). المؤلف: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ). تحقيق: حسين سليم أسد الداراني. الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ٤.

* مسند الشاميين. المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ). المحقق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ - ١٩٨٤. عدد الأجزاء: ٤.

* مسند الشهاب. المؤلف: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي ابن حكمون القضاعي المصري (المتوفى: ٤٥٤هـ). المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤٠٧ - ١٩٨٦. عدد الأجزاء: ٢.

* المصباح المنير في غريب الشرح الكبير. المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ). الناشر: المكتبة العلمية - بيروت. عدد الأجزاء: ٢ (في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد).

* المصنف في الأحاديث والآثار. المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ). المحقق: كمال يوسف الحوت. الناشر: مكتبة الرشد -الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٠٩. عدد الأجزاء: ٧.

* المصنف. المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ). المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي الناشر: المجلس العلمي- الهند. يطلب من: المكتب الإسلامي - بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤٠٣. عدد الأجزاء: ١١.

* معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول. المؤلف: حافظ ابن أحمد بن علي الحكمي (المتوفى: ١٣٧٧هـ). المحقق: عمر بن محمود أبو عمر. الناشر: دار ابن القيم، الدمام. الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م. عدد الأجزاء: ٣.

* معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود. المؤلف: أبو سليمان حمد ابن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ). الناشر: المطبعة العلمية - حلب. الطبعة: الأولى ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢م.

* معاني القراءات للأزهري. المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ). الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود. المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م. عدد الأجزاء: ٣.

* معانى القرآن للأخفش [معتزلى] المؤلف: أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى: ٢١٥هـ) تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م عدد الأجزاء: ٢.

* معاني القرآن. المؤلف: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (المتوفى: ٢٠٧هـ). المحقق: أحمد يوسف النجاتي/ محمد علي النجار/ عبد الفتاح إسماعيل الشلبي. الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر. الطبعة: الأولى.

* معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. المؤلف: عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد، أبو الفتح العباسي (المتوفى: ٩٦٣هـ). المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الناشر: عالم الكتب - بيروت. عدد الأجزاء: ٢ في مجلد واحد.

* المعجم الأوسط. المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ). المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني. الناشر: دار الحرمين - القاهرة. عدد الأجزاء: ١٠.

* معجم الشيوخ (معجم ابن عساكر). المؤلف: ثقة الدين، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ). المحقق: الدكتورة وفاء تقي الدين. الناشر: دار البشائر - دمشق. الطبعة: الأولى ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ٣.

* المعجم الكبير. المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ). المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي. دار النشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة. الطبعة: الثانية. عدد الأجزاء: ٢٥.

* المعجم الوسيط. المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار). الناشر: دار الدعوة.

* معجم مقاييس اللغة - المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ) - المحقق: عبد السلام محمد هارون - الناشر: دار الفكر - عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. عدد الأجزاء: ٦.

* معرفة علوم الحديث. المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله ابن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ). المحقق: السيد معظم حسين. الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الثانية، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م. عدد الأجزاء: ١.

* المغازي. المؤلف: محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي بالولاء، المدني، أبو عبد الله، الواقدي (المتوفى: ٢٠٧هـ). تحقيق: مارسدن جونس. الناشر: دار الأعلمي - بيروت. الطبعة: الثالثة - ١٤٠٩/ ١٩٨٩ عدد الأجزاء: ٣.

* المفردات في غريب القرآن. المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ). المحقق: صفوان عدنان الداودي. الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت. الطبعة: الأولى - ١٤١٢هـ.

* المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة. المؤلف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ). المحقق: محمد عثمان الخشت. الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م. عدد الأجزاء: ١.

* مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ). المحقق: نعيم زرزور. الناشر: المكتبة العصرية. الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م. عدد الأجزاء: ٢.

* مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها. المؤلف: أبو بكر محمد ابن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ). تقديم وتحقيق: أيمن عبد الجابر البحيري. الناشر: دار الآفاق العربية، القاهرة. الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م. عدد الأجزاء: ١.

* ملحة الإعراب. المؤلف: القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد الحريري البصري (المتوفى: ٥١٦هـ). الناشر: دار السلام - القاهرة/ مصر. الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م. عدد الأجزاء: ١.

* الملل والنحل. المؤلف: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ). الناشر: مؤسسة الحلبي. عدد الأجزاء: ٣.

* المنتخب من مسند عبد بن حميد. المؤلف: أبو محمد عبد الحميد بن حميد بن نصر الكَسّي ويقال له: الكَشّي بالفتح والإعجام (المتوفى: ٢٤٩هـ. المحقق: صبحي البدري السامرائي، محمود محمد خليل الصعيدي. الناشر: مكتبة السنة - القاهرة. الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ - ١٩٨٨. عدد الأجزاء: ١.

* المنتظم في تاريخ الأمم والملوك. المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ). المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م. عدد الأجزاء: ١٩.

* منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية. المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ). المحقق: محمد رشاد سالم. الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م. عدد المجلدات: ٩.

* المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج. المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ). الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت. الطبعة: الثانية، ١٣٩٢. عدد الأجزاء: ١٨ (في ٩ مجلدات).

* الموافقات، المؤلف: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ). المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان. الناشر: دار ابن عفان. الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م. عدد الأجزاء: ٧.

* موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب. المؤلف: خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاويّ الأزهري، زين الدين المصري، وكان يعرف بالوقاد (المتوفى: ٩٠٥هـ). المحقق: عبد الكريم مجاهد. الناشر: الرسالة - بيروت. الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ ١٩٩٦م. عدد الأجزاء: ١.

* موطأ الإمام مالك. المؤلف: مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي. الناشر: دار إحياء التراث العربي - مصر. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي عدد الأجزاء: ٢.

* النبوات. المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ). المحقق: عبد العزيز بن صالح الطويان. الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ٢.

* النحو الوافي. المؤلف: عباس حسن (المتوفى: ١٣٩٨هـ). الناشر: دار المعارف. الطبعة: الطبعة الخامسة عشرة. عدد الأجزاء: ٤.

* نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة. المؤلف: المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (المتوفى: ٣٨٤هـ). عام النشر: ١٣٩١هـ. عدد الأجزاء: ٨.

* نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - ﷺ. المؤلف: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي. الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة. الطبعة: الرابعة. عدد الأجزاء: ١٢ (١١ ومجلد للفهارس).

* نهاية السول شرح منهاج الوصول. المؤلف: عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعيّ، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٧٧٢هـ). الناشر: دار الكتب العلمية -بيروت-لبنان. الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م. عدد الأجزاء: ١.

* النهاية في غريب الحديث والأثر. المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ). الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي. عدد الأجزاء: ٥.

* الوافي بالوفيات. المؤلف: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ). المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى الناشر: دار إحياء التراث - بيروت. عام النشر: ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م. عدد الأجزاء: ٢٩.

* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ). المحقق: إحسان عباس. الناشر: دار صادر - بيروت.

* الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف. المؤلف: محمد ابن سعيد بن سالم القحطاني. تقديم: فضيلة الشيخ عبد الرزاق عفيفي. الناشر: دار طيبة، الرياض - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى. عدد الأجزاء: ١.

فهرس الجزء الثاني

الدرس الستون: [الملك: ١- ١١] ٥
الدرس الحادي والستون: [الملك: ١٢- ٣٠] ١٤
الدرس الثاني والستون: [القلم: ١- ١٦] ٢٧
الدرس الثالث والستون: [القلم: ١٧ - ٤١] ٣٥
الدرس الرابع والستون: [القلم: ٤٢- ٥٢] ٤٣
الدرس الخامس والستون: [الحاقة: ١- ١٨] ٥٢
الدرس السادس والستون: [الحاقة: ١٩- ٥٢] ٦١
الدرس السابع والستون: [المعارج: ١- ١٨] ٧١
الدرس الثامن والستون: [المعارج: ١٩-٣٥] ٨٠
الدرس التاسع والستون: [المعارج: ٣٦- ٤٤] ٩٠
الدرس السبعون: [نوح: ١- ٢٠] ٩٦
الدرس الحادي والسبعون: [نوح: ٢١ - ٢٨] ١٠٩
الدرس الثاني والسبعون: [الجن: ١- ١٠] ١١٥
الدرس الثالث والسبعون: [الجن: ١١- ١٨] ١٢٣
الدرس الرابع والسبعون: [الجن: ١٩- ٢٨] ١٣٢
الدرس الخامس والسبعون: [المزمل: ١-١٤] ١٤٠
الدرس السادس والسبعون: [المزمل: ١٥ - ٢٠] ١٤٩

الدرس السابع والسبعون: [المدثر: ١- ٣٠] ١٥٧
الدرس الثامن والسبعون: [المدثر: ٣١ - ٣٧] ١٦٧
الدرس التاسع والسبعون: [المدثر: ٣٨- ٥٦] ١٧٣
الدرس الثمانون: [القيامة: ١- ١٩] ١٨١
الدرس الحادي والثمانون: [القيامة: ٢٠- ٤٠] ١٨٩
الدرس الثاني والثمانون: [الإنسان: ١ - ١٤] ١٩٧
الدرس الثالث والثمانون: [الإنسان: ١٥- ٣١] ٢٠٧
الدرس الرابع والثمانون: [المرسلات: ١-٢٨] ٢١٧
الدرس الخامس والثمانون: [المرسلات: ٢٩-٥٠] ٢٢٥
الدرس السادس والثمانون: [النبأ: ١- ١٦] ٢٣٣
الدرس السابع والثمانون: [النبأ: ١٧- ٤٠] ٢٤١
الدرس الثامن والثمانون: [النازعات: ١- ٢٦] ٢٤٩
الدرس التاسع والثمانون: [النازعات: ٢٧- ٤٦] ٢٥٦
الدرس التسعون: [عبس: ١ - ٢٣] ٢٦٢
الدرس الحادي والتسعون: [عبس: ٢٤- ٤٢] ٢٧٠
الدرس الثاني والتسعون: [التكوير: ١ - ٢٩] ٢٧٦
الدرس الثالث والتسعون: [الانفطار: ١ - ١٩] ٢٨٦
الدرس الرابع والتسعون: [المطففين: ١ - ٢١] ٢٩٤
الدرس الخامس والتسعون: [المطففين: ٢٢- ٣٦] ٣٠٣
الدرس السادس والتسعون: [الانشقاق: ١ - ٢٥] ٣٠٩

الدرس السابع والتسعون: [البروج: ١ - ١٤] ٣١٩
الدرس الثامن والتسعون: [الطارق: ١ - ١٧] ٣٣٢
الدرس التاسع والتسعون: [الأعلى: ١ - ١٩] ٣٤١
الدرس المائة: [الغاشية: ١ - ٢٦] ٣٥٢
الدرس الحادي بعد المائة: [الفجر: ١ - ١٤] ٣٦٢
الدرس الثاني بعد المائة: [الفجر: ١٥ - ٣٠] ٣٧٦
الدرس الثالث بعد المائة: [البلد: ١ - ٢٠] ٣٩٣
الدرس الرابع بعد المائة: [الشمس: ١ - ١٥] ٤٠٤
الدرس الخامس بعد المائة: [الليل: ١ - ٢١] ٤١٣
الدرس السادس بعد المائة: [الضحى: ١ - ١١] ٤٢٤
الدرس السابع بعد المائة: [الشرح: ١ - ٨] ٤٣٠
الدرس الثامن بعد المائة: [التين: ١ - ٨] ٤٣٥
الدرس التاسع بعد المائة: [العلق: ١ - ١٩] ٤٤١
الدرس العاشر بعد المائة: [القدر: ١ -٥] ٤٤٩
الدرس الحادي عشر بعد المائة: [البينة: ١ - ٨] ٤٥٥
الدرس الثاني عشر بعد المائة: [الزلزلة: ١ - ٨] ٤٦٥
الدرس الثالث عشر بعد المائة: [العاديات: ١ - ١١] ٤٦٩
الدرس الرابع عشر بعد المائة: [القارعة: ١ - ١١] ٤٧٣
الدرس الخامس عشر بعد المائة: [التكاثر: ١ - ٨] ٤٧٧
الدرس السادس عشر بعد المائة: [العصر: ١ - ٣] ٤٨١

الدرس السابع عشر بعد المائة: [الهمزة: ١ - ٩] ٤٨٧
الدرس الثامن عشر بعد المائة: [الفيل: ١ - ٥] ٤٩١
الدرس التاسع عشر بعد المائة: [قريش: ١ - ٤] ٤٩٥
الدرس المائة والعشرون: [الماعون: ١ - ٧] ٤٩٨
الدرس المائة والحادي والعشرون: [الكوثر: ١ - ٣] ٥٠٨
الدرس المائة والثاني والعشرون: [الكافرون: ١ - ٣] ٥١٥
الدرس المائة والثالث والعشرون: [النصر: ١ - ٣] ٥٢٠
الدرس المائة والرابع والعشرون: [المسد: ١ - ٥] ٥٢٨
الدرس المائة والخامس والعشرون: [الإخلاص: ١ - ٤] ٥٣٣
الدرس المائة والسادس والعشرون: [الفلق: ١ - ٥] ٥٣٧
الدرس المائة والسابع والعشرون: [الناس: ١ - ٦] ٥٤١
فهرس المصادر والمراجع ٥٤٥
فهرس الجزء الثاني ٥٩١

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة

مفكرة